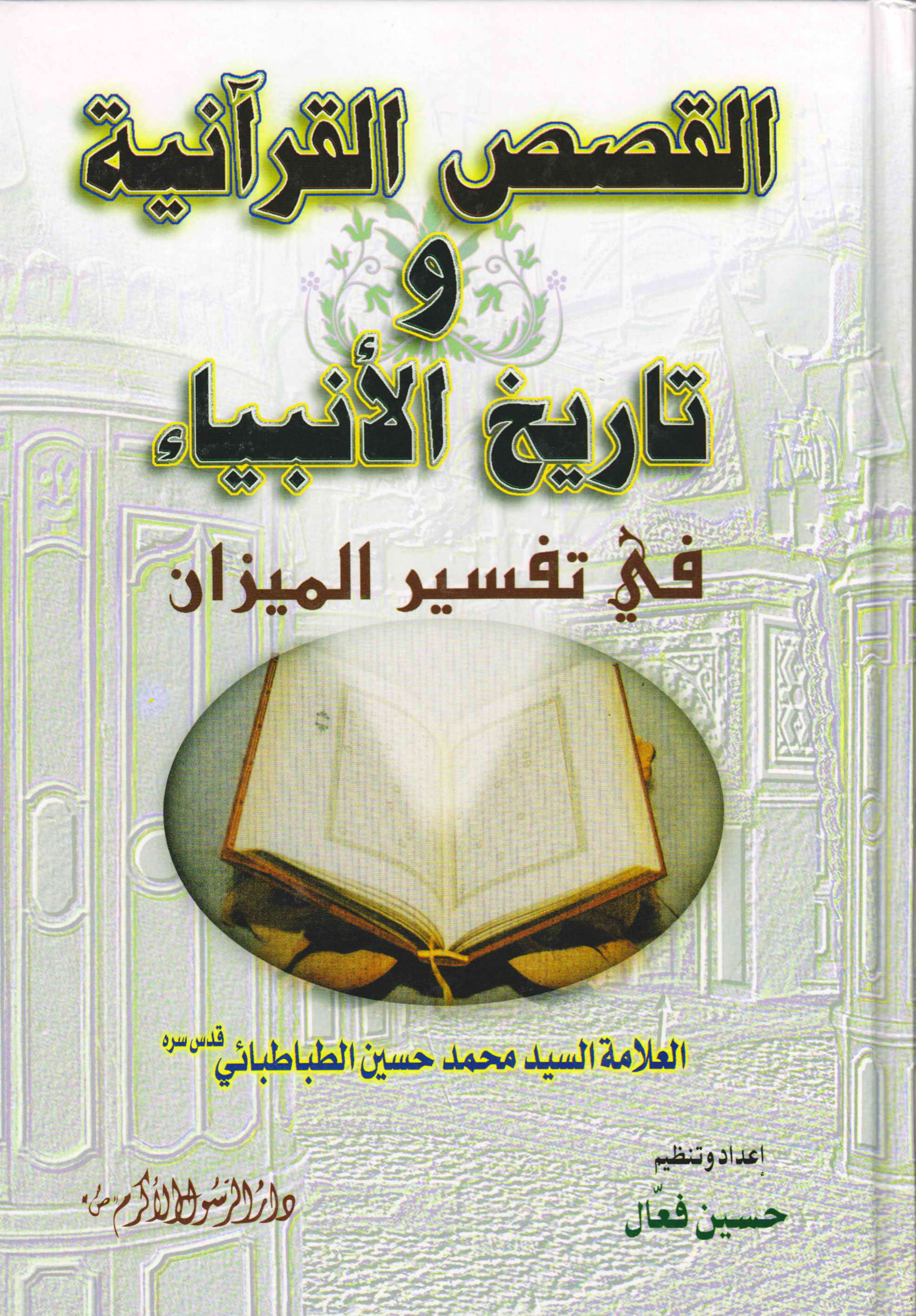

القصص القرآنية
و
تاريخ الأنبياء
في تفسير الميزان
العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره
إعداد وتنظيم
حسين فعّال
دار الرسول الأكرم (ص)



القصص القرآنية
و
تاريخ الأنبياء

في تفسير الميزان

الطبعة الثانية
١٤٢٨ هـ ـ ٢٠٠٧م

دار الرسول الأكرم (ص)

بيروت – لبنان – حارة حريك :خلف البلدية، ص.ب: ١١/٨٦٠١
هاتف : ٠٣/٨١٤٢٩٤ – تلفاكس : ٠١/٥٤١٩٣٠

القصص القرآنية
و
تاريخ الأنبياء
في تفسير الميزان

العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره

إعداد وتنظيم
حسين فعّال

دار الرسول الأكرم (ص)

تمهيد

المنهج القصصي في القرآن

يهدف القرآن الكريم من ايراد القصص والحكايات تأهيل الانسان لاجتياز المنعطفات الضيقة والدهاليز المظلمة وتمكينه من الوصول الى مواطن النور والهداية «غاية الأمر أن متابعة الهدف الأصلي للقصة قد يتطلب في بعض الحالات المناسبة ايراد قصة أو جانب من قصة منتخبة بحجم واسلوب فنّي مناسب، ولكن ليس على أساس سرد القصص والحكايات بل على أساس الابداع في كيفية تقرير الوقائع الثابتة والتي لا لبس فيها»[1].

وينبغي أن يصطلح على هذه الطريقة والاسلوب في نقل القصة والحكاية في القرآن الكريم بالمنهج القصصي في القرآن.

كيفية البدء بالقصة

أحد الأساليب، هو أسلوب بدء القصة، حيث ان التمعّن في القصص القرآنية

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ج ١، ص ١٠٣.

ومقارنتها مع بعضها يقود الى تحديد موارد الاختلاف بين القصص من حيث طريقة البدء بها وتصنيفها الى ما يلي:

أ ـ بعض القصص القرآنية تبتديء بايراد مقدمة، وهذه المقدمة تختلف بحسب الهدف المقصود منها.

١ ـ المقدّمة المشتملة على استفهام تقريري، يثير في نفس القاريء حافزاً لمواصلة تتبع احداث القصة، ومثال ذلك قصة موسى الواردة في سورة طه بدءً بالآية (٩):

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى﴾.

«ومن الواضح ان هذا الاستفهام لا يراد منه تحصيل الخبر لأنه تعالى عالم بجميع الأسرار، بل الغرض منه استفهام تقريري وبعبارة ثانية انه مقدمة للإخبار عن شيء مهم، نظير ما يتداوله الناس في محاوراتهم اليومية حينما يريدون الاخبار عن قضية مهمة فيقولون للسامع: هل سمعت بالقضية الكذائية...؟!»[(١)].

ولا شك ان شروع القصة باستفهام من هذا القبيل مما يثير في نفس القاريء والسامع رغبة في مواصلة الإصغاء للمتحدث ريثما يتمّ حديثه:

«انه نوع من الاستفهام، الغرض منه تهيئة النفوس والآذان لدرك القصة والتشوّق الى سماعها وفهمها»[(٢)].

٢ ـ في سورة (ص) ـ الآيات ١٧ الى ٢٠ ـ تبيّن الآيات ملامح شخصية

---

(١) التفسير الأمثل (نمونه)، ناصر مكارم الشيرازي، طهران، دار الكتب الاسلامية، ج ١٣، ص ١٦٦.

(٢) في ظلال القرآن، ص ٨٥.

داود النبي ﷺ، ومن ثم تعرج على قصة أُخرى ترتبط بالنبي داود من خلال طرح الاستفهام التالي:

﴿هَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ .

ونلاحظ ان هذا الاستفهام يحفز القاريء والسامع على مواصلة القراءة والاستتماع للقصة ومعرفة تفاصيل القضية والحكم الذي أصدره النبي داود بحق المتخاصمين، يقول العلامة الطباطبائي ﷺ في هذا الصدد : والاستفهام للتعجب والتشويق الى استماع الخبر.[1]

٣ ـ وفي سورة الذاريات (الآية ٤٩) تبتديء قصة ضيف ابراهيم بطرح سؤال واستفهام، والجدير بالتأمل هنا ان التساؤل لا يكون بشأن قصة ابراهيم بل بشأن ضيوفه:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ﴾ .

وهذا النوع من الاستفهام يدعو القاريء ويرغّبه بمتابعة فصول القصة، وكأن الآية توحي الى القاريء وتتماشى مع ذهنيته بافتراض انه لما كان عالماً بقصة ابراهيم فلماذا لا يطلع على قصة ضيوفه؟!

ومن هذا القبيل أيضاً قصة جنود فرعون وثمود، حيث تبتديء القصة باثارة الاستفهام حول جنود فرعون وثمود دونهما، وذلك على غرار الاية السابقة.

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ * فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾[2].

فالآية تدعو القاريء أولاً لمتابعة مجريات القصة ووقائعها .

---

(١) الميزان، ج ١٧، ص ٢٩٠.

(٢) البروج : ١٧ ـ ١٨.

وثانياً: «تشير الى قدرة جيوش فرعون وثمود واستعدادها»[١].

٤ ـ وكذلك الحال في سورة الفجر، حيث تبتديء السورة بعد أيمان غليظة وقصيرة، ببيان حال أقوام عاد وثمود وفرعون وذلك عبر طرح الاستفهام التالي:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾.

و«تركيب الاستفهام في سياق كهذا أكثر شدة وتأثيراً في الحث على اليقظة والانتباه»[٢].

٥ ـ وتبتديء قصة أصحاب الفيل باستفهامين تقريريين:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾، أما الكيفية التي تم فيها احباط مسعاهم وابطال كيدهم فان القرآن يستعرضها بهذا الاسلوب الأخّاذ الرهيب، لاحظ:

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾.

ب ـ ثمة قصص وردت في القرآن مع مقدمة قصيرة تتضمن اشارة تمهيدية الى جوهر القصة وقلبها، أو حالتها وكيفيتها وربما سلوك لأحد أبطال القصة البارزين وحديث عن شخصيته وسيرته بعبائر مقتضبة، ويمكن الاشارة في هذا الصدد الى ما ورد في سورة القصص بشأن كفاح موسى عليه السلام ضد فرعون.

١ ـ فقبل ان يبتديء القرآن في هذا القصة بسرد وقائعها، نراه يتطرق في مقدمة تمهيدية لبيان معالم شخصية فرعون ويرسم تصوراً كلياً لدى السامع عن

---

(١) في ظلال القرآن، ص ٢٦٣.
(٢) المصدر السابق.

القصة ونتيجتها وذلك باسلوب غير مباشر الى درجة ان القـاريء يسـتطيع مـن خلال تلك المقدمة أن يحدس جوهر القصة وصورتها الاجمالية.

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾[١].

«هذه المقدمة القصصية تشتمل على عدة حقائق فنية:

١ ـ انها خلاصة عن كل مجريات القصة حيث يكتشف القاريء ان هـذه القصة تدور حول الجدال بين الحق والباطل.

٢ ـ ان القاريء يعرف من خلال هذه المقدمة ان الظفر في النهاية لصـالح موسى عليه السلام وجبهة الحق ضد الباطل.

٣ ـ مقدمة القصة تشير الى مادة هذا الباطل وأساسه وانه هو عـبارة عـن استعلاء فرعون وجعله لأهل الارض شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح ابناء هـم ويستحيي نساءهم..

٤ ـ وأيضاً يكتشف القاريء من خلال هذه المقدمة العوامل التـي تـدعو فرعون الى الفساد «وانه وجنوده كانوا يحذرون من زوال سلطنتهم»[٢].

بعد هذه المقدمة شرع القرآن بسرد قصة موسى عليه السلام بدءاً بطفولته وصدور الأمر الالهي بالقائه في اليمّ ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ...﴾ لينتهي بغرق فرعون وجنوده في

---

(١) القصص: ٤ و ٥.

(٢) اسلوب القصة في القرآن، محمود البستاني: ج ٢، ص ١٥٧.

اليم أيضاً. قال تعالى:

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾.

٢ ـ في سورة (ص) الآيات (١٧ ـ ٢٠) عمد القرآن الى التعريف ببطل القصة (النبي داود عليه السلام) وملامح شخصيته والمزايا التي وهبت له، ومن ثم عرّج الى الاشارة لأحدى قصصه.

ج ـ وثمة صنف ثالث من مقدمات القصص هو عبارة عن قصة مضغوطة يؤتى بها في البداية ومن ثم يصار الى بيان مجرياتها بالتفصيل:

١ ـ ففي سورة الأعراف يبتديء القرآن قصة بدء الخلق وتمكين بني آدم في الأرض بالمقدمة التالية:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

ومن ثم يأخذ القرآن بشرح القصة شرحاً وافياً في خمس عشرة آية (١١ ـ ٢٥) تمثل تفصيلاً للاجمال الوارد في الآية التي أوردناها أعلاه، وعلى النحو التالي:

أولاً: وبعد الاجمال يشار الى ابتداء خلق الانسان وتصويره، وواقعة آدم وسجود الملائكة واباء ابليس وخداع آدم وزوجه وخروجهما من الجنة وسائر الأمور التي قدّرها الله له. وفي ختام القصة موعظة ونصائح لبني آدم عبر أربعة نداءات ﴿يَا بَنِي آدَمَ...﴾.

٢ ـ وفي نفس السورة السابقة (الأعراف) يبيّن القرآن في المقدمة، خلاصة عن قصة موسى عليه السلام وجهاده ضد فرعون وأعوانه. ومن ثم يشرع بذكر وقائع القصة بالتفصيل:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُواْ بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾[١].

فمن خلال الدعوة ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ يسعى القرآن الكريم للفت انتباه القاريء وحثه على مواصلة القصة، أولاً، والمبادرة الى توضيح فشل فرعون وقومه في مسعاهم، والقصة ما زالت في بدايتها «ويبدأ بالتفصيل من قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ...﴾»[٢].

«وهذا البدء هو طريقة من طرق العرض القرآنية للقصة، وهذه الطريقة هي المناسبة هنا لسياق السورة والمحور الذي تدور حوله كما أسلفنا، لأنها تعجّل بالعاقبة منذ اللحظة الأُولى تحقيقياً للهدف الأوّل من سياقتها. ثم تأخذ بالتفصيل بعد الاجمال، فنرى كيف صارت الأُمور الى عاقبتها»[٣].

وفي هذا السياق أيضاً تبشر الآية (١٢٨) على لسان موسى ﷺ بان العاقبة للمتقين، وفي الآيتين ١٣٦ و ١٣٧ لافتتان يرتسم عليهما صورة هذه النهاية المحتومة: غرق فرعون وجنوده، ووراثة مشارق الأرض ومغاربها من قبل المتقين «والمراد مصر والشام».

٣ ـ وفي قصة أهل الكهف، يتطرق القرآن بعد مقدمة موجزة ومجملة لتفصيلات القصة، وتتضمن هذه المقدمة الموجزة الآيات (١٠ ـ ١٢)، حيث تتحدث الأُولى عن لجوء مجموعة من الفتية الى الكهف وأنهم دعوا ربهم ليهييء لهم طريقاً الى الرشد.

---

(١) الأعراف: ١٠٧.

(٢) الميزان، ج ٨، ص ٢٢.

(٣) الميزان، ج ٨، ص ٢٢.

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّىء لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾.

وفي الآية الثانية يشار الى نومهم لسنين متمادية:

﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾.

واما الآية الثالثة فتتعرض لبيان انتباههم من النوم واختلافهم بمقدار المدة التي ناموا فيها:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً﴾.

وبعد هذه المقدمة التي تعدّ أكثر تفصيلاً من سائر المقدمات ليتسنى وضع القاريء أمام صورة اجمالية مستوعبة، ينتقل القرآن الى بيان مجريات القصة على نحو التفصيل ضمن مشاهد ثلاثة.

٤ ـ وبمقدمة كهذه تبدأ قصة يوسف عليه السلام وتفاصيل حياته التي اختصت سورة يوسف ببيانها مفصّلاً. فهذه المقدمة بالإضافة الى ما تنطوي عليه من تحفيز للقاريء على مواكبة أحداثها تتضمن رسم صورة اجمالية وأُفق عام للقصة في ذهن القاريء. وفي الحقيقة انه يمكن القول ان قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ.... إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾، هو بمثابة مقدمة للقصة، بينما يعدّ قوله تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ نهاية معجلة للقصة، وهي في الحقيقة: «شروع في القصة بعد ذكر البشارة التي هي كالمقدمة الملوّحة الى اجمال الغاية التي تنتهي اليها القصة»[1].

د ـ وأحياناً يؤتى بخلاصة للقصة بعد ذكرها بالتفصيل. وهذا ما يمكن أن

---

(١) الميزان، ج ١١ ص ١١٨.

نشهده في المصاديق التالية:

١ ـ وردت قصة عيسى عليه السلام مفصّلة في سورة آل عمران، وفي نهاية القصة، جاءت الآية الكريمة التالية كخلاصة للقصة وبيان لهدفها:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[١].

«وهذه الآية الشريفة تبيّن الهدف الأصلي من ايراد قصة عيسى على نحو الخلاصة، وهي في الواقع اجمال بعد التفصيل وهذا من محاسن الكلام»[٢].

٢ ـ تصدّت الآيات (٥٠ الى ٥٨) من سورة هود لبيان قصة قوم عاد وجدالهم مع النبي هود عليه السلام بنحو التفصيل، ومن ثم أوردت خلاصتان للقصة، الأولى في قوله تعالى:

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾[٣].

والخلاصة الثانية تبدأ من قوله تعالى:

﴿أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾[٤].

ومثل هذا التلخيص نجده في القصة اللاحقة من السورة ذاتها أي قصة قوم ثمود.

---

(١) آل عمران: ٥٩.
(٢) الميزان، ج ٣، ص ٣٣٢.
(٣) هود: ٥٩.
(٤) هود: ٦٠.

هـ : يتفق أحياناً أن تورد القصة بلا تمهيد مقدمة، بل يواجه القاريء فجأة بسرد وقائعها. وهناك موارد عديدة في القرآن الكريم لهذا النوع من القصص .

١ ـ فقصة يونس عليه السلام فس سورة الصافات (الآيات ١٣٩ ـ ١٤٨) تبتديء على النحو التالي :

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ...﴾ .

فالقاريء يصدم مباشرة بالحديث عن بطل القصة النبي يونس عليه السلام قبل أن يكون لديه أي تصور مسبق عنه سوى انه نبي من الأنبياء . مع ضرورة الالتفات الى انّ القصة لا تتعرض لسرد جميع الوقائع المتعلقة بيونس عليه السلام بل تقتصر على ذكر المشهد المرتبط بإباق يونس الى السفينة الآهلة بالركاب ومساهمته في القرعة ووقوعها عليه ومن ثم القائه في البحر .

٢ ـ ونفس الأمر ينطبق على قصة زكريا وولادة ابنه يحيى وحكاية مريم وولادتها لعيسى وكذلك قصص ابراهيم وموسى وحكاية اسماعيل وادريس عليهم السلام ، حيث وردت جميعاً في قصة مريم بدون تمهيد مقدمات، وبالاقتصار على التعريف بشخصيات القصص والاشارة الى بعض ملامحهم وخصائصهم، والأمر يصدق على قصة سليمان مع النمل والهدهد وبلقيس ملكة سبأ .

ان هذا الاسلوب في سرد القصة هو أحد الأساليب المستخدمة في ايراد القصص في القرآن الكريم وتتميز بـ «عرض حالة مفاجئة تكون مشاهدتها من قبل القاريء مما لا يغنيه عن مشاهدة القصة»[1].

---

(١) التصوير الفني في القرآن ، سيد قطب ، ص ٢٥٥ .

والواقع ان الهدف يتحقق في هذه الموارد عبر شحن القصة الى القـاريء فجأة وبدون مقدمات. «وهذه الطريقة ذات تأثير خاص وغالباً ما يعمد الروائيون والسينمائيون الى الاستفادة من هذا الاسلوب عبر وضع القاريء وجهاً لوجه مع الحدث»[1].

اسلوب نقل وقائع القصة

يمكن تصنيف القصص القرآنية الى صنفين رئيسيين في ضـوء الاسـلوب المتبع في نقل وقائع القصة:

١ ـ مراعاة التسلسل الزمني: يوجد في القـصص عـادة تسـلسل زمـني للأحداث والوقائع، بحيث يكون لكل مشهد من مشاهد القصة مقطع زمني خاص وتتابع المشاهد فيها على اساس ذلك التـرتيب والتـتابع الزمـني بـين الوقـائع والأحداث، وبوسعنا القول ان أغلب القصص القرآنية تراعي مبدأ التسلسل الزمني في سردها للوقائع، ويمكن الاشارة في هذا الصدد الى قصة موسى عليه السلام الواردة في سورة القصص، حيث تبتديء القصة من مرحلة ولادة موسى ورضاعته وتتواصل مع تتابع الأحداث زمنياً انتهاءاً بغرض فرعون وجنوده في البحر.

٢ ـ خرق مبدأ التسلسل الزمني: وثمة قصص أُخرى لم يراع فـيها مـبدأ التسلسل الزمني للأحداث، بحيث يبدو فيها تجاهل هـذا المـبدأ بـنحو واضـح

(١) الفن الملتزم (هنر مكتبي)، محسن مخلباف، ص ١٧٥.

ومشهود، وذلك فيما اذا اقتضى سياق الكلام ذلك الخرق وتطلب تقطيع القصة، وتقديم أو تأخير بعض المشاهد على غيرها. وهذا ما يمكن ملاحظته في قصة موسى عليه السلام في سورة طه، وفي قصة أصحاب الكهف أيضاً:

١ ـ قصة موسى عليه السلام التي تكفلت ببيانها الآيات (٩ ـ ٩٩) من سورة طه، تبتديء بذهاب موسى للإتيان بالقبس ليضيء طريقه وطريق أهله من الظلام الدامس، وتواصل القصة سيرها مع الأحداث الى بلوغ موسى مقام النبوة وابلاغه بالأمر الإلهي بالذهاب الى فرعون ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾[1].

هاهنا ينقطع مسلسل الأحداث وتعود القصة الى الوراء وبالتحديد الى زمان طفولة موسى، فيجد القاريء نفسه فجاة أمام مشهد أُم موسى ووجهها المضطرب خوفاً وفرقاً عليه[2].

«ويستفيد القرآن من الزمان الذهني بدلاً من الزمان الخارجي العيني ... ومن ثم يعيد متن القصة الى النقطة التي انقطعت منها ويواصل رواية الأحداث المتعلقة بموسى وعلاقته مع فرعون. هذا التقطيع للتسلسل الزمني ينطوي على أسرار فنية يجب التأمّل والتمعّن فيها واكتشاف يبيّن أهداف القصص وأساليبها»[3].

لعل بذلك يمكن العثور على اجابة لسبب خرق التسلسل الزمني في هذه السورة.

---

(١) هذه الطريقة تتبع كثيراً هذه الأيام في الأعمال المسرحية والسينمائية ويصطلح عليها فنّياً باسم (flash back) = عودة الكاميرا الى الوراء.

(٢) اسلوب القصة للبستاني، ج ٢، ص ١٦ و١٧.

(٣) نفس المصدر، ج ٢، ص ١٦ و١٧.

«ان متن القصة يريد ان يربط بين حالة ذهاب موسى الى فرعون وهو متحمل لعبء الرسالة ومع كبر سنّه وبين تحريره من أيدي فرعون عندما كان صغيراً ... ونتيجة هذه الموازنة ان موسى سينتصر في هذه المعركة أيضاً، وهذه الموازنة في تركيب القصة لها أهمية لا تخفى»[١].

وأيضاً «يتم قطع التسلسل الزمني حين يذكر دعاء موسى وطلبه العون الالهي في حمل الرسالة واجابة دعائه بقوله تعالى : ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى﴾»[٢].

ومن ثم يتم قطع القصة لتذكير موسى عليه السلام باحدى المنن التي منّ الله بها عليه، وذلك حثاً له على الصمود في هذا المهمة الخطيرة، وهذا في حال ان كل القصة جاءت في مقام طمأنة قلوب النبي واتباعه المؤمنين وتبشيرهم بأن النصر في خاتمة المطاف سيكون حليفهم.

٢ ـ كما اشرنا من قبل فان قصة أصحاب الكهف تبتديء بمقدمة تستبطن ملخصاً عن فصول القصة الثلاثة. ومن حيث البنية القصصية تبتديء من وسط الأحداث ومن ثم تغود الى نقطة البداية لتعاود سرد الوقائع حسب تسلسلها الزمني. فالقصة تبتديء من حين لجوء الفتية الى الكهف، وهذا يعني انها تدفع بالقاريء الى داخل الكهف من اللحظة الأُولى .

﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ...﴾[٣].

وفي معرض الاجابة عن السبب في اختيار القرآن للبداية من الوسط

(١) نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٦ و٣٧.
(٢) نفس المصدر، ص ٣٧.
(٣) الكهف : ١٠.

والسرّ الفني في ذلك، ولماذا لم تبتديء القصة ببيان البيئة الالحادية التي كان يعيش فيها هؤلاء الفتية الأبرار، يقول الدكتور محمود البستاني:

«السبب واضح بالطبع، وذلك أنا لو تأملنا قليلاً لوجدنا ان مقدمة سورة الكهف تتحدث حول الاعراض عن زينة الدنيا وزخرفها، وفي ضوء ذلك فان اوضح مصداق للاعراض هو ترك الناس واللجوء الى غار ليس فيه شيء من زينة الدنيا وزبرجها»[١].

٢ ـ والقصة الأُخرى التي تبتدىء بنيوياً من الوسط ومن ثم تعود الى البدء وتنطلق مجدداً في سرد الوقائع والأحداث، هي قصة البقرة في سورة البقرة، ولنورد القصة أولاً ومن ثم نتحدث عن بناءها وتركيبتها:

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُواْ مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ * وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُواْ هَـذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَادْخُلُواْ الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزاً مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ * وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ

---

(١) بحث حول المشاهد الفنية، ج ١، ص ٣٧٣ و ٣٧٤.

اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ * إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَادُواْ وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُواْ مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّن بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَواْ مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ * وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُواْ بَقَرَةً قَالُواْ أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِاللّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُواْ مَا تُؤْمَرونَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاء فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُواْ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ البَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَاء اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ * قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَّ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَّ شِيَةَ فِيهَا قَالُواْ الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ﴾[1].

هذه هي الحادثة الوسطية التي جاءت كبداية للقصة، بينما الحادثة الأُولى بحسب الترتيب الزمني والتي جاءت هنا بعد الحادثة الأُولى فهي:

---

(١) البقرة ٥٤ ـ ٧١.

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[١].

ومن ثم تأتي المرحلة الأخيرة من القصة في قوله تعالى :

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٢].

والواقع ان أصل القصة كانت على هذا المنوال: ان بني اسرائيل يقتلون نفساً ويلقون باللائمة على بعضهم، وتتهم كل طائفة منهم غيرها بارتكاب القتل، الى ان يوحي الله الى موسى بان يطلب من قومه أن يذبحوا بقرة، فيشرع بنو اسرائيل بالمماطلة ويسألون موسى عن تفاصيل دقيقة حول نوع البقرة ولونها، الى أن يعثروا على البقرة المناسبة ويذبحونها، فيأتي الأمر الالهي بضرب جثة القتيل بجزء من بدن البقرة فيحيى القتيل ويشرح لهم تفاصيل الواقعة، لتنتهي القصة بقوله تعالى : ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى ...﴾ وهذا هو المحور والسبب الرئيسي لايراد القصة، وبذلك تكون القصة قد بلّغت رسالتها في آخر فقرة من فقراتها.

يقول العلامة الطباطبائي ﵀ بشأن هذه القصة: انّ طرز البيان القرآني في هذه القصة عجيب .

ومن ثم يشير الى عدم مراعاة التسلسل الزمني في سرد وقائع هذه القصة، ويحاول الاجابة عن السرّ في الابتداء بالقصة من حادث وسطي فيها فيقول :

«انما هي مقدمة توضيحية للخطاب التالي لم يذكر معها السبب الباعث على هذا الأمر والغاية المقصودة منها بل اطلقت اطلاقاً ليتنبه بذلك نفس السامع ويقف

---

(١) البقرة : ٧٢.

(٢) البقرة : ٧٣.

موقف التجسس وتنتشط إذا سمعت الصل القصة ونالت الارتباط بين الكلامين»[١].

وبدوره، يرى الدكتور محمود البستاني ان البعد الفني للقصة يتمثل في هذا التركيب الهندسي، فيقول:

«يريد القرآن ان يلفت انتباه القاريء الى اهمية هذا الشروع ويفهمه انه يشتمل على مفاهيم متميزة على سائر المفاهيم الفرعية»[٢].

المسار التاريخي في القصص

تخضع بعض القصص القرآنية في طريقتها لنقل الحوادث وترتيب الوقائع لمعيار التسلسل الزمني، بينما لا تراعي قصص أُخرى هذا المعيار، غير انه يمكن بحث هذا الصنف من القصص وتصنيفه على أساس المسار التاريخي للقصص في السورة الواحدة.

مراعاة المسار التاريخي في القصة

من بين القصص التي اتخذت خطاً بيانيّاً في سرد الأحداث مراعية فيه المسار التاريخي وتتابع الأحداث، تلك القصص التي تضمنتها سورة هود وتدور بمجملها على محور واحد وتعالج مضموناً محدداً له صلة بقضية التوحيد .

---

(١) الميزان، ج ١، ص ٣٠٣.

(٢) بحث حول المشاهد الفنية للقصة القرآنية، ج ١، ص ٣٧.

والواقع ان السورة بمجملها تدور حول هذا المحور وتشكل قضية التوحيد موضوعها الرئيس، وقد صوّرت السورة انموذجاً واقعياً في الدعوة الى التوحيد ونوّهت بالعواقب الناجمة عن عدم الانقياد لتعاليم الأنبياء، وذلك في قالب قصصي أخّاذ:

«ويتبع القصص في هذه السورة خط سير التاريخ، فيبدأ بنوح ثم هود ثم صالح ويلمّ بإبراهيم في الطريق الى لوط ، ثم شعيب ثم اشارة الى موسى، لأنه يذكر التالين بمصير السالفين على التوالي بهذا الترتيب»[١].

وبالوسع مشاهدة هذا المسار التاريخي في قصص الأنبياء الواردة في سورة الأعراف، حيث روعيت فيها نفس الطريقة التي تمت مراعاتها في سورة الأعراف، حيث روعيت فيها نفس الطريقة التي تمت مراعاتها في سورة هود باستثناء مورد واحد هو قصة ابراهيم الخليل حيث سقطت هذه الحلقة من السلسلة، وأحجمت الآيات الكريمة في سورة الأعراف عن التعرض لسيرة حياة محطم الأصنام عليه السلام. ففي هذا المسار:

««تمضي عجلة التاريخ، فيظلّنا عهد ابراهيم. ولكن السياق لا يأتي هنا بقصة ابراهيم لأنه في معرض مصارع المكذبين . وقوم ابراهيم لم يهلكوا لأن ابراهيم لم يطلب من ربّه هلاكهم، بل اعتزلهم وما يدعون من دون الله . انما تجيء قصة قوم لوط، ابن أخي ابراهيم ومعاصره بما فيها من انذار وتكذيب وإهلاك، يتمشى مع ظل السياق»[٢].

---

(١) في ظلال القرآن، ج ١٣، ص ٣٣.

(٢) المصدر السابق، ج ٨، ص ١٣٠.

أهداف التسلسل التاريخي

ذكر سيد قطب أهدافاً خاصّة لهذا التسلسل التاريخي نشير إليها هنا على نحو الاجمال :

«أولاً: تصوير وحدة العقيدة الاسلامية كلها، فكل رسول يأتي قومه، ليقولها كلمة واحدة لا تتبدل، حتى في ألفاظها... وهذه العبارة الواحدة التي يقولها كل رسول ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ يقولها ويمضي ويتبعه أخوه بعد فترة فيقول الكلمة ذاتها، ويتبعه أخوه.... على ذات النهج الواحد الذي لا يتبدل لأن العقيدة ذاتها لا تتبدل، وصاحبها واحد سبحانه لا يتبدل ، والرسل أُمّة واحدة ذات فطرة واحدة وطبيعة واحدة على مدار التاريخ.

ثانياً : تصوير وحدة طبيعة الايمان ووحدة طبيعة الكفر في نفوس البشر على مدار التاريخ...

ثالثاً : تصوير الغفلة عن النذر ونسيان الموعظة والعبرة وإغفال الشكر على نعمة الاستخلاف في الأرض متحققة في جيل بعد جيل وفي أُمّة بعد أُمّة ، لا تتذكر الأمة الخالفة ما حلّ بالأُمّة السالفة، ولا تشكر على استخلاف الله لها في الأرض بعد مصارع الغابرين ﴿قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ .

رابعاً : تصوير مصارع المكذبين ، تجري على سنة لا تتبدل... وكذلك مضيّ هذا القصص، على التسلسل التاريخي، يحقق هذه الأغراض جميعاً، حسبما يرى الناظر في قصص القرآن مع خط سير التاريخ»[١].

(١) المصدر السابق، ص ١١٧ ـ ١١٩.

خرق المسار التاريخي

هذا المسار التاريخي لم تتم مراعاته في بعض القصص القرآنية «القصص في القرآن لا يُعنى بأن يتتبع الخط التاريخي لأنه لم يقصد به الى التاريخ، كما لم يقصد به الى ذات القصص، انما هو وسيلة تربية وتهذيب وأداة ايضاح وتمثيل... ولكنه أحياناً يتبع الخط التاريخي كما هو الشأن هنا، لأداء غرض معين في سياق معين»[١].

حذف جزئيات القصّة

لما كان القرآن كتاب هداية وارشاد من الظلمات الى النور، وكان الهدف الأساسي فيه هو هداية الناس من الضلالة الى سبل النجاة، فمن الطبيعي ان لا يخوض في جزئيات القصص إلّا بمقدار ما لتلك الجزئيات من دور في هذا الاتجاه (الهداية) واخراج الناس من الظلمات الى النور. وفي ضوء ذلك نرى أن بعض المشاهد القرآنية يتمّ فيها تجاهل الاشارة الى بعض جزئيات القصة وعناصرها، أو يكتفى بالمرور عليها مروراً عابراً، بينما يتمّ الوقوف كثيراً عند تفاصيل وجزئيات أُخرى وذلك تبعاً لما لهذه الجزئيات والتفاصيل من ارتباط بالهدف الأصلي لإيراد القصة في القرآن الكريم.

وفي مقام بيان علة احجام القرآن عن التعرض لجزئيات بعض القصص، يقول العلّامة الطباطبائي ﵀:

---

(١) المصدر السابق، ص ١١٧.

«السبب والعلة واضحة وهي ان القرآن الكريم كتاب دعوة وهداية لا يتخطى عن صراطه ولو خطوة وليس كتاب تاريخ ولا قصة و ليست مهمته مهمة الدراسة التاريخية ولا مسلك الفن القصصي، وليس فيه هوى ذكر الأنساب ولا مقدرات الزمان والمكان، ولا مشخصات أخر لا غنى للدرس التاريخي أو القصة التخييلية عن إحصائها و تمثيلها.

فأي فائدة دينية في أن ينسب إبراهيم أنه إبراهيم بن تارخ بن ناخور بن سروج بن رعو بن فالج بن عابر بن شالح بن أرفكشاذ بن سام بن نوح ؟ أو أن يقال: إنه ولد في أور الكلدانيين حدود سنة ألفين تقريباً قبل الميلاد في عهد فلان الملك الذي ولد في كذا وملك كذا مدة ومات سنة كذا»[١].

ويطرح سيد قطب رأيه في هذا المجال اثناء تفسيره لقصة نوح عليه السلام ، فيقول:

«هل كان الطوفان شاملاً للعالم كله، أو مختص بالمناطق التي يقطن فيها قوم نوح ؟ وأين هذه المناطق وما محلّها من العالم الذي يعش فيه اليوم؟ كل هذه تساؤلات لا يمكن الاجابة عليها إلّا على سبيل الحدس والظن وان الظن لا يغني من الحق شيئاً، والاجوبة الموجودة هي من الاسرائيليات التي لا دليل عليها، ناهيك عن عدم تأثيرها في أهداف القصة القرآنية»[٢].

وعليه، فاللازمان واللامكان احدى خصائص القصص القرآني، وليس هناك دور مهم لهذين العنصرين (الزمان والمكان) في سوق الاحداث، ومن هنا لا داعي للتقصّي عن مكان الواقعة وزمانها إذ القرآن بقصصه يتحرك خارج اطار

---

(١) الميزان، ج ٧، ص ٦٤.

(٢) في ظلال القرآن، ج ١٢، ص ٥٠.

الزمان والمكان، وهذا هو السرّ في مجد القرآن وخلود آياته وقصصه، إذ تجاوز اطر الزمان والمكان ولم يجعل القصة مكراً على قوم أو بلاد معينة، بعد أن كانت تلك القصة انموذجاً يمكن أن يتكرر في أي بقعة ومع أي نوع من بني البشر، وعلى الجميع لذلك أن يعتبروا بها ويتعاملوا معها في ضوء انها مرآة تعكس واقعهم ومصيرهم وعليهم أن يتمعّنوا في دروسها لكي يتاح لهم التمييز بين سبل السعادة والشقاء.

«ثم ان زيادة اللذة والاستفادة الفنية من القصة أو المسرحية (وهذا هو الفرق عن النص العادي) لها ارتباط بمقدار ما يتاح للقاريء أن يكشف من أسرارها بنفسه، وليس بأن يوضح له كل شيء، لأن هذا الأمر يقلّل من فرص الاستفادة الفنية في الكشف والاستنباط العلمي لدى القاريء»[1].

وقد حذفت الكثير من الجزئيات من قصة يوسف عليه السلام، على النحو الذي يمكن للقاريء أن يحدس تلك التفاصيل ويرسم صورتها في ذهنه، فكأن القصة صبّت في قالب فني يساعد القاريء إطلاق سراح ذهنه وفسح المجال أمامه ليستنبط سائر تفاصيل القصة ورتوشها.

مثلاً في الآية (٥٠) حيث يقول يوسف للرسول الذي جاءه من عزيز مصر: ﴿قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وفي الآية التالية يستفسر الملك من نساء البلد عن حقيقة ما جرى بقوله: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ﴾ وواضح جداً ان بين هذين المشهدين حلقات مختزلة، وأن القرآن أعرض عن بيان ان عمال الملك ذهبوا إلى بيوت النساء واحضورهنّ الى بلاط الملك ليوجه

(١) المصدر السابق، ج ١، ص ٢٠٧.

السؤال اليهن.

«لا يخفى ان متن القصة راعى هنا مبدأ الاقتصاد الفني الذي يعدّ ذا أهمية قصوى في الفن القصصي»[١].

وحول حذف الجزئيات في سورة يوسف، يقول الروائي الروسي الشهير (لوي تولستوي) الحائز على مكانة خاصة في الأدب الروائي العالمي:

«اعتمال الحسد في نفس اخوة يوسف بسبب حب أبيه له، وبيعه الى التجار، ومحاولات زليخا لإغرائه وعطف يوسف على اخوته بعد تسنّمه منصباً عالياً في الدولة، هذه وغيرها من القضايا تتضمن أحاسيس متكافئة ومفهومة بالنسبة لمختلف أنواع الناس حضريّهم وبدويّهم وقرويّهم سواء في آسيا أو افريقيا، صغاراً وكباراً، مثقفين وأميّين، كلهم قادرون على فهمها بسبب خلوّها من التعقيد».

ويواصل تولستوي الكلام فيقول:

«ان بعض الكتاب والروائيين ومن أجل تسهيل قصصهم ورواياتهم يعمدون الى ذكر جزئيات كثيرة ترتبط بالزمان والمكان، في حال ان الإكثار من هذه الجزئيات يتسبب في جعل القصة غريبة وصعبة الفهم بالنسبة للافراد الذين لا يعيشون في بيئة مشابهة لبيئة القصة والرواية... والمؤلف لقصة يوسف وخلافاً لما هو المألوف في عصرنا لم يجد ضرورة للتطرق الى الجزئيات كوصف قميص يوسف الملطخ بالدم أو مسكن يعقوب وملبسه، وشكل زليخا وثيابها وكيف شدّت على عضده الأيسر وقالت ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وغيرها من التفاصيل، وذلك ان محتوى

---

(١) المصدر السابق، ص ٣٢٥.

الاحساس في هذه القصة هو من القوة بحيث ان أي تفصيل زائد عن الأمور الأساسية سيكون اضافياً وحائلاً دون تحريك العواطف.

ومن هنا كانت قصة يوسف مفهومة لدى جميع الناس، وتنفذ الى قلوبهم بغض النظر عن انتماءاتهم الطبقية والامية والعمرية والى يومنا هذا، وسوف تبقى خالدة لآلاف السنين. والآن تعالوا وافرغوا أي رواية لأيّ من روائيينا المعاصرين من جزئياتها وتفاصيلها، ما الذي سوف يبقى منها؟!»[1].

التركيز على محطات القصة بحسب اقتضاء المناسبة

بالطبع ان حذف الجزئيات في القصة القرآنية لم يكن أمراً عاماً، ففي موارد عديدة وبحسب ما تلعبه المفردة الجزئية من دور في سياق القصة العام، نرى ان الكاميرا القرآنية تركز على بعض الجزئيات وتبرّزها أكثر من بعض المشاهد العامة في القصة وفصولها الكلية. خذ مثلاً قصة موسى التي تتضمن مشاهد متفاوتة تجد انّ هذا الأمر مشهور جداً. ففي سورة الأعراف وعندما يجري الحديث في قصة كفاح موسى ضد فرعون ويصل الى بيان المحاورات التي تمت بين الاثنين يتفادى القرآن الخوض في الأمور التفصيلية من خصائص العصا واليد البيضاء مكتفياً بالاشارة العابرة الى هاتين المعجزتين، وذلك ان القصة كانت في صدد بيان ردود الفعل المشينة لفرعون واتباعه حيال موسى عليه السلام.

«الملفت للنظر هنا ان النص القرآني يمرّ مروراً عابراً على الوقائع

(١) الدور الديني للفن، لوى تولستوي، ترجمة عزت الله فولادوند، فصلية (هنر)، العدد ٢٦، خريف ١٩٩١، ص ٣٢ و٣٣.

والاحداث في هذه القصة، والأسرار التي تستطيع ان نكتشفها منها هو ان القصة بصدد الحديث عن قوم موسى وقوم فرعون أي بني اسرائيل والأقباط، ولا تتحدث عن موسى والسحرة إلّا بمقدار ما يرتبط بالحديث عن أوضاع قوم فرعون وموسى»[١].

اما في سورة طه فنجد هاتين المعجزتين مذكورتين بصورة اكثر بروزاً وتفصيلاً حيث تكفلت بذلك الآيات من (١٧ ـ ٢٣) واشتملت على وصف دقيق ومفصل لفعل العصا وفزع فرعون من ذلك. والسرّ في هذا ان القرآن يهدف من وراء القصة الى بيان دور المعجزة في نهضة موسى وردود الأفعال التي بدرت في البلاط الفرعوني سواء من فرعون أو السحرة حيال اظهار موسى عليه السلام لمعجزته.

وعليه يمكن ان نستنتج من ملاحظة مجمل موارد حذف الجزئيات أو ابقائها في قصص القرآن الكريم أن القرآن اجتنب عموماً التعرض للتفاصيل الجزئية. «غير ان امساك القرآن وسكوته لم يكن شاملاً لجميع الموارد، بل ثمة موادر يهتمّ القرآن فيها ببيان جزئيات القصة وقد يسكت عن التعرض لنقاط مهمة فيها، كما نشهد ذلك في قصة بلقيس مع سليمان عندما تقدم على عرش سليمان وتتصور ان بينها وبينه ماء فترفع ثيابها لئلا تبتلّ ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾[٢]. وصفوة القول: ان حجم الاهتمام بالجزئيات أو الكليات خاضع لمدى دخلها في ايصال الهدف للقاريء»[٣]، وتلك احدى مزايا القصص القرآني.

---

(١) اسلوب القصة للبستاني، ج ١، ص ٢٤١ ـ ٢٤٢.

(٢) النمل: ٤٥.

(٣) القصة في القرآن، علي گرمارودي، كيهان الثقافي، س، ع ٦ ص ٣٠، ١٩٨٤.

التعامل مع رموز القصة كأنهم حياء

يتعاطى القرآن أحياناً مع وجوه القصة وأبطالها ورموزها وكأنهم احياء، وذلك عبر توجيه الخطاب إليهم مباشرة وعدّ النعم الالهية التي تفضل الله بها عليهم، في حال ان هؤلاء لم يبق منهم إلّا الأثر والذكرى، والهدف من ذلك مثلاً تفهيم اليهود في زمن النبيّ. وتحذيرهم من المصير الذي آل إليه أسلافهم في الماضي ممّن هم يتبعون الآن خطاهم ويقتفون أثرهم في عناد الأنبياء فيكونوا تبعاً لذلك مستحقين للغضب والعذاب الإلهيين. ومن هنا فان القرآن يخاطب بني اسرائيل في زمن موسى بضمير «كم» الخاص بالمخاطب الحاضر بدلاً من الضمير «هم» باعتبار انهم غائبون في عصر نزول القرآن:

﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاء مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾[1].

يقول سيد قطب بشأن هذه القصة:

«ان اعادة التذكير بقصة إنجاء قوم موسى ﷺ على نحو تصوير الحادثة، انما هو لأجل احياء هذه الخاطرة في اذهانهم وتأثيرها في قلوبهم، لذلك فان الكلام مع المخاطبين على نحو كأنهم هم الذين شهدوا فلق البحر يومئذ ونجاة بني اسرائيل بقيادة موسى، وان احياء وجوه القصة يعدّ من أبرز خصائص الاسلوب القصصي القرآني العجيب»[2].

---

(١) البقرة: ٤٩ و ٥٠.

(٢) في ظلال القرآن، ج ٣٠، ص ١٣٧.

القصّة ضمن القصّة

ومن مميزات القصص القرآنية تضمين القصة في قصة أُخرى فيما يعتبر اسلوباً آخر من أساليب القصص في القرآن، وبوسعنا ان نقول ان اتباع هذا الاسلوب في بعض الاعمال الشعرية والأدبية هو تقليد لطريقة القرآن واقتباس منه.[1]

ففي طائفة من القصص، يلجأ القرآن الى ايراد قصة داخل قصة أُخرى، وبهذه الطريقة يربط القاريء به ويدعوه لمتابعة القصة الثانية ضمن متابعته للأُولى، الأمر الذي يمكن أن نشهده في النماذج القرآنية التالية :

١ ـ قصة البقرة التي استدعت ان تسمى سورة بكاملها بهذا الاسم، وتتلخص هذه القصة الفريدة من نوعها في ان موسى أخبر قومه بان الله يأمرهم ان يذبحوا بقرة، فظنوا ان موسى يهزأ بهم، ولكن بعد أن انتبهوا الى أن القضية جدية شرعوا بالاستفسار عن مشخصات وتفاصيل دقيقة لتلك البقرة ولأكثر من مرة وفي خاتمة المطاف نفذوا الأمر بذبح البقرة. وهنا «نجد ان القرآن يبدأ بسرد قصة أُخرى وكأن القصة الأُولى انتهت، ولكن لا يلبث أن يعود الى القصة الأُولى فيقول: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[2].[3]

وهكذا يواصل متابعة القصة حتى يقف على قصة البقرة، وان كانت القصة

---

(١) يمكن الاشارة في هذا الصدد الى ديوان المثنوي للشاعر الدولوي حيث اعتمد هذا الاسلوب في ابداع قصص في منتهى الروعة والجمال ، عبد الحسين زرين كوب : با كاروان حلّه، طهران، ص ٢٣٥.

(٢) البقرة : ٧٢.

(٣) معارف القرآن، محمد تقي مصباح ، قم، مؤسسة في طريق الحق، ص ٤٦٩، ١٩٩٢.

في الآية اعلاه لها صلة بكل قصة البقرة وكان يفترض ان تأتي في بداية القصة الأصلية، ولكن القرآن رجح ايرادها ضمنياً وفي وسط القصة الأصلية وقد اشرنا في البحوث السابقة إلى السر في اعتماد هذا الاسلوب.

٢ ـ وفي سورة آل عمران، تتكفل القصة ببيان وقائع ولادات ثلاث: ولادة مريم وولادة يحيى وولادة عيسى عليهم السلام.

«صور القرآن الكريم قصة زكريا عليه السلام بعد قصة امرأة عمران وفي بداية قصة مريم عليها السلام، وبعبارة أُخرى انه تعرّض لقصة زكريا ضمن بيانه لقصة مريم وفي مطلع القصة حيث كانت مشغولة في العبادة بالمحراب، وهكذا يقطع القرآن تسلسل وقائع قصة مريم ويعود اليها بعد الاشارة الى قصة زكريا»[1].

٣ ـ اما في سورة هود فقد استعرض القرآن سيرة حياة بعض الأنبياء بشيء من التفصيل[2]... «يلمّ السياق في مروره التاريخي بالمستخلفين من عهد نوح وبالأُمم التي بوركت والأُمم التي كتب عليها العذاب. يلمّ بطرف من قصة ابراهيم تتحقق فيه البركات، في الطريق الى قصة لوط الذين مسّهم العذاب الأليم»[3].

٤ ـ والنموذج الآخر لاسلوب (القصة في القصة) نجده في سورة غافر (المؤمن) ففي هذه السورة سلط القرآن الضوء أكثر على ذلك المشهد من سيرة موسى عليه السلام المرتبط بتصدي مؤمن آل فرعون للدفاع عن موسى عليه السلام، ولهذا فقد سميت السورة باسم بطلها، حيث تكفلت ببيان قصة هذا (المؤمن) وتوضيح موقفه

(١) اسلوب القصة، البستاني، ج ٢، ص ١٦٣.
(٢) هود: ٦٩ ـ ٨٣.
(٣) في ظلال القرآن، ج ١٢، ص ٦٥.

البطولي ومحاججته في بلاط فرعون دفاعاً عن موسى عليه السلام[١]. إذ نرى في هذه السورة ان القرآن ينتقل في وسط القصة للاشارة الى قصة يوسف على لسان مؤمن آل فرعون[٢] ومن ثم يعود ويواصل القصة الأصلية.

الجمل الاعتراضية في القصّة القرآنيّة

من المزايا والخصوصيات الأُخرى للقرآن الكريم ايراد بعض الجمل الاعتراضية خلال سرده لوقائع القصة، وهذا هو اسلوب آخر من أساليب القصص القرآني ولا يمثل نقضاً للاسلوب القرآني القصصي العام، وذلك ان القرآن يسعى من خلال ذلك الى لفت الانظار الى هدف معين له ربط بأصل ايراد القصة، وبالتالي فان هذه الجمل الاعتراضية لا تبعد القاريء عن المحور الرئيسي للقصة، بل على العكس يعينه على ادراك المضامين المنشودة من وراء سرد القصة، واليك أمثلة وتطبيقات لهذه الحالة:

١ ـ في سورة الأعراف وفي آخر الآيات المتعلقة بقصة موسى عليه السلام يعرج القرآن الكريم لبيان حادثة عبادة بني اسرائيل للعجل، وفي غضون ذلك يورد القرآن الجملتين الاعتراضيتين التاليتين موجهاً فيهما الخطاب الى الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وآله:

﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ * وَالَّذِينَ عَمِلُواْ السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِن بَعْدِهَا وَآمَنُواْ إِنَّ

---

(١) المؤمن: ٢٣ ـ ٣٦.

(٢) المؤمن: ٣٤.

رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾(١).

والنقطة الجديرة بالاشارة هنا، ان الآيات السابقة على هذه الجمل الاعتراضية كانت تتحدث عن غضب موسى عليه السلام لرؤية قومه عاكفين على عبادة العجل، ومن ثم جاءت هذه الجمل الاعتراضية متضمنة الحديث عن الغضب الالهي في الآخرة تجاه عبدة العجل، بينما اختتمت الآيات اللاحقة بالإشارة الى سكون غضب موسى، وفي ذلك تنويه الى الارتباط بين مجريات القصة ومفاد الجملتين الاعتراضيتين.

٢ ـ لو تابعنا هذه القصة ، فاننا سوف نواجه جملة معترضة أُخرى هي في حكم الاعلانية والبيان.

«وقبل ان يمضي السياق الى مشهد جديد من مشاهد قصة موسى يقف عند هذا البلاغ المبكر، يوجه الخطاب الى النبي الأمي صلى الله عليه وآله يأمره باعلان الدعوة الى الناس جميعاً تصديقاً لوعد الله وتحقيقاً لبلاغه القديم:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(٢).

هذه الآية تتوسط سياق القصة، لأن مساق القصة في القرآن للعبرة والتوجيه . وهنا موضع توجيه قويّ، والمناسبة حاضرة لتسجل على بني اسرائيل ما تضمنته كتبهم، ولتدعوهم ـ مع الناس جميعاً ـ الى الايمان بالرسول النبي الأمي

---

(١) الأعراف : ١٥٢ و١٥٣.

(٢) الأعراف : ١٥٨.

الذي يجدونه عندهم في التوراة والانجيل»[١].

٣ ـ وفي سورة آل عمران تبتديء قصة ولادة مريم بهذا النحو:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى ...﴾[٢].

يقول العلامة الطباطبائي ﷺ بهذا الصدد:

«جملتان معترضتان وهما جميعاً مقولتان له تعالى لا لامرأة عمران ولا أن الثانية مقولة لها والأولى مقولة لله، أما الأُولى فهي ظاهرة لكن لما كان قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى﴾ مسوقاً لإظهار التحسّر كان ظاهر قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ انه مسوق لبيان انا نعلم أنها انثى لكنّا أردنا بذلك انجاز ما كانت تتمنّاه بأحسن وجه»[٣].

٤ ـ اما قصة نوح عليه السلام التي وردت مفصلة في سورة هود، فقد جاء في وسطها بالضبط وأثناء كلام نوح مع قومه، جملة اعتراضية اغتنمها القرآن كفرصة مناسبة للدفاع عن النبي ﷺ وحثّه على الصمود ازاء الافتراءات والتهم التي أُلصقت به من قبل الكفار.

وفي هذا السياق يقول سيد قطب:

«وعند هذا المقطع من قصة نوح، يلتفت السياق لفتة عجيبة، الى استقبال

---

(١) في ظلال القرآن، ج ٩، ص ٦٩ و ٧٠.

(٢) آل عمران: ٣٥ و ٣٦.

(٣) الميزان: ج ٣، ص ١٦٩.

مشركي قريش لمثل هذه القصة، التي تشبه ان تكون قصتهم مع الرسول ﷺ ودعواهم ان محمداً يفتري هذا القصص فيرد هذا القول قبل أن يمضي في استكمال قصة نوح:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرَمُونَ﴾[1].

... وهذا الاعتراض لا يخالف سياق القصة في القرآن، لأنها جاءت لتأدية غرض من هذا في السياق»[2].

٥ ـ ونفس الشيء يقال بالنسبة للآيات (١٦ ـ ٢٧) من سورة العنكبوت والتي تعرّضت لبيان قصص بعض الأنبياء، من قبيل قصة النبي إبراهيم عليه السلام ففي وسط هذه القصة، وبينما كان ابراهيم يحاجج قومه، نواجه قطعاً في السياق الطبيعي للقصة وذلك في الآيات (١٩ ـ ٢٣) التي تمثل جملة اعتراضية يوجّه فيها الخطاب لنبيّنا الأكرم ﷺ، ومن ثم يعاود القرآن مواصلة القصة من حيث قطعت فيأتي على جواب قوم ابراهيم له.

٦ ـ وفي قصة قوم لوط وكيفية نزول العذاب عليهم والتي استحوذت على الآيات (٥١ ـ ٧٦) من سورة الحجر، وبالضبط في أوج القصة لحظة الحديث عن وقوع العذاب، نواجه وقفة في جريان القصة، ويأتي القرآن الكريم على ذكر النبي ﷺ ويقسم به ان هؤلاء الناس في سكرة وحيرة وغفلة وضلالة:

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾[3].

---

(١) هود: ٣٥.

(٢) في ظلال القرآن، ج ١٢، ص ١٤٢ ـ ١٤٣.

(٣) الحجر: ٧٢.

استخدام بعض المصطلحات والحوارات في قصص القرآن

احدى المواضيع المهمة في الفن القصصي استخدام بعض الألفاظ والاصطلاحات الحوارية ما يضفي على القصة طابعاً من الحيوية، وهو الاسلوب الذي اتبعه القرآن في موارد عديدة من بينها قصة يوسف التي وردت على بشكل حوار، ففي الوقت الذي اشتعلت فيه نار الشهوة في نفس زليخا وألقت بنفسها على يوسف لاطفاء هذه النار المشتعلة، اذا هي تصدم برؤية زوجها عند الباب:

﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ...﴾[١].

هنا يحاول العلامة الطباطبائي ﵀ بيان السرّ في استخدام لفظة (سيّد) في هذا الموقع من القصة، يقول:

«المراد بسيّدها زوجها؛ قيل: انه حريٌ على عرف مصر وقد كانت النساء بمصر يلقّبن زوجهن بالسيّد، وهو مستمر الى هذا الزمان»[٢].

اسلوب القرآن في التعاطي مع قصص الحب والغرام

من خلال التمعّن في القصص القرآني نعثر على مختلف أنواع القصص والحكايات، حتى أنّ هناك قصصاً تحدثت عن العشق والجريمة والحسد والخيانة والحقد والكراهية مشتملة على مضامين لا اخلاقية ومنافية للقيم. غير ان اسلوب البيان القرآني لها كان في منتهى العفة والرزانة و«ذلك من خلال الاشارة الرمزية

---

(١) يوسف: ٢٥.

(٢) الميزان: ج ١١، ص ١٩١.

الى هذه المطالب دون الخوض في تصوير ووصف الجزئيات»[١].

ان القرآن يتطرق لهذه القصص المشتملة في ذاتها على مضامين منافية للخلق الرفيع، ولكن بأسلوب نزيه ورصين لا يمكن ان يسفر عن آثار ونتائج سلبية على النطاق التربوي، بل على العكس يؤدي الى تقوية الجانب المعنوي ويمهّد الأرضية لمزيد من التكامل الروحي والانساني.

وها هنا يتبادر الى الذهن التساؤل التالي:

أليس ذكر المسائل الرذيلة والفواحش يوجب بنفسه آثاراً ونتائج سيئة على نفسية القاريء أو السامع؟

وفي معرض الاجابة على هَذا التساؤل لا بدّ من القول انه اذا الهدف «تشخيص العلل وتحديد مناشيء وجذور تلك الفواحش وتقصي اسلوب الحل الأمثل لها، وأحياناً تلقين حقائق أسمى من تلك المسائل الظاهرية، آنذاك لن يكون ذكر تلك الرذائل والفواحش موجباً لتلك الآثار السلبية في نفس القاريء وروحه.

لا شك في ان طرح مباحث حول الجريمة والعنف والخيانة والعشق والغرام لها نتائج روحية ونفسية مهيّجة ومثيرة على مستوى الفرد أو المجتمع، إلّا ان الفن كل الفن في القدرة على الاقتراب من تلك المباحث والموضوعات دون التأثير سلبياً على الفرد والمجتمع ... مبدئياً كان بوسع القرآن أن يتفادى الخوض في تلك المباحث ويكتفي بالتركيز على الدعوة الى الفضيلة، بيد ان القرآن كان يتوخّى

---

(١) الفن والجمالية في قصص القرآن، زهراء رهنورد، صحيفة اطلاعات، العدد (١٨٠٣٠)، س ٨٦، ص ٦.

الجانب الاعجازي في كل جانب من جوانبه»[١].

حين يتناول القرآن هذه القصص «يتبيّن مدى حرصه على التزام جانب العفاف في اسلوب التناول بحيث لو وصل الى منعطفات جنسية وعشقية نراه يبوح بما يمكن البوح به دون ان يميل مقدار انملة عن جادة العفاف»[٢].

«هذا القصص لم تورد لاثارة شهوة القاريء أو السامع واشباع ميوله الجنسية، على خلاف الاسلوب الرائج والمضلّل في تأليف القصص حتى الواقعية والطبيعية منها، لا لشيء إلّا لاثارة القاريء وتهييجه وسوقه نحو الانحراف»[٣]. حتى اننا نجدهم يبرّرون كل سلوك وتصرف لا اخلاقي يقوم به البطل الى الحد الذي يتأثر القاريء ويكاد يميل الى تأييد سلوك بطل القصة وعدّه مثالاً يحتذى به. ومن الواضح ان نتاجات من هذا القبيل تؤتي ثماراً معكوسة وتمهد السبيل للانحراف و «حاشا للقرآن أن يقترب من هذه الدائرة أو أن يحوم على أطرافها»[٤].

١ ـ قصّة يوسف وزليخا

يشتمل القرآن الكريم على طائفة من القصص المتضمنة لمسائل ذات صلة بالجنس والغرام، ولكن القرآن لا يتطرق الى مسائل من هذا القبيل إلّا «في قالب

---

(١) المصدر السابق.
(٢) التفسير الموضوعي للقرآن، جعفر سبحاني، اصفهان، ج ١، ١٩٨١، ص ٢٨٥.
(٣) اسلوب التربية الاسلامية، محمج قطب، ص ٢٧٣.
(٤) المصدر السابق، ص ٢٨٦.

رمزي لطيف»[١]. ومن جملة هذه القصص قصة الحب بين زليخا ويوسف، والتي احتلّت موقعاً متميزاً ضمن قصة يوسف بإطارها العام والتي سميت السورة باسمها، «وهي القصة التي تتعرض لبيان حكاية عشق ناريّ لامرأة فاتن قادها الهوس نحو شاب عفيف.

حينما يواجه الروائيون موقفاً كهذا لا يجدون مناصاً من سلوك أحد طريقين، اما ان يطلقوا العنان لأقلامهم في تصوير تفاصيل المشهد حتى لو انجرّ ذلك الى استخدام تعابير وأوصاف متهيّجة ومنافية للعفة والأخلاق، أو أن يتفادوا تماماً التعرض الى مشاهد من هذا القبيل ويبقى القاريء امام حكاية مجملة ومبهمة... غير ان القرآن يظهر بعده الاعجازي في مثل هذه الموارد فنراه يتصدى لبيان هذه المواقف الحرجة وباسلوب بياني يجمع بين دقة الوصف وعفة البيان، ولا يتهرب من ذكر الوقائع والتفاصيل بل يظهرها على وجه لا يخلّ بالاصول الأدبية والأعراف الإخلاقية[٢] ومن هنا نجد ان القرآن الكريم صرّح في بداية سورة يوسف بأنّ هذه القصة هي أحسن القصص، قال: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾[٣].

«ولقد بيّن القرآن قصة يوسف بأحسن أسلوب، وذلك انه تعرض لبيان قصة عشق وغرام على وجه لا يمكن ان يؤتى فيه قصة كهذه بنحو اكثر ستراً وعفافاً»[٤].

---

(١) اهداف واساليب القصص القرآني (فارسي)، محمد رضا سنكري، ص ٤٦.
(٢) التفسير الأمثل، ناصر مكارم شيرازي، ج ٩، ص ٣٧٩.
(٣) يوسف : ٣.
(٤) الميزان، ج ١١، ص ١٠٢.

والآن نورد هذا المشهد القرآني من قصة يوسف ﷺ وذلك بغية التمكن من ملاحظة النكات الفنية والجمالية والظرائف الادبية والأخلاقية الواردة بـاسلوب جزيل وبيان جميل، ولنطلق عنان ألسنتنا في تمجيد هذا الاعجاز الفني والثـنـاء عليه.

القصة تبتديء بالشمهد القرآني التالي:

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

الآية أعلاه تعدّ من الموارد المهمة الواردة في القصة والتي استرعت اهتمام علماء المسلمين ومفسريهم. وحول هذه القصة والجانب الفني فيها وقدرة القرآن على معالجة قضية جنسية دون خرق حجاب العفة، يقول الاستاذ جعفر السبحاني:

«ان التمعّن في مضمون الآية ومفادها يـقودنا الى مـعرفة رصـانة البـيان القرآني وعفته ... وأدناه نورد بعض نكاتها:

١ ـ لفظة (راود) تستخدم في اللسان العربي للتعبير عن الحاجة المشفوعة باصرار شديد. وهذا يكشف عن ان زوجة العزيز كانت مصرّة على تلبية يوسف لدعوتها، ولكن مراعاة العفة في البيان منعت القرآن من تـصوير مـفردات هـذا الإصرار.

٢ ـ عزف القرآن عن التصريح باسم الطرف المصرّ ولم يورد اسم زليخا أو زوجة العزيز واكتفى بوصف ﴿الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾، وعبر ايضاح سلطنة صاحبة البيت على يوسف واصرارها عليه، أشار القرآن بلغة الرمز الى مدى ثبات يوسف

(١) يوسف: ٢٣.

وصموده امام الإغراء.

٣ ـ عبارة ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾ أوضحت جانب الخلوة في موضوع العلاقة ولكن باسلوب غير صريح.

٤ ـ جملة ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ هي قمة المشهد الاغرائي الذي تقوم به سيدة البيت لترغيب يوسف بالاقدام، ولكن لاحظ مدى متانة العبارة وقوة ادائها للمعنى دون اثارة للقاريء أو السامع»[١].

ولم يغفل كبار المفسرين المسلمين الجانب الفني الاعجازي في هذه الآية، ومنهم العلّامة الطباطبائي في تفسيره الكبير (الميزان) حيث يصرّح بالقول:

«هذه الآية الشريفة في عين القصر والاختصار اشتملت على اجمال قصة المراودة بحيث يمكن ادراك تفاصيلها من خلال التأمل في القيود المذكورة فيها وملاحظة سياق الآية وسائر جوانب القصة الواردة في السورة»[٢].

ولنتابع مجريات القصة:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾[٣].

في الآية أعلاه، وفي عبارات موجزة وجزلة يضخّ القرآن الكريم واحداً من أجمل المشاهد وأكثرها حساسية، وذلك باسلوب اخلاقي متين لا يسوق السامع نحو الرذيلة والميول الشهوانية.

---

(١) التفسير الموضوعي للقرآن، ج ١، ص ٢٦٨.
(٢) الميزان، ج ١١، ص ١٦١.
(٣) يوسف : ٢٤.

«وعلى أي حال ، فان القرآن الكريم يستخدم عبارات قليلة في الاشارة الى سلوك منحرف بأدق تعبير دون بيان الجزئيات أو تصوير اللقطات المثيرة في المشهد : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ .

انّ هذا المقطع هو تسليط لأضواء كاشفة على الحالة الروحية لسيّدة فاسدة، وفي نفس الوقت اشارة الى تدفق الحالة الايمانية في روح شاب ملتزم، مع اخفاء سائر التفاصيل وجزئيات الحدث التي صاحبت هي الحركة الشهوانية، وذلك ان هذه الكلمات القصيرة قد أدت الغرض والمراد ولا حاجة للخوض في التفاصيل والجزئيات»[1].

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ...﴾[2].

لقد اشتعلت نار الشهوة في فؤاد زليخا وسرت في أنحاء وجودها، الى الحد الذي فقد فيه السيطرة تماماً على نفسها ولم تعد تفكر بشيء سوى اشباع نزوتها . هذه الحالة تجد وصفها الدقيق بعبارة قرآنية موجزة ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ...﴾ لقد تشبّثت به من الخلف للحؤول دون خروجه من البيت وايقاعه في شراكها لعلّه يميل إليها ويطفيء نار شهوتها .

أما الآيات اللاحقة فإنّها تتكفّل بيان موقف عزيز مصر من يوسف وزليخا عندما فاجأها عند الباب، والمكر الذي لجأت إليه زليخا دفاعاً عن نفسها أمام زوجها ومن ثم شهادة الذي هو من أهله بشأن حقيقة ما جرى .

---

(١) الفن والجمالية في قصص القرآن ، زهراء رهنورد، صحيفة اطلاعات، العدد (١٨٠٣٠)، س ٨٦، ص ٦.

(٢) يوسف : ٢٥.

هنا يسدل الستار على المشهد الأوّل، ويرفع مرة أُخرى ليتجلّى لنا المشهد الذي يليه والمتعلّق بوصول هذا النبأ الغريب الى نسوة المدينة والقائهن باللوم على زليخا:

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا...﴾[1].

الاعجاز اللفظي هو أحد النقاط اللافتة للنظر في هذه القصة. فالقرآن «ينتقي جميع الألفاظ والكلمات بدقة واهتمام»[2]، وذلك لضمان محافظة الكلمات على مفهومها ومعناها في نفس الوقت الذي تؤدي فيه رسالتها الاخلاقية، مع مراعاة العفة والأدب في عملية تركيب مزجي بين متانة البيان وفصاحته ودقته في نقل المعنى، بحيث يكون الاتيان بأي كلمة أخرى مما يؤدي الى التضحية باحد الأمرين البتة. ولفظة «شغف» في قوله تعالى على لسان النسوة ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا...﴾ مثال بارز في هذا المضمار.

ويشير الدكتور شريف ﷺ الى الوزن المعنوي لهذه الكلمة، فيقول:

«توجد في اللغة العربية عدّة كلمات تعطي معنى الحب والمودة من قبيل: حب، ولع، عزم، عشق، غرم، وامثالها، وكل واحدة من هذه الكلمات تعبّر عن مرحلة من مراحل الحبّ، ف«ودّ» لها موقع خاص و«أحبّ» لها موقع ثانٍ وهكذا، وكذلك شغف فانها ليست خارج هذا الاطار...

ويقول اللغويون: ان لفظة «شغف» تعبّر عن الحب اذا بلغ درجة لا يكترث

(١) يوسف: ٣٠.

(٢) المصدر السابق.

صاحبه بعدها اذا وقع في الفضيحة أم لا، ويريد أن يحصل على مراده كائناً ما كان الثمن»[1].

والنكتة الأُخرى الحائزة على الاهتمام هي ان القرآن لم يستخدم هذه اللفظة إلّا مرة واحدة في القرآن الكريم وهي هذه الآية، ما يدلّ على إرادة معنىً خاص منها في هذا المكان بالذات:

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ...﴾.

بعدما سمعت زليخا بان نسوة المدينة يذكرنها بسوء اعدت خطة ماكرة للايقاع بهن فوجهت اليهنّ دعوة وآتت كل واحدة منهن سكيناً وأمرت يوسف بأن يخرج عليهنّ، فلما رأينه سلب جماله وحسنه عقولهنّ وذهلن عن أنفسهن فقطعنّ أصابعهنّ بدلاً من الفاكهة ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾[2].

ولقد استخدم القرآن في هذا المشهد أبدع الأساليب في وصف يوسف عليه السلام، والواقع ان من خصائص القرآن والفن القصصي فيه، التريث والإمعان في تصوير ووصف ما يقتضي الإمعان في وصفه، والمرور العابر فيما سوى ذلك . وهذا ما نلمسه بوضوح في هذا المشهد القصصي المذكور «إذ ذكر القرآن هنا كل ما يلزم لبيان مدى جمال يوسف بدون الخوض في وصف قسمات وجهه وشكل قوامه»[3].

---

(1) القصة في القرآن، علي شريف، فصلية صحيفة مبين، العدد 1، صيف 1994، ص 9.

(2) يوسف: 31.

(3) اشارات الى خصائص القصة الاسلامية، محسن مخلباف، طهران، ط 2، 1982، ص 91.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

وما أن فرغ القرآن في الآية اعلاه من بيان حسن يوسف اللامتناهي، أردف ذلك بعبارة ﴿إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ الواردة على لسان النسوة، وذلك للاشارة الى ان هذا الحسن ليس حسناً ظاهرياً فقط، بل هو حسن باطني ونورانية دعت النسوة لتشبيهه بالملك الكريم. «في حال نرى ان بعض كتّاب القصة يعمدون الى وصف مناطق ونواحي من البدن حتى خارج حدود الدائرة المباحة شرعاً، ويتجاوزون في الوصف المساحات التي أمر الشرع بصيانتها من النظر وعدم الكشف عنها»[1]. واذا ما أغمضوا عن تلك الأوصاف تراهم «يفردون فصلاً خاصاً يملأونه بالوصف والمديح لقسمات وجه البطل وابعاد هيكله وبدنه»[2].

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ...﴾[3].

في هذه الآية تنهض زليخا للدفاع عن نفسها وتهدد يوسف بالسجن والاذلال لو لم يستجب لرغبتها فيه، وما كان من يوسف إلّا أن يجيب بالقول:

﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[4].

وهكذا نجد في هذه القصة نكتة فنية أُخرى تتكفّل بها هذه الآية. إذ واحدة من أهم مميزات القصة القرآنية وفي هذه القصة على وجه التحديد هو التزام

(١) المصدر السابق، ص ٩٠.

(٢) التفسير الموضوعي في القرآن، المصدر السابق، ج ١، ص ٣٥٨.

(٣) يوسف: ٣٢.

(٤) يوسف: ٣٣.

الصمت والتريث في مواقع حساسة من مشاهد الحكاية . مثال ذلك السكوت الوارد في الآية اعلاه، فالقرآن لم يتحدث بصورة مباشرة في هذه الآية عن هيام نسوة مصر بيوسف ومحاولاتهنّ لاجتذابه اليهن، بل اكتفى بالاشارة الى هذا المعنى من خلال دعاء يوسف في الآية، حيث يفهم منه ان «أن النسوة دعونه وراودنه كما دعته امرأة العزيز إلى نفسها و راودته عن نفسه، و أما أنهن دعونه إلى أنفسهن أو إلى امرأة العزيز أو أتين بالأمرين فدعينه بحضرة من امرأة العزيز إليها ثم أسرت كل واحدة منهن داعية إياه إلى نفسها فالآية ساكتة عن ذلك سوى ما يستفاد من قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ إذ لولا دعوة منهن إلى أنفسهن لم يكن معنى ظاهر للصبوة إليهن»[1].

وهذا المعنى يفهم بشكل غير مباشر أيضاً من مضمون الآية التالية :

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ...﴾ .

من التأمل في النكات البديعة الواردة في القصة أعلاه يمكن الوقوف على عظمة الفن والبعد الاعجازي في القصة القرآنية، والوصول الى نتيجة مفادها ان القرآن الكريم يراعي الضوابط ادناه في معالجته للمضامين ذات الصلة بالقيم الاخلاقية من قريب أو بعيد:

«١ ـ يسعى لبيان المضامين غير الاخلاقية باسلوب الاشارة والرمز ويتحاشى الخوض في وصف الجزئيات وتصويرها.

٢ ـ لا يعالج القيم النبيلة والفضائل بمعزل عن مقابلاتها من الرذائل بل يحاول الجمع بينهما في مقام البحث والتقييم.

(١) الميزان، ج ١١، ص ٢٠٧.

٣ ـ الهدف من طرح المضامين السلبية ذات الصلة المباشرة بالقيم النبيلة، هو ترويج هذه القيم وتثبيت مبدأ انتصار الخير على الشر والفضيلة على الرذيلة، وان النصر حليف من يتمسك بالفضائل والقيم السامية.

٤ ـ يطرح المضامين اللاقيمية بأسلوب خاص لا ينتج عنه اثر تربوي سلبي أو يوجد اضطراباً روحياً في نفس القاريء أو السامع. وتلك واحدة من أجلى خصائص القرآن.

٥ ـ المخاطب في نداء معين، يعدّ احد الأركان الفنية للعمل الأدبي، من هو ذلك المخاطب؟ فرد أم طبقة أم نظام؟ احساس وعاطفة أم عقل وفطرة؟ فقد اقتضت العادة ان كل خالق نتاج فني لا بدّ وان يحدّد باديء ذي بدء نوع مخاطبه بموجب الرؤية الكونية والايديولوجية التي يحملها. والقرآن بدوره يجعل من الفطرة محوراً رئيسياً في مخاطباته ويعتبر ان الفطرة هي الضمان لرشد العقل وتهذيب العواطف الانسانية.

٢ ـ قصّة موسى عليه‌السلام ولقائه ببنات شعيب عليه‌السلام

ولنتابع الآن مشهداً آخر من قصة موسى عليه‌السلام ، حيث يتضمن حكاية هي على الطرف النقيض من الحكاية التي بحثناها قبل قليل، وبطلة هذا ليست امرأة فاسدة وأسيرة هوىً، بل يطلّ علينا في هذا المشهد وجه امراة عفيفة، ذات بهاء وحياء تعلوها هالة من القدس، لنمرّر امام أبصارنا مشهداً جذّاباً للقاء يجري بين شخصين من جنسين : امرأة ورجل، وذلك دون خرق لستر الحياء وحجاب العفة:

«قصّة مصاغة في قالب هندسي من خلاله تطرح الأفكار والأهداف»[1] ليكون لنا في ذلك قدوة حسنة ومثال يحتذى به في مجال المعاشرة بين المرأة والرجل في شتى الأعصار والأمصار.

ويبتديء هذا المشهد من حين فرار موسى من قبضة أزلام فرعون ولجوئه من مصر الى «مدين» ووصوله اليها تعباً مرهقاً ظامئاً جائعاً. وخلوده الى ظل شجرة ليستريح تحتها، واذا به يلتفت الى هجوم جماعة من الناس على ماء مدين لأجل ارواء قطعانهم، وعلى جانب آخر يرى فتاتين قد انحازتا بعيداً عن القوم وهما مشغولتان بجمع الأغنام. عزلة هاتين الفتاتين ومشقة العمل الموكل إليهما أثارا الفضول وحب الاستطلاع في نفس موسى ﷺ، فتوجّه نحوهما ليسأل عن الخبر:

﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا...﴾.

وكانت هذه هي بداية تعرف موسى على الفتاتين، وحتى الآن ليس هنالك أي سلوك يعبر عن احساس عاطفي أو اثارة ... ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ...﴾.

التقديم والتأخير في القرآن الكريم لا يأتي اعتباطاً، ومن اللافت للنظر هنا ان الفتاتين ابتدأتا بتبرير موقفهما ومن ثم قالتا ان السبب الرئيسي في مزاولتهما للرعي هو شيخوخة الأب. وبهذا أدرك موسى ان الفتاتين ذاتا تربية خاصة وقيم دينية متميزة، وانهما افهمتا موسى ذلك من خلال سلوك طبيعي ومن دون تكلّف،

(١) اسلوب القصة، البستاني، ج ٢، ص ١٨٢.

فهبّ موسى بفتوّته لسقي الأنام ﴿فَسَقَى لَهُمَا﴾ وثم عاد من حيث أتى وقصد مكاناً فيه ظل ليستريح من عناء رحلته الشاقة، ورفع يديه بالدعاء: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

ذهبت الفتاتان وهما تحملان معهما خاطرة طيبة عن هذا الفتى المؤمن القوي.

ان هذا الشمهد يعدّ من الموارد التي يعتبر الخوض فيها فنيّاً من الأمور المعقدة، خاصة في وسط اجتماعي ملتزم تراعى فيه موازين الشرف والعفة ومن الممكن ان يؤدي الخوض فيه كسر هذه الحرمة والتجاوز على القيم السائدة فيه. ولا شك ان الاسلوب الذي يسلكه القرآن في معالجة قضايا من هذا القبيل يعدّ مدرسة فنية يحتذى بها.

ذهبت الفتاتان ولكن سرعان ما عادت إحداهما.

في المشهد الأول تعرف موسى على البنتين من خلال ابتعادهما عن الازدحام وتوضيح ان أباهما شيخ كبير، بينما نجد ان طريقة التعارف في المشهد الثاني تختلف كليّاً، فالبنت الآن جاءت لوحدها، كيف؟! كان بمقدور القرآن ان لا يتطرق الى وصف طريقة مشيها، وحينئذ يكون لنا ان نحدس ما نشاء، موسى المرهق الجائع الظمآن يرى فجأة فتاة تقدم نحوه، ما هي المشاعر التي يثيرها هذا الموقف في نفس موسى. ليس لأحد أن يخلق عبثاً تصوراً غير دقيق عن الفتاة. لذا يبادر القرآن من الوهلة الأُولى للاشارة الى طريقة مشي الفتاة لايجاد مناخ من العفة والقداسة يحول بين القاريء وبين أن يطلق لخياله العنان في توهّم أُمور منافية لهذا المناخ:

﴿فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا

سَقَيْتَ لَنَا﴾[١].

انها ذات الفتاة التي بقيت في ذهن موسى صورة عنها، وقد جاءت الآن تمشي على هودج من وقار وحياء وسكينة. وهذه مقدمة لعقد زواج وتوصيف بديع لمحبّة مستورة وراء هالة من القدس. ان أي كاتب مرموق لو جاء على هذا المشهد فإنه سيلجأ الى وصف الحياء في وجه الفتاة وردةً ذابلة، غير ان القرآن يصف الحياء في خطوات الفتاة دون ان يقلّل من وضوح الصورة وجمال المعنى.

والآن تقوم الفتاة بدعوة موسى الى البيت لأجل أن يكرمه أبوها لقاء سقيه لهما. موسى يقبل دعوة الفتاة ويسير نحو بيت أبيها، ويلقاه ويقصّ عليه قصة حياته وكفاحه :

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ﴾ ، ومن غير شعيب جدير بأن يطمئن موسى ويبشّره بالنصرة والنجاة من الخطر: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ .

الفتاة التي جاءت بموسى، هي التي اقترحت على أبيها ان يستأجره للعمل: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾[٢].

ما هي الأمنيات التي يستبطنها هذا الطلب؟ لقد اشّرت الفتاة على أمرين في غاية الأهمية لشعيب حاجته لإنسان قويّ ولإنسان أمين يمكن الوثوق به . وعليه فان ذكر هذه الصفات وبالترتيب ينطوي على حنكة وذكاء ، فيكف لا يكون بوسع أب محنك مثل شعيب ان يدرك الإشارة ؟!

---

(١) القصص : ٢٥.

(٢) القصص : ٢٦ .

بات واضحاً ان شيئاً ما يشغل بال الفتاة وان قلبها متعلّق بشيء؛ القوي الأمين، أليست هذه أمنية كل فتاة، وما أن تصل الى الأمنية تلوذ بالإشارة ولغة الرمز والايماء. ان وراء هذه الرموز والاشارات يحلّق القاريء الى فضاء قدسيّ وعفيف ويقترب من واقع العلاقة العاطفية دون إثارة أو تهييج[١].

اسلوب العلّامة في بيان القصص

يعدّ تفسير الميزان أحد اكبر التفاسير المعاصرة وهو ثمرة جهد مضنيّ ومتواصل نهض بأعبائه العلّامة المفسّر الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي ﷺ، هذا الأستاذ الأوحد في هذا التصنيف الفريد، بحث السور القرآنية ال(١١٤) من زواياها وأبعادها المختلفة، الروائية والتاريخية والعلمية والكلامية والفلسفية، وخلال شرحه المبسوط للآيات الكريمة عالج الكثير من الآراء والنظريات التفسيرية لمفسرين آخرين من السنة والشيعة.

ونظراً لأن القصص والحكايات تشكل قسماً مهماً من القرآن عمد العلّامة الى تبيان أهداف القصص في القرآن الى جانب شرحه لتفاصيلها والنكات الظريفة فيها.

سلك العلّامة ﷺ منهجاً خاصاً في نقل القصص القرآنية يمكن القول انّه أحد أوجه التمايز والافتراق بين تفسيره الكبير والتفاسير الأُخرى وكذلك الكتب المؤلفة في قصص القرآن وسير الأنبياء، وفيما يلي اشارة موجزة لمعالم هذا الاسلوب الخاص:

---

(١) اساليب القصة القرآنية وأهدافها، ص ٤٧ ـ ٤٩ بتصرف يسير.

القصص من المنظار القرآني

نظراً لاعتماد العلّامة في تفسير الميزان اسلوب تفسير القرآن بالقرآن، فان هذا المفسر والباحث القرآني العظيم كان يغوص في اعماق الآيات ويستخرج لآليء الوحي ليصوغها في قالب معرفي ثمين.

«انها طريقة خاصة بالميزان نادراً ما نراها في تفاسير القدماء ما عدا روايات المعصومين عليهم السلام ولا في التفاسير المتأخرة عن الميزان، وما زال هذا الأسلوب المبتكر سمة خاصة للميزان دون سواه، وفيه يتمّ التركيز على آيات الأصول العامة ومحكمات الكتاب والانطلاق فيها في تسليط الضوء على سائر الآيات وفتح مغاليقها، فكأن هذه الآيات المحكمات هي أُصول شجرة القرآن وسائر الآيات فروعها»[١].

وقد عمد العلّامة رحمه الله الى هذه الطريقة أيضاً في بحث القصص القرآنية وذلك من خلال تفسير آيات القصص القرآني ببعضها ومحاولة تركيب بعضها مع بعض وترتيبها زمانياً للخروج بقصة قرآنية كاملة»[٢].

القصص من المنظار الروائي

لقد بحث العلامة الطباطبائي القصة القرآنية من خلال الروايات والأحاديث أيضاً. وخلال استعراضه لبعض الروايات كان ينقد بعضها ولا يعتمد

---

(١) الميزان (مقدمة)، جوادي آملي، ج ١، ص ١٨.

(٢) الطباطبائي ومنهجه في تفسيره الميزان، علي الأوسي، ص ١٠.

إلّا على الروايات الموثوقة المروية عن النبي ﷺ وأهل بيته الأطهار عليهم السلام وصحبه الأخيار.[١]

وكان يورد ذيل كل مشهد قصصي قرآني فصلاً يعنونه بعنوان (بحث روائي) أو (القصة في الروايات)، يكرّس هذا الفصل لإيراد روايات الشيعة والسنة، ونقدها وتقييمها في ضوء الوحي، ولا يقبل منها إلّا ما لم يكن متعارضاً مع مفاد الآيات الكريمة، ويهمل القصص المفتعلة بروايات موضوعة، يقول ﷺ في هذا الصدد:

«ان النبي أعطى للمسلمين ضابطة كلية لتشخيص الخبر الصحيح عن الموضوع والمفترى عليه وعلى أوصيائه : ما وافق كتاب الله فخذوه وما خالفه فدعوه»[٢].

الاسرائيليات في القصص

خلال بحثه للقصص في ضوء الروايات، لم يغفل العلّامة عن دسائس اليهود وألاعيبهم، وظل منتبهاً بنظره الثاقب الى خطر وجود الاسرائيليات، وكان يتمعّن كثيراً في تلك الروايات من أجل تشخيص الموارد المحتمل دخول الاسرائيليات فيها، ملفتاً نظر غيره من المفسرين والباحثين الى طرق اليهود وأساليبهم عبر التاريخ في دسّ الأراجيف والأساطير في قصص القرآن وسيرة الأنبياء.

ان تحديد زمان ظهور الاسرائيليات وتشخيص العوامل التي أسهمت في

(١) الميزان، ج ١، ص ٣٦١.
(٢) الميزان، ج ١، ص ٣٦١.

رواجها وتغلغلها في الموسوعات الدينية والتاريخية، يتطلب فرصة أُخرى لا يسعها المجال، ولكن بوسعنا القول اجمالاً:

«ان بداية انتشار الاسرائيليات يعود الى زمن الصحابة والتابعين حيث تمّ تدوين التراث الاسلامي والروايات والأحاديث، ويمكن التحول ان أحد العوامل التي أسهمت في ذلك هو انتشار الجهل والأمية في صفوف سكان جزيرة العرب ونزوع العرب آنذاك الى معرفة علل الأشياء وأسباب الخلقة والتكوين، وتداول قصص الأمم والأنبياء بين الناس مع اجمالها في القرآن الكريم، واهتمام العرب بالقصص والقصاصين، وتآمر اليهود ونفوذهم في الأوساط الاسلامية لتحريف المصادر الدينية الاسلامية وغير ذلك من الأمور»[١].

ان تبحّر العلاّمة ودقة نظرة في الأخبار والروايات اهّلته للوقوف بوجه هذا التوجه الخبيث، وممارسة دور نقدي جادّ، والتأشير على وقوع أكثر المفسرين في اخطاء من هذا القبيل معللاً ذلك بطبيعة القصة وتأثيرها في التفسير والتهاون في قبول انواع الاحاديث دون تدبّر وبحث واستقصاء، ولو كانت تخالف صريح العقل ونص الآيات المحكمات. وقد تمكن من وضع اليد على جذور المشكلة ومناشيء تسرّب الاسرائيليات الى مضامين الروايات، وذلك عبر تطبيق هذه الروايات على ما جاء في كتب التوراة والانجيل وكشف أوجه التشابه والاختلاف، ومن ثم تشخيص مظانّ الجعل والتحريف وتهذيب المصادر الدينية من هذه الشوائب والاقذار»[٢].

وفي هذا الصدد، نشير الى ما نوّه به العلاّمة في ذيل الآية ١٠٣ من سورة

---

(١) مجلة الحوزة، ع ١٦، ص ٧٤.

(٢) المصدر السابق، بهاء الدين خرمشاهي، ص ٢٦٦.

البقرة من قصة مفتعلة من قبل اليهود حول الملكين ببابل هاروت وماروت، حيث يضع العلامة ﷺ هذه القصة تحت المهجر ويبريء ساحة هذين الملكين الطاهرين من التهم التي ألصقها بهما اليهود، فيقول:

«ومن هاهنا يظهر للباحث المتأمّل: أن هذه الأحاديث كغيرها الواردة في مطاعن الأنبياء وعثراتهم لا تخلو من دس دسته اليهود فيها وتكشف عن تسربهم الدقيق ونفوذهم العميق بين أصحاب الحديث في الصدر الأوّل فقد لعبوا في رواياتهم بكل ما شاءوا من الدس والخلط وأعانهم على ذلك قوم آخرون»[1].

ان (الميزان) ميزان ومحكّ اختبار لتشخيص الصالح من الطالح وتمييز الخالص عن غيره، ومن هنا «نجد ان العلامة لسعة اطلاعه يستقصي جميع الأخبار والنقولات ويشخص الباطل منها»[2].

تطبيق القصص القرآنية على التوراة والانجيل

من الأساليب الأُخرى التي تميّز بها تفسير القرآن من غيره، تطبيق قصص القرآن على ما جاء منها في كتب التوراة والانجيل. فقد عقد العلامة العزم على المقارنة بين القصص الواردة في القرآن وبين مثيلاتها الواردة في قصص التوراة والانجيل، جاعلاً القاريء محوراً للحكم بعد ان يطّلع على التفاصيل ويصبح قادراً على تمييز الغث من السمين.

وفي هذا السياق نورد مثالاً قصة آدم التي مثّلت ميداناً وساعاً للجعل

---

(١) الميزان، ج ١، ص ٣٦٠.

(٢) الطباطبائي ومنهجه في تفسيره الميزان، علي الأوسي، ص ١٠.

والافتراء اليهودي، فنجد ان العلامة قابل الروايات الواردة بشأن هذه القصة مع ما ورد في التوراة والانجيل بشأنها، وبذلك نجح في جلاء الشوائب والشبهات عنها، يقول ﷺ بهذا الصدد:

«جاء في بعض الأخبار ان الحية والطاووس كانتا من أعوان ابليس وانهما أعانا ابليس على إغواء آدم، وحيث ان هذه الروايات ليست معتبرة، نعرض عن ذكرها هنا، ونعتقد انها موضوعة لأن القصة مأخوذة من التوراة، ونحن هنا نورد نفس عبارات التوراة ليطلع القاريء بنفسه على وضع تلك الروايات»[١].

وبعد ان يورد القصة كاملة يختم كلامه بالتعليق التالي:

«ولو يقارن القاريء الكريم هاتين القصتين أي قصة آدم في القرآن الكريم وقصته الواردة في التوراة ومن ثم يدقق النظر في الأخبار الواردة عن الفريقين سوف يدرك حقيقة هذه القصة...»[٢].

ونفس الشيء يقال بالنسبة لقصة هابيل وقابيل حيث يـدعو ﷺ القـاريء ليكون صاحب الحكم النهائي بشأن الموقف، يقول:

«وادعو القاريء للتأمل في ما ورد في التوراة والقرآن بشأن ابن آدم ومن ثم مقارنتها والحكم عليها»[٣].

وهكذا بالنسبة لسائر القصص والحكايات التي طبّقها مع التوراة والانجيل، من أراد فيراجع.

---

(١) الميزان، ج ١، ص ٢١٣.
(٢) المصدر السابق، ص ١٠٦ .
(٣) المصدر السابق، ص ١٤٩.

بحوث علمية وتاريخية

علاوة على ما سبق الاشارة اليه، حرص العلامة ﷺ على ذكر القضايا العلمية والتاريخية والجغرافية ذات، الصلة بقصة معينة. ففي قصة نوح مثلاً حاول ﷺ الاجابة عن تساؤل مفاده ان الطوفان هل شمل سطح الكرة الأرضية بأسرها أو مساحة منه فقط، ودخل خلال ذلك في بحوث جيولوجية وجيوفيزيائية. وفي محاولة لتحديد مكان الكهف الذي أوى اليه الفتية في قصة أصحاب الكهف طرح العلامة سبعة مواطن يوجد فيها كهوف، وعمد الى بحث الموضوع من زاوية الهندسة المعمارية، كما أنه بذل في قصة ذي القرنين جهدة لتشخيص هوية ذي القرنين ومكان السدّ الوارد ذكره في القصة، وقد غاص لهذا الغرض في عمق التاريخ وناقش شتى النظريات المطروحة في هذا المجال.

وصفوة القول: «ان هذه البحوث يؤتى بها في القصص القرآنية بحسب المناسبة ومن أجل تصحيح فكرة خاطئة وتحكيم رؤية معينة وتأصيل معرفة القاريء بروح القرآن»[1].

---

(١) مجلة الحوزة، ع ١٦، ص ٢٦٠.

هذا الكتاب

من اللازم أن اشير هنا الى بضع نقاط بخصوص الطريقة المتبعة في تصنيف هذا الكتاب:

١ ـ ان العلّامة ﷺ يورد القصص غالباً ويناقشها بعد الانتهاء من تفسير الآيات المرتبطة بها، وقد حرصنا في هذا المؤلف على استقصاء هذه القصص وتدوينها بموجب التتابع التاريخي للأحداث.

٢ ـ بالنسبة لبعض القصص التي لم يبحثها العلّامة ﷺ على نحو مستقل، استفدنا من تفسيره لهذه الآيات والملاحظات التي يبديها، ونظمناها على هيئة قصة مستقلة، بحيث يكون بوسع القاريء ان يكوّن لنفسه فكرة عامة عن القصة مع الأخذ بنظر الاعتبار ما ورد بشأنها في كتاب (الميزان)، وذلك نظير قصة أصحاب الفيل وغيرها.

٣ ـ كما أشرنا آنفاً ان العلّامة بحث أغلب القصص بحثاً روائياً مستقلاً، إلّا في بعض الموارد حيث لم يخصص لها بحثاً روائياً على حدة. وبغية تعريف القاريء بالقصة من بعدها الروائي أيضاً وبالنظر الى أن العلّامة يورد بحثاً روائياً في نهاية تفسير الآيات، فقد قمنا بتجميع البحوث الروائية ذات الصلة بالقصة المنظورة وأوردناها في نهاية القصة.

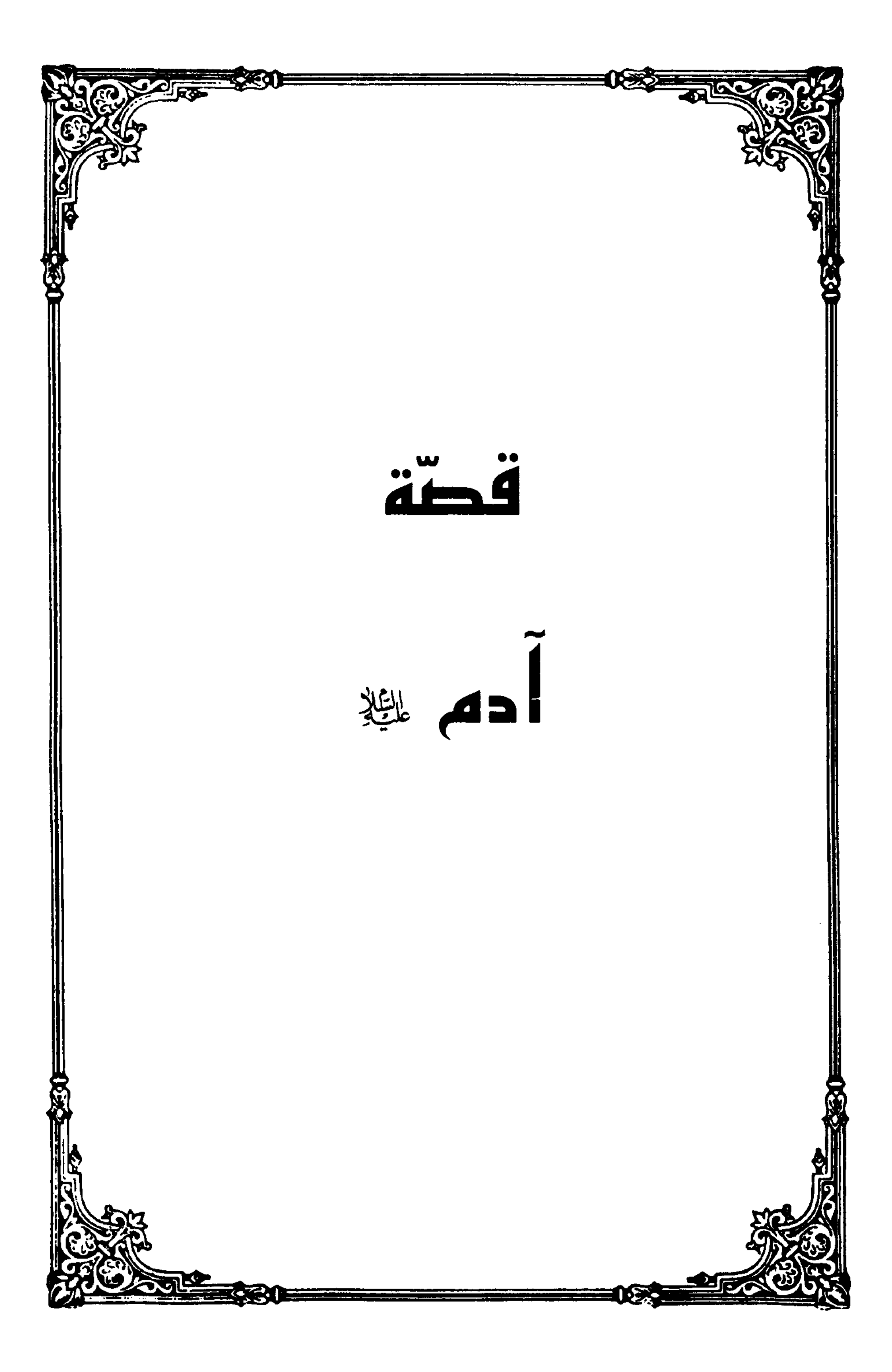
٤ ـ قبل الشروع بالقصة نورد الآيات المرتبطة بها، وذلك تيمّناً بها ورغبة في خلق أنس لدى القاريء بآيات القصة قبل الدخول فيها.

من الممكن أن تكون هناك قصة متوزعة فصولها على أماكن متعددة في القرآن، إلّا اننا اخترنا الآيات التي أورد العلّامة القصة في ذيل تفسيره لها.

اتمنى أن يكون تأليف هذه القصص القرآنية وسير حياة الأنبياء موجباً للمزيد من الأنس والألفة بين الشباب والقرآن كي يرووا ظمأهم الروحي من زلال الوحي ومعينه الصافي العذب ويهتدوا بنور هداية الحق وسيرة الأنبياء الصالحين.

حسين فعّال عراقي

٢٢ / رجب / ١٤١٨ هـ



قصّة

آدم عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾

سورة البقرة



قصّة آدم في القرآن

الآيات تنبىء عن غرض إنزال الإنسان إلى الدنيا وحقيقة جعل الخلافة في الأرض، وما هو آثارها وخواصها، وهي على خلاف سائر قصصه لم يقع في القرآن إلّا في محل واحد وهو هذا المحل.

قول الملائكة هنا: ﴿قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ مشعر بأنهم إنما فهموا وقوع الإفساد وسفك الدماء من قوله سبحانه: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ففهموا أن الخلافة المرادة لا تقع في الأرض إلا بكثرة من الأفراد ونظام اجتماعي بينهم يفضي بالآخرة إلى الفساد والسفك، و «الخلافة» ـ وهي قيام شيء مقام آخر ـ لا تتم إلا بكون الخليفة حاكياً للمستخلف في جميع شؤونه الوجودية وآثاره وأحكامه وتدابيره بما هو مستخلف، والله سبحانه في وجوده مسمى بالأسماء الحسنى متصف بالصفات العليا، من أوصاف الجمال والجلال، منزه في نفسه عن النقص ومقدس في فعله عن الشر والفساد جلت عظمته، والخليفة الأرضي بما هو كذلك لا يليق بالاستخلاف ولا يحكي بوجوده المشوب بكل نقص وشين الوجود الإلهي المقدس المنزه عن جميع النقائص وكل الأعدام، فأين التراب ورب الأرباب؟

وهذا الكلام من الملائكة في مقام تعرف ما جهلوه واستيضاح ما أشكل عليهم من أمر هذا الخليفة، وليس من الاعتراض والخصومة في شيء، والدليل

على ذلك قولهم فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ ، فملخص قولهم يعود إلى أن جعل الخلافة إنما هو لأجل أن يحكي الخليفة مستخلفه بتسبيحه بحمده وتقديسه له بوجوده، والأرضية لا تدعه يفعل ذلك بل تجره إلى الفساد والشر، والغاية من هذا الجعل وهي التسبيح والتقديس بالمعنى الذي مر من الحكاية حاصلة بتسبيحنا بحمدك وتقديسنا لك، فنحن خلفاؤك أو فاجعلنا خلفاء لك، فما فائدة جعل هذه الخلافة الأرضية لك؟

فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ * وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ .

وهذا السياق: يشعر أوّلاً: بأن الخلافة المذكورة إنما كانت خلافة الله تعالى، لا خلافة نوع من الموجود الأرضي كانوا في الأرض قبل الإنسان وانقرضوا ثم أراد الله تعالى أن يخلفهم بالإنسان كما احتمله بعض المفسرين.

وثانياً: إنه سبحانه لم ينف عن خليفة الأرض الفساد وسفك الدماء، ولا كذب الملائكة في دعواهم التسبيح والتقديس، وقررهم على ما ادعوا، بل إنما أبدى شيئاً آخر وهو أن هناك أمرا لا تقدر الملائكة على حمله ولا تتحمله ويتحمله هذا الخليفة الأرضي فإنه يحكي عن الله سبحانه أمراً ويتحمل منه سراً ليس في وسع الملائكة، ولا محالة يتدارك بذلك أمر الفساد وسفك الدماء، وقد بدل سبحانه قوله: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ بقوله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ، والمراد بهذا الغيب هو الأسماء لا علم آدم بها فإن الملائكة ما كانت تعلم أن هناك أسماء لا يعلمونها، لا أنهم كانوا يعلمون وجود أسماء كذلك ويجهلون من آدم أنه يعلمها، وإلا لما كان لسؤاله تعالى إياهم عن الأسماء وجه وهو ظاهر، بل كان حق المقام أن يقتصر بقوله: ﴿قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ﴾

حتى يتبين لهم أن آدم يعلمها لا أن يسأل الملائكة عن ذلك، فإن هذا السياق يعطي أنهم ادعوا الخلافة وأذعنوا انتفاءها عن آدم وكان اللازم أن يعلم الخليفة بالأسماء فسألهم عن الأسماء فجهلوها وعلمها آدم، فثبت بذلك لياقته لها وانتفاؤها عنهم، وقد ذيل سبحانه السؤال بقوله: ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وهو مشعر بأنهم كانوا ادعوا شيئاً كان لازمه العلم بالأسماء.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ﴾، مشعر بأن هذه الأسماء أو أن مسمياتها كانوا موجودات أحياء عقلاء، محجوبين تحت حجاب الغيب وأن العلم بأسمائهم كان غير نحو العلم الذي عندنا بأسماء الأشياء، وإلا كانت الملائكة بإنباء آدم إياهم بها عالمين وصائرين مثل آدم مساوين معه، ولم يكن في ذلك إكرام لآدم ولا كرامة حيث علمه الله سبحانه أسماء ولم يعلمهم، ولو علمهم إياها كانوا مثل آدم أو أشرف منه، ولم يكن في ذلك ما يقنعهم أو يبطل حجتهم، وأي حجة تتم في أن يعلم الله تعالى رجلا علم اللغة ثم يباهي به ويتم الحجة على ملائكة مكرمين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون بأن هذا خليفتي وقابل لكرامتي دونكم؟

ويقول تعالى: أنبئوني باللغات التي سوف يضعها الآدميون بينهم للإفهام والتفهيم إن كنتم صادقين في دعواكم أو مسألتكم خلافتي، على أن كمال اللغة هو المعرفة بمقاصد القلوب والملائكة لا تحتاج فيها إلى التكلم، وإنما تتلقى المقاصد من غير واسطة، فلهم كمال فوق كمال التكلم.

وبالجملة فما حصل للملائكة من العلم بواسطة إنباء آدم لهم بالأسماء هو غير ما حصل لآدم من حقيقة العلم بالأسماء بتعليم الله تعالى فأحد الأمرين كان ممكنا في حق الملائكة وفي مقدرتهم دون الآخر، وآدم إنما استحق الخلافة

الإلهية بالعلم بالأسماء دون إنبائها إذ الملائكة إنما قالوا في مقام الجواب: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا﴾، فنفوا العلم.[١]

قصة سجود الملائكة

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[٢].

هذه الآيات كما عرفت إنما سيقت لبيان كيفية خلافة الإنسان وموقعه وكيفية نزوله إلى الدنيا وما يؤول إليه أمره من سعادة وشقاء، فلا يهم من قصة السجدة ها هنا إلا إجمالها المؤدي إلى قصة الجنة وهبوط آدم.[٣]

﴿اسْجُدُواْ لآدَمَ...﴾ .

قوله تعالى: ﴿فَسَجَدَ الْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾[٤] ظاهر الدلالة على سجود الملائكة له من غير استثناء، ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، أي استكبر إبليس فلم يسجد له وكان قبل ذلك من الكافرين كما حكى سبحانه عنه في سورة الحجر قوله: ﴿لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[٥].[٦]

---

(١) الميزان ١: ١٧٧ ـ ١٧٩ (بتصرف).

(٢) البقرة: ٣٤.

(٣) الميزان ١: ١٨٨.

(٤) الحجر: ٣٠.

(٥) الحجر: ٣٣.

(٦) الميزان ١٧: ٣٤٣.

هل كان إبليس من الملائكة ؟

﴿فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ﴾[١].

في هذه الآية وفي قوله تعالى ﴿فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾، أخبر تعالى عن سجود الملائكة جميعاً واستثنى منهم إبليس، وقد علل عدم ائتماره بالأمر في موضع آخر بقوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[٢]، وقد وصف الملائكة بمثل قوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾[٣] وهو بظاهره يدل على أنه من غير نوع الملائكة.

والذي يستفاد من ظاهر كلامه تعالى أن إبليس كان مع الملائكة من غير تميز له منهم والمقام الذي كان يجمعهم جميعاً كان هو مقام القدس كما يستفاد من قصة ذكر الخلافة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾[٤]، وإن الأمر بالسجود إنما كان متوجهاً إلى المقيمين في ذلك المقام «مقام القدس».

وعلى هذا يتّضح انّ ابليس لم يكن بينه وبين الملائكة فرق قبل ذلك ؟ وعند ذلك تميز الفريقان، وبقي الملائكة على ما يقتضيه مقامهم ومنزلتهم التي حلوا فيها، وهو الخضوع العبودي والامتثال كما حكاه الله عنهم: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ۞ لَا

---

(١) الأعراف: ١١.
(٢) الكهف: ٥٠.
(٣) الأنبياء: ٢٧.
(٤) البقرة: ٣٠.

يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ فهذه حقيقة حياة الملائكة وسنخ أعمالهم، وقد بقوا على ذلك وخرج إبليس من المنزلة التي كان يشاركهم فيها كما يشير إليه قوله: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، والفسق خروج التمرة عن قشرها فتميز منهم فأخذ حياة لا حقيقة لها إلا الخروج من الكرامة الإلهية وطاعة العبودية.

فلولا أن الله سبحانه خلق آدم وأمر الملائكة وإبليس جميعاً بالسجود له لكان إبليس على ما كان عليه من منزلة القرب غير متميز من الملائكة لكن خلق الإنسان شق المقام مقامين: مقام القرب ومقام البعد، وميز السبيل سبيلين: سبيل السعادة وسبيل الشقاوة.

العلّة في عدم سجود ابليس

﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[١].

يريد: ما منعك أن تسجد، كما وقع في سورة «ص» من قوله: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[٢]، ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾، وقوله هذا يحكي عمّا أجاب به لعنه الله، وهو أول معصيته وأول معصية عصي بها الله سبحانه فإن جميع المعاصي ترجع بحسب التحليل إلى دعوى الإنية ومنازعة الله سبحانه في كبريائه، وله رداء الكبرياء لا شريك له فيه،

---

(١) الأعراف: ١٢.

(٢) ص: ٧٥.

فليس لعبد مخلوق أن يعتمد على ذاته ويقول: أنا قبال الإنية الإلهية التي عنت له الوجود، وخضعت له الرقاب، وخشعت له الأصوات، وذلّ له كل شيء.

ولو لم تنجذب نفسه إلى نفسه، ولم يحتبس نظره في مشاهدة إنيته لم يتقيد باستقلال ذاته، وشاهد الإله القيوم فوقه فذلت له إنيته ذلة تنفي عنه كل استقلال وكبرياء فخضع للأمر الإلهي، وطاوعته نفسه في الائتمار والامتثال، ولم تنجذب نفسه إلى ما كان يتراءى من كونه خيرا منه لأنه من النار وهو من الطين بل انجذبت نفسه إلى الأمر الصادر عن مصدر العظمة والكبرياء ومنبع كل جمال وجلال.

وكان من الحري إذا سمع قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أن يأتي بما يطابقه من الجواب كأن يقول: منعني أني خير منه لكنه أتى بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ ليظهر به الإنية، ويفيد الثبات والاستمرار، ويستفاد منه أيضاً أن المانع له من السجدة ما يرى لنفسه من الخيرية فقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أظهر وآكد في إفادة التكبر.

ومن هنا يظهر أن هذا التكبر هو التكبر على الله سبحانه دون التكبر على آدم.

ثم إنه في قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ استدل على كونه خيراً من آدم بمبدأ خلقته وهو النار وأنها خير من الطين الذي خلق منه آدم وقد صدق الله سبحانه ما ذكره من مبدأ خلقته حيث ذكر أنه كان من الجن، وأن الجن مخلوق من النار قال تعالى: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾[1]، وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ

---

(١) الكهف: ٥٠.

السَّمُومِ﴾(١)، وقال أيضاً: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾(٢).

لكنه تعالى لم يصدقه فيما ذكره من خيريته منه فإنه تعالى وإن لم يرد عليه قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ﴾، في هذه السورة إلّا أنه بين فضل آدم عليه وعلى الملائكة في حديث الخلافة الذي ذكره في سورة البقرة للملائكة.

على أنه تعالى ذكر القصة في موضع آخر بقوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِن طِينٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾(٣).

فبين أوّلاً أنهم لم يدعوا إلى السجود له لمادته الأرضية التي سوي منها، وإنما دعوا إلى ذلك لما سواه ونفخ فيه من روحه الخاص به تعالى الحاملة للشرف كل الشرف والمتعلقة لتمام العناية الربانية، ويدور أمر الخيرية في التكوينيات مدار العناية الالهية لا لحكم من ذواتها فلا حكم إلا لله.

ثم بيّن ثانياً لما سأله عن سبب عدم سجوده بقوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ أنه تعالى اهتم بأمر خلقته كل الاهتمام واعتنى به كل الاعتناء حيث خلقه بكلتا يديه بأي معنى فسرنا اليدين، وهذا هو الفضل فأجاب لعنه الله بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ فتعلق بأمر النار والطين، وأهمل

---

(١) الحجر: ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) الرحمن: ١٤ ـ ١٥.

(٣) ص: ٧١ ـ ٧٦.

أمر تكبره على ربّه كما أنه في هذه السورة سئل عن سبب تكبره على ربه إذ قيل له: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ فتعلق بقوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، ولم يعتن بما سئل عنه، أعني السبب في تكبره على ربّه، إذ لم يأتمر بأمره.

بلى قد اعتنى به إذ قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ فأثبت لنفسه استقلال الإنية قبال الإنية الإلهية التي قهرت كل شيء فاستدعاه ذلك إلى نسيان كبريائه تعالى ووجد نفسه مثل ربه وأن له استقلالاً كاستقلاله، وأوجب ذلك أن أهمل وجوب امتثال أمره لأنه الله، بل اشتغل بالمرجحات فوجد الترجيح للمعصية على الطاعة، وللتمرد على الانقياد وليس إلّا أن تكبره بإثبات الإنية المستقلة لنفسه أعمى بصره فوجد مادة نفسه وهي النار خيراً من مادة نفس آدم وهي الطين، فحكم بأنه خير من آدم، ولا ينبغي للفاضل أن يخضع بالسجود لمفضوله، وإن أمر به الله سبحانه لأنه يسوي بنفسه نفس ربّه بما يرى لنفسه من استقلال وكبرياء كاستقلاله فيترك الآمر ويتعلق بالمرجحات في الأمر.

فجملة ما تدل عليه آيات القصة أن إبليس إنما عصى واستحق الرجم بالتكبر على الله في عدم امتثال أمره، وأن الذي أظهر به تكبره هو قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾، وقد تكبّر فيه على ربّه كما تقدّم بيانه وإن كان ذلك تكبّراً منه على آدم حيث إنه فضل نفسه عليه واستصغر أمره وقد خصّه الله بنفسه وأخبرهم بأنه أشرف منهم في حديث الخلافة وفي قوله: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ وقوله: ﴿خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ إلّا أن العناية في الآيات باستكباره على الله لا استكباره على آدم.

﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ

الصَّاغِرِينَ﴾[١].

قال الله تعالى: فتنزل عن منزلتك حيث لم تسجد لما أمرتك فإن هذه المنزلة منزلة التذلل والانقياد لي فما يحق لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين أهل الهوان، وإنما أخذ بالصغار ليقابل به التكبر.

﴿قَالَ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ﴾[٢]

حيث طلب ابليس من الله تعالى أن يمهله، والله سبحانه أعطاه المهلة، وقد فصل الله تعالى ذلك في موضع آخر بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَومِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾[٣]، ومنه يعلم أنه أمهل بالتقييد لا بالإطلاق الذي ذكره فلم يمهل إلى يوم البعث بل ضرب الله لمهلته أجلا دون ذلك وهو يوم الوقت المعلوم.

واستمهاله إلى يوم البعث يدل على أنه كان من همه أن يديم على إغواء هذا النوع في الدنيا وفي البرزخ جميعا حتى تقوم القيامة فلم يجبه الله سبحانه إلى ما استدعاه، بل لعله أجابه إلى ذلك إلى آخر الدنيا دون البرزخ فلا سلطان له في البرزخ سلطان الإغواء والوسوسة وإن كان ربما صحب الإنسان بعد موته في البرزخ مصاحبة الزوج والقرين كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ

(١) الأعراف: ١٣.
(٢) الأعراف: ١٤ ـ ١٥.
(٣) الحجر: ٣٦ ـ ٣٨، ص: ٧٩ ـ ٨١.

وَلَن يَنفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾[١] وظاهر قوله: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾[٢].

﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[٣]

الإغواء هو الإلقاء في الغي، والغي والغواية هو الضلال بوجه والهلاك والخيبة، والجملة أعني قوله: ﴿أَغْوَيْتَنِي﴾ وإن فسر بكل من هذه المعاني على اختلاف أنظار المفسرين غير أن قوله تعالى في سورة الحجر فيما حكاه عنه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[٤] يؤيد أن مراده هو المعنى الأوّل.

وقوله: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، أي لأجلسن لأجلهم على صراطك المستقيم وسبيلك السوي الذي يوصلهم إليك وينتهي بهم إلى سعادتهم لما أن الجميع سائرون إليك سالكون لا محالة مستقيم صراطك فالقعود على الصراط المستقيم كناية عن التزامه والترصد لعابريه ليخرجهم منه.

وقوله: ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾، بيان لما يصنعه بهم وقد كمن لهم قاعداً على الصراط المستقيم، وهو أنه يأتيهم من كل جانب من جوانبهم الأربعة.

وإذ كان الصراط المستقيم الذي كمن لهم قاعداً عليه أمراً معنوياً كانت

---

(١) الزخرف: ٣٦ ـ ٣٩.

(٢) الصافات: ٢٢.

(٣) الأعراف: ١٦ ـ ١٧.

(٤) ص: ٨٢ ـ ٨٣.

الجهات التي يأتيهم منها معنوية لا حسية والذي يستأنس من كلامه تعالى لتشخيص المراد بهذا الجهاد كقوله تعالى : ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُوراً﴾[١]، وقوله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ﴾[٢]، وقوله: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾[٣]، وقوله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء﴾[٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، هو أن المراد مما ﴿بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم مما يتعلق به الآمال والأماني من الأمور التي تهواه النفوس وتستلذه الطباع، ومما يكرهه الإنسان ويخاف نزوله به كالفقر يخاف منه لو أنفق المال في سبيل الله أوذم الناس ولومهم لو ورد سبيلا من سبل الخير والثواب.

والمراد بخلفهم ناحية الأولاد والأعقاب فللإنسان فيمن يخلفه بعده من الأولاد آمال وأماني ومخاوف ومكاره فإنه يخيل إليه أنه يبقى ببقائهم فيسره ما يسرهم ويسوؤه ما يسوؤهم فيجمع المال من حلاله وحرامه لأجلهم، ويعد لهم ما استطاع من قوة فيهلك نفسه في سبيل حياتهم.

والمراد باليمين وهو الجانب القوي الميمون من الإنسان ناحية سعادتهم وهو الدين وإتيانه من جانب اليمين أن يزين لهم المبالغة في بعض الأمور الدينية، والتكلف بما لم يأمرهم به الله وهو الذي يسميه الله تعالى باتباع خطوات الشيطان.

والمراد بالشمال خلاف اليمين، وإتيانه منه أن يزين لهم الفحشاء والمنكر

---

(١) النساء: ١٢٠.

(٢) آل عمران: ١٧٥.

(٣) البقرة: ١٦٨.

(٤) البقرة: ٢٦٨.

ويدعوهم إلى ارتكاب المعاصي واقتراف الذنوب واتباع الأهواء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ نتيجة ما ذكره من صنعه بهم بقوله: ﴿لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم﴾ ، وقد وضع في ما حكاه الله من كلامه في غير هذا الموضع بدل هذه الجملة أعني ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ جملة أُخرى قال : ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلاً﴾[1]، فاستثنى من وسوسته وإغوائه القليل مطابقاً لما في هذه السورة، وقال: ﴿وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[2].

ومنه يظهر أنه إنما عنى بـ«الشاكرين» في هذا الموضع المخلصين، والتأمل الدقيق في معنى الكلمتين يرشد إلى ذلك فإن المخلصين ـ بفتح اللام ـ هم الذين أخلصوا لله فلا يشاركه فيهم أي في عبوديتهم وعبادتهم سواه، ولا نصيب فيهم لغيره، ولا يذكرون إلا ربهم وقد نسوا دونه كل شيء حتى أنفسهم فليس في قلوبهم إلا هو سبحانه، ولا موقف فيها للشيطان ولا لتزييناته.

والشاكرون هم الذين استقرت فيهم صفة الشكر على الإطلاق فلا يمسون نعمة إلا بشكر أي بأن يستعملوها ويتصرفوا فيها قولا أوفعلا على نحو يظهرون به أنها من عند ربهم المنعم بها عليهم فلا يقبلون على شيء ـ أعم من أنفسهم وغيرهم ـ إلّا وهم على ذكر من ربهم قبل أن يمسوه ومعه وبعده، وأنه مملوك له تعالى طلقا ليس له من الأمر شيء فذكرهم ربهم على هذه الوتيرة ينسيهم ذكر غيره إلا بالله، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه.

---

(١) الاسراء: ٢٦.

(٢) ص: ٨٢ ـ ٨٣.

فلو أعطي اللفظ حق معناه لكان الشاكرون هم المخلصين، واستثناء إبليس الشاكرين أو المخلصين من شمول إغوائه وإضلاله جرى منه على حقيقة الأمر اضطراراً ولم يأت به جزافاً أو امتناناً على بني آدم أو رحمة أو لغير ذلك.

﴿قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْؤُوماً مَّدْحُوراً لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١].

المذءوم من ذامه يذامه ويذيمه إذا عابه وذمه، والمدحور من دحره إذا طرده ودفعه بهوان.

وقوله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾، اللام للقسم وجوابه هو قوله: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ﴾، لما كان مورد كلام إبليس ـ وهو في صورة التهديد بالانتقام ـ هو بني آدم وأنه سيبطل غرض الخلقة فيهم وهو كونهم شاكرين أجابه تعالى بما يفعل بهم وبه فقال: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ محاذاة لكلامه ثم قال: ﴿لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾، أي منك ومنهم فأشركه في الجزاء معهم.

وقد امتن تعالى في كلمته هذه التي لا بدّ أن تتم فلم يذكر جميع من تبعه بل أتى بقوله: ﴿مِنكُمْ﴾ وهو يفيد التبعيض.[٢]

---

(١) الأعراف: ١٨.

(٢) الميزان ٨: ٢٦ ـ ٣٨. (بتصرف).

قصّة

جنّة آدم عليه السلام

وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَـئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ...﴾ .

أن قصّة سجود الملائكة لآدم تكررت في عدة مواضع من القرآن الكريم .

لم تذكر قصة الجنّة إلّا في ثلاث مواضع :

أحدها : ها هنا من سورة البقرة .

الثاني : في سورة الأعراف .

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ * قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ * قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[1].

والثالث : في سورة طه.

---

(١) الأعراف : ١٩ ـ ٢٥ .

قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً * وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى * فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى * فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى * فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا * قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾[1].

وسياق الآيات وخاصة قوله تعالى في صدر القصة : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ يعطي أن آدم ﷺ إنما خلق ليحيا في الأرض ويموت فيها وإنما أسكنهما الله الجنة لاختبارهما ولتبدو لهما سوآتهما حتى يهبطا إلى الأرض، وكذا سياق قوله تعالى في سورة طه : ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ﴾ ، وفي سورة الأعراف : ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ ، حيث سبك قصة الجنة مع قصة إسجاد الملائكة كلتيهما كقصة واحدة متواصلة، وبالجملة فهو ﷺ كان مخلوقاً ليسكن الأرض، وكان الطريق إلى الاستقرار في الأرض هذا الطريق، وهو تفضيله على الملائكة لإثبات خلافته، ثم أمرهم بالسجدة، ثم إسكان الجنة.

والنهي عن قرب الشجرة المنهية حتى يأكلا منها فيبدو لهما سوآتهما فيهبطا إلى الأرض، فآخر العوامل للاستقرار في الأرض، وانتخاب الحياة الدنيوية ظهور

---

(١) طه : ١١٥ ـ ١٢٦ .

السوأة، وهي العورة بقرينة قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ فهو التمايل الحيواني ويستلزم التغذي والنمو أيضاً، فما كان لإبليس هم إلّا إبداء سوآتهما، وآدم وزوجته وإن كانا قد سواهما الله تعالى تسوية أرضية بشرية ثم أدخلهما الجنة لم يمكثا بعد التسوية، ولم يمهلا كثيراً، ليتم في الدنيا إدراكهما لسوآتهما ولا لغيرها من لوازم الحياة الدنيا واحتياجاتها حتى أدخلهما الله الجنة، وأنه إنما أدخلهما الله الجنة حين أدخلهما ولما ينفصلا ولما ينقطع إدراكهما عن عالم الروح والملائكة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا﴾ ولم يقل ما كان ووري عنهما، وهو مشعر بأن مواراة السوأة ما كانت ممكنة في الحياة الدنيا استدامة وإنما تمشت دفعة ما واستعقب ذلك إسكان الجنة فظهور السوأة كان مقضياً محتوماً في الحياة الأرضية ومع أكل الشجرة، ولذلك قال تعالى: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ .

وقال تعالى : وأخرجهما مما كانا فيه وأيضاً هو تعالى غفر خطيئتهما بعد ما تابا ولم يرجعهما إلى الجنة بل أهبطهما إلى الدنيا ليحييا فيها ولو لم تكن الحياة الأرضية مع أكل الشجرة وظهور السوأة حتماً مقضياً، والرجوع إلى الجنة مع ذلك محالا، لرجعا إليها بعد حط الخطيئة، فالعامل في خروجهما من الجنة وهبوطهما هو الأكل من الشجرة وظهور السوأة، وكان ذلك بوسوسة الشيطان اللعين .[1]

آية : ﴿وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ ، الرغد: الهناء وطيب العيش، وأرغد القوم مواشيهم تركوها ترعى كيف شاءت، وقوم رغد، ونساء رغد، أي ذوو عيش رغيد .

---

(١) الميزان ١ : ١٩٣ ـ ١٩٧ .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ وكأن النهي إنما كان عن أكل الثمرة وإنما تعلق بالقرب من الشجرة إيذاناً بشدة النهي ومبالغة في التأكيد ويشهد بذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا﴾(٢)، فكانت المخالفة بالأكل فهو المنهي عنه بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، من الظلم لا من الظلمة على ما احتمله بعضهم وقد اعترفا بظلمهما حيث قالا على ما حكاه الله تعالى عنهما: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾.

إلّا أنه تعالى بدّل في سورة طه هذه الكلمة، أعني قوله: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، من قوله ﴿فَتَشْقَىٰ﴾، والشقاء هو التعب ثم فسر التعب وفصله، فقال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾، الآيات.

ومن هنا يظهر أن وبال هذا الظلم إنما كان هو الوقوع في تعب حياة هذه الدنيا من جوع وعطش وعراء وعناء وعلى هذا فالظلم منهما إنما هو ظلمهما لأنفسهما، لا بمعنى المعصية المصطلحة والظلم على الله سبحانه.

ومن هنا يظهر أيضاً أن هذا النهي أعني قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾، إنما كان نهياً تنزيهياً إرشادياً يرشد به إلى ما فيه خير المكلف وصلاحه في مقام النصح لا نهياً مولوياً.(٣)

---

(١) الأعراف: ٢٢.

(٢) طه: ١٢١.

(٣) الميزان ٨: ٣٩، وج ١: ٢٠١.

﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ...﴾ .

الظاهر من هذه الجملة كنظائرها وإن لم يكن أزيد من وسوسة الشيطان لهما مثل ما يوسوس لنا بني آدم على نحو إلقاء الوسوسة في القلب من غير رؤية الشخص.

لكن الظاهر من أمثال قوله تعالى في سورة طه : ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يدلّ على أنّه تعالى أراهما الشيطان وعرفهما إياه بالشخص والعين دون الوصف وكذا قوله تعالى حكاية عن الشيطان: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ...﴾ ، حيث أتى بالكلام في صورة حكاية الخطاب، ويدل ذلك على متكلم مشعور به.

وكذا قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ ، والقسم إنما يكون من مقاسم مشعور به.

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ كلّ ذلك يدلّ على أنه كان يتراءى لهما وكانا يشاهدانه.

ولو كان حالهما عليهما السلام مثل حالنا من عدم المشاهدة حين الوسوسة لجاز لهما أن يقولا: ربّنا إننا لم نشعر وخلنا أن هذه الوساوس هي من أفكارنا من غير استشعار بحضوره، ولا قصد لمخالفة ما وصيتنا به من التحذير من وسوسته.

وبالجملة، فهما كانا يشاهدانه ويعرفانه، والأنبياء وهم المعصومون بعصمة الله كذلك يعرفونه ويشاهدونه حين تعرضه بهم لو تعرض على ما وردت به

الروايات في نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ويحيى وأيوب وإسماعيل ومحمد ﷺ هذا.

وكذا ظاهر هذه الآيات كظاهر قوله تعالى: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ حيث ينبىء عن كونهما معه لعنه الله بحيال الشجرة في الجنة، فقد كان دخل الجنة، وصاحبهما وغرهما بوسوسته، ولا محذور فيه إذ لم تكن الجنة جنة الخلد حتى لا يدخلها الشيطان، والدليل على ذلك خروجهم جميعا من هذه الجنة.

وأما قوله تعالى خطاباً لإبليس: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ﴾[1]، فيمكن أن يكون المراد به الخروج من الملائكة، أو الخروج من السماء من جهة كونها مقام قرب وتشريف.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، ظاهر السياق أنه خطاب لآدم وزوجته وإبليس وقد خص إبليس وحده بالخطاب في سورة الأعراف حيث قال: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾، فقوله تعالى: ﴿اهْبِطُواْ﴾ كالجمع بين الخطابين وحكاية عن قضاء قضى الله به العداوة بين إبليس لعنه الله وبين آدم وزوجته وذريتهما، وكذلك قضى به حياتهم في الأرض وموتهم فيها وبعثهم منها.

وذرية آدم مع آدم في الحكم كما ربما يستشعر من ظاهر قوله: ﴿فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾، وكما سيأتي في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ﴾ من سورة الأعراف.

---

(١) الأعراف: ١٣.

إن إسجاد الملائكة لآدم عليه السلام إنما كان من جهة أنه خليفة أرضي، فكان المسجود له آدم وحكم السجدة لجميع البشر، فكان أقامه آدم عليه السلام مقام المسجود له معنونا بعنوان الأنموذج والنائب.

وبالجملة، يشبه أن تكون هذه القصة التي قصها الله تعالى من إسكان آدم وزوجته الجنة، ثم إهباطهما لأكل الشجرة كالمثل يمثل به ما كان الإنسان فيه قبل نزوله إلى الدنيا من السعادة والكرامة بسكونه حظيرة القدس، ومنزل الرفعة والقرب، ودار نعمة وسرور، وأنس ونور، ورفقاء طاهرين، وأخلاء روحانيين، وجوار ربّ العالمين.

ثم إنه يختار مكانه كل تعب وعناء ومكروه وألم بالميل إلى حياة فانية، وجيفة منتنة دانية، ثم إنه لو رجع بعد ذلك إلى ربه لأعاده إلى دار كرامته وسعادته ولو لم يرجع إليه وأخلد إلى الأرض واتبع هواه فقد بدل نعمة الله كفرا وأحل بنفسه دار البوار، جهنم يصلاها وبئس القرار.

﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ...﴾

التلقّي هو التلقن، وهو أخذ الكلام مع فهم وفقه وهذا التلقي كان هو الطريق المسهل لآدم عليه السلام توبته.

ومن ذلك يظهر أن التوبة توبتان: توبة من الله تعالى وهي الرجوع إلى العبد بالرحمة، وتوبة من العبد وهي الرجوع إلى الله بالاستغفار والانقلاع من المعصية.

وتوبة العبد، محفوفة بتوبتين من الله تعالى، فإن العبد لا يستغني عن ربّه في حال من الأحوال، فرجوعه عن المعصية إليه يحتاج إلى توفيقه تعالى وإعانته ورحمته حتى يتحقق منه التوبة، ثم تمس الحاجة إلى قبوله تعالى وعنايته

ورحمته، فتوبة العبد إذا قبلت كانت بين توبتين من الله كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُواْ﴾[١].

وأما أن هذه الكلمات ما هي؟ فربما يحتمل أنها هي ما يحكيه الله تعالى عنهما في سورة الأعراف بقوله: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢]، إلا أن وقوع هذه الكلمات أعني قوله: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا﴾ قبل قوله: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ﴾ في سورة الأعراف ووقوع قوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ﴾ بعد قوله: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُواْ﴾، في هذه السورة لا يساعد عليه.

لكن ها هنا شيء: وهو أنك عرفت في صدر القصة أن الله تعالى حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وهو تعالى لم يرد عليهم دعواهم على الخليفة الأرضي بما رموه به ولم يجب عنه بشيء إلا أنه علم آدم الأسماء كلها. ولولا أنه كان فيما صنعه تعالى من تعليم الأسماء ما يسد باب اعتراضهم ذلك لم ينقطع كلامهم ولا تمت الحجة عليهم قطعاً.

ففي جملة ما علمه الله تعالى آدم من الأسماء أمر ينفع العاصي إذا عصى والمذنب إذا أذنب، فلعل تلقيه من ربه كان متعلقاً بشيء من تلك الأسماء.

﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ...﴾.

وهذا أوّل ما شرع من الدين لآدم عليه السلام وذريته، أوجز الدين كلّه في جملتين لا يزاد عليه شيء إلى يوم القيامة.

---

(١) التوبة: ١١٩.

(٢) الأعراف: ٢٣.

وأنت إذا تدبّرت هذه القصة ـ قصة الجنة ـ وخاصة ما وقع في سورة طـه وجدت أن المستفاد منها أن جريان القصة أوجب قضاءين منه تعالى في آدم وذريته، فأكل الشجرة أوجب حكمه تعالى وقضاءه بالهبوط والاستقرار في الأرض والحياة فيها تلك الحياة الشقية التي حذرا منها حين نهيا عن اقتراب الشجرة هذا.

وأن التوبة ثانياً: تعقب قضاء وحكماً ثانياً منه تعالى بإكرام آدم وذريته بالهداية إلى العبودية فالمقضي أولا كان نفس الحياة الأرضية، ثم بالتوبة طيب الله تلك الحياة بأن ركب عليها الهداية إلى العبودية، فتألّفت الحياة من حياة أرضية، وحياة سماوية.

بقي هنا شيء وهو القول في خطيئة آدم فنقول: ظاهر الآيات في بادىء النظر وإن كان تحقق المعصية والخطيئة منه عليه السلام كما قال تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾[1]، وكما اعترف به فيما حكاه الله عنهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا﴾[2].

لكن التدبّر في آيات القصة والدقة في النهي الوارد عن أكل الشجرة يوجب القطع بأن النهي المذكور لم يكن نهياً مولوياً وإنما هو نهي إرشادي يراد به الإرشاد والهداية إلى ما في مورد التكليف من الصلاح والخير لا البعث والإرادة المولوية.

ويدلّ على ذلك أولاً: أنه تعالى فرع على النهي في هذه السورة وفي سورة الأعراف أنه ظلم حيث قال: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾، ثم

---

(١) طه: ١٢١.

(٢) الأعراف: ٢٣.

بدّله في سورة طه من قوله: ﴿فَتَشْقَى﴾ مفرعاً إيّاه على ترك الجنة.

ومعنى الشقاء التعب ثم ذكر بعده كالتفسير له : ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾.

فأوضح أنّ المراد بالشقاء هو التعب الدنيوي، الذي تستتبعه هذه الحياة الأرضية من جوع وعطش وعراء وغير ذلك.

فالتوقي من هذه الأمور هو الموجب للنهي الكذائي لا جهة أخرى مولوية فالنهي إرشادي، ومخالفة النهي الإرشادي لا توجب معصية مولوية، وتعديا عن طور العبودية وعلى هذا فالمراد بالظلم أيضاً في ما ورد من الآيات ظلمهما على أنفسهما في إلقائها في التعب والتهلكة دون الظلم المذموم في باب الربوبية والعبودية وهو ظاهر.

وثانياً: أن التوبة، وهي الرجوع من العبد إذا استتبع القبول من جانب المولى أوجب كون الذنب كلا ذنب، والمعصية كأنها لم تصدر، فيعامل مع العاصي التائب معاملة المطيع المنقاد، وفي مورد فعله معاملة الامتثال والانقياد.

ولو كان النهي عن أكل الشجرة مولوياً وكانت التوبة توبة عن ذنب عبودي ورجوعاً عن مخالفة نهي مولوي كان اللازم رجوعهما إلى الجنة مع أنهما لم يرجعا.

ومن هنا يعلم أن استتباع الأكل المنهي للخروج من الجنة كان استتباعاً ضرورياً تكوينياً، نظير استتباع السم للقتل والنار للإحراق، كما في موارد التكاليف الإرشادية لا استتباعا من قبيل المجازاة المولوية في التكاليف المولوية، كدخول النار لتارك الصلاة، واستحقاق الذم واستيجاب البعد في المخالفات

العمومية الاجتماعية المولوية.

وثالثاً: أن قوله تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾، وهو كلمة جامعة لجميع التشريعات التفصيلية التي أنزلها الله تعالى في هذه الدنيا من طرق ملائكته وكتبه ورسله، يحكي عن أول تشريع شرع للإنسان في هذه الدنيا التي هي دنيا آدم وذريته، وقد وقع على ما يحكي الله تعالى بعد الأمر الثاني بالهبوط ومن الواضح أن الأمر بالهبوط أمر تكويني متأخر عن الكون في الجنة واقتراف الخطيئة، فلم يكن حين مخالفة النهي واقتراب الشجرة لا دين مشروع ولا تكليف مولوي فلم يتحقق عند ذلك ذنب عبودي، ولا معصية مولوية.

ولا ينافي ذلك كون خطاب «اسجدوا» للملائكة ولإبليس وهو قبل خطاب «لا تقربا»، خطاباً مولوياً لأن المكلف غير المكلف.

فإن قلت: إذا كان النهي نهياً إرشادياً لا نهياً مولوياً فما معنى عده تعالى فعلهما ظلما وعصيانا وغواية؟.

قلت: أما الظلم فقد مر أن المراد به ظلمهما لأنفسهما في جنب الله تعالى، وأما العصيان فهو لغة عدم الانفعال أوالانفعال بصعوبة كما يقال: كسرته فانكسر وكسرته فعصى، والعصيان وهو عدم الانفعال عن الأمر أوالنهي كما يتحقق في مورد التكاليف المولوية كذلك يتحقق في مورد الخطابات الإرشادية.

وأما تعين معنى المعصية في هذه الأزمنة عندنا جماعة المسلمين في مخالفة مثل صل، أو صم، أو حج، أو لا تشرب الخمر، أو لا تزن ونحو ذلك فهو تعين بنحو الحقيقة الشرعية أو المتشرعة لا يضر بعموم المعنى بحسب اللغة

والعرف العام هذا.

وأما الغواية فهو عدم اقتدار الإنسان مثلا على حفظ المقصد وتدبير نفسه في معيشته بحيث يناسب المقصد ويلائمه.

وواضح أنه يختلف باختلاف الموارد من إرشاد ومولوية.

فإن قلت: فما معنى التوبة حينئذ وقولهما: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

قلت: التوبة كما مر هي الرجوع، والرجوع يختلف بحسب اختلاف موارده.

فكما يجوز للعبد المتمرد عن أمر سيده وإرادته أن يتوب إليه، فيرد إليه مقامه الزائل من القرب عنده كذلك يجوز للمريض الذي نهاه الطبيب نهياً إرشادياً عن أكل شيء معين من الفواكه والمأكولات، وإنما كان ذلك منه مراعاة لجانب سلامته وعافيته فلم ينته المريض عن نهيه فاقترفه فتضرر فأشرف على الهلاك.

يجوز أن يتوب إلى الطبيب ليشير إليه بدواء يعيده إلى سابق حاله وعافيته، فيذكر له أن ذلك محتاج إلى تحمل التعب والمشقة والعناء والرياضة خلال مدة حتى يعود إلى سلامة المزاج الأولية، بل إلى أشرف منها وأحسن.

وأما المغفرة والرحمة والخسران فالكلام فيها نظير الكلام في نظائرها في اختلافها بحسب اختلاف مواردها.[1]

---

(١) الميزان ١: ٢٠١ ـ ٢١٠.

قصة آدم عليه السلام في الروايات

في التوحيد، عن الصادق عليه السلام في حديث قال: لعلّك ترى أن الله لم يخلق بشراً غيركم ؟ بلى والله لقد خلق ألف ألف آدم أنتم في آخر أولئك الآدميين.[1]

قال المؤلّف رحمه الله : ونقل ابن ميثم في شرح نهج البلاغة عن الباقر عليه السلام ما في معناه[2].

ورواه الصدوق في الخصال أيضاً[3].

وفي الخصال، عن الصادق عليه السلام قال: إن الله تعالى خلق اثني عشر ألف عالم كل عالم منهم أكبر من سبع سماوات وسبع أرضين ما يرى عالم منهم أن الله عز وجل عالما غيرهم.[4]

وفيه[5]، عن أبي جعفر عليه السلام: لقد خلق الله عز وجل في الأرض منذ خلقها سبعة عالمين ليس هم من ولد آدم خلقهم من أديم الأرض فأسكنهم فيها واحداً بعد واحد مع عالمه، ثمّ خلق الله عزّ وجل آدم أبا البشر وخلق ذريته منه.[6]

---

(١) التوحيد: ٢٣٧ ح ٢.

(٢) شرح نهج البلاغة لابن ميثم البحراني ١: ١٧٣.

(٣) الخصال ٢: ٦٥٢ ح ٥٤.

(٤) الخصال ٢: ٦٣٩ ح ١٤.

(٥) الخصال ٢: ٣٥٨ ح ٤٥.

(٦) الميزان ٤: ٢٣١

في تفسير العياشي، عن الصادق عليه السلام، قال: ما علم الملائكة بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، لولا أنهم قد كانوا رأوا من يفسد فيها ويسفك الدماء.[١]

قال المؤلّف رحمه الله: يمكن أن يشير بها إلى دورة في الأرض سابقة على دورة بني آدم هذه كما وردت فيه الأخبار.

وفي المعاني، عن الصادق عليه السلام: إن الله عزّ وجل علم آدم أسماء حججه كلها ثم عرضهم وهم أرواح على الملائكة فقال: أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين بأنكم أحق بالخلافة في الأرض لتسبيحكم وتقديسكم من آدم فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله عزّ ذكره، فعلموا أنهم أحقّ بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه وحججه على بريته، ثم غيّبهم عن أبصارهم واستعبدهم بولايتهم ومحبتهم، وقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.[٢]

في تفسير العياشي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما أن خلق الله آدم أمر الملائكة أن يسجدوا له فقالت الملائكة في أنفسها: ما كنا نظن أن الله خلق خلقاً أكرم عليه منا فنحن جيرانه ونحن أقرب الخلق إليه. فقال الله: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾، فيما أبدوا من أمر بني الجان وكتموا ما في أنفسهم، فلاذت الملائكة الذين قالوا ما قالوا بالعرش.[٣]

---

(١) تفسير العياشي ١: ٣٢ح ٩.

(٢) الميزان ١: ١٨٣ ـ ١٨٤.

(٣) تفسير العياشي ١: ٣٣ح ١٤.

وفي التفسير أيضاً، عن علي بن الحسين عليهما السلام : ما في معناه وفيه: فلما عرفت الملائكة أنها وقعت في خطيئة لاذوا بالعرش، وأنها كانت عصابة من الملائكة وهم الذين كانوا حول العرش، لم يكن جميع الملائكة إلى أن قال: فهم يلوذون حول العرش إلى يوم القيامة.[١]

قال المؤلّف رحمه الله : يمكن أن يستفاد مضمون الروايتين من قوله حكاية عن الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ـ إلى قوله : ـ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾.[٢]

وفي تفسير العياشي، أيضاً عن أبي العباس عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: سألته عن قول الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، ما ذا علمه؟ قال الأرضين والجبال والشعاب والأودية، ثم نظر إلى بساط تحته، فقال: وهذا البساط مما علمه.[٣]

وفي التفسير، أيضاً عن داود بن سرحان العطار، قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فدعا بالخوان فتغذينا ثم دعا بالطست والدست سنانه فقلت: جعلت فداك، قوله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، الطست والدست سنانه منه، فقال عليه السلام : الفجاج والأودية وأهوى بيده كذا وكذا.[٤]

وفي تفسير القمي : خلق الله آدم فبقي أربعين سنة مصوراً، وكان يمر به إبليس اللعين فيقول: لأمر ما خلقت؟ فقال: العالم، فقال إبليس: لئن أمرني الله بالسجود لهذا لعصيته ـ إلى أن قال: ـ ثم قال الله تعالى للملائكة: اسجدوا لآدم،

---

(١) تفسير العياشي ١: ٣٠ح ٧.

(٢) الميزان ١: ١٩٠.

(٣) تفسير العياشي ١: ٣٢ح ١١.

(٤) تفسير العياشي ١: ٣٣ح ١١.

فسجدوا، فأخرج إبليس ما كان في قلبه من الحسد، فأبى أن يسجد.[١]

وفي البحار، عن قصص الأنبياء، عن الصادق عليه السلام قال: أمر إبليس بالسجود لآدم فقال: يا ربّ وعزتك إن أعفيتني من السجود لآدم لأعبدنك عبادة ما عبدك أحد قط مثلها، قال الله جلّ جلاله: إني أحب أن أطاع من حيث أريد وقال: إن إبليس رن أربع رنات: أوّلهن يوم لعن، ويوم أهبط إلى الأرض، ويوم بعث محمد صلى الله عليه وآله وسلم على فترة من الرسل، وحين أنزلت أُمّ الكتاب، ونخر نخرتين: حين أكل آدم من الشجرة، وحين أهبط من الجنة، وقال في قوله تعالى: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾، وكانت سوآتهما لا ترى فصارت ترى بارزة، وقال الشجرة التي نهي عنها آدم هي السنبلة[٢].[٣]

وفي تفسير القمي، حدثني أبي رفعه قال: سئل الصادق عليه السلام عن جنة آدم من جنان الدنيا كانت أم من جنان الآخرة؟ فقال: كانت من جنان الدنيا تطلع فيها الشمس والقمر، ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبدا. قال: فلما أسكنه الله تعالى الجنة وأباحها له إلا الشجرة لأنه خلق خلقة لا تبقى إلا بالأمر والنهي والغذاء واللباس والاكتنان والنكاح، ولا يدرك ما ينفعه مما يضره إلا بالتوفيق فجاءه إبليس فقال له: إنكما إن أكلتما من هذه الشجرة التي نهاكما الله عنها صرتما ملكين وبقيتما في الجنة أبداً، وإن لم تأكلا منها أخرجكما الله من الجنة، وحلف لهما أنه لهما ناصح كما قال الله عز وجل حكاية عنه: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ

---

(١) تفسير القمي ١: ٤١.
(٢) بحار الأنوار ١١: ١٤٥ ح ١٤.
(٣) الميزان ١: ١٩٢.

﴿النَّاصِحِينَ﴾، فقبل آدم قوله فأكلا من الشجرة فكان كما حكى الله: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾، وسقط عنهما ما ألبسهما الله تعالى من لباس الجنة، وأقبلا يستتران من ورق الجنة، ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، فقالا كما حكى الله عنهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ فقال الله لهما: ﴿اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾، قال: إلى يوم القيامة.(١)

وفي الكافي، عن علي بن إبراهيم روي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما خرج آدم من الجنة نزل عليه جبرئيل فقال: يا آدم، ليس خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وزوجك حواء أمته، وأسكنك الجنة وأباحها لك ونهاك مشافهة أن تأكل من هذه الشجرة فأكلت منها وعصيت الله؟ فقال آدم: يا جبرئيل إن إبليس حلف لي بالله أنه لي ناصح فما ظننت أن أحداً من خلق الله يحلف بالله كاذباً.(٢)

وفي تفسير القمي، عن الصادق عليه السلام في حديث: فقال إبليس: يا رب فكيف وأنت العدل الذي لا يجور فثواب عملي بطل؟ قال: لا، ولكن سلني من أمر الدنيا ما شئت ثواباً لعملك أعطك. فأول ما سأل: البقاء إلى يوم الدين فقال الله: وقد أعطيتك. قال: سلطني على ولد آدم. قال: سلطتك. قال: أجرني فيهم مجرى الدم في العروق. قال: قد أجريتك. قال: لا يولد لهم ولد إلا ولد لي اثنان، وأراهم ولا يروني، وأتصور لهم في كل صورة شئت. فقال: قد أعطيتك. قال: يا ربّ زدني. قال: قد جعلت لك ولذريتك صدورهم أوطاناً. قال: ربّ حسبي. قال إبليس عند

---

(١) تفسير القمي ١: ٤٣.

(٢) الكافي ١: ٢٢٥.

ذلك: فبعزتك ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[١].[٢]

وفي تفسير العياشي، أيضاً عنه عليه السلام قال زرارة: دخلت على أبي جعفر عليه السلام فقال: أي شيء عندك من أحاديث الشيعة؟ فقلت: إن عندي منها شيئاً كثيراً فقد هممت أن أوقد لها ناراً فأحرقها فقال عليه السلام: وارها تنس ما أنكرت منها فخطر على بالي الآدميون فقال: ما كان علم الملائكة حيث قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ؟

قال: وكان يقول أبو عبد الله عليه السلام: إذا حدث بهذا الحديث هو كسر على القدرية، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: إن آدم عليه السلام كان له في السماء خليل من الملائكة، فلما هبط آدم من السماء إلى الأرض استوحش الملك وشكى إلى الله تعالى وسأله أن يأذن له، فأذن له فهبط عليه فوجده قاعدا في قفرة من الأرض، فلما رآه آدم وضع يده على رأسه وصاح صيحة، قال أبو عبد الله عليه السلام: يروون أنه أسمع عامة الخلق فقال له الملك: يا آدم ما أراك إلّا وقد عصيت ربك وحملت على نفسك ما لا تطيق، أتدري ما قال لنا الله فيك فرددنا عليه؟ قال: لا.

قال: قال: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ، قلنا : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ ؟ فهو خلقك أن تكون في الأرض، أيستقيم أن تكون في السماء؟

قال أبو عبد الله عليه السلام: والله عزى بها آدم ثلاثاً.[٣]

---

(١) تفسير القمي ١: ٣٤.

(٢) الميزان ٨: ٧٣ ـ ٧٥.

(٣) تفسير العياشي ١: ٣٢ ح ١٠.

قال المؤلّف رحمه الله : ويستفاد من الرواية أن جنة آدم كانت في السماء وسيجيء فيه روايات أخر أيضاً.(١)

وفي العيون، عن عبد السلام الهروي قال: قلت للرضا عليه السلام: يا بن رسول الله أخبرني عن الشجرة التي أكل منها آدم وحواء ما كانت؟ فقد اختلف الناس فيها فمنهم من يروي أنها الحنطة، ومنهم من يروي أنها شجرة الحسد، فقال: كل ذلك حق، قلت: فما معنى هذه الوجوه على اختلافها؟

فقال عليه السلام: يا بن الصلت، إن شجرة الجنة تحمل أنواعاً، وكانت شجرة الحنطة وفيها عنب وليست كشجرة الدنيا، وإن آدم لما أكرمه الله تعالى بإسجاد ملائكته له، وبإدخاله الجنة، قال: هل خلق الله بشراً أفضل مني؟ فعلم الله عز وجل ما وقع في نفسه فناداه ارفع رأسك يا آدم وانظر إلى ساق العرش، فنظر إلى ساق العرش فوجد عليه مكتوباً: لا إله إلّا الله محمد رسول الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين وزوجته فاطمة سيدة نساء العالمين والحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

فقال آدم: يا ربِّ من هؤلاء؟

فقال عزّ وجل: يا آدم هؤلاء ذريتك، وهم خير منك ومن جميع خلقي، ولولا هم ما خلقتك ولا الجنة ولا النار ولا السماء ولا الأرض، فإياك أن تنظر إليهم بعين الحسد فأخرجك عن جواري، فنظر إليهم بعين الحسد وتمنى منزلتهم فتسلط عليه الشيطان حتى أكل من الشجرة التي نهي عنها، وتسلط على حواء فنظرت إلى فاطمة بعين الحسد حتى أكلت من الشجرة كما أكل آدم فأخرجهما الله

---

(١) الميزان ١: ١٨٣ ـ ١٨٤.

تعالى من جنته وأهبطهما من جواره إلى الأرض.[١]

وهذه الرواية كما ترى سلم فيها أن الشجرة كانت شجرة الحنطة وشجرة الحسد وأنهما أكلا من شجرة الحنطة ثمرتها وحسداً وتمنيا منزلة محمد وآله عليهم السلام، ومقتضى المعنى الأوّل أن الشجرة كانت أخفض شأناً من أن يميل إليها ويشتهيها أهل الجنة، ومقتضى الثاني أنها كانت أرفع شأناً من أن ينالها آدم وزوجته كما في رواية أُخرى أنها كانت شجرة علم محمد وآله.

وبالجملة: لهما معنيان مختلفان، لكنك بالرجوع إلى ما مر من أمر الميثاق تعرف أن المعنى واحد وأن آدم عليه السلام أراد أن يجمع بين التمتع بالجنة وهو مقام القرب من الله وفيها الميثاق أن لا يتوجه إلى غيره تعالى وبين الشجرة المنهية التي فيها تعب التعلق بالدنيا فلم يتيسر له الجمع بينهما فهبط إلى الأرض ونسي الميثاق فلم يجتمع له الأمران وهو منزلة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ثم هداه الله بالاجتباء ونزعه بالتوبة من الدنيا، وألحقه بما كان نسيه من الميثاق فافهم.

وقوله عليه السلام: فنظر إليهم بعين الحسد وتمنى منزلتهم فيه بيان أن المراد بالحسد تمني منزلتهم دون الحسد الذي هو أحد الأخلاق الرذيلة.[٢]

---

(١) عيون الأخبار ١: ٢٣٩.

(٢) الميزان ١: ٢١٦ ـ ٢١٨.

قصّة آدم ﷺ في التوراة

قال في الفصل الثاني من السفر الأوّل وهو سفر الخليقة:

وإن الله خلق آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه الحياة، فصار آدم نفساً ناطقاً، وغرس الله جناناً في عدن شرقياً، وصير هناك آدم الذي خلقه، وأنبت الله من الأرض كل شجرة، حسن منظرها وطيب مأكلها، وشجرة الحياة في وسط الجنان، وشجرة معرفة الخير والشر، وجعل نهراً يخرج من عدن ليسقي الجنان، ومن ثم يفترق فيصير أربعة أرؤس، اسم أحدها النيل، وهو المحيط بجميع بلد ذويلة الذي فيه الذهب، وذهب ذلك البلد جيد، ثم اللؤلؤ وحجارة البلور، واسم النهر الثاني جيحون، وهو المحيط بجميع بلد الحبشة، واسم النهر الثالث دجلة، وهو يسير في شرقي الموصل، واسم النهر الرابع هو الفرات.

فأخذ الله آدم وأنزله في جنان عدن ليفلحه وليحفظه وأمر الله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنان جائز لك أن تأكل، ومن شجرة معرفة الخير والشر لا تأكل، فإنك في يوم أكلك منها تستحق أن تموت.

وقال الله: لا خير في بقاء آدم وحده، اصنع له عونا حذاه، فحشر الله من الأرض جميع وحش الصحراء وطير السماء وأتى بها إلى آدم ليريه ما يسميها، فكل ما سمى آدم من نفس حية باسم هو اسمه إلى الآن.

فأسمى آدم أسماء لجميع البهائم وطير السماء وجميع وحش الصحراء ولم

يجد آدم عونا حذاه، فأوقع سباتا على آدم لئلا يحس فنام، فاستل إحدى أضلاعه وسد مكانها اللحم، وبنى الله الضلع التي أخذ امرأة، فأتى بها إلى آدم، وقال آدم هذه المرة: شاهدت عظمة من عظامي، ولحمة من لحمي، وينبغي أن تسمى امرأة لأنها من أمري أخذت، ولذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم زوجته، فيصيران كجسد واحد. وكانا جميعا عريانين آدم وزوجته ولا يحتشمان من ذلك.

الفصل الثالث: والثعبان صار حكيما من جميع حيوان الصحراء الذي خلقه الله فقال للمرأة أيقينا قال الله لا تأكلا من جميع شجر الجنان؟ قالت المرأة للثعبان من ثمر شجر الجنان نأكل، لكن من ثمر الشجرة التي في وسطه قال الله لا تأكلا منه، ولا تدنوا به كيلا تموتا، قال لهما لستما تموتان، إن الله عالم أنكما في يوم أكلكما منه تنفتح عيونكما وتصيران كالملائكة عارفي الخير والشر بزيادة، فلما رأت المرأة أن الشجرة طيبة المأكل شهية المنظر، مني للعقل، أخذت من ثمرها فأكلت، وأعطت بعلها فأكل معها، فانفتحت عيونهما فعلما أنهما عريانان فخيطا من ورق التين ما صنعا منه مآزر.

فسمعا صوت الله ماراً في الجنان برفق في حركة النهار، فاستخبأ آدم وزوجته من قبل صوت الله خباء فيما بين شجر الجنان، فنادى الله آدم، وقال له مقرراً: أين أنت؟ قال: إني سمعت صوتك في الجنان فاتقيت إذ أنا عريان فاستخبأت، قال: من أخبرك أنك عريان؟ أمن الشجرة التي نهيتك عن الأكل منها أكلت؟ قال آدم: المرأة التي جعلتها معي أعطتني من الشجرة فأكلت، قال الله للمرأة: ماذا صنعت؟ قالت: الثعبان أغراني فأكلت، قال الله للثعبان: إذ صنعت هذا بعلم فأنت ملعون من جميع البهائم وجميع وحش الصحراء وعلى صدرك تسلك وترابا تأكل طول أيام حياتك، وأجعل عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك

ونسلها، وهو يشدخ منك الرأس وأنت تلذعه في العقب، وقال للمرأة: لأكثرن مشقتك وحملك، وبمشقة تلدين الأولاد، وإلى بعلك يكون قيادك، وهو يتسلط عليك. وقال لآدم: إذ قبلت قول زوجتك فأكلت من الشجرة التي نهيتك قائلاً لا تأكل منها ملعونة الأرض بسببك بمشقة تأكل منها طول حياتك، وشوكاً ودردراً[١] تنبت لك، وتأكل عشب الصحراء، بعرق وجهك تأكل الطعام إلى حين رجوعك إلى الأرض التي أخذت منها لأنك تراب وإلى التراب ترجع.

وسمى آدم زوجته حواء لأنها كانت أم كل حي ناطق، وصنع الله لآدم وزوجته ثياب بدن وألبسهما، ثم قال الله : هو ذا آدم قد صار كواحد منا يعرف معرفة الخير والشر، والآن فيجب أن يخرج من الجنان لئلا يمد يده فيأخذ من شجرة الحياة أيضاً ويأكل فيحيا إلى الدهر، فطرده الله من جنان عدن ليفلح الأرض التي أخذ منها، ولما طرد آدم أسكن من شرقي جنان عدن الملائكة، ولمع سيف متقلب ليحفظوا طريق شجرة الحياة.

انتهى الفصل من التوراة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ ميلادية، وأنت بتطبيق القصة من الطريقين ؛ أعني طريقي القرآن والتوراة ثم التأمّل في الروايات الواردة من طريقي العامّة والخاصّة تعثر بحقائق من الحال.

---

(١) الدردر : هي شجرة البق عند أهل العراق ، وسمّيت بهذا الاسم لأنّها تحمل تفاحات على شكل حنظل مملوءة رطوبة ، فإذا جفّت وأنفقت خرج منها البق (البعوض). انظر : الجامع لمفردات الأدوية والأغذية لابن البيطار ١ : ٣٦٨.

أدب آدم وحواء عليهما السلام في دعائهم

من أدب الأنبياء عليهم السلام في توجيههم الوجوه إلى ربهم ودعائهم إياه ما حكاه الله تعالى من قول آدم عليه السلام وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1]، كلمة قالاها بعد ما أكلا من الشجرة التي نهاهما الله أن يقربا منها، وإنما كان نهي إرشاد ليس بالمولوي، ولم يعصياه عصيان تكليف، بل كان ذلك منهما مخالفة نصيحة في رعايتها صلاح حالهما، وسعادة حياتهما في الجنة الآمنة من كل شقاء وعناء، وقد قال لهما ربهما في تحذيرهما عن متابعة إبليس: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى * إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى * وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى﴾[2].

فلما وقعا في المحنة وشملتهما البلية، وأخذت سعادة الحياة يوادعهما وداع ارتحال لم يشتغلا بأنفسهما اشتغال اليائس البائس، ولم يقطع القنوط ما بينهما وبين ربهما من السبب الموصول بل بادرا إلى الالتجاء بالله الذي إليه أمرهما، وبيده كل خير يأملانه لأنفسهما فأخذا وتعلقا بصفة ربوبيته المشتملة على كل ما يدفع به الشر ويجلب به الخير، فالربوبية هي الصفة الكريمة يربط العبد بالله سبحانه.

ثم ذكرا الشر الذي يهددهما بظهور آياته وهو الخسران ـ كأنهما اشتريا لذة الأكل بطاعة الإرشاد الإلهي فبان لهما أن سعادتهما قد أشرفت بذلك على الزوال ـ

---

(١) الأعراف: ٢٣.

(٢) طه: ١٩١.

في الحياة، وذكرا حاجتهما إلى ما يدفع هذا الشر عنهما فقالا: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، أي إن خسران الحياة يهددنا وقد أطل بنا وما له من دافع إلا مغفرتك للذنب الصادر عنا وغشيانك إيانا بعد ذلك برحمتك وهي السعادة لما أن الإنسان بل كل موجود مصنوع يشعر بفطرته المغروزة أن من شأن الأشياء الواقعة في منزل الوجود ومسير البقاء أن تستتم ما يعرضها من النقص والعيب، وأن السبب الجابر لهذا الكسر هو الله سبحانه وحده فهو من عادة الربوبية.

ولذلك كان يكفي مجرد إظهار الحال، وإبراز ما نزل على العبد من مسكنة الحاجة فلا حاجة إلى السؤال بلفظ بل في بدو الحاجة أبلغ السؤال وأفصح الاقتراح.

ولذلك لم يصرحا بما يسألانه ولم يقولا: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا﴾ ولأنهما - وهو العمدة - أوقفا أنفسهما بما صدر عنهما من المخالفة موقف الذلة والمسكنة التي لا وجه معها ولا كرامة، فنتجت لهما التسليم المحض لما يصدر في ذلك من ساحة العزة ومن الحكم فكفا عن كل مسألة واقتراح غير أنهما ذكرا أنه ربهما فأشارا إلى ما يطمعان فيه منه مع اعترافهما بالظلم.

فكان معنى قولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ : أسأنا فيما ظلمنا أنفسنا فأشرفنا بذلك على الخسران المهدد لعامة سعادتنا في الحياة فهو ذا الذلة والمسكنة أحاطت بنا، والحاجة إلى إمحاء وسمة الظلم وشمول الرحمة شملتنا، ولم يدع ذلك لنا وجهة ولا كرامة نسألك بها، فها نحن مسلمون لحكمك أيها الملك العزيز فلك الأمر ولك الحكم غير أنك ربنا ونحن مربوبان لك نأمل منك ما يأمله مربوب من ربه.[1]

(١) الميزان ٦: ٣٧٧.





قصّة

هابيل وقابيل



﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيراً مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾﴾

سورة المائدة

الآيات تنبّىء عن قصّة ابني آدم، وتبيّن أنّ الحسد ربّما يبلغ بابن آدم إلى حيث يقتل أخاه ظالماً فيصبح من الخاسرين، ويندم ندامة لا يستتبع نفعاً، وهي بهذا المعنى ترتبط بما قبلها من الكلام على بني إسرائيل واستنكافهم عن الإيمان برسول الله ﷺ فإن إباءهم عن قبول الدعوة الحقّة لم يكن إلّا حسداً وبغياً، وهذا شأن الحسد يبعث الإنسان إلى قتل أخيه ثم يوقعه في ندامة وحسرة لا مخلص عنها أبداً، فليعتبروا بالقصّة ولا يلحوا في حسدهم ثم في كفرهم ذاك الإلحاح.[1]

---

(١) الميزان ٥ : ٤٨٤ ـ ٤٨٥.

قصّة هابيل وقابيل في الروايات

في تفسير العياشي، عن هشام بن سالم، عن حبيب السجستاني، عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما قرب ابنا آدم القربان فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال: تقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل دخله من ذلك حسد شديد، وبغى على هابيل، ولم يزل يرصده ويتبع خلوته حتى ظفر به متنحيا من آدم فوثب عليه وقتله، فكان من قصتهما ما قد أنبأ الله في كتابه مما كان بينهما من المحاورة قبل أن يقتله، الحديث.(١)

قال المؤلّف رحمه الله : والرواية من أحسن الروايات الواردة في القصة وهي رواية طويلة يذكر عليه السلام فيها: تولد هبة الله شيث لآدم بعد ذلك ووصيته له وجريان أمر الوصية بين الأنبياء، وسننقلها إن شاء الله في موضع يناسبها، وظاهرها أن قابيل إنما قتل هابيل غيلة من غير أن يمكنه من نفسه، كما هو المناسب للاعتبار، وقد تقدم في البيان المتقدم.

واعلم: أن الذي ضبطته الروايات من اسم الابنين: هابيل وقابيل، والذي في التوراة الدائرة: هابيل وقايين.

ولا حجة في ذلك لانتهاء سند التوراة إلى واحد مجهول الحال مع ما هي عليه من التحريف الظاهر.

---

(١) تفسير العياشي ١: ٣٠٦ ـ ٣٠٩ ح ٧٧.

وفي تفسير القمي، قال: حدثنا أبي عن الحسن بن محبوب، عن هشام بن سالم، عن أبي حمزة الثمالي، عن ثوير بن أبي فاختة قال: سمعت علي بن الحسين عليه السلام يحدث رجالاً من قريش قال: لما قربا ابنا آدم القربان قرب أحدهما أسمن كبش كان في صيانته، وقرب الآخر ضغثاً من سنبل فتقبل من صاحب الكبش وهو هابيل، ولم يتقبل من الآخر، فغضب قابيل، فقال لهابيل: والله لأقتلنك، فقال هابيل: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين. فطوعت له نفسه قتل أخيه فلم يدر كيف يقتله حتى جاء إبليس فعلمه فقال: ضع رأسه بين حجرين ثم اشدخه فلما قتله لم يدر ما يصنع به، فجاء غرابان فأقبلا يتضاربان حتى اقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، ثم حفر الذي بقي في الأرض بمخالبه، ودفن فيه صاحبه، قال قابيل: ﴿يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾، فحفر له حفيرة ودفنه فيها فصارت سنة يدفنون الموتى.

فرجع قابيل إلى أبيه فلم ير معه هابيل فقال له آدم: أين تركت ابني؟ قال له قابيل: أرسلتني عليه راعياً؟ فقال آدم: انطلق معي إلى مكان القربان، وأوجس نفس آدم بالذي فعل قابيل، فلما بلغ مكان القربان استبان له قتله، فلعن آدم الأرض التي قبلت دم هابيل، وأمر آدم أن يلعن قابيل، ونودي قابيل من السماء لعنت كما قتلت أخاك، ولذلك لا تشرب الأرض الدم. فانصرف آدم يبكي على هابيل أربعين يوماً وليلة، فلما جزع عليه شكى ذلك إلى الله فأوحى الله إليه أني واهب لك ذكراً يكون خلفاً عن هابيل، فولدت حواء غلاماً زكياً مباركاً، فلما كان

في اليوم السابع أوحى الله إليه: يا آدم إن هذا الغلام هبة مني لك فسمّه هبة الله، فسمّاه آدم هبة الله.(١)

قال المؤلّف ﷺ: الرواية من أوسط الروايات الواردة في القصة وما يلحق بها وهي مع ذلك لا تخلو عن تشويش في متنها حيث إن ظاهرها أن قابيل أوعد هابيل بالقتل ثم لم يدر كيف يقتل؟ وهو معنى غير معقول إلا أن يراد أنه تحير في أنه أي سبب من أسباب القتل؟ يختاره لقتله فأشار إليه إبليس ـ لعنه الله ـ أن يشدخ رأسه بالحجارة، وهناك روايات أُخر مروية من طرق أهل السنّة والشيعة يقرب مضمونها من مضمون هذه الرواية.

واعلم أن في القصة روايات كثيرة مختلفة المضامين عجيبتها كالقائلة إن الله أخذ كبش هابيل فخزنه في الجنة أربعين خريف، ثم فدى به إسماعيل فذبحه إبراهيم.(٢)

والقائلة: إن هابيل مكّن قابيل من نفسه وأنه تحرج أن يبسط يده إلى أخيه.(٣)

والقائلة: إن قابيل لما قتل أخاه عقل الله إحدى رجليه إلى فخذها من يوم قتله إلى يوم القيامة، وجعل وجهه إلى اليمين حيث دار دارت عليه حظيرة من ثلج في الشتاء، وعليه في الصيف حظيرة من نار ومعه سبعة أملاك كلما ذهب ملك جاء الآخر.(٤)

---

(١) تفسير القمي ١: ١٦٥ ـ ١٦٦.

(٢) الدر المنثور ٢: ٢٧٣.

(٣) تفسير القرطبي ٣: ١٣٣.

(٤) الدر المنثور ٢: ٢٧٣.

والقائلة: إنه معذب في جزيرة من جزائر البحر علقه الله منكوساً، وهو كذلك إلى يوم القيامة.[١]

والقائلة: إن قابيل بن آدم معلق بقرونه في عين الشمس تدور به حيث دارت في زمهريرها وحميمها إلى يوم القيامة، فإذا كان يوم القيامة صيّره الله إلى النار.[٢]

والقائلة: إن ابن آدم الذي قتل أخاه كان قابيل الذي ولد في الجنة.[٣]

والقائلة: إن آدم لما بان له قتل هابيل رثاه بعدة أبيات بالعربية.

والقائلة: إنه كان من شريعتهم أن الإنسان إذا قصده آخر تركه وما يريد من غير أن يمتنع منه[٤]، إلى غير ذلك من الروايات.

فهذه وأمثالها روايات من طرق جلها أو كلها ضعيفة، وهي لا توافق الاعتبار الصحيح ولا الكتاب يوافقها فهي بين موضوعة بينة الوضع وبين محرفة أومما غلط فيه الرواة من جهة النقل بالمعنى.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة عن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: يعجز أحدكم أتاه الرجل أن يقتله أن يقول هكذا؟ وقال بإحدى يديه على الأخرى فيكون كالخير من ابني آدم، وإذا هو في الجنة وإذا قاتله في النار.[٥]

قال المؤلّف رحمه الله: وهي من روايات الفتن، وهي كثيرة روى أكثرها السيوطي

(١) تفسير العيّاشي ١: ٣١١ ح ٨٠.
(٢) تفسير العيّاشي ١: ٣١١ ح ٨٢.
(٣) الدر المنثور ٢: ٢٧٦.
(٤) الدر المنثور ٢: ٢٧٤.
(٥) الدر المنثور ٢: ٢٧٥.

في الدر المنثور، كالذي رواه عن البيهقي عن أبي موسى عن النبي ﷺ قال: اكسروا سيفكم يعني في الفتنة واقطعوا أوتاركم والزموا أجواف البيوت، وكونوا فيها كالخير من ابني آدم، وما رواه عن ابن جرير وعبد الرزاق عن الحسن قال: قال رسول الله ﷺ: إن ابني آدم ضربا مثلا لهذه الأمة فخذوا بالخير منهما، إلى غير ذلك.

وهذه روايات لا تلائم بظاهرها الاعتبار الصحيح المؤيد بالآثار الصحيحة الآمرة بالدفاع عن النفس والانتصار للحق، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ﴾[١].

على أنها جميعاً تفسر قوله تعالى في القصة حكاية عن هابيل: ﴿لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ﴾ بأن المراد تمكين هابيل لأخيه في قتله وتركه الدفاع، وقد عرفت ما فيه.

ومما يوجب سوء الظن بها أنها مروية عن أناس قعدوا في فتنة الدار وفي حروب علي ﵇ مع معاوية والخوارج وطلحة والزبير، فالواجب توجيهها بوجه إن أمكن وإلّا فالطرح.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن عساكر عن علي ﵇: أن النبي ﷺ قال: بدمشق جبل يقال له: «قاسيون» فيه قتل ابن آدم أخاه.[٢]

قال المؤلّف ﵀: والرواية لا بأس بها غير أن ابن عساكر روى بطريق عن

(١) الحجرات: ٩.

(٢) الدر المنثور ٢: ٢٧٥.

كعب الأحبار أنه قال: إن الدم الذي على جبل قاسيون هو دم ابن آدم.[١]

وبطريق آخر عن عمرو بن خبير الشعباني قال: كنت مع كعب الأحبار على جبل دير المران فرأى لجة سائلة في الجبل فقال: هاهنا قتل ابن آدم أخاه، وهذا أثر دمه جعله الله آية للعالمين.[٢]

والروايتان تدلّان على أنه كان هناك أثر ثابت يدعى أنه دم هابيل المقتول، ويشبه أن يكون ذلك من الأمور الخرافية التي ربما وضعوها لصرف وجوه الناس إليها بالزيارة وإيتاء النذور وإهداء الهدايا نظير آثار الأكف والأقدام المعمولة على الأحجار وقبر الجدة وغير ذلك.

وفي الدر المنثور، أخرج أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأوّل كفل من دمها لأنّه أوّل من سن القتل.[٣]

قال المؤلّف ؓ: وقد روي هذا المعنى من طرق أهل السنة والشيعة بغير هذا الطريق.

وفي الكافي، بإسناده عن حمران قال: قلت لأبي جعفر ؑ، ما معنى قول الله عزّ وجل: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً**﴾.

(١) الدر المنثور ٢: ٢٧٥.
(٢) الدر المنثور ٢: ٢٧٥.
(٣) الدر المنثور ٢: ٢٧٦.

قال: قلت: وكيف ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾، وإنما قتل واحدة؟

قال: يوضع في موضع من جهنم إليه منتهى شدة عذاب أهلها، لو قتل الناس جميعاً كان إنما دخل ذلك المكان، قلت: فإن قتل آخر؟ قال: يضاعف عليه.[١]

قال المؤلّف ﷺ: ورواه الصدوق في معاني الأخبار، عن حمران مثله.[٢]

وقوله: «قلت: فإن قتل آخر؟»، إشارة إلى ما تقدّم بيانه من إشكال لزوم تساوي القتل الواحد معه منضماً إلى غيره، وقد أجاب عليه‌السلام عنه بقوله: «يضاعف عليه» ولا يرد عليه أنه رفع اليد عن التسوية التي يشير إليها حديث المنزلة: ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ...﴾، حيث إن لازم المضاعفة عدم تساوي الواحد والكثير أو الجميع، وجه عدم الورود أن تساوي المنزلة راجع إلى سنخ العذاب وهو كون قاتل الواحد والاثنين والجميع في واد واحد من أودية جهنم، ويشير إليه قوله عليه‌السلام في الرواية: «لو قتل الناس جميعاً كان إنما دخل ذلك المكان».

ويشهد على ما ذكرنا ما رواه العياشي في تفسيره عن حمران عن أبي عبد الله عليه‌السلام: في الآية قال عليه‌السلام منزلة في النار إليها انتهاء شدة عذاب أهل النار جميعا فيجعل فيها، قلت: وإن كان قتل اثنين؟ قال: ألا ترى أنه ليس في النار منزلة أشد عذابا منها؟ قال: يكون يضاعف عليه بقدر ما عمل، الحديث فإن الجمع بين النفي والإثبات في جوابه عليه‌السلام ليس إلا لما وجهنا به الرواية، وهو أن الاتحاد والتساوي في سنخ العذاب، وإليه تشير المنزلة، والاختلاف في شخصه ونفس ما يذوقه القاتل فيه.[٣]

---

(١) الكافي ٧: ٢٧١ ح ١.

(٢) معاني الأخبار: ٣٧٩ ح ٢.

(٣) تفسير العياشي ١: ٣١٣ ح ٨٤.

ويشهد عليه أيضاً في الجملة ما فيه أيضاً عن حنان بن سدير، عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾، قال: واد في جهنم لو قتل الناس جميعاً كان فيه، ولو قتل نفس واحدة كان فيه.(١)

قال المؤلّف رحمه الله: وكأن الآية منقولة فيها بالمعنى.

وفي الكافي، بإسناده عن فضيل بن يسار قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: قول الله عزّ وجل في كتابه: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾، قال: من حرق أو غرق. قلت: من أخرجها من ضلال إلى هدى؟ قال: ذلك تأويلها الأعظم.(٢)

قال المؤلّف رحمه الله: ورواه الشيخ في أماليه(٣) والبرقي في المحاسن(٤)، عن فضيل، عنه عليه السلام.

وروي الحديث عن سماعة وحمران عن أبي عبد الله عليه السلام.(٥)

والمراد بكون الإنقاذ من الضلالة تأويلاً أعظم للآية كونه تفسيراً أدق لها، والتأويل كثيراً ما كان يستعمل في صدر الإسلام مرادفاً للتفسير.

ويؤيّد ما ذكرناه ما في تفسير العياشي، عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته عن قول الله: ﴿مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾، فقال: له في النار مقعد لو قتل الناس جميعاً لم يزد على

---

(١) تفسير العياشي ١: ٣١٣ ح ٨٦.
(٢) الكافي ٢: ٢١٠ ـ ٢١١.
(٣) الأمالي ١: ٢٣٠.
(٤) المحاسن ١: ٢٣٢ ح ١٨١.
(٥) المحاسن ١: ٢٣٢ ح ١٨٢.

ذلك العذاب. قال: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾ لم يقتلها أو أنجى من غرق أو حرق، وأعظم من ذلك كلّه يخرجها من ضلالة إلى هدى.[١]

قال المؤلّف ﷺ: وقوله: «لم يقتلها»، أي لم يقتلها بعد ثبوت القتل لها كما في مورد القصاص.

وفيه، عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: سألته: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾، قال: من استخرجها من الكفر إلى الإيمان.[٢]

قال المؤلّف ﷺ: وقد ورد هذا المعنى في كثير من الروايات الواردة من طرق أهل السنّة.

وفي المجمع: روي عن أبي جعفر عليه السلام: المسرفون الذين يستحلون المحارم ويسفكون الدماء.[٣]

---

(١) تفسير العياشي ١: ٣١٣ح ٨٧.
(٢) تفسير العياشي ١: ٣١٣ح ٨٨.
(٣) مجمع البيان ٣: ١٨٧.

تطابق قصّة هابيل وقابيل في التوراة والقرآن

١ ـ القصّة في التوراة

في الإصحاح الرابع من سفر التكوين من التوراة ما نصّه :

١ ـ وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين وقالت اقتنيت رجلا من عند الرب.

٢ ـ ثم عادت فولدت أخاه هابيل وكان هابيل راعيا للغنم وكان قايين عاملا في الأرض.

٣ ـ وحدث من بعد أيام أن قايين قدم من أثمار الأرض قربانا للرب .

٤ ـ وقدم هابيل أيضاً من أبكار غنمه ومن سمانها فنظر الرب إلى هابيل وقربانه .

٥ ـ ولكن إلى قايين وقربانه لم ينظر فاغتاظ قايين جدا وسقط وجهه .

٦ ـ فقال الرب لقايين لماذا اغتظت ولماذا سقط وجهك؟

٧ ـ إن أحسنت أفلا رفع، وإن لم تحسن فعند الباب خطيئة رابضة وإليك اشتياقها وأنت تسود عليها.

٨ ـ وكلم قايين هابيل أخاه وحدث إذ كانا في الحقل أن قايين قام على هابيل أخيه وقتله .

٩ ـ فقال الرب لقايين أين هابيل أخوك فقال لا أعلم أ حارس أنا لأخي .

١٠ ـ فقال ماذا فعلت صوت دم أخيك صارخ إلي من الأرض .

١١ ـ فالآن ملعون أنت من الأرض التي فتحت فاها لتقبل دم أخيك من يدك .

١٢ ـ متى عملت الأرض لا تعود تعطيك قوتها تائها وهاربا تكون في الأرض .

١٣ ـ فقال قايين للرب ذنبي أعظم من أن يتحمل .

١٤ ـ إنك قد طردتني اليوم عن وجه الأرض ومن وجهك أختفي وأكون تائها وهاربا في الأرض فيكون كل من وجدني يقتلني .

١٥ ـ فقال له الرب لذلك كل من قتله قايين فسبعة أضعاف ينتقم منه وجعل الرب لقايين علامة لكي لا يقتله كل من وجده .

١٦ ـ فخرج قايين من لدن الرب وسكن في أرض نود شرقي عدن، انتهى.

٢ ـ القصّة في القرآن

والذي في القرآن من قصتهما قوله تعالى :

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ * إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ * فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ * فَبَعَثَ اللّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ

لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾[١].

وعليك أن تتدبّر ما تشتمل عليه القصة على ما قصتها التوراة وعلى ما قصها القرآن ثم تطبق بينهما ثم تقضي ما أنت قاض.

فأوّل ما يبدو لك من التوراة أنها جعلت الرب تعالى موجوداً أرضياً على صورة إنسان يعاشر الناس، يحكم لهم وعليهم كما يحكم أحد الناس فيهم، ويدنى ويقترب منه ويكلم كما يفعل ذلك أحدهم مع غيره ثم يختفي منه بالابتعاد والغيبة فلا يرى البعيد الغائب كما يرى القريب الحاضر، وبالجملة فحاله حال إنسان أرضي من جميع الجهات غير أنه نافذ الإرادة إذا أراد، ماضي الحكم إذا حكم، وعلى هذا الأساس يبتنى جميع تعليمات التوراة والإنجيل فيما يبثان من التعليم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ولازم القصة التي فيها: أن البشر كان يعيش يومئذ على حال المشافهة والحضور عند الله سبحانه، ثم احتجب عن قايين أو عنه وعن أمثاله وبقي الباقون على حالهم مع أن البراهين القاطعة قائمة على أن الإنسان نوع واحد متماثل الأفراد عائش في الدنيا عيشة دنيوية مادية وأن الله جل شأنه متنزه عن الاتصاف بصفات المادة وأحوالها، متقدس عن لحوق عوارض الإمكان وطوارق النقص والحدثان، وهو الذي يبينه القرآن.

وأما القرآن فإنه يقص القصة على أساس تماثل الأفراد غير أنه يذيل قصة القتل بقصة بعث الغراب فيكشف عن حقيقة كون الإنسان تدريجي الكمال بانياً

---

(١) المائدة ٢٧ ـ ٣١.

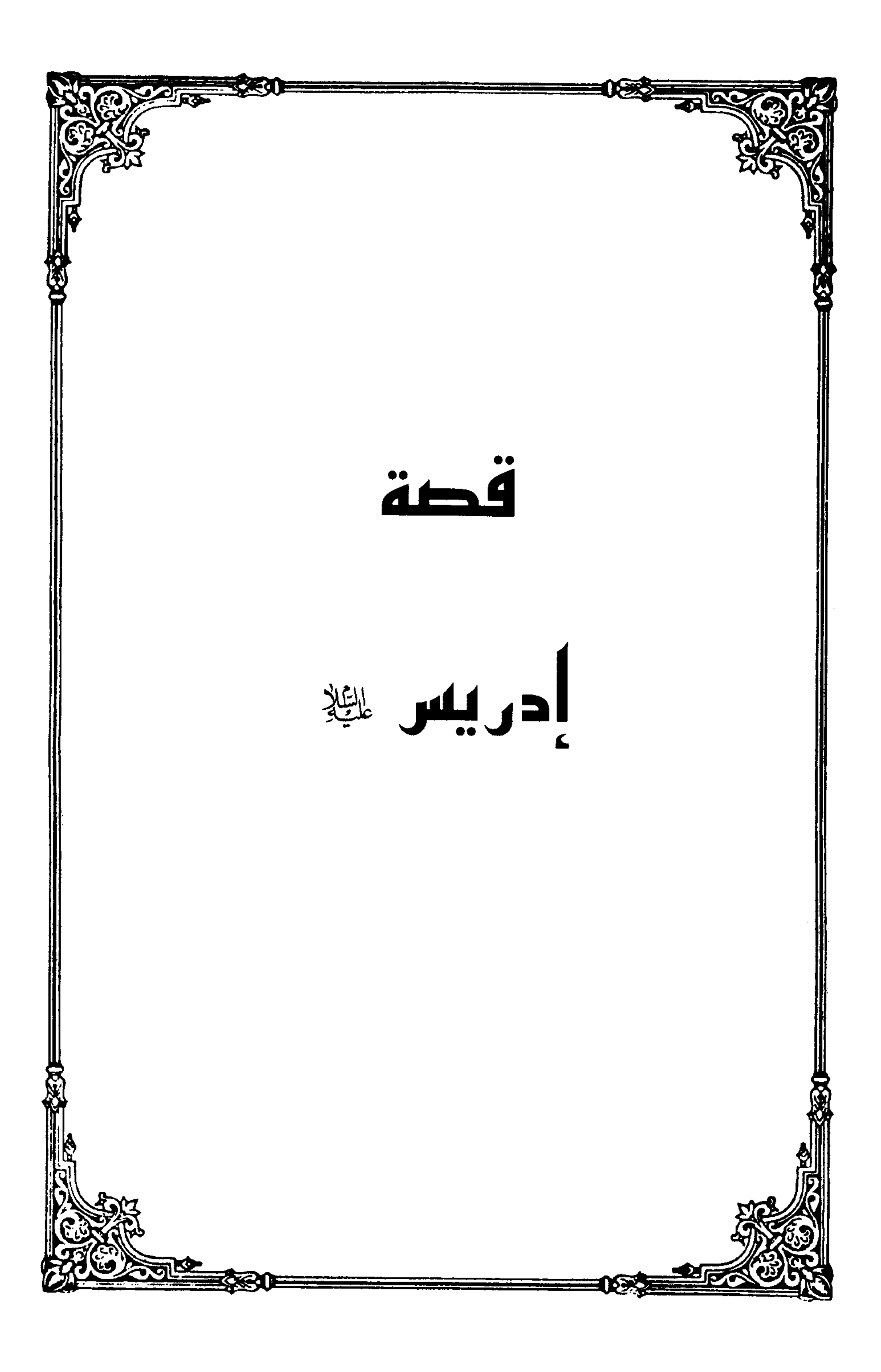
استكماله في مدارج الكمال الحيوي على أساس الحس والفكر.

ثم يذكر محاورة الأخوين فيقص عن المقتول من غرر المعارف الفطرية الإنسانية وأصول المعارف الدينية من التوحيد والنبوة والمعاد، ثم أمر التقوى والظلم وهما الأصلان العاملان في جميع القوانين الإلهية والأحكام الشرعيّة، ثم العدل الإلهي في مسألة القبول والرد والمجازاة الأخروية.

ثم ندامة القاتل بعد صنعه وخسرانه في الدنيا والآخرة، ثم يبين بعد ذلك كلّه أن القتل من شآمة أمره أن الذي يقع منه على نفس واحدة كالذي يقع منه على الناس جميعا، وأن من أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا.[١]

---

(١) الميزان ٥: ٥٢٠.



قصة

إدريس عليه السلام



﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً ﴿٥٧﴾﴾.

سورة مريم

﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾.

سورة الأنبياء



إدريس في القرآن

لم يذكر عليه السلام في القرآن إلّا في الآيتين من سورة مريم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً * وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾[1]، وفي قوله: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[2].

وفي هذه الآيات ثناء منه تعالى عليه جميل، فقد عدّه نبيّاً وصدّيقاً ومن الصابرين ومن الصالحين، وأخبر أنه رفعه مكاناً عليّاً.

---

(١) مريم: ٥٦ ـ ٥٧.

(٢) الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦.

إدريس عليه السلام في الروايات

من الروايات الواردة في قصّته ما عن كتاب كمال الدين وتمام النعمة، بإسناده عن إبراهيم بن أبي البلاد، عن أبيه، عن الباقر عليه السلام: والحديث طويل لخّصناه أنه كان بدء نبوة إدريس عليه السلام أنه كان في زمانه ملك جبار، وركب ذات يوم في بعض النزهة فمر بأرض خضراء نضرة أعجبته فأحب أن يمتلكها وكانت الأرض لعبد مؤمن فأمر بإحضاره وساومه فيها ليشتريها فلم يبعها ولم يرض به فرجع الملك إلى البلدة وهو مغموم متحير في أمره فاستشار امرأة له كان يستشيرها في هامة الأمور فأشارت عليه أن يقيم عليه شهوداً أنه خرج عن دين الملك فيقتله ويملك أرضه ففعل ما أشارت إليه وغصب الأرض.

فأوحى الله إلى إدريس أن يأتي الملك ويقول له عنه: أما رضيت أن قتلت عبدي المؤمن ظلما حتى استخلصت أرضه خالصة لك وأحوجت عياله من بعده وأجعتهم؟ أما وعزتي لأنتقمن له منك في الآجل ولأسلبن ملكك في العاجل، ولأخربن مدينتك ولأذلنّ عزّك ولأطعمن الكلاب لحم امرأتك، فقد غرك يا مبتلى حلمي عنك.

فأتاه إدريس برسالة الله وبلغه ذلك في ملأٍ من أصحابه فأخرجه الملك من

مجلسه ثم أرسل إليه بإشارة من امرأته قوماً يقتلونه، فانتبه لذلك بعض أصحاب إدريس وأشاروا عليه بالخروج والهجرة فخرج منها ليومه ومعه بعض أصحابه ثم ناجى ربه وشكى إليه ما لقيه من الملك في رسالته إليه فأوحى إليه بالخروج من القرية، وأنه سينفذ في الملك أمره ويصدق فيه قوله.

ثم سأل أن لا تمطر السماء على القرية وما حولها حتى يسأل ذلك فأجيب إليه. فأخبر إدريس بذلك أصحابه من المؤمنين وأمرهم بالخروج منها فخرجوا وتفرقوا في البلاد وكانوا عشرين رجلا وشاع خبر وحيه وخروجه بين الناس، وخرج هو متنحيا إلى كهف في جبل شاهق يعبد الله فيه ويصوم النهار ويأتيه ملك بطعام يفطر به عند كل مساء. وأنفذ الله في الملك وامرأته ومدينته ما أوحاه إلى إدريس وظهر في المدينة جبار آخر عاص، وأمسكت السماء عنهم أمطارها عشرين سنة حتى جهدوا واشتدت حالهم فلما بلغ بهم الجهد ذكر بعضهم لبعض أن الذي لقوه من الجهد والمشقة إنما هو لدعاء إدريس عليهم أن لا يمطروا حتى يسألوه وخروجه من بينهم وهم لا يعلمون أين هو؟ فالرأي أن يرجعوا ويتوبوا إلى الله ويسألوه المطر فهو أرحم بهم منه فاجتمعوا على الدعاء والتضرّع.

فأوحى الله إلى إدريس أن القوم عجوا إلي بالتوبة والاستغفار والبكاء والتضرع وقد رحمتهم وما يمنعني من أمطارهم إلا مناظرتك فيما سألتني أن لا أمطر السماء عليهم حتى تسألني فاسألني حتى أغيثهم.

قال إدريس: اللهمّ إني لا أسألك.

فأوحى الله إلى الملك الذي كان يأتيه بالطعام أن يمسك عنه فأمسك عنه ثلاثة أيام حتى بلغ به الجوع: فنادى اللهم حبست عني رزقي من قبل أن تقبض روحي فأوحى الله إليه: يا إدريس جزعت أن حبست عنك طعامك ثلاثة أيام ولم تجزع من جوع أهل قريتك وجهدهم منذ عشرين سنة ثم سألتك أن تسألني أن أمطر عليهم فبخلت ولم تسأل فأدبتك بالجوع فاهبط من موضعك واطلب المعاش لنفسك فقد وكلتك في طلبه إلى حيلتك.

فهبط إدريس إلى قرية هناك ونظر إلى بيت يصعد منه دخان فهجم عليه وإذا عجوز كبيرة ترفق قرصتين لها على مقلاة فسألها أن تطعمه فقد بلغ به جهد الجوع فقالت: يا عبدالله ما تركت لنا دعوة إدريس فضلا نطعمه أحدا وحلفت أنها لا تملك غيره شيئاً فاطلب المعاش من غير أهل هذه القرية، فقال لها: أطعميني ما أمسك به روحي وتقوم به رجلي حتى أطلب، قالت: إنهما قرصتان واحدة لي والأُخرى لابني فإن أطعمتك قوتي مت وإن أطعمتك قوت ابني مات وليس ها هنا فضل. قال: إن ابنك صغير يجزيه نصف قرصة فأطعمي كلّا منا نصفاً يكون لنا بلغة فرضيت وفعلت.

فلما رأى ابنها إدريس وهو يأكل من قرصته اضطرب حتى مات، قالت أمه: يا عبد الله قتلت ابني جزعا على قوته فقال: لا تجزعي فأنا أحييه لك الساعة بإذن الله وأخذ بعضدي الصبي وقال: أيتها الروح الخارجة عن بدنه بأمر الله ارجعي إلى بدنه بإذن الله وأنا إدريس النبي، فرجعت روح الغلام إليه.

فلما سمعت أمه كلام إدريس وقوله : أنا إدريس ، ونظرت إلى ابنها حـيّاً ، قالت : أشهد أنك إدريس النبي ، وخرجت تنادي بأعلى صوتها في القرية : أبشروا بالفرج ، فقد دخل إدريس في قريتكم، فمضى إدريس حتى جلس على مـوضع مدينة الجبّار الأوّل وقد تبدّلت تلاًّ من تراب ، فاجتمع إليه أناس من أهل قـريته واسترحموه وسألوه أن يدعو لهم فيمطروا . قال: لا، حتى يأتيني جـباركم هـذا وجميع أهل قريتكم مشاة حفاة فيسألوني ذلك .

فبلغ ذلك الجبار فبعث إلى إدريس أربعين رجلا وأمرهم أن يأتوا به إليه، فلما جاءوه وكلفوه الذهاب معهم إليه، دعا عليهم فماتوا عن آخرهم، ثم أرسل خمسمائة رجل ، فلما أتوه كلّفوه الذهاب واسترحموه فأراهم مصارع أصـحابهم وقال: ما أنا بذاهب إليه ولا سائل حتى يأتيني هو وجميع أهل القرية مشاة حفاة ويسألوني الدعاء للمطر .

فانطلقوا إليه وأخبروه بما قال وسألوه أن يمضي إليه هو وجميع أهل القرية مشاة حفاة ويسألوه أن يسأل الله أن تمطر السماء ، فأتوه حتى وقفوا بين يـديه خاضعين متذللين وسألوه أن يسأل الله أن تمطر السماء عليهم، فـعند ذلك دعـا إدريس أن تمطر السماء عليهم فأظلتهم سحابة من السـماء وأرعـدت وأبـرقت وهطلت عليهم من ساعتهم حتى ظنوا أنه الغرق فما رجـعوا إلى مـنازلهم حـتى أهمتهم أنفسهم من الماء.[١]

(١) كمال الدين ١ : ١٢٧ ح ١ .

وفي الكافي، بإسناده عن عبد الله بن أبان، عن أبي عبد الله عليه السلام: في حديث يذكر فيه مسجد السهلة: أما علمت أنه موضع بيت إدريس النبي الذي كان يخيط فيه.[١]

قال المؤلّف رحمه الله : وقد شاع بين أهل السير والآثار أنّه عليه السلام أوّل من خطّ بالقلم، وأوّل من خاط.

وفي تفسير القمي، قال: وسمي إدريس لكثرة دراسته الكتب.[٢]

قال المؤلّف رحمه الله : ورد في بعض الروايات[٣] : في معنى قوله تعالى في إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾ أنّ الله غضب على ملك من الملائكة فقطع جناحه وألقاه في جزيرة من جزائر البحر، فبقي هناك ما شاء الله، فلما بعث الله إدريس جاءه ذلك الملك وسأله أن يدعو الله أن يرضى عنه ويرد إليه جناحه، فدعا له إدريس فرد الله جناحه إليه ورضي عنه.

قال الملك لإدريس: ألك حاجة ؟

قال: نعم، أحب أن ترفعني إلى السماء حتى أنظر إلى ملك الموت فلا عيش لي مع ذكره، فأخذه الملك على جناحه حتى انتهى به إلى السماء الرابعة، فإذا هو بملك الموت يحرك رأسه تعجباً، فسلّم عليه إدريس وقال له: ما لك تحرك

---

(١) الكافي ٣: ٤٩٤ ح ١.

(٢) تفسير القمّي ٢: ٥٢.

(٣) تفسير البرهان ٣: ١٧ ح ٢.

رأسك؟ قال: إن ربّ العزة أمرني أن أقبض روحك بين السماء الرابعة والخامسة.

فقلت: يا ربّ كيف يكون هذا وبيني وبينه أربع سماوات وغلظ كل سماء مسيرة خمسمائة عام وبين كلّ سماءين مسيرة خمسمائة عام؟ ثم قبض روحه بين السماء الرابعة والخامسة وهو قوله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾.

قال المؤلّف رحمه الله: روى الحديث علي بن إبراهيم القمّي في تفسيره، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عمّن حدّثه عن أبي عبد الله عليه السلام.[١]

وروى ما في معناه في الكافي، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن عمرو بن عثمان، عن مفضل بن صالح، عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.[٢]

والروايتان على ما بهما وخاصة في الثانية[٣] منهما من ضعف السند لا معول عليهما لمخالفتهما ظاهر الكتاب لنصّه على عصمة الملائكة ونزاهتهم عن الذنب والخطيئة.

وروى الثعلبي في العرائس، عن ابن عباس وغيره ما ملخصه: أن إدريس سار ذات يوم فأصابه وهج الشمس فقال: إني مشيت في الشمس يوماً فتأذيت، فكيف بمن يحملها مسيرة خمسمائة عام في يوم واحد!

اللهمَّ خفف عنه ثقلها واحمل عنه حرها، فاستجاب الله له فأحس الملك

(١) تفسير القمّي ٢: ٥١.
(٢) الكافي ٣: ٢٥٧ ح ٢٦.
(٣) لوجود مفضّل بن صالح المتهم بالكذب.

الذي يحملها بذلك فسأل الله في ذلك فأخبره بما كان من دعاء إدريس واستجابته فسأله تعالى أن يجمع بينه وبين إدريس ويجعل بينهما خلة فأذن له.

فكان إدريس يسأله وكان مما سأله: أنك أخبرت أنك أكرم الملائكة على ملك الموت وأمكنهم عنده فاشفع لي إليه ليؤخر أجلي حتى أزداد شكراً وعبادة، فقال الملك: لا يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها.

قال: نعم ولكنه أطيب لنفسي . قال الملك أنا مكلمه لك، وما كان يستطيع أن يفعله لأحد من بني آدم فهو فاعله لك.

ثمّ حمله الملك على جناحه ورفعه إلى السماء فوضعه عند مطلع الشمس، ثم أتى ملك الموت وذكر له حاجة إدريس وشفع له فقال ملك الموت : ليس ذلك إلي ولكن إن أحببت أعلمته أجله .

قال: نعم، فنظر في ديوانه وأخبره باسمه وقال: ما أراه يموت أبداً، فإنه أجده يموت عند مطلع الشمس! قال: فإني أتيتك وقد تركته هناك . قال له: انطلق، فلا أراك تجده إلّا ميّتاً، فوالله ما بقي من أجله شيء فرجع الملك إليه فوجده ميتاً.(١)

ورواه في الدر المنثور، عن ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم، عن ابن عباس، عن كعب : إلا أن فيه أن النازل على إدريس الملك الذي كان يرفع إليه عمله وقد كان يرفع له من العمل ما يعدل عمل أهل الأرض في زمانه فأعجبه ذلك فسأل الله

---

(١) العرائس : ٤٢ .

أن ينزل إليه فأذن له فنزل إليه وصحبه ...[١]

وروى ابن أبي حاتم بطريق آخر عن ابن عباس هذا الحديث وفيه : أن إدريس مات بين جناحي الملك.[٢]

وفي الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن عمر مولى غفرة يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ان إدريس كان يرفع له وحده من العمل ما يعدل عمل أهل الأرض كلهم فأعجب ذلك ملك الموت فاستأذن الله في النزول إلى الأرض وصحبته فأذن له فنزل إليه وصحبه فكانا يسيحان في الأرض ويعبدان الله فأعجب إدريس ما رآه من عبادة صاحبه من غير كسل ولا فتور فسأله عن ذلك وأحفى في السؤال حتى عرفه ملك الموت نفسه وذكر له قصة نزوله وصحبته.

فلما عرفه إدريس سأله ثلاث حوائج له: أن يقبض روحه ساعة ثم يردها إليه فاستأذن الله وفعل، وأن يرفعه إلى السماء ويريه النار فاستأذن وفعل، وأن يريه الجنة فاستأذن وفعل فدخل الجنة وأكل من ثمارها وشرب من مائها فقال له ملك الموت: اخرج يا نبي الله فقد أصبت حاجتك، فامتنع من الخروج وتعلق بشجرة هناك، وخاصم ملك الموت قائلاً: قال الله: ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾[٣] وقد ذقته، وقال: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾[٤] وقد وردت النار، وقال: ﴿وَمَا هُم

(١) الدر المنثور ٤: ٢٧٤ .
(٢) الدر المنثور ٤: ٢٧٤ .
(٣) الأنبياء: ٣٤.
(٤) مريم: ٧١.

مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[١]، ولست أخرج من الجنة بعد دخولها فأوحى الله إلى ملك الموت خصمك عبدي فاتركه ولا تتعرض له فبقي في الجنة.[٢]

ورواه في العرائس، عن وهب، وفي آخره: فهو حي هناك فتارة يعبد الله في السماء الرابعة، وتارة يتنعم في الجنة.[٣]

وفي مستدرك الحاكم، عن سمرة: كان إدريس أبيض طويلاً ضخم، عريض الصدر، قليل شعر الجسد، كثير شعر الرأس، وكانت إحدى عينيه أعظم من الأُخرى، وكانت في صدره نكتة بيضاء من غير برص، فلمّا رأى الله من أهل الأرض ما رأى من جورهم واعتدائهم في أمر الله، رفعه الله إلى السماء السادسة فهو حيث يقول: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً﴾.[٤]

قال المؤلّف ﷺ: ولا يرتاب الناقد البصير في أن هذه الروايات إسرائيليات لعبت بها أيدي الوضع، ويدفعها الموازين العلمية والأُصول المسلمة من الدين.

اسم آخر لإدريس عليه السلام ومحل ولادته

ويسمى عليه السلام بـ«هرمس»، قال القفطي في كتاب إخبار العلماء بأخبار

---

(١) الحجر: ٤٨.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٧٤.

(٣) العرائس: ٤٣.

(٤) المستدرك للحاكم ٢: ٥٤٩.

الحكماء، في ترجمة إدريس: اختلف الحكماء في مولده ومنشئه وعمن أخذ العلم قبل النبوة فقالت فرقة: ولد بمصر وسموه هرمس الهرامسة، ومولده بمنف، وقالوا: هو باليونانية إرميس وعرب بهرمس، ومعنى إرميس عطارد، وقال آخرون: اسمه باليونانية طرميس، وهو عند العبرانيين خنوخ وعرب أخنوخ، وسماه الله عز وجل في كتابه العربي المبين إدريس.

وقال هؤلاء: إن معلمه اسمه الغوثاذيمون؛ وقيل: إغثاذيمون المصري، ولم يذكروا من كان هذا الرجل؟ إلا أنهم قالوا: إنه أحد الأنبياء اليونانيين والمصريين، وسموه أيضاً أورين الثاني وإدريس عندهم أورين الثالث، وتفسير غوثاذيمون السعيد الجد، وقالوا: خرج هرمس من مصر وجاب الأرض كلها ثم عاد إليها ورفعه الله إليه بها، وذلك بعد اثنين وثمانين سنة من عمره.

وقالت فرقة أُخرى: إن إدريس ولد ببابل ونشأ بها وأنه أخذ في أول عمره بعلم شيث بن آدم وهو جد جد أبيه، لأن إدريس ابن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث.

قال الشهرستاني: إن إغثاذيمون هو شيث.

ولما كبر إدريس آتاه الله النبوة فنهى المفسدين من بني آدم عن مخالفتهم شريعة آدم وشيث فأطاعه أقلهم وخالفه جلهم فنوى الرحلة عنهم وأمر من أطاعه منهم بذلك فثقل عليهم الرحيل من أوطانهم فقالوا له: وأين نجد إذا رحلنا مثل بابل؟ وبابل بالسريانية النهر وكأنهم عنوا بذلك دجلة والفرات، فقال: إذا هاجرنا لله رزقنا غيره.

فخرج وخرجوا وساروا إلى أن وافوا هذا الإقليم الذي سمي بابليون فرأوا النيل ورأوا وادياً خالياً من ساكن فوقف إدريس على النيل وسبح الله وقال

لجماعته: بابليون، واختلف في تفسيره فقيل: نهر كبير، وقيل: نهر كنهركم، وقيل: نهر مبارك، وقيل: إن يون في السريانية مثل أفعل التي للمبالغة في كلام العرب وكان معناه نهر أكبر فسمي الإقليم عند جميع الأمم بابليون، وسائر فرق الأمم على ذلك إلا العرب فإنهم يسمونه إقليم مصر نسبة إلى مصر بن حام النازل به بعد الطوفان والله أعلم بكل ذلك.

وأقام إدريس ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله عزّ وجلّ، وتكلم الناس في أيامه باثنين وسبعين لساناً، وعلّمه الله عزّ وجلّ منطقهم ليعلم كلّ فرقة منهم بلسانها، ورسم لهم تمدين المدن، وجمع له طالبي العلم بكل مدينة فعرفهم السياسة المدنية، وقرر لهم قواعدها فبنت كل فرقة من الأمم مدنا في أرضها، وكانت عدة المدن التي أنشئت في زمانه مائة مدينة وثماني وثمانين مدينة أصغرها ال«رها» وعلمهم العلوم.

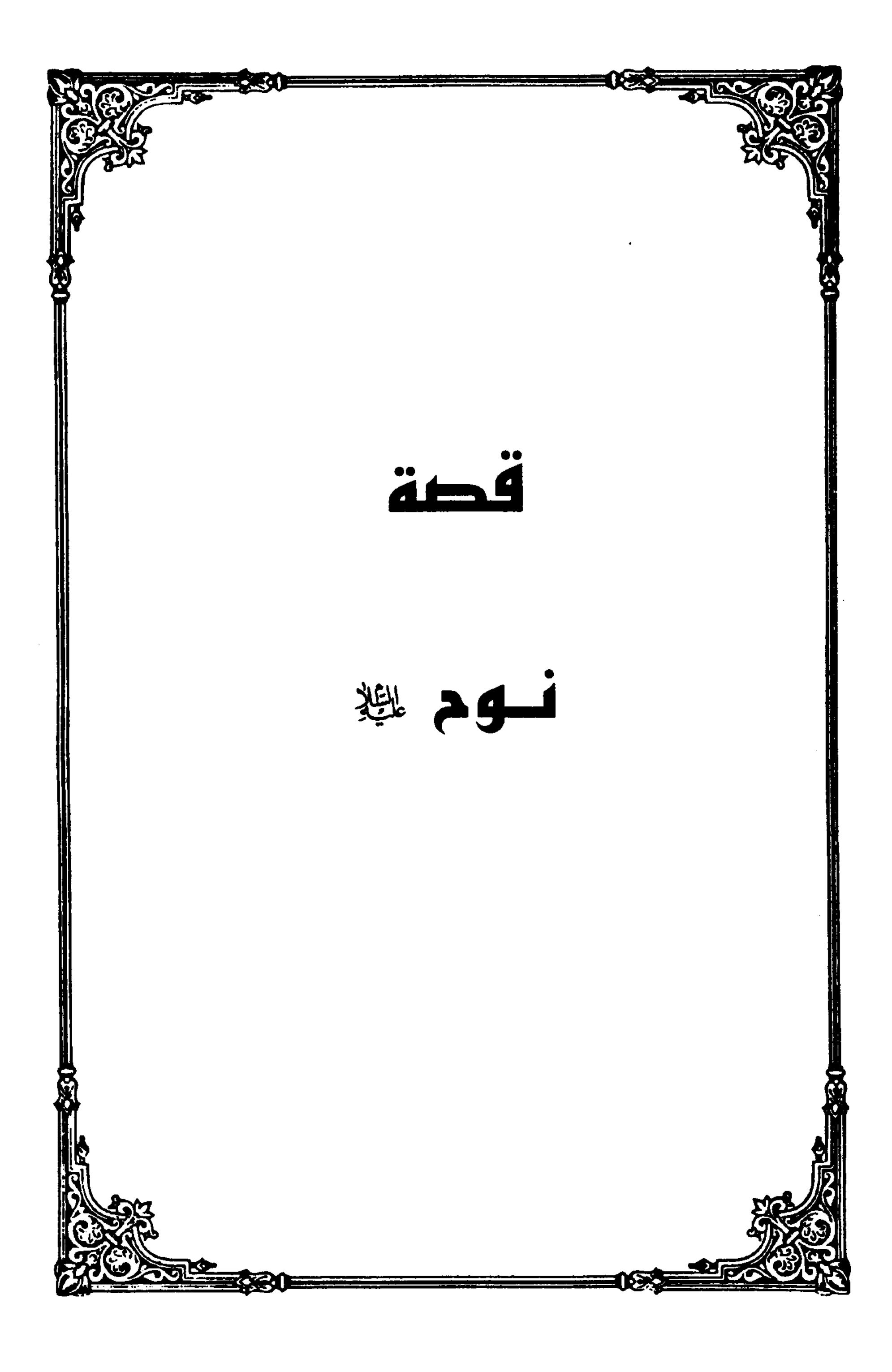
وهو أوّل من استخرج الحكمة وعلم النجوم فإن الله عزّ وجل أفهمه سر الفلك وتركيبه ونقط اجتماع الكواكب فيه وأفهمه عدد السنين والحساب ولولا ذلك لم تصل الخواطر باستقرائها إلى ذلك.

وأقام للأمم سننا في كل إقليم تليق كل سنة بأهلها، وقسم الأرض أربعة أرباع وجعل على كل ربع ملكا يسوس أمر المعمور من ذلك الربع، وتقدم إلى كل ملك بأن يلزم أهل كل ربع بشريعة سأذكر بعضها، وأسماء الأربعة الملوك الذين ملكوا: الأوّل إيلاوس وتفسيره الرحيم، والثاني أوس، والثالث سقلبيوس، والرابع أوسآمون، وقيل: إيلاوسآمون، وقيل: يسيلوخس وهو آمون الملك انتهى موضع الحاجة.

وهذه أحاديث وأنباء تنتهي إلى ما قبل التاريخ لا يعول عليها ذاك التعويل

غير أن بقاء ذكره الحي بين الفلاسفة وأهل العلم جيلاً بعد جيل وتعظيمهم له واحترامهم لساحته وإنهاءهم أصول العلم إليه يكشف عن أنه من أقدم أئمة العلم الذين ساقوا العالم الإنساني إلى ساحة التفكر الاستدلالي والإمعان في البحث عن المعارف الإلهية أو هو أولهم عليه السلام.[1]

(١) الميزان ١٤: ٨٧ـ٩٦.



قصة

نوح عليه السلام

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُواْ إِلَّا اللّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَاْ بَرِيءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُواْ مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾
حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ
وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾
وَقَالَ ارْكَبُواْ فِيهَا بِسْمِ اللّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾
وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا
بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ
يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ
بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا
سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ
وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ
أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ
لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ
إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ
أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلاَمٍ مِّنَّا وَبَركَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ
مِّمَّن مَّعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ
أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ
هَـذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

قصّة نوح ﷺ في القرآن

ذكر اسمه ﷺ في القرآن في بضع وأربعين موضعاً يشار فيها إلى شيء من قصته إجمالاً أو تفصيلاً، ولم تستوف قصته ﷺ في شيء منها استيفاء على نـهج الاقتصاص التاريخي بذكر نسبه وبيته ومولده ومسكنه ونشوئه وشـغله وعـمره ووفاته ومدفنه وسائر ما يتعلق بحياته الشخصية لما أن القرآن لم يـنزل كـتاب تاريخ يقتص تواريخ الناس من بر أو فاجر.

وإنما هو كتاب هداية يصف للناس ما فيه سـعادتهم، ويـبين لهـم الحـق الصريح ليأخذوا به فيفوزوا في حياتهم الدنيا والآخرة، وربما أشار إلى طرف من قصص الأنبياء والأمم لتظهر به سنة الله في عباده، ويعتبر به من شـملته العـناية ووفق للكرامة، وتتم به الحجة على الباقين.

وقد فصّلت قصّة نوح ﷺ في ستّ من السور القرآنـية وهـي: الأعـراف، وهود، والمؤمنون، والشعراء، والقمر، ونوح، وأكثرها تفصيلاً سـورة هـود التـي ذكرت قصّته ﷺ فيها في خمس وعشرين آية، من الآية ٢٥ إلى الآية ٤٩.

بعثه وإرساله ﷺ

كان الناس بعد آدم ﷺ يعيشون أُمّة واحدة على بساطة وسذاجة، وهم على

الفطرة الإنسانية حتى فشا فيهم روح الاستكبار وآل إلى استعلاء البعض على البعض تدريجيا واتخاذ بعضهم بعضا أربابا وهذه هي النواة الأصلية التي لو نشأت واخضرت وأينعت لم تثمر إلا دين الوثنية والاختلاف الشديد بين الطبقات الاجتماعية باستخدام القوي للضعيف، واسترقاق العزيز واستدراره للذليل، وحدوث المنازعات والمشاجرات بين الناس.

فشاع في زمن نوح عليه السلام الفساد في الأرض، وأعرض الناس عن دين التوحيد وعن سنة العدل الاجتماعي وأقبلوا على عبادة الأصنام، وقد سمى الله سبحانه منها وداً وسواعاً ويغوث ويعوق ونسراً.[١]

وتباعدت الطبقات فصار الأقوياء بالأموال والأولاد يضيعون حقوق الضعفاء والجبابرة يستضعفون من دونهم ويحكمون عليهم بما تهواه أنفسهم.[٢]

فبعث الله نوحاً عليه السلام وأرسله إليهم بالكتاب والشريعة يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه وخلع الأنداد والمساواة فيما بينهم بالتبشير والإنذار.[٣]

دينه وشريعته عليه السلام

كان عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله سبحانه ورفض الشركاء كما يظهر من جميع قصصه القرآنية والإسلام لله كما يظهر من سورتي نوح ويونس وسورة آل عمران (آية ٩١)، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما يظهر من سورة هود

(١) سورة نوح.
(٢) الأعراف، هود، نوح.
(٣) البقرة: ٢١٣.

(آية ٢٧)، والصلاة كما يظهر من آية (١٠٣) من سورة النساء، وآية (٨) من سورة الشورى. والمساواة والعدالة وأن لا يقربوا الفواحش والمنكرات وصدق الحديث والوفاء بالعهد كما في سورة الأنعام (آية ١٥١ ـ ١٥٢)، وهو عليه السلام أوّل من حكي عنه في القرآن التسمية باسم الله في الأمور الهامة[١].

اجتهاده عليه السلام في دعوته

وكان عليه السلام يدعو قومه إلى الإيمان بالله وآياته، ويبذل في ذلك غاية وسعه فيندبهم إلى الحق ليلا ونهارا وإعلانا وإسرارا فلا يجيبونه إلا بالعناد والاستكبار وكلما زاد في دعائهم زادوا في عتوهم وكفرهم، ولم يؤمن به غير أهله وعدة قليلة من غيرهم حتى أيس من إيمانهم وشكا ذلك إلى ربه وطلب منه النصر.[٢]

لبثه في قومه

لبث عليه السلام في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله سبحانه فلم يجيبوه إلا بالهزء والسخرية ورميه بالجنون وأنه يقصد به أن يتفضل عليهم حتى استنصر ربه[٣]، فأوحى إليه ربّه أنه لن يؤمن من قومه إلّا من قد آمن وعزاه فيهم[٤]، فدعا عليهم بالتبار والهلاك، وأن يطهر الله الأرض منهم عن

---

(١) سورة هود: ٤١.

(٢) سورة نوح، والقمر، والمؤمنون.

(٣) سورة العنكبوت.

(٤) سورة هود.

آخرهم[١]، فأوحى الله إليه أن ﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾[٢].

صنعه عليه السلام الفلك

أمره الله تعالى أن يصنع الفلك بتأييده سبحانه وتسديده فأخذ في صنعها وكان القوم يمرون عليه طائفة بعد طائفة فيسخرون منه وهو يصنعها على بسيط الأرض من غير ماء، ويقول عليه السلام: ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ * فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾، وقد نصب الله لنزول العذاب علما وهو أن يفور الماء من التنور.[٣]

نزول العذاب ومجيء الطوفان

حتى إذا تمت صنعة الفلك وجاء أمر الله وفار التنور أوحى الله تعالى إليه أن يحمل في السفينة من كل من الحيوان زوجين اثنين وأن يحمل أهله إلّا من سبق عليه القول الإلهي بالغرق، وهو امرأته الخائنة وابنه الذي تخلف عن ركوب السفينة، وأن يحمل الذين آمنوا[٤]، فلما حملهم وركبوا جميعاً فتح الله أبواب السماء بماء منهمر، وفجر الأرض عيوناً فالتقى الماء

---

(١) سورة نوح.

(٢) سورة هود.

(٣) سورتا هود والمؤمنون.

(٤) سورتا هود والمؤمنون.

على أمر قد قدر[١]، وعلا الماء وارتفعت السفينة عليه وهي تسير في موج كالجبال[٢]، فأخذ الناس الطوفان وهم ظالمون، وقد أمره الله تعالى إذا استوى هو ومن معه على الفلك أن يحمد الله على ما نجاه من القوم الظالمين، وأن يسأله البركة في نزوله فيقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[٣]، ويقول: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلاً مُّبَارَكاً وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾[٤].

قضاء الأمر ونزوله ومن معه إلى الأرض

فلما عمّ الطوفان وأغرق الناس كما يظهر من سورة الصافات[٥]، أمر الله الأرض أن تبلع ماءها، والسماء أن تقلع وغيض الماء واستوت السفينة على جبل الجودي وقيل بعداً للقوم الظالمين، وأوحي إلى نوح عليه السلام أن اهبط إلى الأرض بسلام منا وبركات عليك وعلى أُمم ممن معك فلا يأخذهم بعد هذا طوفان عام، ومنهم أُمم سيمتعهم الله بأمتعة الحياة ثم يمسهم عذاب أليم، فخرج هو ومن معه ونزلوا الأرض يعبدون الله بالتوحيد والإسلام، وتوارثت ذريته عليهم السلام الأرض وجعل الله ذريته هم الباقين.[٦]

---

(١) سورة القمر.

(٢) سورة هود.

(٣) المؤمنون: ٢٨.

(٤) المؤمنون: ٢٩.

(٥) الآية ٧٧.

(٦) سورتا هود والصافات.

قصة ابن نوح الغريق

كان نوح عليه السلام عندما ركب السفينة لم يركبها واحد من أبنائه، وكان لا يصدق أباه في أن من تخلف عنها فهو غريق لا محالة فرآه أبوه وهو في معزل فناداه: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ﴾، فرد على أبيه قائلاً: ﴿سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاء﴾، قال نوح عليه السلام: ﴿لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ﴾ ـ يريد أهل السفينة ـ فلم يلتفت الابن إلى قوله ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾.

ولم يكن نوح عليه السلام يعلم منه إبطان الكفر كما كان يعلم ذلك من امرأته، ولو كان علم ذلك لم يحزنه أمره وهو القائل في دعائه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾(١)...الدعاء وهو القائل: ﴿فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢)، وقد سمع قوله تعالى فيما أوحى إليه: ﴿وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(٣).

فوجد نوح عليه السلام وحزن فنادى ربه من وجده قائلا: ﴿رَبِّ إِنَّ ابُنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ ـ وعدتني بإنجاء أهلي ـ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ لا تجور في حكمك ولا تجهل في قضائك، فما الذي جرى على ابني؟ فأخذته العناية الإلهية وحالت بينه وبين أن يصرح بالسؤال في نجاة ابنه ـ وهو سؤال لما ليس له به علم ـ

---

(١) نوح: ٢٧.

(٢) الشعراء: ١١٨.

(٣) هود: ٣٧.

وأوحى الله إليه : ﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ـ فإياك أن تواجهني فيه بسؤال النجاة فيكون سؤالاً فيما ـ لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

فانكشف الأمر لنوح عليه السلام والتجأ إلى ربّه تعالى قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ أسألك أن تشملني بعنايتك وتستر علي بمغفرتك، وتعطف علي برحمتك، ولولا ذلك لكنت من الخاسرين.

خصائص نوح عليه السلام

هو عليه السلام أول أُولي العزم سادة الأنبياء عليهم السلام، أرسله الله إلى عامة البشر بكتاب وشريعة، فكتابه أوّل الكتب السماوية المشتملة على شرائع الله، وشريعته أوّل الشرائع الإلهية.

وهو عليه السلام الأب الثاني للنسل الحاضر من الإنسان إليه ينتهي أنسابهم والجميع ذريته لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[١]، وهو عليه السلام أبو الأنبياء المذكورين في القرآن ما عدا آدم وإدريس عليهما السلام، قال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾[٢].

وهو عليه السلام أوّل من فتح باب التشريع وأتى بكتاب وشريعة، وكلّم الناس بمنطق العقل وطريق الاحتجاج مضافاً إلى طريق الوحي فهو الأصل الذي ينتهي إليه دين التوحيد في العالم فله المنّة على جميع الموحدين إلى يوم القيامة، ولذلك

---

(١) الصافات : ٧٧.

(٢) الصافات : ٧٨.

خصّه الله تعالى بسلام عام لم يشاركه فيه أحد غيره، فقال عزّ من قائل: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[١].

وقد اصطفاه الله على العالمين[٢]، وعدّه من المحسنين[٣]، وسمّاه عبداً شكوراً[٤]، وعدّه من عباده المؤمنين[٥]، وسمّاه عبداً صالحاً[٦].

وآخر ما نقل من دعائه قوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾[٧].

---

(١) الصافات: ٧٩.

(٢) آل عمران: ٣٣.

(٣) الأنعام: ٨٤، الصافات: ٨٠.

(٤) الاسراء: ٣.

(٥) الصافات: ٨١.

(٦) التحريم: ١٠.

(٧) نوح:: ٢٨.

قصّته ﷺ في التوراة الحاضرة

وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا، فقال الرب لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد. لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مـائة وعشرين سنة. كان في الأرض طغاة في تلك الأيام. وبعد ذلك أيضاً إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم.

ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض. وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم. فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض. وتأسف في قلبه.

فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته. الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء. لأني حزنت أني عملتهم.

وأما نوح فوجد نعمة في عين الرب. هذه مواليد نوح. كان نوح رجلاً باراً كاملاً في أجياله ـ وسار نوح مع الله. وولد نوح ثلاثة بنين ساماً وحاماً ويافث. وفسدت الأرض أمام الله وامتلأت الأرض ظلماً. ورأى الله الأرض فإذا هي قد فسدت. إذ كان كل بشر قد أفسد طريقه على الأرض.

فقال الله لنوح نهاية كل بشر قد أتت أمامي. لأن الأرض امتلأت ظلماً منهم. فها أنا مهلكهم مع الأرض.

اصنع لنفسك فلكاً من خشب جفر، تجعل الفلك مساكن. وتطليه من داخل ومن خارج بالقار . وهكذا تصنعه. ثلاثمائة ذراع يكون طول الفلك وخمسين ذراعاً عرضه وثلاثين ذراعاً ارتفاعه. وتصنع كوا للفلك وتكمله إلى حد ذراع من فوق. وتضع باب الفلك في جانبه. مساكن سفلية ومتوسطة وعلوية تجعله.

فها أنا آت بطوفان الماء على الأرض لأهلك كل جسد فيه روح حياة من تحت السماء. كل ما في الأرض يموت. ولكن أقيم عهدي معك. فتدخل الفلك أنت وبنوك وامرأتك ونساء بنيك معك. ومن كل حي من كل ذي جسد اثنين من كل تدخل إلى الفلك لاستبقائها معك. تكون ذكراً وأنثى. من الطيور كأجناسها. ومن البهائم كأجناسها ومن كل دبابات الأرض كأجناسها. اثنين من كل تدخل إليك لاستبقائها. وأنت فخذ لنفسك من كل طعام يؤكل واجمعه عندك. فيكون لك ولها طعاماً.

ففعل نوح حسب كل ما أمره به الله. هكذا فعل.

وقال الرب لنوح: ادخل أنت وجميع بنيك إلى الفلك. لأني إياك رأيت بارا لدي في هذا الجيل. من جميع البهائم الطاهرة تأخذ معك سبعة سبعة ذكرا وأنثى. ومن البهائم التي ليست بطاهرة اثنين ذكر وأنثى. ومن طيور السماء أيضاً سبعة سبعة ذكرا وأنثى. لاستبقاء نسل على وجه كل الأرض. لأني بعد سبعة أيام أيضاً أمطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة. وأمحو عن وجه الأرض كل قائم عملته.

ففعل نوح حسب كل ما أمره به الرب.

ولما كان نوح ابن ستمائة سنة صار طوفان الماء على الأرض. فدخل نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه إلى الفلك من وجه مياه الطوفان. ومن البهائم

الطاهرة والبهائم التي ليست بطاهرة ومن الطيور وكل ما يدب على الأرض. دخل اثنان اثنان إلى نوح إلى الفلك ذكر وأنثى. كما أمر الله نوحاً.

وحدث بعد السبعة الأيام أن مياه الطوفان صارت على الأرض. في سنة ستمائة من حياة نوح في الشهر الثاني في اليوم السابع عشر من الشهر في ذلك اليوم انفجرت كل ينابيع الغمر العظيم وانفتحت طاقات السماء. وكان المطر على الأرض أربعين يوما وأربعين ليلة. في ذلك اليوم عينه دخل نوح وسام وحام ويافث بنو نوح وامرأة نوح وثلاث نساء بنيه معهم إلى الفلك. هم وكل الوحوش كأجناسها وكل الدبابات التي تدب على الأرض كأجناسها وكل الطيور كأجناسها كل عصفور ذي جناح. ودخل إلى نوح إلى الفلك اثنين اثنين من كل جسد فيه روح حياة. والداخلات دخلت ذكرا وأنثى من كل ذي جسد كما أمره الله. وأغلق الرب عليه.

وكان الطوفان أربعين يوما على الأرض. وتكاثرت المياه ورفعت الفلك فارتفع عن الأرض. وتعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض فكان الفلك يسير على وجه المياه. وتعاظمت المياه كثيرا جدا على الأرض فتغطت جميع الجبال الشامخة التي تحت كل السماء. خمسة عشرة ذراعا في الارتفاع تعاظمت المياه فتغطت الجبال. فمات كل ذي جسد كان يدب على الأرض من الطيور والبهائم والوحوش وكل الزحافات التي كانت تزحف على الأرض وجميع الناس. كل ما في أنفه نسمة روح حياة من كل ما في اليابسة مات. فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض. الناس والبهائم والدبابات وطيور السماء فانمحت من الأرض. وتبقى نوح والذين معه في الفلك فقط. وتعاظمت المياه على الأرض مائة وخمسين يوماً.

ثم ذكر الله نوحاً وكل الوحوش وكل البهائم التي معه في الفلك وأجاز الله ريحا على الأرض فهدأت المياه. وانسدت ينابيع الغمر وطاقات السماء فامتنع المطر من السماء. ورجعت المياه عن الأرض رجوعاً متوالياً وبعد مائة وخمسين يوماً نقصت المياه. واستقر الفلك في الشهر السابع في اليوم السابع عشر من الشهر على جبال أراراط. وكانت المياه تنقص نقصا متواليا إلى الشهر العاشر وفي العاشر في أول الشهر ظهرت رؤوس الجبال. وحدث من بعد أربعين يوماً أن نوحاً فتح طاقة الفلك التي كان قد عملها. وأرسل الغراب فخرج متردداً حتى نشفت المياه عن الأرض. ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلت المياه عن وجه الأرض.

فلم تجد الحمامة مقراً لرجلها فرجعت إليه إلى الفلك، لأنّ مياها كانت على وجه كلّ الأرض فمدّ يده وأخذها وأدخلها عنده إلى الفلك. فلبث أيضاً سبعة أيام أخر وعاد فأرسل الحمامة من الفلك. فأتت إليه الحمامة عند المساء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها فعلم نوح أن المياه قد قلت عن الأرض. فلبث أيضاً سبعة أيام أُخر فأرسل الحمامة فلم يعد يرجع إليه أيضاً. وكان في السنة الواحدة والستمائة في الشهر الأوّل في أوّل الشهر أن المياه نشفت عن الأرض فكشف نوح الغطاء عن الفلك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشف.

وفي الشهر الثاني في اليوم السابع والعشرين من الشهر جفت الأرض. وكلّم الله نوحاً قائلا: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك. وكل الحيوانات التي معك من كل ذي جسد الطيور والبهائم وكل الدبابات التي تدب على الأرض أخرجها معك ولتتوالد في الأرض وتثمر وتكثر على الأرض.

فخرج نوح وبنوه وامرأته ونساء بنيه معه، وكل الحيوانات وكل الدبابات

وكل الطيور كل ما يدب على الأرض كأنواعها خرجت من الفلك. وبنى نوح مذبحاً للرب. وأخذ من كل البهائم الطاهرة ومن كل الطيور الطاهرة وأصعد محرقات على المذبح.

فتنسم الرب رائحة الرضا وقال الرب في قلبه: لا أعود ألعن الأرض أيضاً من أجل الإنسان لأن تصور قلب الإنسان شرير منذ حداثته ولا أعود أيضاً أميت كل حي كما فعلت مدة كل أيام الأرض زرع وحصاد وبرد وحر وصيف وشتاء ونهار وليل لا يزال.

وبارك الله نوحاً وبنيه وقال لهم: أثمروا وأكثروا واملئوا الأرض ولتكن خشيتكم ورهبتكم على كل حيوانات الأرض وكل طيور السماء مع كل ما يدب على الأرض وكل أسماك البحر قد دفعت إلى أيديكم. كل دابة حية تكون لكم طعاما كالعشب الأخضر دفعت إليكم الجميع. غير أن لحماً بجنابة دمه لا تأكلوه. وأطلب أنا دمكم لأنفسكم فقط من يد كل حيوان أطلبه ومن يد الإنسان أطلب نفس الإنسان من يد الإنسان أخيه. سافك دم الإنسان بالإنسان يسفك دمه لأن الله على صورته عمل الإنسان. فأثمروا أنتم وأكثروا وتوالدوا في الأرض وتكاثروا فيها.

وكلّم الله نوحاً وبنيه معه قائلاً: وها أنا مقيم ميثاقي معكم ومع نسلكم من بعدكم. ومع كل ذوات الأنفس الحية التي معكم الطيور والبهائم وكل وحوش الأرض التي معكم من جميع الخارجين من الفلك حتى كل حيوان الأرض. أقيم ميثاقي معكم فلا ينقرض كل ذي جسد أيضاً بمياه الطوفان ولا يكون أيضاً طوفان ليخرب الأرض.

وقال الله: هذه علامة الميثاق الذي أنا واضعه بيني وبينكم وبين كل ذوات

الأنفس الحية التي معكم إلى أجيال الدهر. وضعت قوسي في السحاب فتكون علامة ميثاق بيني وبين الأرض. فيكون متى أنشر سحاباً على الأرض وتظهر القوس في السحاب. إني أذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد فلا يكون أيضاً المياه طوفاناً لتهلك كل ذي جسد. فمتى كانت القوس في السحاب أبصرها لأذكر ميثاقاً أبدياً بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الأرض.

وقال الله لنوح: هذه علامة الميثاق الذي أنا أقمته بيني وبين كل ذي جسد على الأرض.

وكان بنو نوح الذين خرجوا من الفلك ساماً وحاماً ويافث، وحام هو أبو كنعان، هؤلاء الثلاثة هم بنو نوح ومن هؤلاء تشعبت كل الأرض. وابتدأ نوح يكون فلاحاً وغرس كرماً. وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه. فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجاً. فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير. فقال: ملعون كنعان عبد العبيد يكون لإخوته.

وقال: مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً لهم ليفتح الله ليافث فيسكن في مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم.

وعاش نوح بعد الطوفان ثلاثمائة وخمسين سنة. فكانت كل أيام نوح تسعمائة وخمسين سنة ومات. انتهى ما قصدنا إيراده.

وهو ـ كما ترى ـ يخالف ما جاء في القرآن الكريم من وجوه:

منها: أنه لم يذكر فيه حديث استثناء امرأة نوح، بل صرح بدخولها الفلك ونجاتها مع بعلها، وقد اعتذر عنه بعض: أن من الجائز أن يكون لنوح زوجان أغرقت إحداهما ونجت الأُخرى.

ومنها: أنه لم يذكر فيه ابن نوح الغريق وقد قصّه القرآن.

ومنها: أنه لم يذكر فيه المؤمنون غير نوح وأهله، بل اقتصر عليه وعلى بنيه وامرأته ونساء بنيه.

ومنها: أنه ذكر فيه جملة عمر نوح تسعمائة وخمسين سنة، وظاهر الكتاب العزيز أنها المدة التي لبث فيها بين قومه يدعوهم إلى الله قبل الطوفان.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلّا خَمْسِينَ عَاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾[1].

ومنها: ما ذكر فيه من حديث قوس قزح، وقصة إرسال الغراب والحمامة للاستخبار، وخصوصيات السفينة من عرضها وطولها وارتفاعها وطبقاتها الثلاث، ومدة الطوفان، وارتفاع الماء، وغير ذلك فهي خصوصيات لم تذكر في القرآن الكريم وبعضها بعيد مستبعد كالميثاق بالقوس، وقد كثر الاقتصاص بمثل هذه المعاني في قصة نوح عليه السلام في لسان الصحابة والتابعين، وأكثرها بالإسرائيليات أشبه.

(١) العنكبوت: ١٤.

ما جاء في أمر الطوفان في أخبار الأُمم وأساطيرهم

قال صاحب المنار في تفسيره: قد ورد في تواريخ الأُمم القديمة ذكر للطوفان منها الموافق لخبر سفر التكوين إلا قليلاً ومنها المخالف له إلا قليلاً.

وأقرب الروايات إليه رواية الكلدانيين، وهم الذين وقع الطوفان في بلادهم فقد نقل عنهم «برهوشع» و«يوسيفوس» أن «زيزستروس» رأى في الحلم بعد موت والده «أوتيرت» أن المياه ستطغى وتغرق جميع البشر، وأمره ببناء سفينة يعتصم فيها هو وأهل بيته وخاصة أصدقائه ففعل.

وهو يوافق سفر التكوين في أنه كان في الأرض جيل من الجبارين طغوا فيها وأكثروا الفساد فعاقبهم الله بالطوفان.

وقد عثر بعض الإنجليز على ألواح من الأجر نقشت فيها هذه الرواية بالحروف المسمارية في عصر آشور بانيبال من نحو ستمائة وستين سنة قبل ميلاد المسيح، وأنها منقولة من كتابة قديمة من القرن السابع عشر قبل المسيح أو قبله فهي أقدم من سفر التكوين.

وروى اليونان خبراً عن الطوفان أورده أفلاطون وهو أن كهنة المصريين قالوا لسولون ـ الحكيم اليوناني ـ: إن السماء أرسلت طوفاناً غير وجه الأرض فهلك البشر مراراً بطرق مختلفة فلم يبق للجيل الجديد شيء من آثار من قبله ومعارفهم.

وأورد «مانيتون» خبر طوفان حدث بعد هرمس الأوّل الذي كان بعد ميناس الأوّل، وهذا أقدم من تاريخ التوراة أيضاً، وروي عن قدماء اليونان خبر طوفان عم الأرض كلها إلا «دوكاليون» وامرأته «بيرا» فقد نجوا منه.

وروي عن قدماء الفرس طوفان أغرق الله به الأرض بما انتشر فيها من الفساد والشرور بفعل أهريمان إله الشر، وقالوا: إن هذا الطوفان فار أولا من تنور العجوز زول كوفه إذ كانت تخبز خبزها فيه، ولكن المجوس أنكروا عموم الطوفان وقالوا: إنه كان خاصاً بإقليم العراق وانتهى إلى حدود كردستان.

وكذا قدماء الهنود يثبتون وقوع الطوفان سبع مرات في شكل خرافي آخرها أن ملكهم نجا هو وامرأته في سفينة عظيمة أمره بصنعها إلهه فشنو وسدها بالدسر حتى استوت على جبل جيمافات ـ هملايا ـ ولكن البراهمة كالمجوس ينكرون وقوع طوفان عام أغرق الهند كلها، وروي تعدد الطوفان عن اليابان والصين وعن البرازيل والمكسيك وغيرهما، وكل هذه الروايات تتفق في أن سبب ذلك عقاب الله للبشر بظلمهم وشرورهم.

وقد وقع في «أوستا»، وهو كتاب المجوس المقدس أن «أهورامزدا» أوحى إلى «إيما» وتعتقد المجوس أنه جمشيد الملك أنه سيقع طوفان يغرق الأرض، وأمره أن يبني حائطاً مرتفعاً غايته يحفظ من في داخله من الغرق، وأن يجمع في داخله جماعة من الرجال والنساء صالحة للنسل، ويدخل فيه من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين، ويبني في داخل السور بيوتا وقبابا في طبقات مختلفة يسكنها الناس المجتمعون هناك ويأوي إليها الدواب والطيور، وأن يغرس في داخله ما ينفع في حياة الناس من الأشجار المثمرة، ويحرث ما يرتزق به الناس من الحبوب الكريمة فيحتفظ بذلك ما به حياة الدنيا وعمارتها.

وفي تاريخ الأدب الهندي في قصة الطوفان: أنه بينما كان «مانو» هو ابن الإله عند الوثنيين يغسل يديه إذ جاءت في يده سمكة، ومما اندهش به أن السمكة كلمته وطلبت إنقاذها من الهلاك ووعدته جزاء عليه أنها ستنقذ «مانو» في المستقبل من خطر عظيم، والخطر العظيم المحدق الذي أنبأت به السمكة كان طوفانا سيجرف جميع المخلوقات وعلى ذلك حفظ «مانو» السمكة في المرتبان.

فلما كبرت أخبرت «مانو» عن السنة التي سيأتي فيها الطوفان ثم أشارت على مانو أن يصنع سفينة كبيرة ويدخل فيها عند طوفان الماء قائلة: أنا أنقذك من الطوفان، فـ«مانو» صنع السفينة والسمكة كبرت أكثر من سعة المرتبان لذلك ألقاها في البحر.

ثم جاء الطوفان كما أنبأت السمكة، وحين دخل «مانو» السفينة عامت السمكة إليه فربط السفينة بقرن على رأسها فجرتها إلى الجبال الشمالية، وهنا ربط مانو السفينة بشجرة، وعند ما تراجع الماء وجف بقي مانو وحده.

هل كانت نبوّته ﷺ عامّة للبشر؟

مسألة اختلفت فيها آراء العلماء.

فالمعروف عند الشيعة عموم رسالته، وقد ورد من طرق أهل البيت عليهم السلام ما يدل عليه، وعلى أن أُولي العزم من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم كانوا مبعوثين إلى الناس كافة.

وأما أهل السنّة[1] فمنهم من قال بعموم رسالته مستنداً إلى ظاهر الآيات الناطقة بشمول الطوفان لأهل الأرض كلهم كقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[2]، وقوله: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[4]، وما ورد في الصحيح من حديث الشفاعة أن نوحاً أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ولازمه كونه مبعوثاً إليهم كافة.

ومنهم من أنكر ذلك مستنداً إلى ما ورد في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «وكان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة»، وأجابوا عن الآيات أنها قابلة للتأويل، فمن الجائز أن يكون المراد بالأرض هي التي كانوا يسكنونها وهي

---

(١) تفسير القرآن العظيم ٤: ٤٧٧.

(٢) نوح: ٢٦.

(٣) هود: ٤٣.

(٤) الصافات: ٧٧.

وطنهم كقول فرعون لموسى وهارون: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الأَرْضِ﴾[1].

فمعنى الآية الأولى : «لا تذر على هذه الأرض من كافري قومي دياراً»، وكذا المراد بالثانية: «لا عاصم اليوم لقومي من أمر الله»، والمراد بالثالثة : «وجعلنا ذريته هم الباقين من قومه».

والحق أن البحث لم يستوف حقّه في كلامهم، والذي ينبغي أن يقال :

إن النبوة إنما ظهرت في المجتمع الإنساني عن حاجة واقعية إليها ورابطة حقيقية بين الناس وبين ربهم وهي تعتمد على حقيقة تكوينية لا اعتبارية جزافية فإن من القوانين الحقيقية الحاكمة في نظام الكون ناموس تكميل الأنواع وهدايتها إلى غاياتها الوجودية، وقد قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾[2]، وقال: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[3].

فكل نوع من أنواع الكون متوجه منذ أول تكونه إلى كمال وجوده وغاية خلقه الذي فيه خيره وسعادته، والنوع الإنساني أحد هذه الأنواع غير مستثنى من بينها فله كمال وسعادة يسير إليها ويتوجه نحوها أفراده فرادى ومجتمعين ومن الضروري عندنا أن هذا الكمال لا يتم للإنسان وحده لوفور حوائجه الحيوية وكثرة الأعمال التي يجب أن يقوم بها لأجل رفعها فالعقل العملي الذي يبعثه إلى الاستفادة من كل ما يمكنه الاستفادة منه واستخدام الجماد وأصناف النبات والحيوان في سبيل منافعه يبعثه إلى الانتفاع بأعمال غيره من بني نوعه.

---

(١) يونس : ٧٨.
(٢) الأعلى : ٣.
(٣) طه : ٥٠.

غير أن الأفراد أمثال وفي كل واحد منهم من العقل العملي والشعور الخاص الإنساني ما في الآخر ويبعثه من الانتفاع إلى مثل ما يبعث إليه الآخر ما عنده من العقل العملي، واضطرهم ذلك إلى الاجتماع التعاوني بأن يعمل الكل للكل وينتفع من عمل الغير بمثل ما ينتفع الغير من عمله فيتسخر كل لغيره بمقدار ما يسخره كما قال تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِياً﴾[1].

وهذا الذي ذكرناه من بناء الإنسان على الاجتماع التعاوني اضطراري له ألزمه عليه حاجة الحياة وقوة الرقباء فهو في الحقيقة مدني تعاوني بالطبع الثاني وإلا فطبعه الأولي أن ينتفع بكل ما يتيسر له الانتفاع حتى أعمال أبناء نوعه، ولذلك مهما قوي الإنسان واستغنى واستضعف غيره عدا عليه وأخذ يسترق الناس ويستثمرهم من غير عوض قال تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2]، وقال: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى * إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى﴾[3].

ومن الضروري أن الاجتماع التعاوني بين الأفراد لا يتم إلا بقوانين يحكم فيها وحفاظ تقوم بها، وهذا مما استمرت سيرة النوع عليه فما من مجتمع من المجتمعات الإنسانية كاملاً كان أو ناقصاً، راقياً كان أو منحطاً إلا ويجري فيه رسوم وسنن جرياناً كلياً أو أكثرياً، والتاريخ والتجربة والمشاهدة أعدل شاهد في تصديقه وهذه الرسوم والسنن وإن شئت فسمها القوانين هي مواد وقضايا فكرية تطبق عليها أعمال الناس تطبيقا كلياً أو أكثرياً في المجتمع فينتج سعادتهم حقيقة

---

(١) الزخرف: ٣٢.

(٢) إبراهيم: ٣٤.

(٣) العلق: ٦ ـ ٨.

أوظنا فهي أمور متخللة بين كمال الإنسان ونقصه، وأشياء متوسطة بين الإنسان وهو في أول نشأته وبينه وهو مستكمل في حياته عائش في مجتمعه تهدي الإنسان إلى غاية وجوده فافهم ذلك.

وقد علم أن من الواجب في عناية الله أن يهدي الإنسان إلى سعادة حياته وكمال وجوده على حد ما يهدي سائر الأنواع إليه فكما هداه بواجب عنايته من طريق الخلقة والفطرة إلى ما فيه خيره وسعادته وهو الذي يبعثها إليه نظام الكون والجهازات التي جهز بها إلى أن يشعر بما فيه نفعه ويميز خيره من شره وسعادته من شقائه كما قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[1]، يهديه بواجب عنايته إلى أصول وقوانين اعتقادية وعملية يتم له بتطبيق شؤون حياته عليها كماله وسعادته فإن العناية الإلهية بتكميل الأنواع بما يناسب نوع وجودها توجب هذا النوع من الهداية كما توجب الهداية التكوينية المحضة.

ولا يكفي في ذلك ما جهز به الإنسان من العقل ـ وهو هاهنا العملي منه ـ فإن العقل كما سمعت يبعث نحو الاستخدام ويدعو إلى الاختلاف، ومن المحال أن يفعل شيء من القوى الفعالة فعلين متقابلين ويفيد أثرين متناقضين، على أن المتخلفين من هذه القوانين والمجرمين بأنواع الجرائم المفسدة للمجتمع كلهم عقلاء ممتعون بمتاع العقل مجهزون به.

فظهر أن هناك طريقا آخر لتعليم الإنسان شريعة الحق ومنهج الكمال والسعادة غير طريق التفكر والتعقل وهو طريق الوحي، وهو نوع تكليم إلهي يعلم

---

(١) الشمس: ٧ ـ ١٠.

الإنسان ما يفوز بالعمل به والاعتقاد له في حياته الدنيوية والأخروية.

فإن قلت: الأمر سواء فإن شرع النبوة لم يأت بأزيد مما لو كان العقل لأتى به فإن العالم الإنساني لم يخضع لشرائع الأنبياء كما لم يصغ إلى نداء العقل، ولم يقدر الوحي أن يدير المجتمع الإنساني ويركبه صراط الحق فما هي الحاجة إليه؟

قلت: لهذا البحث جهتان: جهة أن العناية الإلهية من واجبها أن تهدي المجتمع الإنساني إلى تعاليم تسعده وتكمله لو عمل بها وهي الهداية بالوحي ولا يكفي فيها العقل، وجهة أن الواقع في الخارج والمتحقق بالفعل ما هو؟ وإنما نبحث في المقام من الجهة الأولى دون الثانية، ولا يضر بها أن هذه الطريقة لم تجر بين الناس إلى هذه الغاية إلا قليلاً.

وذلك كما أن العناية الإلهية تهدي أنواع النبات والحيوان إلى كمال خلقها وغاية وجودها ومع ذلك يسقط أكثر أفراد كل نوع دون الوصول إلى غايته النوعية ويفسد ويموت قبل البلوغ إلى عمره الطبيعي.

وبالجملة، فطريق النبوة مما لا مناص منه في تربية النوع بالنظر إلى العناية الإلهية وإلا لم تتم الحجة بمجرد العقل لأن له شغلا غير الشغل وهو دعوة الإنسان إلى ما فيه صلاح نفسه، ولو دعاه إلى شيء من صلاح النوع فإنما يدعوه إليه بما فيه صلاح نفسه فافهم ذلك وأحسن التدبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً * وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَى تَكْلِيماً * رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللّهُ

عَزِيزاً حَكِيماً﴾[(١)].

فمن الواجب في العناية أن ينزل الله على المجتمع الإنساني دينا يدينون به وشريعة يأخذون بها في حياتهم الاجتماعية دون أن يخص بها قوما ويترك الآخرين سدى لا عناية بهم، ولازمه الضروري أن يكون أول شريعة نزلت عليهم شريعة عامة.

وقد أخبر الله سبحانه عن هذه الشريعة بقوله عز من قائل: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾[(٢)]، فبين أنّ الناس كانوا أوّل ما نشأوا وتكاثروا على فطرة ساذجة لا يظهر فيهم أثر الاختلافات والمنازعات الحيوية ثم ظهرت فيهم الاختلافات فبعث الله الأنبياء بشريعة وكتاب يحكم بينهم بالحق فيما اختلفوا فيه، ويحسم مادة الخصومة والنزاع.

ثم قال تعالى فيما امتن به على محمد ﷺ: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾[(٣)].

ومقام الامتنان يقضي بأن الشرائع الإلهية المنزلة على البشر هي هذه التي ذكرت لا غير، وأول ما ذكر من الشريعة هي شريعة نوح، ولو لم يكن عامة للبشر كلهم وخاصة في زمنه عليه السلام لكان هناك إما نبي آخر ذو شريعة أخرى لغير قوم نوح ولم يذكر في الآية ولا في موضع آخر من كلامه تعالى، وإما إهمال سائر الناس غير قومه عليه السلام في زمنه وبعده إلى حين.

(١) النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥.

(٢) البقرة: ٢١٣.

(٣) الشورى: ١٣.

فقد بان أن نبوة نوح عليه السلام كانت عامة، وأن له كتابا وهو المشتمل على شريعته الرافعة للاختلاف، وأن كتابه أول الكتب السماوية المشتملة على الشريعة، وأن قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ﴾ هو كتابه أو كتابه وكتاب غيره من أولي العزم: إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم.

وظهر أيضاً أن ما يدلّ من الروايات على عدم عموم دعوته عليه السلام مخالف للكتاب، وفي حديث الرضا عليه السلام: أن أولي العزم من الأنبياء خمسة لكل منهم شريعة وكتاب ونبوتهم عامة لجميع من سواهم نبياً أو غير نبي.

هل الطوفان كان عاماً لجميع الأرض؟

تبين الجواب عن هذا السؤال في الفصل السابق فإن عموم دعوته ﷺ يقضي بعموم العذاب، وهو نعم القرينة على أن المراد بسائر الآيات الدالة بظاهرها على العموم ذلك كقوله تعالى حكاية عن نوح ﷺ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[1]، وقوله حكاية عنه: ﴿لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾[3].

ومن الشواهد من كلامه تعالى على عموم الطوفان ما ذكر في موضعين من كلامه تعالى أنه أمر نوحاً أن يحمل من كل زوجين اثنين فمن الواضح أنه لو كان الطوفان خاصاً بصقع من أصقاع الأرض وناحية من نواحيها كالعراق ـ كما قيل ـ لم يكن أي حاجة إلى أن يحمل في السفينة من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين. وهو ظاهر.

واختار بعضهم كون الطوفان خاصاً بأرض قوم نوح ﷺ، قال صاحب المنار في تفسيره[4]:

---

(١) نوح: ٢٦.

(٢) هود: ٤٣.

(٣) الصافات: ٧٧.

(٤) تفسير المنار ١٢: ١٠٥ وما بعدها.

أما قوله في نوح ﷺ بعد ذكر تنجيته وأهله: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾، فالحصر فيهم يجوز أن يكون إضافياً، أي الباقين دون غيرهم من قومه، وأما قوله: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾، فليس نصا في أن المراد بالأرض هذه الكرة كلها فإن المعروف من كلام الأنبياء والأقوام وفي أخبارهم أن تذكر الأرض ويراد بها أرضهم ووطنهم كقوله تعالى حكاية عن خطاب فرعون لموسى وهارون: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾[1]، يعني أرض مصر، وقوله: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا﴾، فالمراد بها مكة، وقوله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾، والمراد بها الأرض التي كانت وطنهم، والشواهد عليه كثيرة.

ولكن ظواهر الآيات تدل بمعونة القرائن والتقاليد الموروثة عن أهل الكتاب على أنه لم يكن في الأرض كلها في زمن نوح إلا قومه وأنهم هلكوا كلهم بالطوفان ولم يبق بعده فيها غير ذريته، وهذا يقتضي أن يكون الطوفان في البقعة التي كانوا فيها من الأرض سهلها وجبلها لا في الأرض كلها إلا إذا كانت اليابسة منها في ذلك الزمن صغيرة لقرب العهد بالتكوين وبوجود البشر عليها فإن علماء التكوين وطبقات الأرض ـ الجيولوجية ـ يقولون إن الأرض كانت عند انفصالها من الشمس كرة نارية ملتهبة ثم صارت كرة مائية ثم ظهرت فيها اليابسة بالتدريج.

ثم أشار إلى ما استدل به بعض أهل النظر على عموم الطوفان لجميع الأرض من أنا نجد بعض الأصداف والأسماك المتحجرة في أعالي الجبال وهذه الأشياء مما لا تتكون إلا في البحر فظهورها في رؤوس الجبال دليل على أن الماء

(١) يونس : ٧٨.

قد صعد إليها مرة من المرات، ولن يكون ذلك حتى يكون قد عم الأرض هذا.

ورد عليه بأن وجود الأصداف والحيوانات البحرية في قلل الجبال لا يدل على أنه من أثر ذلك الطوفان بل الأقرب أنه من أثر تكون الجبال وغيرها من اليابسة في الماء كما قلنا آنفا فإن صعود الماء إلى الجبال أياما معدودة لا يكفي لحدوث ما ذكر فيها.

ثم قال ما ملخصه: ان هذه المسائل التاريخية ليست من مقاصد القرآن ولذلك لم يبينها بنص قطعي فنحن نقول بما تقدم أنه ظاهر النصوص ولا نتخذه عقيدة دينية قطعية فإن أثبت علم الجيولوجية خلافه لا يضرنا لأنه لا ينقض نصا قطعيا عندنا.

قال المؤلّف ﷺ : أما ما ذكره من تأويل الآيات فهو من تقييد الكلام من غير دليل، وأما قوله في رد قولهم بوجود الأصداف والأسماك في قلل الجبال: إن صعود الماء إليها في أيام معدودة لا يكفي في حدوثها! ففيه أن من الجائز أن تحملها أمواج الطوفان العظيمة إليها ثم تبقى عليها بعد النشف فإن ذلك من طوفان يغمر الجبال الشامخة في أيام معدودة غير عزيز.

وبعد ذلك كله قد فاته ما ينص عليه الآيات أنه عليه السلام أمر أن يحمل من كل جنس من أجناس الحيوان زوجين اثنين فإن ذلك كالنص في أن الطوفان عم البقاع اليابسة من الأرض جميعا أومعظمها الذي هو بمنزلة الجميع.

فالحق أن ظاهر القرآن الكريم ـ ظهوراً لا ينكر ـ أن الطوفان كان عاماً للأرض، وأن من كان عليها من البشر أغرقوا جميعا ولم يقم لهذا الحين حجة قطعية تصرفها عن هذا الظهور.

وقد كنت سألت صديقي الفاضل الدكتور سحابي المحترم أستاذ الجيولوجيا بكلية طهران أن يفيدني بما يرشد إليه الأبحاث الجيولوجية في أمر هذا الطوفان العام إن كان فيها ما يؤيد ذلك على وجه كلي فأجابني بإيفاد مقال محصله ما يأتي مفصلاً في فصول :

١ ـ الأراضي الرسوبية

تطلق الأراضي الرسوبية في الجيولوجيا على الطبقات الأرضية التي كونتها رسوبات المياه الجارية على سطح الأرض كالبطائح والمسيلات التي غطتها الرمال ودقاق الحصى .

نعرف الأراضي الرسوبية بما تراكم فيها من الرمال ودقاق الحصى الكروية المدورة فإنها كانت في الأصل قطعات من الحجارة حادة الأطراف والزوايا حولتها إلى هذه الحالة الاحتكاكات الواقعة بينها في المياه الجارية والسيول العظيمة ثم إن الماء حملها وبسطها على الأرض في غايات قريبة أو بعيدة بالرسوب.

وليست تنحصر الأراضي الرسوبية في البطائح فغالب الأراضي الترابية من هذا القبيل تخالطها أوتكونها رمال بالغة في الدقة، وقد حملها لدقتها وخفتها إليها جريان المياه والسيول.

نجد الأراضي الرسوبية وقد غطتها طبقات مختلفة من الرمل والتراب بعضها فوق بعض من غير ترتيب ونظم، وذلك ـ أولاً ـ أمارة أن تلك الطبقات لم تتكون في زمان واحد بعينه و ـ ثانياً ـ أن مسير المياه والسيول أوشدة جريانها قد

تغير بحسب اختلاف الأزمنة.

ويتضح بذلك أن الأراضي الرسوبية كانت مجاري ومسائل في الأزمنة السابقة لمياه وسيول هامة وإن كانت اليوم في معزل من ذلك.

وهذه الأراضي التي تحكي عن جريان مياه كثيرة جدا وسيلان سيول هائلة عظيمة توجد في أغلب مناطق الأرض منها أغلب نقاط إيران كأراضي طهران وقزوين وسمنان وسبزوار ويزد وتبريز وكرمان وشيراز وغيرها، ومنها مركز بين النهرين وجنوبه، وما وراء النهر، وصحراء الشام، والهند، وجنوب فرنسا، وشرقي الصين، ومصر، وأكثر قطعات أمريكا، وتبلغ ضخامة الطبقة الرسوبية في بعض الأماكن إلى مئات الأمتار كما أنها في أرض طهران تجاوز أربعمائة مترا.

وينتج مما مر أولا: أن سطح الأرض في عهد ليس بذاك البعيد على ما سيأتي توضيحه كان مجرى سيول هائلة عظيمة ربما غطت معظم بقاعها.

وثانياً: أن الطغيان والطوفان ـ بالنظر إلى ضخامة القشر الرسوبي في بعض الأماكن ـ لم يحدث مرة واحدة ولا في سنة أو سنين معدودة بل دام أوتكرر في مئات من السنين كلما حدث مرة كون طبقة رسوبية ثم إذا انقطع غطتها طبقة ترابية ثم إذا عاد كون أخرى وهكذا وكذلك اختلاف الطبقات الرسوبية في دقة رمالها وعدمها يدل على اختلاف السيلان بالشدة والضعف.

٢ ـ الطبقات الرسوبية أحدث القشور والطبقات الجيولوجية

ترسب الطبقات الرسوبية عادة رسوبا أفقيا ولكن ربما وقعت أجزاؤها المتراكمة تحت ضغطات جانبية قوية شديدة على ما بها من الدفع من فوق ومن

تحت فتخرج بذلك تدريجاً عن الأفقية إلى التدوير والالتواء، وهذا غير ظاهر الأثر في الأزمنة القصيرة المحدودة لكن إذا تمادى الزمان بطوله كمرور الملايين من السنين ظهر الأثر وتكونت بذلك الجبال بسلاسلها الملتوية بعض تلالها في بعض وترتفع بقللها من سطوح البحار.

ويستنتج من ذلك أن الطبقات الرسوبية والقشور الأفقية الباقية على حالها من أحدث الطبقات المتكونة على البسيط، والدلائل الفنية الموجودة تدل على أن عمرها لا يجاوز عشرة آلاف إلى خمس عشرة ألف سنة من زماننا هذا.

٣ ـ انبساط البحار واتساعها بانحدار المياه إليها

كأن تكون القشور الرسوبية الجديدة عاملاً في انبساط أكثر بحار الكرة واتساعها بأطرافها فارتفعت مياهها وغطت أكثر سواحلها وعملت جزائر في السواحل أحاطت بها من معظم جوانبها.

فمن ذلك جزيرة بريطانية انقطعت في هذا الحين من فرنسا وانفصلت من أوربا بالكلية، وكانت أوربا من ناحية جنوبها وإفريقا من ناحية شمالها مرتبطتين برابط بري إلى هذا الحين فانفصلتا باتساع البحر الأبيض المتوسط، وتكون بذلك شبه جزيرة إيطاليا وشبه جزيرة تونس من شمالها الشرقي وجزائر صقلية وسردينيا وغيرها، وكانت جزائر أندونيسيا من ناحية جاوا وسوماترا إلى جنوبي جزيرة اليابان متصلة بآسيا من جهة الجنوب الشرقي إلى هذا الحين فانفصلت وتحولت إلى صورتها الفعلية، وكذا انقطاع أمريكا الشمالية من جهة شمالها عن شمال أوربا أحد الآثار الباقية من هذا العهد عهد الطوفان.

وللحركات والتحولات الأرضية الداخلية آثار في سير هذه المياه واستقرارها في البقاع الخافضة المنحدرة ولذلك كان ينكشف الماء عن بعض البقاع الساحلية المغمورة بماء البحار في حين كان الطوفان مستوليا على أكثر البسيط يكون بحيرات ويوسع بحارا، ومن هذا الباب سواحل خوزستان الجنوبية انكشف عنها ماء الخليج .

٤ ـ العوامل المؤثرة في ازدياد المياه وغزارة عملها في عهد الطوفان

الشواهد الجيولوجية التي أشرنا إلى بعضها تؤيد أن النزولات الجوية كانت غير عادية في أوائل الدور الحاضر من أدوار الحياة الإنسانية وهو عهد الطوفان، وقد كان ذلك عن تغيرات جوية هامة خارقة للعادة قطعا.

فكان الهواء حارا في هذه الدورة نسبة لكن كان ذلك مسبوقا ببرد شديد وقد غطى معظم النصف الشمالي من الكرة الثلج والجمد والجليد فمن المحتمل قوياً أن المتراكم من جمد الدورة السابقة عليه كان باقيا لم يذب بعد في النجود في أكثر بقاع المنطقة المعتدلة الشمالية.

فعمل الحرارة في سطح الأرض في دورتين متواليتين على ما به من متراكم الجمد والجليد يوجب تغيراً شديداً في الجو وانقلاباً عظيماً مؤثراً في ارتفاع بخار الماء إليه وتراكمه فيه تراكما هائلاً غير عادي وتعقبه نزولات شديدة وأمطار غزيرة غير معهودة.

نزول هذه الأمطار الغزيرة الهاطلة ثم استدامتها النزول على الارتفاعات والنجود وخاصة على سلاسل الجبال الجديدة الحدوث في جنوب آسيا ومغربها

وجنوب أوربا وشمال إفريقا كجبال ألبرز والهملايا والألب، وفي غرب أمريكا عقب جريان سيول عظيمة هائلة عليها تنحت الصخور وتحفر الأرض وتقلع أحجاراً وتحملها إلى الأراضي والبقاع المنحدرة وتحدث أودية جديدة وتعمق أخرى قديمة وتوسعها ثم تبسط ما تحمله من الحجارة والحصى والرمل تجاهها قشوراً رسوبية جديدة.

ومما كان يمد الطوفان السماوي في شدة عمله ويزيد حجم السيول الجارية أن حفر الأودية الجديدة كان يكشف عن ذخائر مائية في بطن الأرض هي منابع الآبار والعيون الجارية فيزيل القشور الحافظة لها المانعة من سيلانها فيفجر العيون ويجريها مع السيول المطرية، ويزيد في قوة تخريبها ويعينها في إغراق ما على الأرض من سهل وجبل وغمره.

غير أن الذخائر الأرضية متناهية محدودة تنفد بالسيلان وبنفادها وإمساك السماء عن الإمطار ينقضي الطوفان وتنحدر المياه إلى البحار والأراضي المنخفضة وإلى بعض الخلاء والسرب الموجود في داخل الأرض الذي أفرغته السيول بالتفجير والمص.

٥ ـ نتيجة البحث

وعلى ما قدمناه من البحث الكلي يمكن أن ينطبق ما قصّه الله تعالى من خصوصيات الطوفان الواقع في زمن نوح عليه السلام كقوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[1]، وقوله:

---

(١) القمر: ١٢.

﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾[١]، وقوله: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ﴾[٢].

ومما يناسب هذا المقام ما نشرته بعض صحف[٣] طهران في هذه الأيام وملخصه : أن جماعة من رجال العلم من أمريكا بهداية من بعض رجال الجند التركي عثروا في بعض قلل جبل آراراط في شرقي تركيا في مرتفع ١٤٠٠ قدم على قطعات أخشاب يعطي القياس أنها قطعات متلاشية من سفينة قديمة وقعت هناك تبلغ بعض هذه القطعات من القدمة ٢٥٠٠ قبل الميلاد.

والقياس يعطي أنها قطعات من سفينة يعادل حجمه ثلثي حجم مركب «كوئين ماري» الإنجليزية التي طولها ١٠١٩ قدماً وعرضها ١١٨ قدماً، وقد حملت الأخشاب إلى سانفرانسيسكو لتحقيق أمرها وأنها هل تقبل الانطباق على ما تعتقده أرباب النحل من سفينة نوح عليه السلام ؟

(١) هود : ٤٠.

(٢) هود : ٤٤.

(٣) صحيفة كيهان، عدد ١ سبتمبر ١٩٦٢، ١ ربيع الأوّل ١٣٨٢.

عمر نوح عليه السلام الطويل

القرآن الكريم يدلّ على أنه عليه السلام عمّر طويلاً، وأنه دعا قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله سبحانه، وقد استبعده بعض الباحثين لما أن الأعمار الإنسانية لا تتجاوز في الأغلب المائة أو المائة والعشرين سنة حتى ذكر بعضهم[1] أن القدماء كانوا يعدون كل شهر من الشهور سنة فالألف سنة إلا خمسين عاماً يعدل ثمانين سنة إلا عشرة شهور. وهو بعيد غايته.

وذكر بعضهم[2] أن طول عمره عليه السلام كان كرامة له خارقة للعادة،.

قال الثعلبي في قصص الأنبياء في خصائصه عليه السلام: وكان أطول الأنبياء عمراً، وقيل له أكبر الأنبياء وشيخ المرسلين، وجعل معجزته في نفسه لأنّه عمّر ألف سنة ولم ينقص له سن ولم تنقص له قوة.

والحق أنه لم يقم حتى الآن دليل على امتناع أن يعمر الإنسان مثل هذه الأعمار، بل الأقرب في الاعتبار أن يعمر البشر الأولي بأزيد من الأعمار الطبيعية اليوم بكثير لما كان لهم من بساطة العيش وقلة الهموم وقلة الأمراض المسلطة علينا اليوم وغير ذلك من الأسباب الهادمة للحياة، ونحن كلّما وجدنا معمراً عمّر مائة وعشرين إلى مائة وستين وجدناه بسيط العيش قليل الهم ساذج الفهم فليس من البعيد أن يرتقي بعض الأعمار في السابقين إلى مئات من السنين.

---

(١) تفسير المنار ١٢: ١٠٣.

(٢) المصدر السابق.

على أن الاعتراض على كتاب الله في مثل عمر نوح عليه السلام وهو يذكر من معجزات الأنبياء الخارقة للعادة شيئاً كثيراً لعجيب .

أين هو جبل الجودي؟

ذكروا[١] أنه بديار بكر من الموصل في جبال تتصل بجبال أرمينية، و قد سمّاه في التوراة «آراراط».

قال في القاموس: والجودي جبل بالجزيرة استوت عليه سفينة نوح عليه السلام، و يسمى في التوراة «آراراط».[٢]

وقال في مراصد الاطلاع : الجودي ـ مشدّدة ـ جبل مطل على جزيرة ابن عمر في شرقي دجلة من أعمال الموصل استوت عليه سفينة نوح لما نضب الماء.[٣]

ربما قيل: هب أنه أغرق قوم نوح بذنبهم فما هو ذنب سائر الحيوان الذي على الأرض حيث هلكت بطاغية المياه؟ و هذا من أسقط الاعتراض فما كل هلاك ولو كان عاماً عقوبة وانتقاماً، والحوادث العامّة التي تهلك الألوف ثم الألوف مثل الزلازل والطوفانات والوباء والطاعون كثير الوقوع في الدهر، و لله فيما يقضي حكم.[٤]

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الباب ٨، ص ١٠ .

(٢) القاموس ١ : ٢٨٥ .

(٣) مراصد الاطلاع ١ : ٣٥٦ .

(٤) الميزان ١٠ : ٣٧١ ـ ٤٠٣ .

روايات في قصّة نوح عليه السلام وقومه

في الدر المنثور، أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر عن ابن عباس قال: إن نوحاً عليه السلام كان يضرب ثم يلف في لبد فيلقى في بيته يرون أنه قد مات ثم يخرج فيدعوهم حتى إذا أيس من إيمان قومه جاءه رجل ومعه ابنه وهو يتوكأ على عصا فقال: يا بني انظر هذا الشيخ لا يغرنك قال: يا أبت أمكني من العصا ثم أخذ العصا ثم قال: ضعني في الأرض فوضعه فمشى إليه فضربه فشجه موضحة في رأسه وسالت الدماء.

قال نوح عليه السلام: رب قد ترى ما يفعل بي عبادك فإن يكن لك في عبادك حاجة فأهدهم، وإن يكن غير ذلك فصبرني إلى أن تحكم وأنت خير الحاكمين، فأوحى الله إليه وآيسه من إيمان قومه وأخبره أنه لم يبق في أصلاب الرجال ولا في أرحام النساء مؤمن قال: يا نوح ﴿أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ يعني لا تحزن عليهم ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ﴾.

قال: يا ربِّ وما الفلك ؟

قال: بيت من خشب يجري على وجه الماء فأغرق أهل معصيتي وأطهر أرضي منهم.

قال: يا ربّ وأين الماء؟ قال: إني على ما أشاء قدير.[١]

وفي الكافي، بإسناده عن المفضل قال: كنت عند أبي عبد الله عليه السلام بالكوفة أيام قدم على أبي العباس فلما انتهينا إلى الكناسة قال: ها هنا صلب عمي زيد رحمه الله، ثم مضى حتى انتهى إلى طاق الزياتين وهو آخر السراجين فنزل وقال: انزل فإن هذا الموضع كان مسجد الكوفة الأوّل الذي كان خطه آدم وأنا أكره أن أدخله راكباً. قلت: فمن غيره عن خطته؟ قال: أما أوّل ذلك فالطوفان في زمن نوح ثم غيره أصحاب كسرى والنعمان ثم غيره بعد زياد بن أبي سفيان. فقلت: وكانت الكوفة ومسجدها في زمن نوح؟

فقال لي: نعم، يا مفضل، وكان منزل نوح وقومه في قرية على منزل من الفرات مما يلي غربي الكوفة.

قال: وكان نوح رجلاً نجاراً فجعله الله عزّ وجل نبياً وانتجبه، ونوح أوّل من عمل سفينة تجري على ظهر الماء.

قال: ولبث نوح في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عزّ وجل فيهزءون به ويسخرون منه فلما رأى ذلك منهم دعا عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾[٢]، فأوحى الله عزّ وجل إلى نوح أن اصنع سفينة وأوسعها وعجل عملها فعمل نوح سفينة في مسجد الكوفة بيده، فأتى بالخشب من بعد حتى فرغ منها.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٢٧.

(٢) نوح: ٢٧.

قال المفضل: ثم انقطع حديث أبي عبد الله عليه السلام عند زوال الشمس فقام أبو عبد الله عليه السلام فصلّى الظهر والعصر ثم انصرف من المسجد فالتفت عن يساره وأشار بيده إلى موضع دار الدارين وهي موضع دار ابن حكيم وذلك فرات اليوم فقال: يا مفضل وها هنا نصبت أصنام قوم نوح: يغوث ويعوق ونسر. ثم مضى حتى ركب دابته. فقلت: جعلت فداك في كم عمل نوح سفينته؟ قال في: دورين. قلت: وكم الدوران؟ قال: ثمانين سنة. قلت: فإن العامة يقولون عملها في خمسمائة سنة؟ فقال: كلا، كيف؟ والله يقول: ﴿وَوَحْيِنَا﴾.

قال: قلت: فأخبرني عن قول الله عزّ وجل: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾[1]، فأين كان موضعه؟ وكيف كان؟ فقال: كان التنور في بيت عجوز مؤمنة في دبر قبله ميمنة المسجد. قلت له: فأين ذلك؟ قال: موضع زاوية باب الفيل اليوم. ثم قلت له: وكان بدء خروج الماء من ذلك التنور؟ فقال: نعم، إن الله عزّ وجل أحب أن يرى قوم نوح آية ثم إن الله تبارك وتعالى أرسل عليهم المطر يفيض فيضا والعيون كلهن فيضاً فغرقهم الله وأنجى نوحاً ومن معه في السفينة... الحديث.[2]

قال المؤلّف رحمه الله: والرواية على طولها غير متعلّقة بالتفسير، غير أنا أوردناها لتكون كالأنموذجة من روايات كثيرة وردت في هذه المعاني من طرق الشيعة وأهل السنة ولتكون عوناً لفهم قصص الآيات من طريق الروايات.

وفي الرواية استفادة التعجيل في صنع السفينة من قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ الآية.

---

(١) هود: ٤٠.

(٢) تفسير العياشي ١: ١٤٤ ح ١٩، بحار الأنوار ١١: ٣٣١.

وفي الرواية نسبة زياد إلى أبي سفيان، ولعلّ الوارد في لفظ الإمام «زياد» فأضيف إليه «ابن أبي سفيان» في لفظ بعض الرواة.

وفيه، بإسناده عن أبي رزين الأسدي، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن نوحاً عليه السلام لما فرغ من السفينة وكان ميعاده فيما بينه وبين ربه في إهلاك قومه أن يفور التنور ففار التنور في بيت امرأة فقالت: إن التنور قد فار فقام إليه فختمه فقام الماء وأدخل من أراد أن يدخل وأخرج من أراد أن يخرج ثم جاء إلى خاتمه فنزعه، يقول الله عزّوجل: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾[1] . قال: وكان نجره في وسط مسجدكم، ولقد نقص عن ذرعه سبعمائة ذراع.

قال المؤلّف رحمه الله : وكون فوران التنور علامة له عليه السلام يعلم به اقتراب الطوفان من الوقوع واقع في عدة من روايات الخاصة والعامة وسياق الآية : فلمّا ﴿جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ﴾ الآية، لا يخلو من ظهور في كونه ميعاداً.

وفيه، بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان شريعة نوح أن يعبد الله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد وهي الفطرة التي فطر الناس عليها وأخذ الله ميثاقه على نوح والنبيين أن يعبدوا الله تبارك وتعالى ولا يشركوا به شيئاً وأمر بالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام، ولم يفرض عليه أحكام حدود ولا فرائض مواريث فهذه شريعته. فلبث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم سرا وعلانية فلما أبوا وعتوا قال: ربِّ ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ ، فأوحى الله عزّ وجل إليه: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ ، فذلك قول نوح: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ فأوحى

---

(١) القمر: ١٢ ـ ١٤.

الله إليه: أن ﴿اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾.[١]

قال المؤلّف رحمه الله: ورواه العياشي[٢] عن الجعفي مرسلاً، وظاهر الرواية أن له عليه السلام دعاءين على قومه أحدهما وهو أوّلهما قوله: ﴿رَبِّ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ الواقع في سورة القمر، وثانيهما بعدما أيأسه الله من إيمان قومه وهو قوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ الواقع في سورة نوح.

وفي معاني الأخبار، بإسناده عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ قال: كانوا ثمانية.[٣]

قال المؤلّف رحمه الله: ورواه العياشي أيضاً عن حمران عنه عليه السلام، وللناس في عددهم أقوال أُخر: ستة أو سبعة أو عشرة أو اثنان وسبعون أو ثمانون ولا دليل على شيء منها.[٤]

وفي العيون، بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قال الرضا عليه السلام: لما هبط نوح إلى الأرض كان نوح وولده ومن تبعه ثمانين نفساً فبنى حيث نزل قرية فسمّاها قرية الثمانين.[٥]

قال المؤلّف رحمه الله: ولا تنافي بين الروايتين لجواز كون ما عدا الثمانية من أهل نوح عليه السلام وقد عمّر ما يقرب من ألف سنة يومئذ.

---

(١) بحار الأنوار ١١: ٣٣١.
(٢) تفسير العيّاشي ٢: ١٤٤ ح ١٩.
(٣) معاني الأخبار، باب معنى القليل: ١٥١.
(٤) تفسير العيّاشي ٢: ١٤٨، ح ٢٩.
(٥) بحار الأنوار ١١: ٣٢٢.

روايات بخصوص ابن نوح

وفيه، بإسناده عن الحسن بن علي الوشاء، عن الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول: قال أبي: قال أبو عبد الله عليه السلام: إن الله عزّ وجل قال لنوح: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، لأنه كان مخالفاً له، وجعل من اتبعه من أهله .

قال: وسألني كيف يقرأون هذه الآية في ابن نوح ؟ فقلت: يقرؤها الناس على وجهين : إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ، «وإنه عمل غير صالح» . فقال : كذبوا هو ابنه، ولكن الله نفاه عنه حين خالفه في دينه.[1]

قال المؤلّف رحمه الله : ولعلّه عليه السلام يشير بقوله: «وجعل من اتبعه من أهله» إلى قوله تعالى : ﴿فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾[2]، فإن الظاهر أن المراد بأهله جميع من نجا معه.[3]

وكأن المراد من قراءة الآية تفسيرها والراوي يشير بإيراد القراءتين إلى تفسير من فسر الآية بأن المراد أن امرأة نوح حملت الابن من غيره فألحقه بفراشه ولذلك قرأ بعضهم[4] : «ونادى نوح ابنها» أو «ونادى نوح ابْنَهَ» بفتح الهاء مخفف

(١) بحار الأنوار ١١ : ٣٢٠.

(٢) الأنبياء : ٧٦.

(٣) تفسير الطبري ١٢ : ٣٠.

(٤) التفسير الكبير ١٧ : ٢٣١، تفسير الكشّاف ٢ : ٣٩٦.

ابنها، ونسبوا القراءتين إلى علي وبعض الأئمة من ولده عليهم السلام .

قال في الكشاف : وقرأ علي رضي الله عنه «ابنها» والضمير لامرأته، وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير «ابنه» بفتح الهاء يريدان «ابنها» فاكتفيا بالفتحة عن الألف، وبه ينصر مذهب الحسن .

قال قتادة: سألته فقال: والله ما كان ابنه فقلت: إن الله حكى عنه: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ وأنت تقول : لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون أنه كان ابنه !

فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب ؟ واستدل بقوله من أهلي ولم يقل: مني .[1]

واستدلاله بما استدلّ به سخيف ؛ فإن الله وعده بنجاة أهله ولم يعده بنجاة من كان منه حتى يضطر إلى قول: إن ابني مني عند سؤال نجاته، وقد تقدم بيان أن لفظ الآيات لا يلائم هذا الوجه.

وما ذكر من عدم الخلاف بين أهل الكتاب منظور فيه فإن التوراة ساكتة عن قصة ابن نوح هذا الغريق.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن الأنباري في المصاحف وأبو الشيخ عن علي رضي الله عنه : أنه قرأ: «ونادى نوح ابنها».[2]

وفيه، أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، عن أبي جعفر محمد بن علي في قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ﴾ ، قال هي بلغة طي لم يكن ابنه

---

(١) الكشّاف ٢ : ٣٩٦.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٣٤.

وكان ابن امرأته.[١]

قال المؤلّف ﷺ: ورواه العياشي في تفسيره عن محمد بن مسلم عنه ﷺ.[٢]

وفي تفسير العياشي، عن موسى عن العلاء بن سيابة عن أبي عبد الله ﷺ: في قول الله: ﴿وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ﴾، قال: ليس بابنه، إنما هو ابن امرأته وهي لغة طي يقولون لابن امرأته: ابنه...[٣]

وفيه، عن زرارة عن أبي جعفر ﷺ: في قول نوح: ﴿يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا﴾، قال: ليس بابنه.

قال: قلت: إن نوحاً قال: يا بني؟ قال: فإن نوحاً قال ذلك وهو لا يعلم.[٤]

قال المؤلّف ﷺ: والمعتمد ما تقدم من رواية الوشاء عن الرضا ﷺ.

وفيه، عن إبراهيم بن أبي العلاء، عن أحدهما ﷺ قال: لما قال الله: ﴿يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ قالت الأرض: إنما أمرت أن أبلع مائي أنا فقط، ولم أؤمر أن أبلع ماء السماء، فبلعت الأرض ماءها وبقي ماء السماء فصير بحراً حول الدنيا.[٥]

وفيه، عن أبي بصير عن أبي الحسن موسى ﷺ: في حديث ذكر فيه الجودي قال: وهو جبل بالموصل.[٦]

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٣٤.

(٢) تفسير العيّاشي ٢: ١٤٨.

(٣) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٥) تفسير العيّاشي ٢: ١٤٩.

(٦) تفسير العيّاشي ٢: ١٥٠.

وفيه، عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ هو فرات الكوفة.[١]

قال المؤلّف رحمه الله: ويؤيد الرواية السابقة روايات أُخر.

وفيه، عن عبد الحميد بن أبي الديلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما ركب نوح عليه السلام في السفينة قيل: ﴿بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾.[٢]

وفي المجمع: في قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ ..الآية، قال: ويروى أن كفار قريش أرادوا أن يتعاطوا معارضة القرآن فعكفوا على لباب البر ولحوم الضأن وسلاف الخمر أربعين يوما لتصفو أذهانهم فلما أخذوا فيما أرادوا سمعوا هذه الآية فقال بعضهم لبعض: هذا كلام لا يشبهه شيء من الكلام، ولا يشبه كلام المخلوقين وتركوا ما أخذوا فيه وافترقوا.

---

(١) تفسير العيّاشي ٢: ١٤٩.

(٢) تفسير العيّاشي ٢: ١٥١.

أدب نوح ﷺ في كلامه مع الله في قصّة الدعاء لابنه

ومن أدبهم ما حكاه الله تعالى من دعوة نوح ﷺ في ابنه :

﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلاَ تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ - إلى أن قال - وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[1].

لا ريب أن الظاهر من قول نوح ﷺ أنه كان يريد الدعاء لابنه بالنجاة غير أن التدبر في آيات القصّة يكشف الغطاء عن حقيقة الأمر بنحوٍ آخرٍ : فمن جانب أمره الله بركوب السفينة هو وأهله والمؤمنون بقوله: ﴿احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ﴾[2] فوعده بإنجاء أهله واستثنى منهم من سبق عليه القول، وقد كانت امرأته كافرة كما ذكرها الله في قوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ﴾[3]، وأما ابنه فلم يظهر منه كفر

---

(١) هود : ٤٧ .

(٢) هود : ٤٠ .

(٣) التحريم : ١٠ .

بدعوة نوح، والذي ذكره الله من أمره مع أبيه وهو في معزل إنما هو معصية بمخالفة أمره عليه السلام وليس بالكفر الصريح فمن الجائز أن يظن في حقه أنه من الناجين لظهور كونه من أبنائه وليس من الكافرين فيشمله الوعد الإلهي بالنجاة.

ومن جانبٍ قد أوحى الله تعالى إلى نوح عليه السلام حكمه المحتوم في أمر الناس كما قال: ﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾[1]، فهل المراد بالذين ظلموا الكافرون بالدعوة أو يشمل كل ظلم أو هو مبهم مجمل يحتاج إلى تفسير من لدن قائله تعالى؟

فكان هذه الأمور رابته عليه السلام في أمر ابنه ولم يكن نوح عليه السلام بالذي يغفل من مقام ربه وهو أحد الخمسة أولي العزم سادات الأنبياء، ولم يكن لينسى وحي ربّه: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ ولا ليرضى بنجاة ابنه ولو كان كافراً ماحضاً في كفره، وهو عليه السلام القائل فيما دعا على قومه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[2] ولو رضي في ابنه بذلك لرضي بمثله في امرأته.

ولذلك لم يجترىء عليه السلام على مسألة قاطعة، بل ألقى مسألته كالعارض المستفسر لعدم إحاطته بالعوامل المجتمعة واقعاً على أمر ابنه، بل بدأ بالنداء باسم الرب لأنه مفتاح دعاء المربوب المحتاج السائل ثم قال: ﴿إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾، كأنّه يقول: وهذا يقضي بنجاة ابني ﴿وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ لا خطأ في أمرك ولا مغمض في حكمك فما أدري إلى م انجرّ أمره؟

---

(١) هود: ٣٧.

(٢) نوح: ٢٦.

وهذا هو الأدب الإلهي أن يقف العبد على ما يعلمه، ولا يبادر إلى مسألة ما لا يدري وجه المصلحة فيه.

فألقى نوح عليه السلام القول على وجد منه كما يدل عليه لفظ النداء في قوله: ﴿وَنَادَى نُوحٌ رَّبَّهُ﴾ فذكر الوعد الإلهي ولما يزد عليه شيئاً ولا سأل أمرا.

فأدركته العصمة الإلهية وقطعت عليه الكلام، وفسر الله سبحانه له معنى قوله في الوعد: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ أن المراد به الأهل الصالحون وليس الابن بصالح، وقد قال تعالى من قبل: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ وقد أخذ نوح عليه السلام بظاهر الأهل وأن المستثنى منهم هو امرأته الكافرة فقط، ثم فرع عليه النهي عن السؤال فيما ليس له به علم، وهو سؤال نجاة ابنه على ما كان يلوح إليه كلامه أنه سيسألها.

فانقطع عنه السؤال بهذا التأديب الإلهي، واستأنف عليه السلام بكلام آخر صورته صورة التوبة وحقيقته الشكر لما أنعم الله بهذا الأدب الذي هو من النعمة فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾، فاستعاذ إلى ربّه ممّا كان من طبع كلامه أن يسوقه إليه وهو سؤال نجاة ابنه ولا علم له بحقيقة حاله.

ومن الدليل على أنه لم يقع منه سؤال بعد هو قوله: ﴿أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ ...﴾، ولم يقل: «أعوذ بك من سؤال ما ليس لي به علم» لتدلّ إضافة المصدر إلى فاعله وقوع الفعل منه.

«لا تسألن... إلخ»، ولو كان سأله لكان من حق الكلام أن يقابل بالرد الصريح أو يقال مثلاً: «لا تعد إلى مثله» كما وقع نظيره في موارد من كلامه تعالى

كقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾[١]، وقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ ـ إلى أن قال: ـ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا﴾[٢].

ومن دعاء نوح عليه السلام ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾[٣]، حكاه الله تعالى عنه في آخر سورة نوح بعد آيات كثيرة أوردها في حكاية شكواه عليه السلام الذي بثّه لربّه فيما جاهد به من دعوة قومه ليلاً ونهاراً فيما يقرب من ألف سنة من مدى حياته، وما قاساه من شدتهم وكابده من المحنة في جنب الله سبحانه، وبذل من نفسه مبلغ جهدها، وصرف منها في سبيل هدايتهم منتهى طوقها فلم ينفعهم دعاؤه إلا فراراً، ولم يزدهم نصحه إلا استكباراً.

ولم يزل بعدما بثّه فيهم من النصيحة والموعظة الحسنة وقرعه أسماعهم من الحق والحقيقة، ويشكو إلى ربّه ما واجهوه به من العناد والإصرار على الخطيئة، وقابلوه به من المكر والخديعة حتى هاج به الوجد والأسف وأخذته الغيرة الإلهية فدعا عليهم فقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً * إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾[٤].

وما ذكره من إضلالهم عباد الله إن تركهم الله على الأرض هو الذي ذكره عنهم في ضمن كلامه السابق المحكي عنه: ﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً﴾، وقد أضلوا كثيراً

---

(١) الأعراف: ١٣٤.

(٢) النور: ١٥ ـ ١٧.

(٣) نوح:: ٢٨.

(٤) نوح: ٢٧.

من المؤمنين به فخاف إضلالهم الباقين منهم، وقوله: وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً﴾ إخبار ببطلان استعداد أصلابهم وأرحامهم أن يخرج منها مؤمن ذكره ـ وهو من أخبار الغيب ـ عن تفرس نبوي ووحي إلهي.

وإذا دعا على الكافرين لغيرة إلهية أخذته، وهو النبي الكريم أول من جاء بكتاب وشريعة، وانتهض لإنقاذ الدنيا من غمرة الوثنية ولم يلبه من المجتمع البشري إلا قليل ـ وهو قريب من ثمانين نسمة على ما في الأخبار ـ فكان من أدب هذا الموقف أن لا ينسى المؤمنين بربه الآخذين بدعوته، ويدعو لهم إلى يوم القيامة بالخير.

﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً﴾ .

فقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ فبدأ بنفسه لأن الكلام في معنى طلب المغفرة لمن يسلك سبيله فهو إمامهم وأمامهم ﴿وَلِوَالِدَيَّ﴾ ، وفيه دليل على إيمانهما ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِناً﴾ وهم المؤمنون به من أهل عصره ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ وهم جميع المؤمنين أهل التوحيد فإن قاطبتهم أُمّته، ورهن منته إلى يوم القيامة، وهو أوّل من أقام الدعوة الدينية في الدنيا بكتاب وشريعة، ورفع أعلام التوحيد بين الناس، ولذلك حيّاه الله سبحانه بأفضل تحيته إذ قال: ﴿سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ﴾[1]، فعليه السلام من نبي كريم كلّما آمن بالله مؤمن، أو عمل له بعمل صالح، وكلما ذكر لله عزّ اسمه اسم، وكلّما كان في الناس من الخير والسعادة رسم فذلك كلّه من بركة دعوته، وذنابة نهضته، صلى الله عليه وعلى سائر الأنبياء والمرسلين أجمعين.[2]

(١) الصافات: ٧٩.

(٢) الميزان ٦: ٣٧٨ ـ ٣٨٢.

أدب نوح وبقية الأنبياء عليهم السلام في الحوار مع قومهم

رعايتهم الأدب عن ربهم فيما حاوروا قومهم

وهذا أيضاً باب واسع وهو ملحق بالأدب في الثناء على الله سبحانه، وهو من جهة أُخرى من أبواب التبليغ العملي الذي لا يقصر أو يزيد أثرا على التبليغ القولي.

وفي القرآن من ذلك شيء كثير، قال تعالى في محاورة جرت بين نوح وقومه:

﴿قَالُواْ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللّهُ إِن شَاء وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ * وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]

ينفي عليه السلام عن نفسه ما نسبوا إليه من إتيان الآية ليعجزوه به، وينسبه إلى ربه ويبالغ في الأدب بقوله: ﴿إِن شَاء﴾ ثم بقوله: ﴿وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾، أي لله، ولذلك نسبه إليه تعالى بلفظ ﴿اللّهُ﴾ دون لفظ «ربّي»، لأنّ الله هو الذي ينتهي إليه كل جمال وجلال، ولم يكتف بنفي القدرة على إتيان الآية عن نفسه وإثباته حتى ثناه بنفي نفع نصحه لهم إن لم يرد الله أن ينتفعوا به فأكمل بذلك نفي القدرة عن نفسه وإثباته

---

(١) هود: ٣٢ ـ ٣٤.

لربه، وعلل ذلك بقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فهذه محاورة غاصّة بالأدب الجميل في جنب الله سبحانه حاور بها نوح عليه السلام الطغاة من قومه محاجاً لهم، وهو أول نبي من الأنبياء عليهم السلام فتح باب الاحتجاج في الدعوة إلى التوحيد، وانتهض على الوثنية على ما يذكره القرآن الشريف.

وهذا أوسع هذه الأبواب مسرحاً لنظر الباحث في أدب الأنبياء عليهم السلام يعثر على لطائف من سيرتهم المملوءة أدباً وكمالاً، فإن جميع أقوالهم وأفعالهم وحركاتهم وسكناتهم مبنية على أساس المراقبة والحضور العبودي، وإن كانت صورتها صورة عمل من غاب عن ربه وغاب عنه ربه سبحانه قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾[1].

وقد حكى الله تعالى في كلامه محاورات كثيرة عن هود وصالح وإبراهيم وموسى وشعيب ويوسف وسليمان وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام في حالات لهم مختلفة كالشدّة والرخاء والحرب والسلم والإعلان والإسرار والتبشير والإنذار وغير ذلك.

تدبر في قوله تعالى: ﴿فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾[2] يذكر موسى عليه السلام، إذ رجع إلى قومه وقد امتلأ غيظاً وحنقاً لا يصرفه ذلك عن رعاية الأدب في ذكر ربّه.

---

(١) الأنبياء: ١٩ ـ ٢٠.

(٢) طه: ٨٦.

وقوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ * قَالَ لاَ تَثْرَيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾(٢)، يذكر يوسف في خلاءِ المراودة الذي يملك من الإنسان كل عقل ويبطل عنده كل حزم لا يشغله ذلك عن التقوى ثم عن رعاية الأدب في ذكر ربّه ومع غيره.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾(٣)، وهذا سليمان عليه السلام وقد أُوتي من عظيم الملك ونافذ الأمر وعجيب القدرة أن أمر بإحضار عرش ملكة سبأ من سبأ إلى فلسطين فأحضر في أقل من طرفة عين فلم يأخذه كبر النفس وخيلاؤها، ولم ينس ربّه ولم يمكث دون أن أثنى على ربّه في ملئه بأحسن الثناء.

وليقس ذلك إلى ما ذكره الله من قصّة نمرود مع إبراهيم عليه السلام إذ قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾(٤)، وقد قال ذلك إذ أحضر رجلين من السجن فأمر بقتل أحدهما وإطلاق الآخر.

أو إلى ما ذكره فرعون مصر إذ قال كما حكاه الله: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ

---

(١) يوسف: ٢٣.
(٢) يوسف: ٩٢.
(٣) النمل: ٤٠.
(٤) البقرة: ٢٨٥.

مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ * أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ * فَلَوْلَا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾(١) يباهي بملك مصر وأنهاره ومقدار من الذهب كان يملكه هو وملؤه ولا يلبث دون أن يقول كما حكى الله: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾ وهو الذي كانت تستذله آيات موسى يوماً بعد يوم من طوفان وجراد وقمل وضفادع وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾(٢)، وقوله: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً ـ إلى أن قال: ـ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِي الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾(٣)، فلم يهزهزه ﷺ شدة الأمر والهول والفزع في يوم الخوف أن يذكر أن ربه معه ولم تنجذب نفسه الشريفة إلى ما كان يهدده من الأمر، وكذا ما أسر به إلى بعض أزواجه في الخلوة في اشتماله على رعاية الأدب في ذكر ربه. وعلى وتيرة هذه النماذج المنقولة تجري سائر ما وقع في قصصهم عليهم السلام في القرآن الكريم من الأدب الرائع والسنن الشريفة، ولو لا أن الكلام قد طال بنا في هذه الأبحاث لاستقصينا قصصهم وأشبعنا فيها البحث.

أدب الأنبياء عليهم السلام مع الناس في معاشرتهم ومحاورتهم

مظاهر هذا القسم هي الاحتجاجات المنقولة عنهم في القرآن مع الكفار، والمحاورات التي حاوروا بها المؤمنين منهم، ثم شيء يسير من سيرتهم المنقولة.

أما الأدب في القول فإنك لا تجد فيما حكي من شذرات أقوالهم مع العتاة

---

(١) الزخرف: ٥١ ـ ٥٣.

(٢) التوبة: ٤٠.

(٣) التحريم: ٣.

والجهلة أن يخاطبوهم بشيء مما يسوؤهم أو شتم أو إهانة وإزراء وقد نال منهم المخالفون بالشتم والطعن والاستهزاء والسخرية كل منال فلم يجيبوهم إلا بأحسن القول وأنصح الوعظ معرضين عنهم بسلام وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.

قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾[1]، وقال تعالى حكاية عن عاد قوم هود: ﴿إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * مِن دُونِهِ﴾[2] يريدون باعتراء بعض آلهتهم إياه بسوء ابتلائه عليه السلام بمثل جنون أو سفاهة ونحو ذلك.

وقال تعالى حكاية عن آزر: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْراهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾[3].

وقال تعالى حكاية عن قوم شعيب عليه السلام: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾[4].

---

(١) هود ٢٧ ـ ٢٨.

(٢) هود: ٥٤ ـ ٥٥.

(٣) مريم: ٤٦ ـ ٤٧.

(٤) الأعراف: ٦٦ ـ ٦٨.

وقال تعالى: قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ـ إلى أن قال: ـ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ * قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾(١).

وقال تعالى حكاية عن قوم مريم: ﴿قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً * يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً * فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيّاً * قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً﴾(٢).

وقال تعالى يسلّي نبيه ﷺ فيما رموه به من الكهانة والجنون والشعر: ﴿فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ * قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ﴾(٣).

وقال: ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلاً مَّسْحُوراً * انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً﴾(٤).

إلى غير ذلك من أنواع الشتم والرمي والإهانة التي حكي عنهم في القرآن، ولم ينقل عن الأنبياء عليهم السلام أن يقابلوهم بخشونة أو ببذاء، بل بالقول الصواب والمنطق الحسن اللين اتباعاً للتعليم الإلهي الذي لقنهم خير القول وجميل الأدب، قال تعالى خطاباً لموسى وهارون عليهما السلام: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾(٥)، وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ

(١) الشعراء: ٢٣ ـ ٢٨.

(٢) مريم: ٢٧ ـ ٣٠.

(٣) الطور: ٢٩ ـ ٣١.

(٤) الفرقان: ٨ ـ ٩.

(٥) طه: ٤٣ ـ ٤٤.

رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً﴾[١].

ومن أدبهم في المحاورة والخطاب أنهم كانوا ينزلون أنفسهم منزلة الناس فيكلمون كل طبقة من طبقاتهم على قدر منزلته من الفهم، وهذا ظاهر بالتدبّر فيما حكي من محاوراتهم الناس على اختلافهم المنقولة عن نوح فمن بعده، وقد روى الفريقان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إنا معاشر الأنبياء أمرنا أن نكلم الناس على قدر عقولهم».

وليعلم أن البعثة بالنبوة إنما بنيت على أساس الهداية إلى الحق وبيانه والانتصار له فعليهم أن يتجهزوا بالحق في دعوتهم، وينخلعوا عن الباطل ويتقوا شبكات الضلال أيا ما كانت سواء وافق ذلك رضى الناس أوسخطهم، واستعقب طوعهم أو كرههم ولقد ورد منه تعالى أشد النهي في ذلك لأنبيائه وأبلغ التحذير حتى عن اتباع الباطل قولا وفعلا بغرض نصرة الحق فإن الباطل باطل سواء وقع في طريق الحق أولم يقع، والدعوة إلى الحق لا يجامع تجويز الباطل ولو في طريق الحق والحق الذي يهدي إليه الباطل وينتجه ليس بحق من جميع جهاته.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً﴾[٢]، وقال: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً * إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً﴾[٣]، فلا مساهلة ولا ملابسة ولا مداهنة في حق ولا حرمة لباطل. ولذلك جهّز الله سبحانه رجال دعوته وأولياء دينه وهم الأنبياء عليهم السلام بما يسهل لهم الطريق إلى اتباع الحق ونصرته، قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ

(١) الإسراء: ٢٨.
(٢) الكهف: ٥١.
(٣) الإسراء: ٧٥.

حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً﴾[١]، فأخبر أنهم لا يتحرجون فيما فرض الله لهم ويخشونه ولا يخشون أحداً غيره فليس أي مانع من إظهارهم الحق ولو بلغ بهم أي مبلغ وأوردهم أي مورد.

ثم وعدهم النصر فيما انتهضوا له فقال: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ * وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٢]، وقال: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[٣].

ولذلك نجدهم فيما حكي عنهم لا يبالون شيئاً في إظهار الحق وقول الصدق وإن لم يرتضه الناس واستمروه في مذاقهم، قال تعالى حاكياً عن نوح يخاطب قومه: ﴿وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾[٤]، وقال عن قول هود: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ﴾[٥]، وقوله لقومه: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾[٦]، وقال تعالى يحكي عن لوط: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾[٧]، وحكى عن إبراهيم من

(١) الأحزاب: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) الصافات: ١٣٦ ـ ١٣٧.

(٣) المؤمن: ٥١.

(٤) هود: ٢٩.

(٥) هود: ٥٠.

(٦) الأعراف: ٧١.

(٧) الأعراف: ٨١.

قوله لقومه: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[١] وحكى عن موسى في جواب قول فرعون له: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُوراً * قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَـؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَونُ مَثْبُوراً﴾[٢]، أي ممنوعاً من الإيمان بالحقّ مطروداً هالكاً، إلى غير ذلك من الموارد.

فهذه كلها من رعاية الأدب في جنب الحق واتباعه، ولا مطلوب أعزّ منه ولا بغية أشرف منه وأغلى، وإن كان في بعضها ما ينافي الأدب الدائر بين الناس لابتناء حياتهم على اتباع جانب الهوى والسلوك إلى أمتعة الحياة بمداهنة المبطلين والخضوع والتملق إلى المفسدين والمترفين سياسة في العمل.

وجملة الأمر أن الأدب كما تقدم في أول هذه المباحث[٣] إنما يتأتى في القول السائغ والعمل الصالح، ويختلف حينئذ باختلاف مسالك الحياة في المجتمعات والآراء والعقائد التي تتمكن فيها وتتشكل هي عنها، والدعوة الإلهية التي يستند إليها المجتمع الديني إنما تتبع الحق في الاعتقاد والعمل، والحق لا يخالط الباطل ولا يمازجه ولا يستند إليه ولا يعتضد به فلا محيص عن إظهاره واتباعه، والأدب الذي يتأتى فيه أن يسلك في طريق الحق أحسن المسالك ويتزيى فيه بأظرف الأزياء كاختيار لين القول إذا صح أن يتكلم بلينة وخشونة، واختيار الاستعجال في الخبر إذا أمكن فيه كل من المسارعة والتبطي.

وهذا هو الذي يأمر به في قوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ ـ أي لموسى ـ فِي الأَلْوَاحِ

---

(١) الأنبياء: ٦٧.

(٢) الاسراء: ١٢٠.

(٣) الميزان ٦: ٣٦٦ ـ ٣٧٧.

مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا﴾[1] وبشر عباده الآخذين به في قوله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ * الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾[2]، فلا أدب في باطل ولا أدب في ممزوج من حق وباطل فإن الخارج من صريح الحق ضلال لا يرتضيه ولي الحق وقد قال: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾[3].

وهذا هو الذي دعا أنبياء الحق إلى صراحة القول وصدق اللهجة وإن كان ذلك في بعض الموارد مما لا يرتضيه سنة المداهنة والتساهل والأدب الكاذب الدائر في المجتمعات غير الدينية.

ومن أدبهم مع الناس في معاشرتهم وسيرتهم فيهم احترام الضعفاء والأقوياء على حد سواء والإكثار والمبالغة في حق أهل العلم والتقوى منهم فإنهم لما بنوا على أساس العبودية وتربية النفس الإنسانية تفرع عليه تسوية الحكم في الغني والفقير، والصغير والكبير، والرجل والمرأة، والمولى والعبد، والحاكم والمحكوم، والأمير والمأمور، والسلطان والرعية، وعند ذلك لغى تمايز الصفات، واختصاص الأقوياء بمزايا اجتماعية، وبطل تقسم الوجدان والفقدان، والحرمان والتنعم، والسعادة والشقاء بين صفتي الغنى والفقر، والقوة والضعف، وأن للقوي والغني من كل مكانة أعلاها، ومن كل عيشة أنعمها، ومن كل مجاهدة أروحها وأسهلها، ومن كلّ وظيفة أخفها، بل كان الناس في ذلك شرعاً سواء، قال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ

(١) الأعراف: ١٤٥.

(٢) الزمر: ١٨.

(٣) يونس: ٣٢.

اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١]، وتبدل استكبار الأقوياء بقوتهم ومباهاة الأغنياء بغنيتهم تواضعاً للحق ومسارعة إلى المغفرة والرحمة، وتسابقاً في الخيرات وجهاداً في سبيل الله وابتغاء لمرضاته.

واحترم حينئذٍ للفقراء كما للأغنياء، وتؤدب مع الضعفاء كما مع الأغنياء، بل اختص هؤلاء بمزيد شفقة ورأفة ورحمة، قال تعالى يؤدب نبيه ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[٣]، وقال: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ * وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾[٤].

ويشتمل على هذا الأدب الجميل ما حكاه الله من محاورة بين نوح عليه السلام وقومه إذ قال: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قِوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَآ أَنَاْ بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّهُم مُّلَاقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً

(١) الحجرات: ١٣.

(٢) الكهف: ٢٨.

(٣) الأنعام: ٥٢.

(٤) الحجر: ٨٨ ـ ٨٩.

تَجْهَلُونَ ـ أي في تحقيركم أمر الفقير الضعيف ـ وَيَا قَوْمِ مَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ ـ أي لا أدعي شيئاً يميزني منكم بمزية إلّا أني رسول إليكم ـ وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ اللّهُ خَيْراً اللّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ ـ أي من الخير والسعادة اللذين يرجيان منهم ـ إِنِّي إِذاً لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

ونظيره في نفي التمييز قول شعيب لقومه على ما حكاه الله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[٢]، وقال الله تعالى يعرف رسوله ﷺ للناس: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣]، وقال أيضاً: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيِقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ﴾[٤]، وقال أيضاً: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٥]، وقال أيضاً وفيه جماع ما تقدّم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[٦]. وهذه الآيات وإن كانت بحسب المعنى المطابقي ناظرة إلى أخلاقه ﷺ الحسنة دون أدبه الذي هو أمر وراء الخلق إلّا أن نوع الأدب ـ كما تقدّم بيانه ـ يستفاد من نوع الخلق، على أن نفس الأدب من الأخلاق الفرعية.

(١) هود ٢٧ ـ ٣١.

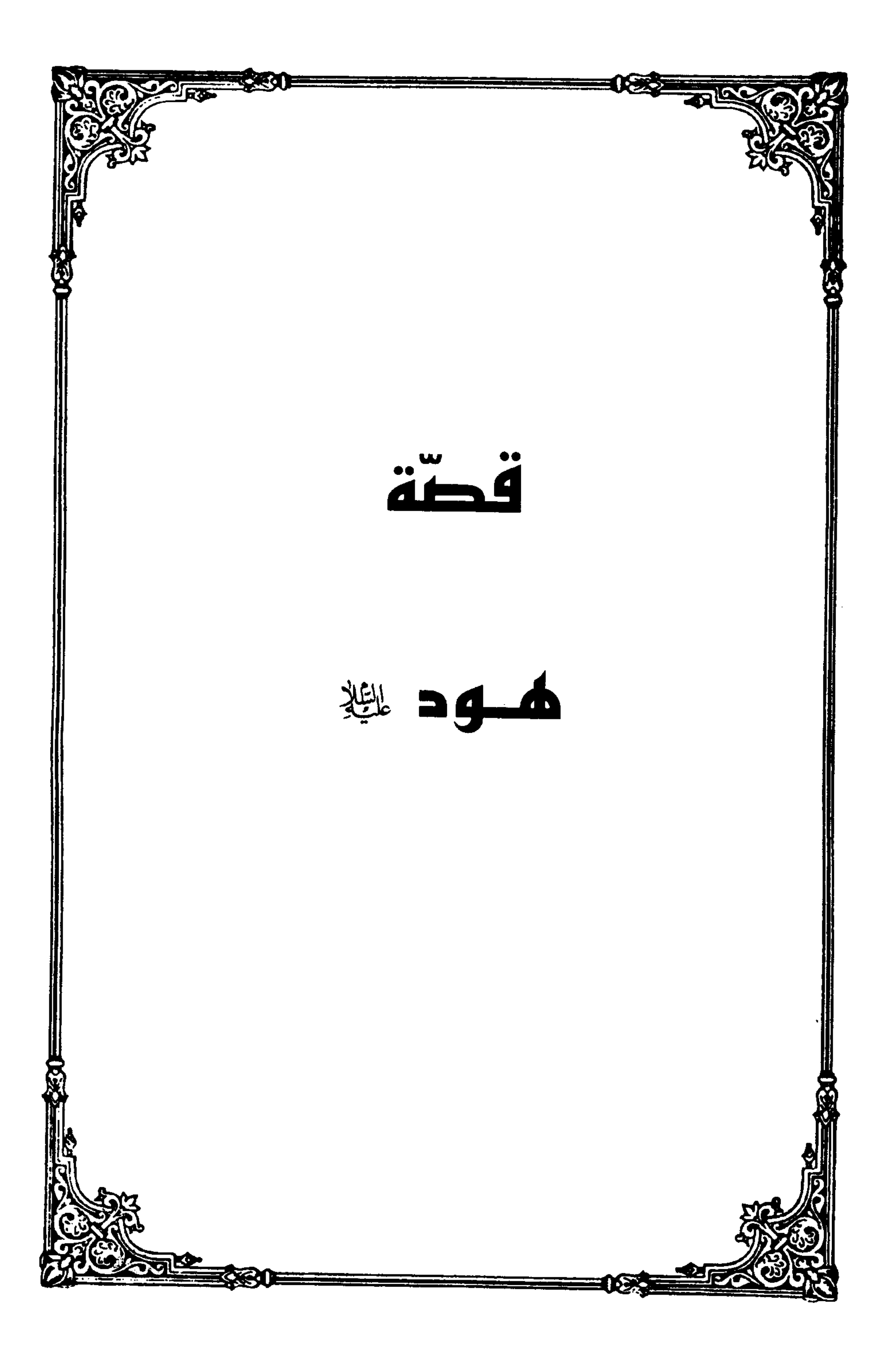
(٢) هود: ٨٨.

(٣) التوبة: ١٢٨.

(٤) التوبة: ٦١.

(٥) القلم: ٤.

(٦) الأنبياء: ١٠٧.



قصّة

هود عليه السلام



وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوَءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللّه وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لاَ تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلاَّ هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُواْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْاْ رُسُلَهُ وَاتَّبَعُواْ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُواْ فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾



كلام في قصّة هود عليه السلام

١ ـ عاد، قوم هود عليه السلام

هؤلاء قوم من العرب من بشر ما قبل التاريخ، كانوا يسكنون الجزيرة انقطعت أخبارهم وانمحت آثارهم لا يحفظ التاريخ من حياتهم إلّا أقاصيص لا يطمئن إليها وليس في التوراة الموجودة منهم ذكر.

والذي يذكره القرآن الكريم من قصتهم هو أن عاداً ـ وربما يسمّيهم عاداً الأُولى[١] وفيه إشارة إلى أن هناك عاداً ثانية ـ كانوا قوماً يسكنون الأحقاف[٢] من شبه جزيرة العرب[٣] بعد قوم نوح[٤].

كانت لهم أجساد طويلة[٥] وكانوا ذوي بسطة في الخلق[٦] أولي قوة وبطش شديد[٧] وكان لهم تقدم ورقي في المدنية والحضارة، لهم بلاد عامرة وأراض

---

(١) النجم: ٥٠.

(٢) الأحقاف: ٢١.

(٣) معجم البلدان ١: ١٥٣ و ١٥٤.

(٤) الأعراف: ٦٩.

(٥) القمر: ٢٠، الحاقة: ٧.

(٦) الأعراف: ٦٩.

(٧) حم السجدة: ١٥، الشعراء: ١٣٠.

خصبة ذات جنات ونخيل وزروع ومقام كريم[١]، وناهيك في رقيهم وعظيم مدنيتهم قوله تعالى في وصفهم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[٢].

لم يزل القوم يتنعمون بنعمة الله حتى غيّروا ما بأنفسهم فتعرقت فيهم الوثنية وبنوا بكل ريع آية يعبثون واتخذوا مصانع لعلهم يخلدون وأطاعوا طغاتهم المستكبرين فبعث الله إليهم أخاهم هودا يدعوهم إلى الحق ويرشدهم إلى أن يعبدوا الله ويرفضوا الأوثان، ويعملوا بالعدل والرحمة[٣] فبالغ في وعظهم وبث النصيحة فيهم، وأنار الطريق وأوضح السبيل، وقطع عليهم العذر فقابلوه بالإباء والامتناع، وواجهوه بالجحد والإنكار ولم يؤمن به إلا شرذمة منهم قليلون وأصر جمهورهم على البغي والعناد، ورموه بالسفه والجنون، وألحوا عليه بأن ينزل عليهم العذاب الذي كان ينذرهم ويتوعّدهم به قال : ﴿قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ﴾[٤].

فأنزل الله عليهم العذاب وأرسل إليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم[٥] ريحاً صرصراً في أيام نحسات سبع ليال وثمانية أيام حسوماً فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية[٦] وكانت تنزع الناس

---

(١) سورة الشعراء وغيرها .

(٢) الفجر : ٨ .

(٣) الشعراء : ١٣٠ .

(٤) الأحقاف : ٢٣ .

(٥) الذاريات: ٤٢ .

(٦) الحاقة: ٧ .

كأنهم أعجاز نخل منقعر[١].

وكانوا بادىء ما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم استبشروا وقالوا: عـارض ممطرنا وقد أخطئوا بل كان هو الذي استعجلوا به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم[٢] فأهلكهم الله عن آخرهم وأنجى هوداً والذين آمنوا معه برحمةٍ منه[٣].

٢ ـ شخصية هود عليه السلام المعنوية

وأما هود عليه السلام فهو من قوم عاد وثاني الأنبياء الذين انتهضوا للـدفاع عـن الحق ودحض الوثنية ممن ذكر الله قصته وما قاساه من المحنة والأذى في جنب الله سبحانه، وأثنى عليه بما أثنى على رسله الكرام وأشركه بهم في جميل الذكر عليه سلام الله.[٤]

---

(١) القمر: ٢٠.

(٢) الأحقاف: ٢٥.

(٣) هود: ٥٨.

(٤) الميزان ١٠: ٤٥٦ ـ ٤٥٨.

روايات بخصوص قصّة هود ﷺ وقومه

وقد ورد في الرواية عن أئمّة أهل البيت ﷺ : أن عاداً كانت بلادهم في البادية، وكان لهم زرع ونخيل كثيرة، ولهم أعمار طويلة وأجساد طويلة فعبدوا الأصنام، وبعث الله إليهم هوداً يدعوهم إلى الإسلام وخلع الأنداد فأبوا ولم يؤمنوا بهود وآذوه فكفت عنهم السماء سبع سنين حتى قحطوا.[1]

وروي إمساك السماء عنهم من طريق أهل السنة عن الضحاك أيضاً قال: أمسك عن عاد القطر ثلاث سنين فقال لهم هود: ﴿اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً﴾ فأبوا إلا تمادياً، وقد تقدم أن الآيات لا تخلو من إشارة إليه.[2]

واعلم أن الروايات في قصة هود وعاد كثيرة إلا أنها تشتمل على أمور لا سبيل إلى تصحيحها من طريق الكتاب ولا إلى تأييدها بالاعتبار ولذلك طوينا ذكرها.

وورد أيضاً أخبار أُخر من طرق الشيعة وأهل السنة في وصف جنة عاد التي تنسب إلى شداد الملك وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ *

(١) تفسير البرهان ٢: ٢٢٣.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٣٧.

﴿الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾[١].[٢]

في كتاب كمال الدين[٣]، وروضة الكافي[٤]، مسنداً عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليهما السلام في حديث: وقال نوح إن الله تبارك وتعالى باعث نبياً يقال له هود، وإنه يدعو قومه إلى الله عز وجل فيكذبونه وإن الله عز وجل يهلكهم بالريح فمن أدركه منكم فليؤمن به وليتبعه فإن الله تبارك وتعالى ينجيه من عذاب الريح. وأمر نوح ابنه سام أن يتعاهد هذه الوصية عند رأس كل سنة ويكون يوم عيد لهم فيتعاهدون فيه بعث هود وزمانه الذي يخرج فيه. فلما بعث الله تبارك وتعالى هوداً نظروا فيما عندهم من العلم والإيمان وميراث العلم والاسم الأكبر وآثار علم النبوة فوجدوا هوداً نبياً وقد بشرهم أبوهم نوح به فآمنوا به وصدقوه واتبعوه فنجوا من عذاب الريح، وهو قول الله عزّ وجل: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ وقوله: ﴿كَذَّبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾.[٥]

---

(١) الفجر: ٧ ـ ٨.

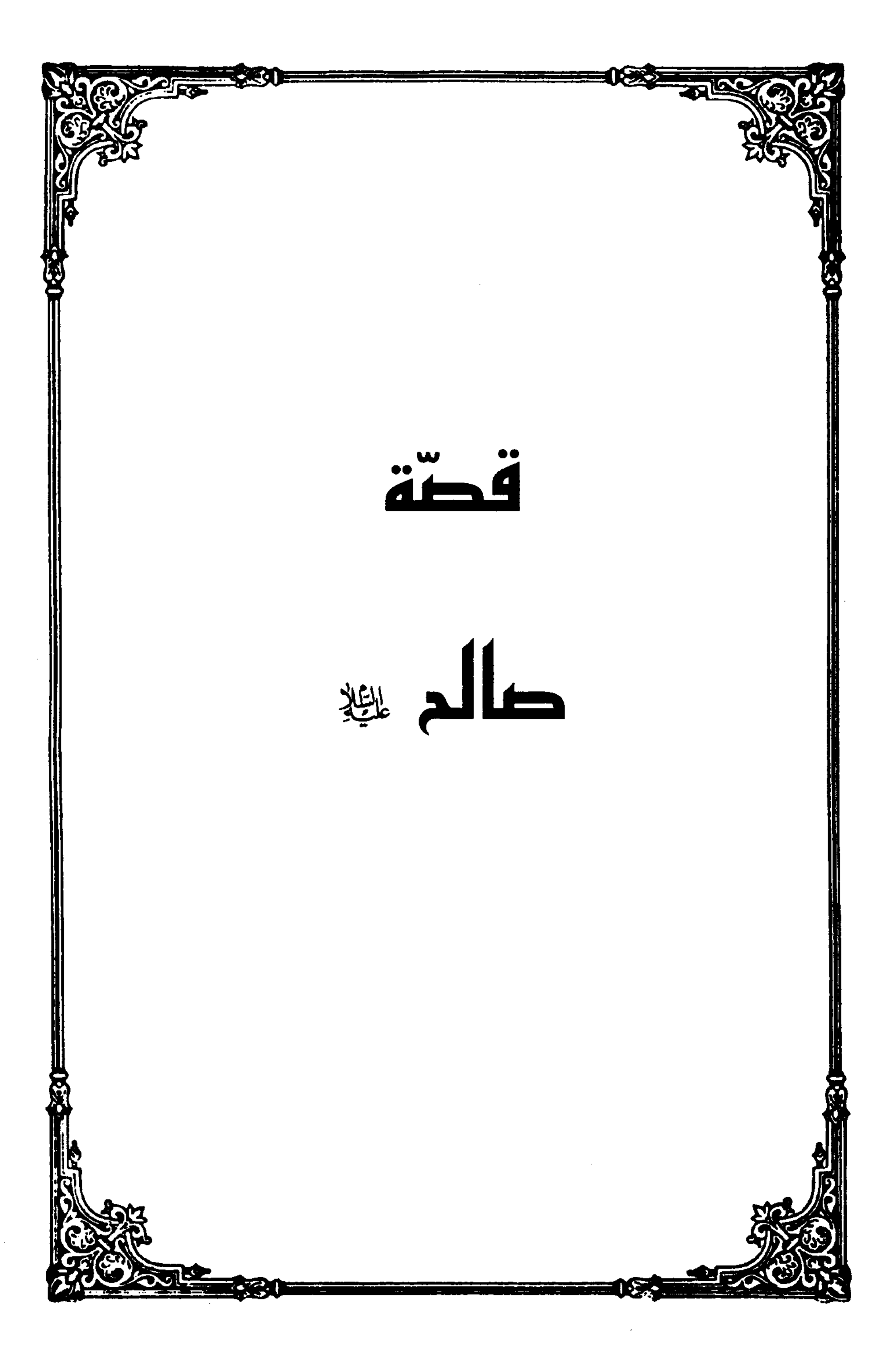
(٢) الميزان ١٠: ٤٥٥.

(٣) كمال الدين ١: ٢١٣ ح ٢.

(٤) روضة الكافي ٨: ١١٣ ـ ١١٥ ح ٩٢.

(٥) الميزان ١٥: ٤٢٥.





قصّة

صالح عليه السلام

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُواْ يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوّاً قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللّهِ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفرُواْ رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

كلام في قصّة صالح عليه السلام

١ ـ ثمود قوم صالح عليه السلام

ثمود قوم من العرب العاربة كانوا يسكنون وادي القرى بين المدينة والشام، وهم من بشر ما قبل التاريخ لا يضبط التاريخ إلا شيئاً يسيراً من أخبارهم، ولقد عفت الدهور آثارهم فلا اعتماد على ما يذكر من جزئيات قصصهم.

والذي يقصّه كتاب الله من أخبارهم أنهم كانوا أُمّة من العرب على ما يدلّ عليه اسم نبيّهم، وقد كان منهم هود[١]، نشأوا بعد قوم عاد ولهم حضارة ومدنية يعمرون الأرض ويتخذون من سهولها قصوراً وينحتون من الجبال بيوتاً آمنين[٢]، ومن شغلهم الفلاحة بإجراء العيون وإنشاء الجنات والنخيل والحرث.[٣]

كانت ثمود تعيش على سنة الشعوب والقبائل يحكم فيهم سادتهم وشيوخهم وقد كانت في المدينة التي بعث فيها صالح تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون[٤]، فطغوا في الأرض وعبدوا الأصنام وأفرطوا عتواً وظلماً.

---

(١) هود: ٦١.

(٢) الأعراف: ٧٤.

(٣) الشعراء: ١٤٨.

(٤) النمل: ٤٨.

٢ ـ بعثة صالح عليه السلام

لما نسيت ثمود ربها وأسرفوا في أمرهم أرسل الله إليهم صالحاً النبي عليه السلام وكان من بيت الشرف والفخار معروفاً بالعقل والكفاية[١]، فدعاهم إلى توحيد الله سبحانه وأن يتركوا عبادة الأصنام وأن يسيروا في مجتمعهم بالعدل والإحسان، ولا يعلوا في الأرض ولا يسرفوا ولا يطغوا وأنذرهم بالعذاب[٢].

فقام عليه السلام بالدعوة إلى دين الله بالحكمة والموعظة الحسنة وصبر على الأذى في جنب الله فلم يؤمن به إلا جماعة قليلة من ضعفائهم[٣] وأما الطغاة المستكبرون وعامة من تبعهم فأصروا على كفرهم واستذلوا الذين آمنوا به ورموه بالسفاهة والسحر.[٤]

وطلبوا منه البينة على مقاله، وسألوه آية معجزة تدل على صدقه في دعوى الرسالة، واقترحوا له أن يخرج لهم من صخر الجبل ناقة فأتاهم بناقة على ما وصفوها به، وقال لهم: إن الله يأمركم أن تشربوا من عين مائكم يوماً وتكفوا عنها يوماً فتشربها الناقة فلها شرب يوم ولكم شرب يوم معلوم، وأن تذروها تأكل في أرض الله كيف شاءت ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب.[٥]

وكان الأمر على ذلك حينا ثم إنهم طغوا ومكروا وبعثوا أشقاهم لقتل الناقة فعقرها، وقالوا لصالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.

---

(١) هود : ٦٢، النمل : ٤٩ .

(٢) هود ، الشعراء ، الشمس وغيرها .

(٣) الأعراف: ٧٥.

(٤) الأعراف : ٦٦، الشعراء : ١٥٣، النمل: ٤٧ .

(٥) الأعراف : ٧٢، هود : ٦٤ ، الشعراء: ١٥٦ .

قال صالح عليه السلام: ﴿تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[١].

ثم مكرت شعوب المدينة وأرهاطها بصالح وتقاسموا بينهم ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْراً وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٢]، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[٣]، والرجفة والصيحة ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾، ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾[٤]، وأنجى الله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[٥]، ونادى بعدهم المنادي الإلهي: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْداً لِّثَمُودَ﴾.

٣ ـ شخصية صالح عليه السلام

لم يرد لهذا النبي الصالح في التوراة الحاضرة ذكر.

كان عليه السلام من قوم ثمود ثالث الأنبياء المذكورين في القرآن بالقيام بأمر الله والنهضة للتوحيد على الوثنية يذكره الله تعالى بعد نوح وهود، ويحمده ويثني عليه بما أثنى به على أنبيائه ورسله، وقد اختاره وفضله كسائرهم على العالمين عليه وعليهم السلام.

---

(١) هود: ٦٥.

(٢) النمل: ٥٠.

(٣) الذاريات: ٤٤.

(٤) الأعراف: ٧٩، هود: ٦٧.

(٥) السجدة: ١٨.

بحث روائي بخصوص ناقة صالح

في الكافي، مسنداً عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَراً مِّنَّا وَاحِداً نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ قال: هذا فيما كذبوا صالحاً، وما أهلك الله عز وجل قوماً قط حتى يبعث قبل ذلك الرسل فيحتجوا عليهم. فبعث الله إليهم صالحاً فلم يجيبوه وعتوا عليه، وقالوا لن نؤمن لك حتى تخرج إلينا من هذه الصخرة ناقة عشراء، وكانت الصخرة يعظمونها ويعبدونها ويذبحون عندها في رأس كل سنة ويجتمعون عندها، فقالوا: إن كنت كما تزعم نبياً رسولاً فادع لنا إلهك حتى يخرج لنا من هذه الصخرة الصماء ناقة عشراء، فأخرجها الله كما طلبوا منه.

ثم أوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يا صالح قل لهم: إن الله قد جعل لهذه الناقة لها شرب يوم ولكم شرب يوم فكانت الناقة إذا كان يومها شربت الماء ذلك اليوم فيحبسونها فلا يبقى صغير وكبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك فإذا كان الليل وأصبحوا غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم فمكثوا بذلك ما شاء الله.

ثم إنهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض قال: اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها لا نرضى أن يكون لنا شرب يوم ولها شرب يوم. ثم قالوا: من الذي يلي قتلها ونجعل له جعلاً ما أحب؟ فجاءهم رجل أحمر أشقر أزرق ولد زنا

لا يعرف له أب يقال له: قدار شقي من الأشقياء مشؤوم عليهم فجعلوا له جعلاً. فلمّا توجهت الناقة إلى الماء الذي كانت ترده تركها حتى شربت وأقبلت راجعة فقعد لها في طريقها فضربها بالسيف ضربة فلم يعمل شيئاً فضربها ضربة أُخرى فقتلها وخرّت على الأرض على جنبها، وهرب فصيلها حتى صعد إلى الجبل فرغا ثلاث مرات إلى السماء، وأقبل قوم صالح فلم يبق منهم أحد إلّا شركه في ضربته، واقتسموا لحمها فيما بينهم فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلّا أكل منها.

فلما رأى ذلك صالح أقبل إليهم وقال: يا قوم ما دعاكم إلى ما صنعتم؟ أعصيتم أمر ربكم؟ فأوحى الله تبارك وتعالى إلى صالح عليه السلام: إن قومك قد طغوا وبغوا وقتلوا ناقة بعثها الله إليهم حجة عليهم ولم يكن لهم فيها ضرر وكان لهم أعظم المنفعة فقل لهم: إني مرسل إليهم عذابي إلى ثلاثة أيام فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم، وإن هم لم يتوبوا ولم يرجعوا بعثت إليهم عذابي في اليوم الثالث.

فأتاهم صالح وقال: يا قوم إني رسول ربكم إليكم وهو يقول لكم: إن تبتم ورجعتم واستغفرتم غفرت لكم وتبت عليكم، فلما قال لهم ذلك، كانوا أعتى ما قالوا وأخبث وقالوا: يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين.

قال: يا قوم إنكم تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، واليوم الثاني وجوهكم محمرة، واليوم الثالث وجوهكم مسودّة، فلما أن كان أوّل يوم أصبحوا وجوههم مصفرة فمشى بعضهم إلى بعض وقالوا: قد جاءكم ما قال صالح، فقال العتاة منهم: لا نسمع قول صالح ولا نقبل قوله وإن كان عظيماً.

فلما كان اليوم الثاني أصبحت وجوههم محمرة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم قد جاءكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: لو أهلكنا جميعاً ما

سمعنا قول صالح ولا تركنا آلهتنا التي كان آباؤنا يعبدونها، ولم يتوبوا ولم يرجعوا.

فلما كان اليوم الثالث أصبحوا ووجوههم مسودة فمشى بعضهم إلى بعض فقالوا: يا قوم أتاكم ما قال لكم صالح، فقال العتاة منهم: قد أتانا ما قال لنا صالح.

فلما كان نصف الليل أتاهم جبرئيل فصرخ لهم صرخة خرقت تلك الصرخة أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم وقد كانوا في تلك الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا وعلموا أن العذاب نازل بهم فماتوا جميعاً في طرفة عين: صغيرهم وكبيرهم فلم يبق لهم ناعقة ولا راعية ولا شيء إلّا أهلكه الله فأصبحوا في ديارهم ومضاجعهم موتى فأرسل الله إليهم مع الصيحة النار من السماء فأحرقهم أجمعين[1]، وكانت هذه قصتهم.

قال المؤلف ﷺ: واشتمال الحديث على أمور خارقة للعادة كشرب الناس جميعاً من لبن الناقة وكذا تغير ألوان وجوههم يوماً فيوماً لا ضير فيه بعدما كان أصل وجودها عن إعجاز، وقد نص القرآن الكريم بذلك، وبأنها كانت لها شرب يوم ولأهل المدينة كلهم شرب يوم معلوم.

وأما كون الصيحة من جبرئيل فلا ينافي كونها صاعقة سماوية نازلة عليهم أماتتهم بصوتها وأحرقتهم بنارها إذ لا مانع من نسبة حادث من الحوادث الكونية خارق للعادة أو جار عليها إلى ملك روحاني إذا كان هو في مجرى صدوره كما أن سائر الحوادث الكونية من الموت والحياة والرزق وغيرها منسوبة إلى الملائكة العمالة.

(١) الكافي ٨: ١٦٢ ـ ١٦٣، البرهان ٢: ٢٢٥ ـ ٢٢٦.

وقوله عليه السلام: إنهم قد كانوا في الثلاثة الأيام قد تحنطوا وتكفنوا كأنه كناية عن تهيئهم للموت.

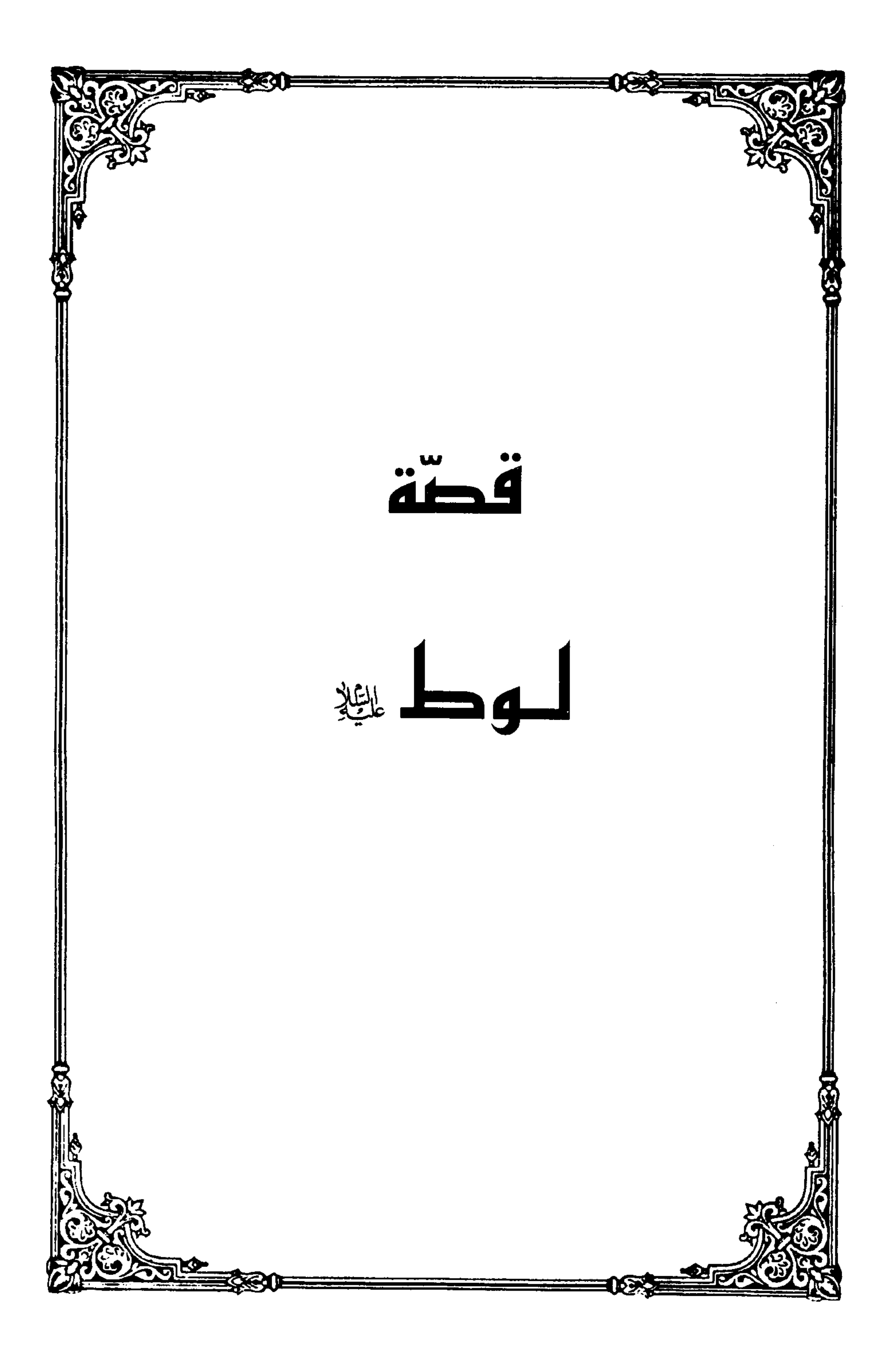
وقد وقع في بعض الروايات[١] في وصف الناقة أنه كانت بين جنبيها مسافة ميل وهو مما يوهن الرواية لا لاستحالة وقوعه فإن ذلك ممكن الدفع من جهة أن كينونتها كانت عن إعجاز بل لأن اعتبار النسبة بين أعضائها حينئذ يوجب بلوغ ارتفاع سنامها مما يقرب من ثلاثة أميال ولا يتصور مع ذلك أن يتمكن واحد من الناس من قتله بسيفه ولم يقع ذلك عن إعجاز من عاقر الناقة قطعا، ومع ذلك لا يخلو قوله تعالى: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ من دلالة أو إشعار على كون جثتها عظيمة جداً.[٢]

---

(١) البرهان ٢: ٢٢٥.

(٢) الميزان ١٠: ٤٦٨ ـ ٤٧١.





قصّة

لوط عليه السلام

وَلَقَدْ جَاءتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاء بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاء أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُواْ يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلاَّ امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾



كلام في قصّة لوط عليه السلام وقومه

١ ـ قصّته عليه السلام وقصة قومه في القرآن

كان لوط عليه السلام من كلدان في أرض بابل ومن السابقين الأوّلين ممّن آمن بإبراهيم عليه السلام آمن به وقال: ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾[1]، فنجاه الله مع إبراهيم إلى الأرض المقدسة أرض فلسطين[2]، فنزل في بعض بلادها وهي مدينة سدوم على ما في التواريخ والتوراة وبعض الروايات.

وكان أهل المدينة وما والاها من المدائن وقد سماها الله في كلامه بالمؤتفكات[3]، يعبدون الأصنام، ويأتون بالفاحشة: اللواط، وهم أوّل قوم شاع فيهم ذلك[4]، حتى كانوا يأتون به في نواديهم من غير إنكار[5]، ولم يزل تشيع الفاحشة فيهم حتى عادت سنّة قومية ابتلت به عامّتهم، وتركوا النساء، وقطعوا السبيل[6].

---

(١) العنكبوت: ٢٦.

(٢) الأنبياء: ٧١.

(٣) التوبة: ٧٠.

(٤) الأعراف: ٨٠.

(٥) العنكبوت: ٢٩.

(٦) العنكبوت: ٢٩.

فأرسل الله لوطاً إليهم[١]، فدعاهم إلى تقوى الله وترك الفحشاء والرجوع إلى طريق الفطرة وأنذرهم وخوفهم فلم يزدهم إلّا عتوا ولم يكن جوابهم ﴿إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وهددوه بالإخراج من بلدتهم وقالوا له: لئن لم تنته لتكونن من المخرجين[٢]، وقالوا ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾[٣].

٢ ـ عاقبة أمرهم

لم يزل لوط عليه السلام يدعوهم إلى سبيل الله وملازمة سنة الفطرة وترك الفحشاء وهم يصرون على عمل الخبائث حتى استقر بهم الطغيان وحقت عليهم كلمة العذاب فبعث الله رسلاً من الملائكة المكرمين لإهلاكهم فنزلوا أولا على إبراهيم عليه السلام وأخبروه بما أمرهم الله به من إهلاك قوم لوط فجادلهم إبراهيم عليه السلام لعلّه يرد بذلك عنهم العذاب، وذكرهم بأن فيهم لوطاً فردّوا عليه بأنهم أعلم بموقع لوط وأهله، وأنه قد جاء أمر الله وأن القوم آتيهم عذاب غير مردود.[٤]

فمضوا إلى لوط في صور غلمان مرد ودخلوا عليه ضيفاً فشق ذلك على لوط وضاق بهم ذرعاً لما كان يعلم من قومه أنهم سيتعرضون لهم وأنهم غير تاركيهم البتة فلم يلبث دون أن سمع القوم بذلك وأقبلوا يهرعون إليه وهم

---

(١) الشعراء: ١٦٢.

(٢) الشعراء: ١٦٧.

(٣) النمل: ٥٦.

(٤) العنكبوت: ٣٢، هود: ٧٦.

يستبشرون وهجموا على داره فخرج إليهم وبالغ في وعظهم واستثارة فتوتهم ورشدهم حتى عرض عليهم بناته وقال: ﴿يَا قَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ ثم استغاث وقال: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾، فردوا عليه أنه ليس لهم في بناته إربة وأنهم غير تاركي أضيافه البتة حتى أيس لوط وقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[١].

قالت الملائكة عند ذلك يا لوط: إنا رسل ربك طب نفساً إن القوم لن يصلوا إليك فطمسوا أعين القوم فعادوا عمياناً يتخبطون وتفرقوا[٢].

ثم أمروا لوطاً عليه السلام أن يسري بأهله من ليلته بقطع من الليل ويتبع أدبارهم ولا يلتفت منهم أحد إلّا امرأته فإنه مصيبها ما أصابهم، وأخبروه أنهم سيهلكون القوم مصبحين[٣].

فأخذت الصيحة القوم مشرقين، وأرسل الله عليهم حجارة من طين مسوّمة عند ربك للمسرفين، وقلب مدائنهم عليهم فجعل عاليها سافلها وأخرج من كان فيها من المؤمنين فلم يجد فيها غير بيت من المسلمين وهو بيت لوط وترك فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم.[٤]

وفي اختصاص الإيمان والإسلام بيت لوط عليه السلام، وشمول العذاب لمدائنهم دلالة ـ أوّلاً ـ على أن القوم كانوا كفاراً غير مؤمنين و ـ ثانياً ـ على أن الفحشاء ما كانت شائعة فيما بين الرجال منهم فحسب إذ لو كان الأمر على ذلك والنساء

---

(١) هود: ٨٠.

(٢) القمر: ٣٧.

(٣) هود: ٨١، الحجر: ٦٦.

(٤) الذاريات: ٣٧، وغيرها.

بريئات منها وكان لوط يدعو الناس إلى الرجوع إلى سبيل الفطرة وسنة الخلقة التي هي مواصلة الرجال والنساء لاتبعته عدة من النساء واجتمعن حوله وآمن به طبعا، ولم يذكر من ذلك شيء في كلامه سبحانه.

وفي ذلك تصديق ما تقدم في الأخبار المأثورة أن الفحشاء شاعت بينهم، واكتفى الرجال بالرجال باللواط، والنساء بالنساء بالسحق.

٣ـ شخصية لوط المعنوية

كان عليه السلام رسولاً من الله إلى أهل المؤتفكات وهي مدينة سدوم وما والاها من المدائن ؛ ويقال : كانت أربع مدائن: سدوم وعمورة وصوغر وصبوييم، وقد أشركه في جميع المقامات الروحية التي وصف بها أنبياءه الكرام.

وممّا وصفه به خاصة ما في قوله: ﴿وَلُوطاً آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ * وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].[2]

---

(١) الأنبياء : ٧٥.

(٢) الميزان ١٠ : ٥٢٨ ـ ٥٣٠.

كلام في قصّة البشرى

(قصّة ضيوف إبراهيم عليه السلام)

قصة «البشرى» وسماها الله تعالى حديث ضيف إبراهيم عليه السلام وقعت في خمس من السور القرآنية كلّها مكية وهي على ترتيب القرآن: سورة هود والحجر والعنكبوت والصافات والذاريات.

فالأولى ما في سورة هود، الآيات (٦٩ ـ ٧٦)، قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لاَ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لاَ تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَاْ عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُواْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَتُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

والبشارة الثانية ما في سورة الحجر، الآيات (٥١ ـ ٦٠)، قوله تعالى:

﴿وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ

وَجِلُونَ * قَالُواْ لاَ تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُواْ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلاَّ الضَّآلُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُواْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ * إِلاَّ آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ﴾ .

والبشارة الثالثة ما في سورة العنكبوت، الآيات (٣١ ـ ٣٢)، قوله تعالى :

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطاً قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ .

والبشارة الرابعة ما في سورة الصافات، الآيات (٩٩ ـ ١١٣)، قوله تعالى:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ * كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ * وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ .

والبشارة الخامسة ما في سورة الذاريات، الآيات (٢٤ ـ ٣٠)، قوله تعالى :

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَاماً

قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ * فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ * فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ * قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ﴾.

ويقع البحث في قصة البشرى من وجوه:

أحدها: أنها هل هي بشرى واحدة وهي المشتملة على بشرى إبراهيم وسارة بإسحاق ويعقوب وقد وقعت قبيل هلاك قوم لوط أو أنها قصتان: إحداهما تشتمل على البشرى بإسماعيل، والأُخرى تتضمن البشرى بإسحاق ويعقوب.

ربما رجح الثاني بناء على أن ما وقع من القصة في سورة الذاريات صريح في تقديم العجل المشوي، وأن إبراهيم خافهم لما امتنعوا من الأكل ثم بشروه وامرأته العجوز العقيم وهي سارة أم إسحاق قطعاً، وذيل الآيات ظاهر في كون ذلك بعد إهلاك قوم لوط حيث يقول الملائكة: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ - إلى أن قالوا - فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ الآيات، ونظير ذلك ما في سورة هود، وقد قال فيها الملائكة لإزالة الروع عن إبراهيم ابتداء: ﴿إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾.

وأما ما في سورة الحجر فليس يتضمن حديث تقديم العجل المشوي بل ظاهره أن إبراهيم وأهله خافوهم لدى دخولهم عليه فأسكنوا رعبه بالبشارة كما يقول تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ * قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ﴾، وذيل الآيات ظاهر في كون ذلك قبل هلاك لوط.

ونظيره ما في سورة العنكبوت من القصة وهي أظهر في كون ذلك قبل

الهلاك ويتضمن جدال إبراهيم في قوم لوط، وقد تقدم في البحث الروائي السابق حديث العياشي في هذا المعنى.

لكن الحق أن الآيات في جميع السور الأربع: سورة هود والحجر والعنكبوت والذاريات، إنّما تقصّ قصّة البشارة بإسحاق ويعقوب دون إسماعيل.

وأما ما في ذيل آيات الذاريات من قوله: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾ الظاهر في المضي والفراغ عن الأمر فنظيره واقع في آيات الحجر مع تسليمهم أنها تقص ما قبل الفراغ.

على أن قول الملائكة المرسلين وهم بعد في الطريق: ﴿إِنَّآ أُرۡسِلۡنَآ﴾ لا مانع منه بحسب اللغة والعرف.

وأما قوله: ﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ إلى آخر الآيات، فهو من كلامه تعالى وليس من تتمة كلام الملائكة لإبراهيم كما يدل عليه سياق القصص الواردة في سورة الذاريات.

وأما ذكر الوجل في آيات الحجر في أول القصة بخلاف سورتي الذاريات وهود فالوجه فيه عدم ذكر تقديم العجل المشوي في آيات الحجر بخلافهما، على أن الارتباط التام بين أجزاء قصة مما يجوز أن يقدم بعضها على بعض حينا ويعكس الأمر حينا آخر كما أنه تعالى يذكر إنكار إبراهيم في آيات الذاريات في صدر القصة بعد سلامهم وفي سورة هود في وسط القصة بعد امتناعهم من الأكل، وهذا كثير الورود في نظم القرآن.

على أن آيات هود صريحة في البشرى بإسحاق ويعقوب وهي تتضمن جدال إبراهيم في قوم لوط في سياق لا يشك معه أنه كان قبل هلاك لوط، ولازمه

كون بشرى إسحاق قبله لا بعده.

على أن من المتفق عليه أن إسماعيل كان أكبر سنا من إسحاق وبين ولادتيهما سنون، ولو كانت هؤلاء الملائكة بشروا إبراهيم بإسماعيل في مسيرهم إلى هلاك قوم لوط قبيل الهلاك وبشروه بإسحاق في منصرفهم عن هلاكهم بعيدة كان الفصل بين البشريين يوماً أو يومين فيكون الفصل بين البشرى بإسحاق وبين ولادته سنون من الزمان والبشرى لا تطلق إلا على الإخبار بالجميل إذا كان مشرفاً على الوقوع إلّا إذا كانت هناك عناية خاصة وأما الإخبار بمطلق الجميل فهو وعد ونحو ذلك.

وثانيها: أنه هل هناك بشرى بإسماعيل ؟ والحق أن ما ذكر من البشرى في صدر آيات الصافات إنما هو بشرى بإسماعيل وهو غير ما ذكر في ذيل الآيات من البشرى بإسحاق صريحاً فإن سياق الآيات في ذيل قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ ثم استيناف البشارة بإسحاق في قوله أخيراً: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ لا يدع ريباً لمرتاب أن الغلام الحليم الذي بشر به أوّلاً غير إسحاق الذي بشر به ثانياً، وليس إلّا إسماعيل.

وذكر الطبري[1] في تاريخه أن المراد بالبشارة الأُولى في هذه السورة أيضاً البشارة بإسحاق قياساً على ذكر من البشارة في سائر السور، وهو كما ترى.

وثالثها: البحث في القصة من جهة تطبيق ما في التوراة الحاضرة منها على ما استفيد من القرآن الكريم، وسيوافيك ذلك عند الكلام على قصة لوط عليه السلام في ذيل الآيات التالية.

---

(١) تاريخ الطبري ١: ١٩٠.

ورابعها : البحث فيها من جهة جدال إبراهيم الملائكة وقد وقع فيها مثل قوله: ﴿يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾، وقوله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ .

وقد تقدم أن سياق الآيات وخاصة قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ لا يدلّ إلّا على نعته بالجميل فلم يكن جداله إلّا حرصاً منه في نجاة عباد الله رجاء أن يهتدوا إلى صراط الإيمان.[١]

---

(١) الميزان ١٠: ٤٩٦ ـ ٥٠١ .

قصّة لوط ﷺ وقومه في التوراة

ذكرت التوراة[1] أن لوطاً كان ابن أخي أبرام ـ إبراهيم ـ هاران بن تارخ، وكان هو وأبرام في بيت تارخ في أور الكلدانيين ثم هاجر تارخ أورا قاصداً أرض الكنعانيين فأقام بلدة حاران ومعه أبرام ولوط ومات هناك.

ثم إن أبرام بأمر من الرب خرج من حاران ومعه لوط ولهما مال كثير وغلمان اكتسبا ذلك في حاران فأتى أرض كنعان، وكان يرتحل أبرام ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب، ثم أتى مصر، ثم صعد من هناك جنوباً نحو بيت إيل فأقام هناك.

ولوط السائر مع أبرام أيضاً كان له غنم وبقر وخيام ولم يحتملهما الأرض أن يسكنا ووقعت مخاصمة بين رعاة مواشيهما فتفرقا فأحذرا من وقوع النزاع والتشاجر، فاختار لوط دائرة الأردن وسكن في مدن الدائرة ونقل خيامه إلى سدوم، وكان أهل سدوم أشراراً وخطاة لدى الرب جداً، ونقل أبرام خيامه وأقام عند بلوطات ممراً التي في حبرون.

ثم وقعت حرب بين ملوك سدوم وعمورة وإدمة وصبوييم، وصوغر من جانب وأربعة من جيرانهم من جانب، انهزم فيها ملك سدوم ومن معه من الملوك، وأخذ العدو جميع أملاك سدوم وعمورة وجميع أطعمتهم، وأسر لوط فيمن أسر

---

(١) التوراة، الاصحاح ١٨، سفر التكوين.

وسبي جميع أمواله، وانتهى الخبر إلى أبرام فخرج فيمن معه من الغلمان، وكانوا يزيدون على ثلاثمائة فحاربهم وهزمهم، وأنجى لوطاً وجميع أمواله من الأسر والسبي، ورده إلى مكانه الذي كان مقيماً فيه.[١]

قالت التوراة: وظهر له ـ لأبرام ـ الرب عند بلوطات ممرأ وهو جالس في باب الخيمة وقت حر النهار.

فرفع عينيه ونظر وإذا ثلاثة رجال واقفون لديه.

فلما نظر ركض لاستقبالهم من باب الخيمة وسجد إلى الأرض.

وقال: يا سيد إن كنت قد وجدت نعمة في عينيك فلا تتجاوز عبدك.

ليؤخذ قليل ماء واغسلوا أرجلكم واتكئوا تحت هذه الشجرة.

فأخذ كسرة خبز فتسندون قلوبكم ثم تجتازون لأنكم قد مررتم على عبدكم.

فقالوا: هكذا نفعل كما تكلمت.

فأسرع إبراهيم إلى الخيمة إلى سارة وقال: أسرعي بثلاث كيلات دقيقاً سميداً أعجني واصنعي خبز ملة، ثم ركض إبراهيم إلى البقر وأخذ عجلا رخصا وجيدا وأعطاه للغلام فأسرع ليعمله.

ثم أخذ زبدا ولبنا والعجل الذي عمله ووضعها قدامهم.

وإذ كان هو واقفا لديهم تحت الشجرة أكلوا.

وقالوا له: أين سارة امرأتك، فقال: ها هي في الخيمة، فقال: إني أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة امرأتك ابن.

---

(١) ملخص ما في التوراة من صدر قصة لوط.

وكانت سارة سامعة في باب الخيمة وهو وراءه.

وكان إبراهيم وسارة شيخين متقدمين في الأيام.

وقد انقطع أن يكون لسارة عادة كالنساء.

فضحكت سارة في باطنها قائلة: أبعد فنائي يكون لي تنعم وسيدي قد شاخ؟ فقال الرب لإبراهيم: لماذا ضحكت سارة قائلة: أفبالحقيقة ألد وأنا قد شخت؟ هل يستحيل على الرب شيء؟ في الميعاد أرجع إليك نحو زمان الحياة ويكون لسارة ابن، فأنكرت سارة قائلة: لم أضحك، لأنها خافت.

فقال: لا بل ضحكت.

ثم قام الرجال من هناك وتطلعوا نحو سدوم، وكان إبراهيم ماشياً معهم ليشيعهم.

فقال الرب: هل أخفي عن إبراهيم ما أنا فاعله؟ وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض.

لأني عرفته لكي يوصي بنيه وبيته من بعده أن يحفظوا طريق الرب ليعملوا براً وعدلاً لكي يأتي الرب لإبراهيم بما تكلم به.

فقال الرب: إن صراخ سدوم وعمورة قد كثر وخطيئتهم قد عظمت جداً.

أنزل وأرى هل فعلوا بالتمام حسب صراخها الآتي إلي وإلا فأعلم.

وانصرف الرجال من هناك وذهبوا نحو سدوم.

وأما إبراهيم فكان لم يزل قائما أمام الرب.

فتقدم إبراهيم وقال: أفتهلك البار مع الأثيم؟ عسى أن يكون خمسون باراً في المدينة.

أفتهلك المكان ولا تصفح عنه من أجل الخمسين باراً الذين فيه؟ حاشا لك أن تفعل مثل هذا الأمر أن تميت البار مع الأثيم فيكون البار كالأثيم، حاشاك.

أديان كل الأرض لا يصنع عدلا؟ فقال الرب: إن وجدت في سدوم خمسين باراً في المدينة فإني أصفح عن المكان كله من أجلهم.

فأجاب إبراهيم وقال: إني قد شرعت أكلم المولى وأنا تراب ورماد ربما نقص الخمسون باراً خمسة أتهلك كل المدينة بالخمسة ؟ فقال الرب: لا أهلك إن وجدت هناك خمسة وأربعين.

فعاد يكلمه أيضاً وقال: عسى أن يوجد هناك أربعون، فقال: لا أفعل من أجل الأربعين.

فقال: لا يسخط المولى فأتكلم عسى أن يوجد هناك ثلاثون.

فقال: لا أفعل إن وجدت هناك ثلاثين.

فقال: إني قد شرعت أكلم المولى عسى أن يوجد هناك عشرون، فقال: لا أهلك من أجل العشرين.

فقال: لا يسخط المولى فأتكلم هذه المرة فقط عسى أن يوجد هناك عشرة، فقال: لا أهلك من أجل العشرة.

وذهب الرب عند ما فرغ من الكلام مع إبراهيم ورجع إبراهيم إلى مكانه.

فجاء الملكان إلى سدوم مساء وكان لوط جالساً في باب سدوم فلما رآهما لوط قام لاستقبالهما وسجد بوجهه إلى الأرض.

وقال: يا سيديَّ ميلا إلى بيت عبدكما وبيتا واغسلا أرجلكما ثم تبكران وتذهبان في طريقكما، فقالا: لا بل في الساحة نبيت، فألح عليهما جداً، فمالا إليه ودخلا بيته، فصنع لهما ضيافة وخبزاً فطيراً فأكلا.

وقبل ما اضطجعا أحاط بالبيت رجال المدينة رجال سدوم من الحدث إلى الشيخ كل الشعب من أقصاها فنادوا لوطاً وقالوا له: أين الرجلان اللذان دخلا إليك الليلة؟ أخرجهما إلينا لنعرفهما.

فخرج إليهم لوط إلى الباب وأغلق الباب وراءه.

وقال: لا تفعلوا شراً يا إخوتي.

هو ذا لي ابنتان لم يعرفا رجلاً أخرجهما إليكم فافعلوا بهما كما يحسن في عيونكم.

وأما هذان الرجلان فلا تفعلوا بهما شيئاً لأنهما قد دخلا تحت ظل سقفي.

فقالوا: ابعد إلى هناك.

ثم قالوا: جاء هذا الإنسان ليتغرب وهو يحكم حكماً.

الآن نفعل بك شراً أكثر منهما.

فألحوا على الرجل لوط جدا وتقدموا ليكسروا الباب فمد الرجلان أيديهما وأدخلا لوطاً إليهما إلى البيت وأغلقا الباب وأما الرجال الذين على باب البيت فضرباهم بالعمى من الصغير إلى الكبير فعجزوا عن أن يجدوا الباب.

وقال الرجلان للوط: من لك أيضاً ها هنا أصهارك وبنوك وبناتك وكل من لك في المدينة أخرج من المكان لأننا مهلكان هذا المكان إذ قد عظم صراخهم أمام الرب فأرسلنا الرب لنهلكهم.

فخرج لوط وكلّم أصهاره الآخذين بناته وقال: قوموا اخرجوا من هذا المكان لأن الرب مهلك المدينة، فكان كمازح في أعين أصهاره.

ولما طلع الفجر كان الملأ يعجلان لوطاً قائلين: قم خذ امرأتك وابنتيك

الموجودتين لئلا تهلك بإثم المدينة.

ولما توانى أمسك الرجلان بيده وبيد امرأته وبيد ابنتيه لشفقة الرب عليه وأخرجاه ووضعاه خارج المدينة.

وكان لما أخرجاهم إلى خارج أنه قال: اهرب لحياتك.

لا تنظر إلى ورائك ولا تقف في كل الدائرة.

اهرب إلى الجبل لئلا تهلك فقال لهما لوط: لا يا سيد هو ذا عبدك قد وجد نعمة في عينيك وعظمت لطفك الذي صنعت إلي باستبقاء نفسي.

وأنا لا أقدر أن أهرب إلى الجبل لعل الشر يدركني فأموت.

هو ذا المدينة هذه قريبة للهرب إليها.

وهي صغيرة أهرب إلى هناك أليست هي صغيرة فتحيا نفسي.

فقال له: إني قد رفعت وجهك في هذا الأمر أيضاً أن لا أقلب المدينة التي تكلمت عنها.

أسرع اهرب إلى هناك لأني لا أستطيع أن أفعل شيئاً حتى تجيء إلى هناك، لذلك دعي اسم المدينة صوغر.

وإذا أشرقت الشمس على الأرض دخل لوط إلى صوغر فأمطر الرب على سدوم وعمورة كبريتا ونارا من عند الرب من السماء.

وقلب تلك المدن وكل الدائرة وجميع سكان المدن ونبات الأرض.

ونظرت امرأته من ورائه فصارت عمود ملح.

وبكر إبراهيم في الغد إلى المكان الذي وقف فيه أمام الرب وتطلع نحو سدوم وعمورة ونحو كل أرض الدائرة.

ونظر وإذا دخان الأرض يصعد كدخان الأتون.

وحدث لما أخرب الله مدن الدائرة أن الله ذكر إبراهيم.

وأرسل لوطا من وسط الانقلاب حين قلب المدن التي سكن فيها لوط.

وصعد لوط من صوغر وسكن في الجبل وابنتاه معه لأنه خاف أن يسكن في صوغر فسكن في المغارة هو وابنتاه.

وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض هلم نسقي أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيي من أبينا نسلا.

فسقتا أباهما خمرا في تلك الليلة.

ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة إني قد اضطجعت البارحة مع أبي.

نسقيه خمرا الليلة أيضاً فادخلي اضطجعي معه فنحيي من أبينا نسلا.

فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً.

وقامت الصغيرة واضطجعت معه.

ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها.

فحبلت ابنتا لوط من أبيهما.

فولدت البكر ابنا ودعت اسمه موآب وهو أبو الموآبيين إلى اليوم والصغيرة أيضاً ولدت ابنا ودعت اسمه بن عمى وهو أبو بني عمون إلى اليوم.

هذا ما قصته التوراة في لوط وقومه نقلناه على طوله ليتضح به ما تخالف القرآن الكريم من وجه القصة ومن وجوه غيرها.

ففيها كون الملك المرسل للبشرى والعذاب ملكين اثنين.

وقد عبر القرآن بالرسل ـ بلفظ الجمع وأقله ثلاثة ـ.

وفيها أن أضياف إبراهيم أكلوا مما صنعه وقدمه إليهم، والقرآن ينفي ذلك ويقص أن إبراهيم خاف إذ رأى أن أيديهم لا تصل إليه.

وفيها: إثبات بنتين للوط، والقرآن يعبر بلفظ البنات.

وفيها كيفية إخراج الملائكة لوطاً وكيفية تعذيب القوم وصيرورة المرأة عموداً من ملح وغير ذلك.

وفيها نسبة التجسم صريحة إلى الله سبحانه، وما ذكرته من قصة لوط مع بنتيه أخيراً، والقرآن ينزّه ساحة الحقّ سبحانه عن التجسم ويبرىء أنبياءه ورسله عن ارتكاب ما لا يليق بساحة قدسهم.(١)

---

(١) الميزان ١٠: ٥٣٢ ـ ٥٣٧.

بحث روائي

في قوم لوط عليه السلام وضيوفه من الملائكة وهلاك قومه

في الكافي، بإسناده عن زكريا بن محمد، عن أبيه، عن عمرو، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان قوم لوط من أفضل قوم خلقهم الله فطلبهم إبليس الطلب الشديد، وكان من فضلهم وخيرتهم أنهم إذا خرجوا إلى العمل خرجوا بأجمعهم وتبقى النساء خلفهم فلم يزل إبليس يعتادهم فكانوا إذا رجعوا خرب إبليس ما يعملون . فقالوا بعضهم لبعض: تعالوا نرصد هذا الذي يخرب متاعنا فرصدوه، فإذا هو غلام أحسن ما يكون من الغلمان فقالوا له: أنت الذي تخرب متاعنا مرة بعد أُخرى، فاجتمع رأيهم على أن يقتلوه فبيتوه عند رجل فلما كان الليل صاح له فقال له: ما لك؟ فقال: فإن أبي ينومني على بطنه فقال له: تعال فنم على بطني. قال: فلم يزل يدلك الرجل حتى علمه أن يفعل بنفسه فأولاً علمه إبليس والثاني علمه هو ثم انسل يفر منهم، فأصبحوا فجعل الرجل يخبر بما فعل بالغلام ويعجبهم منه وهم لا يعرفونه فوضعوا أيديهم فيه حتى اكتفى الرجال بعضهم ببعض ثم جعلوا يرصدون مارة الطريق فيفعلون بهم حتى تنكب مدينتهم الناس ثم تركوا نساءهم وأقبلوا على الغلمان. فلما رأى أنه قد أحكم أمره في الرجال جاء إلى النساء فصير نفسه امرأة فقال لهن: إن رجالكن يفعل بعضهم ببعض؟ قلن: نعم رأينا ذلك وكل ذلك يعظهم لوط ويوصيهم وإبليس يغويهم حتى استغنى النساء بالنساء.

فلما كملت عليهم الحجة بعث الله جبرئيل وميكائيل وإسرافيل في زي غلمان عليهم أقبية فمروا بلوط وهو يحرث. قال: أين تريدون؟ ما رأيت أجمل منكم قط . فقالوا: إنّا رسل سيّدنا إلى رب هذه البلدة.

قال: أولم يبلغ سيدكم ما يفعل أهل هذه القرية؟ إنهم والله يأخذون الرجال فيفعلون بهم حتى يخرج الدم. قالوا: أمرنا سيدنا أن نمر وسطها. قال: فلي إليكم حاجة . قالوا: وما هي؟ قال: تصبرون هنا إلى اختلاط الظلام . قال: فجلسوا.

قال: فبعث ابنته. قال: فجيئي لهم بخبز وجيئي لهم بماء في القرعة وجيئي لهم بعباء يتغطون بها من البرد فلما أن ذهبت الابنة أقبل المطر والوادي فقال لوط: الساعة تذهب بالصبيان الوادي قال: قوموا حتى نمضي، وجعل لوط يمشي في أصل الحائط، وجعل جبرئيل وميكائيل وإسرافيل يمشون وسط الطريق. قال: يا بني امشوا هاهنا فقالوا أمرنا سيدنا أن نمر في وسطها وكان لوط يستغنم الظلام. ومر إبليس فأخذ من حجر امرأة صبياً فطرحه في البئر فتصايح أهل المدينة كلهم على باب لوط ، فلما أن نظروا إلى الغلمان في منزل لوط قالوا: يا لوط قد دخلت في عملنا؟ فقال: هؤلاء ضيفي فلا تفضحون في ضيفي. قالوا: هم ثلاثة خذ واحداً وأعطنا اثنين. قال: وأدخلهم الحجرة وقال: لو أن لي أهل بيت تمنعوني منكم. قال: وتدافعوا على الباب وكسروا باب لوط وطرحوا لوطاً فقال له جبرئيل: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأخذ كفا من بطحاء فضرب بها وجوههم وقال: شاهت الوجوه فعمي أهل المدينة كلهم فقال لهم لوط: يا رسل ربي فما أمركم ربي فيهم؟ قالوا: أمرنا أن نأخذهم بالسحر. قال: فلي إليكم حاجة.

قالوا: وما حاجتك؟

قال: تأخذوهم الساعة فإني أخاف أن يبدولربي فيهم. فقالوا: يا لوط ﴿إِنَّ

﴿مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ لمن يريد أن يأخذ فخذ أنت بناتك وامض ودع امرأتك.

فقال أبو جعفر عليه السلام: رحم الله لوطاً لو علم من معه في الحجرة لعلم أنه منصور حيث يقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾[١]، أي ركن أشد من جبرئيل معه في الحجرة؟ فقال عزّ وجل لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾، من ظالمي أُمّتك إن عملوا ما عمل قوم لوط.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: من ألح في وطي الرجال لم يمت حتى يدعو الرجال إلى نفسه.[٢]

قال المؤلّف رحمه الله والرواية لا تخلو من تشويش ما في اللفظ، وقد ذكر فيها الملائكة المرسلون ثلاثة، وفي بعض الروايات ـ كالرواية المذكورة في الباب السابق عن أبي يزيد الحمار عن أبي عبد الله عليه السلام ـ أنهم كانوا أربعة بزيادة كروبيل، وفي بعض الروايات من طرق أهل السنة أنهم كانوا ثلاثة وهم جبرئيل وميكائيل ورفائيل، والظاهر من الرواية أنها تأخذ قول لوط: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾، خطاباً منه للملائكة لا للقوم، وقد تقدّمت الإشارة إليه في بيان الآيات.

وقوله عليه السلام: «رحم الله لوطا لو علم ...إلخ» في معنى قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم ـ على ما روي عنه ـ رحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد.

وقوله عليه السلام: فقال عزّ وجل لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم ...إلخ، إشارة إلى ما تقدّم من احتمال كون الآية، مسوقاً لتهديد قريش.

---

(١) هود: ٨٠.

(٢) الكافي ٥: ٥٤٤.

وفي تفسير القمي، بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾، قال: ما من عبد يخرج من الدنيا يستحل عمل قوم لوط إلا رماه الله جندلة من تلك الحجارة تكون منيته فيه ولكن الخلق لا يرونه.[١]

قال المؤلّف رحمه الله: وروي في الكافي، بإسناده عن ميمون البان عنه عليه السلام مثله.

وفيه: من بات مصراً على اللواط لم يمت حتى يرميه الله بحجارة تكون فيه منيته ولا يراه أحد، وفي الحديثين إشعار بكون قوله: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ غير خاص بقريش، وإشعار بكون العذاب المذكور روحانياً غير مادي.[٢]

وفي الكافي، بإسناده عن يعقوب بن شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول لوط: ﴿هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، قال: عرض عليهم التزويج.[٣]

وفي تفسير العياشي عن الرضا عليه السلام: عن إتيان الرجل المرأة من خلفها فقال: أحلتها آية من كتاب الله عزّ وجل: قول لوط: ﴿هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ قد علم أنهم لا يريدون الفرج.[٤]

وفي الدر المنثور، أخرج أبو الشيخ عن علي رضي الله عنه أنه خطب فقال: عشيرة الرجل للرجل خير من الرجل لعشيرته إنه إن كف يده عنهم كف يدا واحدة، وكفوا عنه أيدي كثيرة مع مودتهم وحفاظتهم ونصرتهم حتى لربما غضب الرجل للرجل وما يعرفه إلا بحسبه وسأتلو عليكم بذلك آيات من كتاب الله تعالى

---

(١) تفسير القمّي ١: ٣٣٦.
(٢) الكافي ٥: ٥٤٨.
(٣) المصدر السابق.
(٤) تفسير العيّاشي ٢: ١٥٧.

فتلا هذه الآية: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، قال علي عليه السلام: والركن الشديد العشيرة فلم يكن للوط عشيرة فوالذي لا إله غيره ما بعث الله نبياً بعد لوط إلّا في ثروة من قومه.[١]

قال المؤلّف رحمه الله وآخر الرواية مروي من طرق أهل السنة والشيعة.[٢]

وفي الكافي، في حديث أبي يزيد الحمار، عن أبي جعفر عليه السلام المنقول في البحث الروائي السابق قال: فأتوا يعني الملائكة لوطاً وهو في زراعة قرب القرية فسلموا عليه وهم معتمون فلما رأى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض وعمائم بيض قال لهم: المنزل فقالوا: نعم فتقدمهم ومشوا خلفه فندم على عرضه المنزل عليهم فقال: أي شيء صنعت؟ آتي بهم قومي وأنا أعرفهم؟ فقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله. قال جبرئيل: لا نعجل عليهم حتى يشهد عليهم ثلاث مرات.

فقال جبرئيل: هذه واحدة فمشى ساعة ثم التفت إليهم فقال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله. فقال جبرئيل: هذه ثنتان. ثم مشى فلما بلغ باب المدينة التفت إليهم ثم قال: إنكم لتأتون شراراً من خلق الله. فقال جبرئيل: هذه الثالثة ثم دخل ودخلوا معه حتى دخل منزله.

فلما رأتهم امرأته رأت هيئة حسنة فصعدت فوق السطح فصفقت فلم يسمعوا فدخنت، فلما رأوا الدخان أقبلوا إلى الباب يهرعون حتى جاءوا على الباب فنزلت إليهم فقالت: عندنا قوم ما رأيت قط قوماً أحسن منهم هيئة فجاءوا إلى الباب ليدخلوا.

---

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤٣.

(٢) انظر: تفسير القمّي ١: ٣٣٥، بحار الأنوار ١٢: ٥٧.

فلما رآهم لوط قام إليهم فقال لهم: يا قوم اتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد؟ ثم قال: ﴿هَؤُلاء بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ فدعاهم كلهم إلى الحلال فقالوا: ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد، فقال لهم: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، فقال جبرئيل: لو يعلم أي قوة له. فتكاثروه حتى دخلوا الباب فصاح بهم جبرئيل فقال: يا لوط دعهم يدخلون، فلما دخلوا أهوى جبرئيل بإصبعه نحوهم فذهبت أعينهم وهو قول الله عزّ وجل: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾[1]، ثم ناداه جبرئيل فقال له: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾. وقال له جبرئيل: إنا بعثنا في إهلاكهم فقال: يا جبرئيل عجّل، فقال: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾. فأمره يتحمل ومن معه إلاّ امرأته ثم اقتلعها يعني المدينة جبرئيل بجناحه من سبع أرضين ثم رفعها حتى سمع أهل السماء الدنيا نباح الكلاب وصراخ الديوك ثم قلبها وأمطر عليها وعلى من حول المدينة بحجارة من سجيل.[2]

قال المؤلّف ﷺ وما اشتمل عليه آخر الرواية من اقتلاعها من سبع أرضين ثم رفعها إلى حيث سمع أهل السماء الدنيا نباح كلابهم وصراخ ديوكهم أمر خارق للعادة، وهو وإن كان لا يستبعد من قدرة الله سبحانه لكنه مما لا يكفي في ثبوته أمثال هذه الرواية وهي من الآحاد.

على أن السنة الإلهية جارية على أن تقتفي في الكرامات والمعجزات الحكمة وأي حكمة في رفعهم إلى هذا الحد ولا أثر له في عذابهم ولا في تشديده؟ وقول بعض أهل الكلام: من الجائز أن يكون هذا الفعال العجيب الخارق للعادة

---

(١) القمر: ٣٧.

(٢) الكافي ٥: ٥٤٧.

لطفا من الله ليكون الإخبار بذلك من طريق المعصومين مقربا للمؤمنين إلى الطاعة مبعدا لهم من المعصية كلام مدخول فإن خلق الأمور العظيمة المعجبة والحوادث الخارقة للعادة ليتأكد بها إيمان المؤمنين ويعتبر بها المعتبرون وإن كان لا يخلو من لطف إلا أنه إنما يكون لطفاً فيما كان بلوغه لهم من طريق الحس أو أي طريق علمي آخر، وأما رواية واحدة أوضعيفة وهي خالية عن الحجية لا يعبأ بها فلا معنى لإيجاد الأمور الخارقة والحوادث العجيبة لأجل حصول اعتبار أو مخافة من طريقها، ولا وجه لتشديد عذاب قوم ليعتبر به قوم آخرون إلا في سنة الجهال من طغاة البشر وجبابرتهم.

قال صاحب المنار في تفسيره: وفي خرافات المفسرين المروية عن الإسرائيليات أن جبرئيل قلعها من تخوم الأرض بجناحه وصعد بها إلى عنان السماء حتى سمع أهل السماء أصوات الكلاب والدجاج فيها ثم قلبها قلبا مستويا فجعل عاليها سافلها.

وهذا تصور مبني على اعتقاد متصوره إن الأجرام السماوية المأهولة بالسكان مما يمكن أن يقرب منهم سكان الأرض وما فيها من الحيوان ويبقون أحياء.

وقد ثبت بالمشاهدة والاختبار الفعلي في هذه الأيام التي يكتب هذا فيها أن الطيارات والمناطيد التي تخلق في الجو تصل إلى حيث يخف ضغط الهواء ويستحيل حياة الناس فيها، وهم يصنعون أنواعا منها يصنعون فيها من أكسجين الهواء ما يكفي استنشاقه وتنفسه للحياة في طبقات الجو العليا ويصعدون فيها.

وقد أشير في الكتاب العزيز إلى ما يكون للتصعيد في جو السماء من التأثير في ضيق الصدر من عسر التنفس بقوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ

صَدْرَهُ لِلإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ .[1]

فإن قيل : إن هذا الفعل المروي عن جبرئيل من الممكنات العقلية وكان وقوعه من خوارق العادات فلا يصحّ أن يجعل تصديقه موقوفاً على ما عرف من سنن الكائنات.

قلت: نعم ولكن الشرط الأول لقبول الرواية في أمر جاء على غير السنن والنواميس التي أقام الله بها نظام العالم من عمران وخراب أن تكون الرواية عن وحي إلهي نقل بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الإسناد لا شذوذ فيه ولا علة على الأقل، ولم يذكر في كتاب الله تعالى، ولم يرد فيه حديث مرفوع إلى نبيه ﷺ، ولا تظهر حكمة الله فيه، وإنما روي عن بعض التابعين دون الصحابة.

ولا شك أنه من الإسرائيليات.

ومما قالوه فيها: أن عدد أهلها كان أربعة آلاف ألف وبلاد فلسطين كلها لا تسع هذا العدد فأين كان هؤلاء الملايين يسكنون من تلك القرى الأربع ؟[2]

والذي ذكره أن الحديث إنما روي عن التابعين دون الصحابة فإنه أن هذا المعنى مروي عن ابن عباس وعن حذيفة بن اليمان، ففي رواية ابن عباس كما في الدر المنثور، عن إسحاق بن بشر وابن عساكر من طريق جويبر ومقاتل عن الضحاك عنه: فلما كان عند وجه الصبح عمد جبريل إلى قرى لوط بما فيها من رجالها ونسائها وثمارها وطيرها فحواها وطواها ثم قلعها من تخوم الثرى ثم

(١) الأنعام: ١٢٥ .

(٢) تفسير المنار ١٢: ١٣٨ .

احتملها تحت جناحه ثم رفعها إلى السماء الدنيا فسمع سكان سماء الدنيا أصوات الكلاب والطير والنساء والرجال من تحت جناح جبرئيل ثم أرسلها منكوسة ثم أتبعها بالحجارة، وكانت الحجارة للرعاة والتجار ومن كان خارجا عن مدائنهم...[١]

وفي رواية حذيفة بن اليمان على ما في الدر المنثور، عن عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه: فاستأذن جبرئيل في هلاكهم فأذن له فاحتمل الأرض التي كانوا عليها، وأهوى بها حتى سمع أهل سماء الدنيا صغاء كلابهم وأوقد تحتهم نارا ثم قلبها بهم فسمعت امرأة لوط الوجبة وهي معهم فالتفتت فأصابها العذاب، وتبعت سفارهم الحجارة ... الحديث.[٢]

وأما من التابعين فقد روي هذا المعنى عن سعيد بن جبير ومجاهد وأبي صالح ومحمد بن كعب القرظي وعن السدي ما هو أغلظ من ذلك قال: لما أصبحوا نزل جبرئيل فاقتلع الأرض من سبع أرضين فحملها حتى بلغ السماء الدنيا ثم أهوى بها جبرئيل إلى الأرض... الحديث.[٣]

وأما ما ذكره من أنه «يشترط في قبول الرواية أن تكون منقولة بالتواتر عن المعصوم أو بسند صحيح متصل الإسناد لا شذوذ فيه ولا علة» فمسألة أُصولية، والذي استقر عليه النظر اليوم في المسألة أن الخبر إن كان متواتراً أو محفوفاً بقرينة قطعية فلا ريب في حجيتها، وأما غير ذلك فلا حجية فيه إلّا الأخبار الواردة في الأحكام الشرعية الفرعية إذا كان الخبر موثوق الصدور

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤٤.

(٢) المصدر السابق.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٤٥.

بالظن النوعي فإن لها حجّية.

وذلك أن الحجية الشرعية من الاعتبارات العقلائية فتتبع وجود أثر شرعي في المورد يقبل الجعل والاعتبار الشرعي والقضايا التاريخية والأُمور الاعتقادية لا معنى لجعل الحجية فيها لعدم أثر شرعي ولا معنى لحكم الشارع بكون غير العلم علما وتعبيد الناس بذلك، والموضوعات الخارجية وإن أمكن أن يتحقق فيها أثر شرعي إلا أن آثارها جزئية والجعل الشرعي لا ينال إلّا الكليات وليطلب تفصيل القول في المسألة من علم الأصول.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن مردويه، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: رحم الله لوطاً إن كان ليأوي إلى ركن شديد.[1]

قال المؤلّف ﵀ مقتضى المقام الذي كان يجاري فيه لوط قومه ويأمرهم بتقوى الله والاجتناب عن الفجور، وظاهر سياق الآيات الحاكية للمشاجرة بينه وبين قومه أن لوطاً إنما كان يتمنى أنصاراً أولي رشد من بين قومه أو من غيرهم فقوله: ﴿أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ يريد به أنصاراً من غير القوم من عشيرة أو أخلاء وأصدقاء في الله ينصرونه في الدفع عن أضيافه هذا والركن الشديد معه في داره وهم جبرئيل وميكائيل وإسرافيل ولذلك لبوه من غير فصل وقالوا: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُواْ إِلَيْكَ﴾.

ولم يكن ليغفل في حال من تلك الأحوال عن ربّه وأن كل النصر من عنده حتى ينساه ويتمنى ناصراً غيره، وحاشا مقام هذا النبي الكريم عن مثل هذا الجهل المذموم وقد قال الله تعالى في حقه: ﴿آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً -إلى أن قال: -

(١) الدر المنثور ٣: ٣٤٤.

وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١].

فقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن كان ليأوي إلى ركن شديد» معناه أن معه جبرئيل وسائر الملائكة وهو لا يعلم بذلك، وليس معناه أن معه الله سبحانه وهو جاهل بمقام ربه.[٢]

فما في بعض الروايات الناقلة للفظة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الإشعار بأن مراده بالركن الشديد هو الله سبحانه دون الملائكة إنما نشأ عن فهم بعض رواة الحديث كما عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: رحم الله لوطاً كان يأوي إلى ركن شديد يعني الله تعالى.[٣]

وكما عنه من طريق آخر قال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «يغفر الله للوط إن كان ليأوي إلى ركن شديد»، ولعلّ فيه نقلاً بالمعنى وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: رحم الله لوطاً فغيره الراوي إلى قوله: يغفر الله للوط المشعر بكون لوط أهمل أدباً من آداب العبودية أو أذنب ذنباً بجهله مقام ربّه ونسيانه ما لم يكن له أن ينساه.[٤]

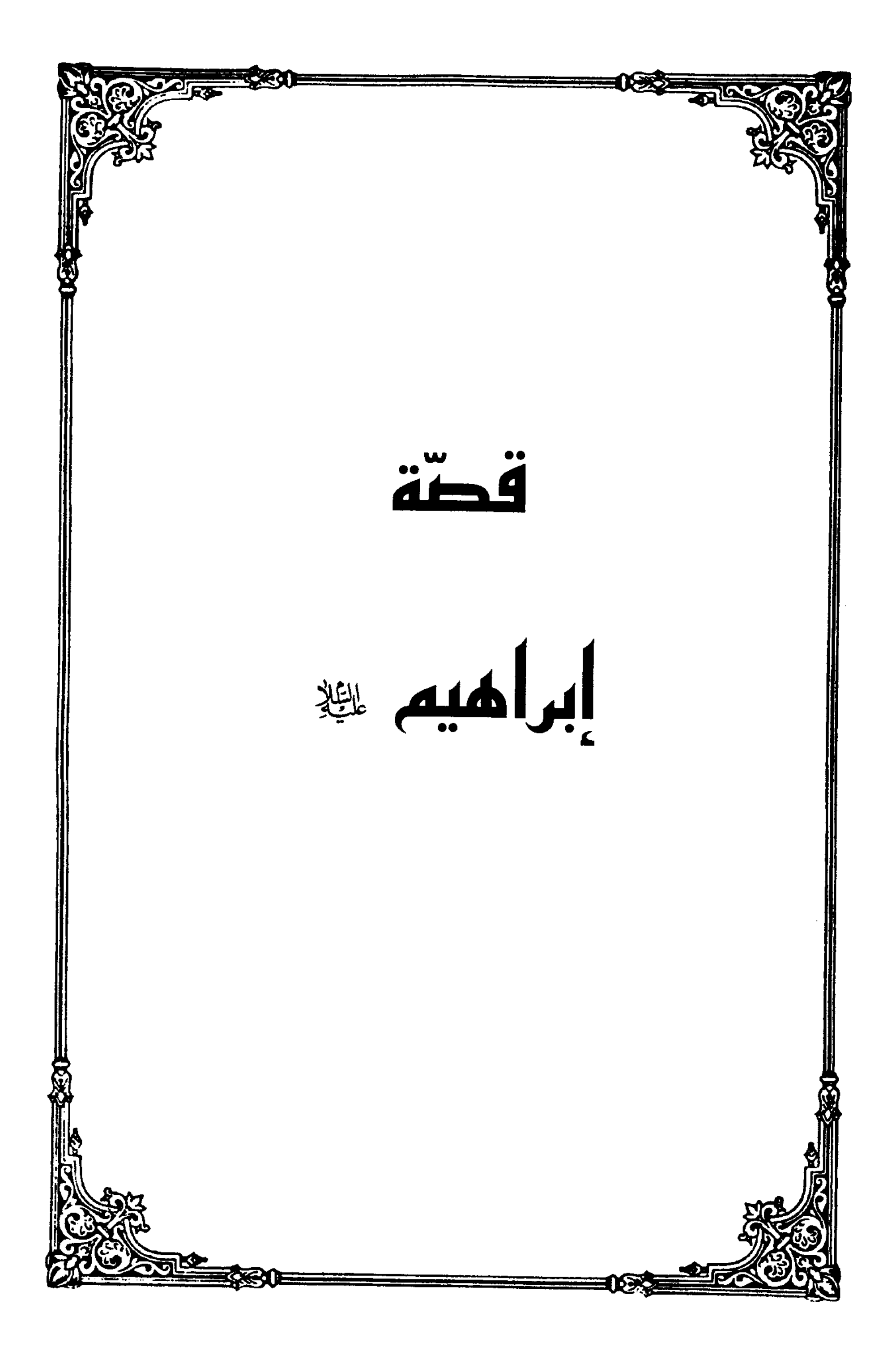
---

(١) الأنبياء: ٧٥.

(٢) الدر المنثور ٣: ٣٤٤.

(٣) الدر المنثور ٣: ٣٤٤.

(٤) الميزان ١٠: ٥١٧ ـ ٥٢٨.



قصّة

إبراهيم عليه السلام



وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾



كلام في قصّة إبراهيم عليه السلام وشخصيته ونهايته

١ ـ قصّة إبراهيم عليه السلام في القرآن

كان إبراهيم عليه السلام في طفوليته إلى أوائل تمييزه يعيش في معزل من مجتمع قومه ثم خرج إليهم ولحق بأبيه فوجده وقومه يعبدون الأصنام فلم يرتض منه ومنهم ذلك وقد كانت فطرته طاهرة زاكية مؤيدة من الله سبحانه بالشهود الحق وإراءة ملكوت كل شيء وبالجملة وبالقول الحق والعمل الصالح.

فأخذ يحاج أباه في عبادته الأصنام ويدعوه إلى رفضها وتوحيد الله سبحانه واتباعه حتى يهديه إلى مستقيم الصراط ويبعده من ولاية الشيطان، ولم يزل يحاجه ويلح عليه حتى زبره وطرده عن نفسه وأوعده أن يرجمه إن لم ينته عن ذكر آلهته بسوء والرغبة عنها.

فتلطف إبراهيم عليه السلام إرفاقاً به وحناناً عليه وقد كان ذا خلق كريم وقول مرضي فسلم عليه ووعده أن يستغفر له ويعتزله وقومه وما يعبدون من دون الله[1]، وقد كان من جانب آخر يحاج القوم في أمر الأصنام[2]، ويحاج أقواماً آخرين منهم يعبدون الشمس والقمر والكوكب في أمرها حتى ألزمهم الحق وشاع خبره

(١) مريم: ٤١ ـ ٤٨.

(٢) الأنبياء: ٥١ ـ ٥٦، الشعراء: ٦٩ ـ ٧٧، الصافات: ٨٣ ـ ٨٧.

في الانحراف عن الأصنام والآلهة[1] حتى خرج القوم ذات يوم إلى عبادة جامعة خارج البلد واعتل هو بالسقم فلم يخرج معهم وتخلف عنهم فدخل بيت الأصنام فراغ على آلهتهم ضربا باليمين فجعلهم جذاذاً إلا كبيراً لهم لعلهم إليه يـرجـعون فلما تراجعوا وعلموا بما حدث بآلهتهم وفتشوا عمن ارتكب ذلك قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم.

فأحضروه إلى مجمعهم فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون فاستنطقوه فقالوا: أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم، قال: بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون، وقد كان أبقى كبير الأصنام ولم يجذه ووضع الفأس على عاتقه أو ما يقرب من ذلك ليشهد الحال على أنه هو الذي كسر سائر الأصنام.

وإنما قال عليه‌السلام ذلك وهو يعلم أنهم لا يصدقونه على ذلك وهم يعلمون أنه جماد لا يقدر على ذلك لكنه قال ما قال ليعقبه بقوله: فاسألوهم إن كانوا ينطقون حتى يعترفوا بصريح القول بأنهم جمادات لا حياة لهـم ولا شـعور، ولذلك لـمـا سمعوا قوله رجعوا إلى أنفسهم فقالوا: إنكم أنتم الظالمون، ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون، قال: أفتعبدون من دون الله ما لا يضركم ولا ينفعكم! أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون، أتعبدون ما تنحتون والله خلقكم وما تعملون.

قالوا: حرقوه وانصروا آلهتكم، فبنوا له بنياناً وأسعروا فيه جحيماً من النار وقد تشارك في أمره الناس جميعا وألقوه في الجحيم فجعله الله برداً عليه وسلاماً وأبطل كيدهم[2]، وقد أدخل في خلال هذه الأحوال على الملك، وكان يعبده القوم

---

(١) الأنعام: ٧٤ ـ ٨٢.

(٢) الأنبياء: ٥٧ ـ ٧٠، الصافات: ٨٨ ـ ٩٨.

ويتخذونه رباً فحاج إبراهيم في ربّه، فقال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت، فغالطه الملك وقال: أنا أحيي وأميت كقتل الأسير وإطلاقه، فحاجه إبراهيم بأصرح ما يقطع مغالطته فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾(١).

ثمّ لما أنجاه الله من النار أخذ يدعو إلى الدين الحنيف دين التوحيد فآمن له شرذمة قليلة وقد سمى الله تعالى منهم لوطاً ومنهم زوجته التي هاجر بها وقد كان تزوج بها قبل الخروج من الأرض إلى الأرض المقدسة.

ثم تبرأ هو عليه السلام ومن معه من المؤمنين من قومهم وتبرأ هو من آزر الذي كان يدعوه أبا ولم يكن بوالده الحقيقي وهاجر ومعه زوجته ولوط إلى الأرض المقدسة ليدعو الله سبحانه من غير معارض يعارضه من قومه الجفاة الظالمين(٢)، وبشره الله سبحانه هناك بإسماعيل وبإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، وقد شاخ وبلغه كبر السن فولد له إسماعيل ثم ولد له إسحاق وبارك الله سبحانه فيه وفي ولديه وأولادهما.

ثمّ إنه عليه السلام بأمر من ربّه ذهب إلى أرض مكة وهي واد غير ذي زرع فأسكن فيه ولده إسماعيل وهو صبي ورجع إلى الأرض المقدسة، فنشأ إسماعيل هناك واجتمع عليه قوم من العرب القاطنين هناك وبنيت بذلك بلدة مكّة.

وكان عليه السلام ربما يزور إسماعيل في أرض مكة قبل بناء مكة والبيت وبعد ذلك(٣)، ثم بنى بها الكعبة البيت الحرام بمشاركة من إسماعيل وهي أوّل بيت وضع

---

(١) البقرة: ٢٥٨.

(٢) الممتحنة: ٤، الأنبياء: ٧١.

(٣) البقرة: ١٢٦، إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١.

للناس من جانب الله مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا[١]، وأذن في الناس بالحج وشرع نسك الحج[٢].

ثم أمره الله بذبح ولده إسماعيل عليه السلام فخرج معه للنسك فلما بلغ معه السعي قال: يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك، قال: يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين، فلما أسلما وتله للجبين نودي أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا، وفداه الله سبحانه بذبح عظيم.[٣]

وآخر ما قصّ القرآن الكريم من قصصه عليه السلام أدعيته في بعض أيام حضوره بمكة المنقولة في سورة إبراهيم[٤]، وآخر ما ذكر فيها قوله عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾.

٢ ـ منزلة إبراهيم عند الله سبحانه وموقفه العبودي

أثنى الله تعالى على إبراهيم عليه السلام في كلامه أجمل ثناء وحمد محنته في جنبه أبلغ الحمد، وكرر ذكره باسمه في نيف وستين موضعاً من كتابه وذكر من مواهبه ونعمه عليه شيئاً كثيراً.

وهاك جملاً من ذلك:

(١) البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩، آل عمران: ٩٦ ـ ٩٧.
(٢) الحج: ٢٦ ـ ٣٠.
(٣) الصافات: ١٠١ ـ ١٠٧.
(٤) الآيات: ٣٥ ـ ٤١.

١ ـ آتاه الله رشده من قبل[١].

٢ ـ واصطفاه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين، إذ قال له ربه أسلم قال: أسلمت لرب العالمين[٢].

٣ ـ وهو الذي وجه وجهه إلى ربّه حنيفاً وما كان من المشركين[٣].

٤ ـ وهو الذي اطمأن قلبه بالله وأيقن به بما أراه الله من ملكوت السماوات والأرض[٤].

٥ ـ واتخذه الله خليلاً[٥].

٦ ـ وجعل رحمته وبركاته عليه وعلى أهل بيته ووصفه بالتوفية[٦].

٧ ـ ومدحه بأنه حليم أواه منيب[٧].

٨ ـ ومدحه أنه كان أُمّة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم وآتاه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن الصالحين.[٨]

٩ ـ وكان صديقاً نبياً[٩].

---

(١) الأنبياء: ٥١.
(٢) البقرة: ١٣٠ ـ ١٣١.
(٣) الأنعام: ٧٩.
(٤) البقرة: ٢٦٠، الأنعام: ٧٥.
(٥) النساء: ١٢٥.
(٦) النجم: ٣٧.
(٧) هود: ٧٣ ـ ٧٥.
(٨) النحل: ١٢٠ ـ ١٢٢.
(٩) مريم: ٤١.

١٠ ـ وعدّه الله من عباده المؤمنين ومن المحسنين وسلم عليه[١].

١١ ـ وهو من الذين وصفهم بأنهم أولو الأيدي والأبصار وأنه أخلصهم بخالصة ذكرى الدار[٢].

١٢ ـ وقد جعله الله للناس إماماً[٣].

١٣ ـ وجعله أحد الخمسة أولي العزم الذين آتاهم الكتاب والشريعة[٤].

١٤ ـ وآتاه الله العلم والحكمة والكتاب والملك والهداية وجعلها كلمة باقية في عقبه[٥].

١٥ ـ وجعل في ذريته النبوة والكتاب[٦].

١٦ ـ وجعل له لسان صدق في الآخرين[٧].

فهذه جمل ما منحه الله سبحانه من المناصب الإلهية ومقامات العبودية ولم يفصل القرآن الكريم في نعوت أحد من الأنبياء والرسل المكرمين وكراماتهم ما فصل من نعوته وكراماته عليه السلام.

وقد حفظ الله سبحانه حياته الكريمة وشخصيته الدينية بما سمى هذا الدين القويم بالإسلام كما سمّاه عليه السلام ونسبه إليه قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ

(١) الصافات: ٨٣ ـ ١١١

(٢) ص: ٤٥ ـ ٤٦.

(٣) البقرة: ١٢٤.

(٤) الأحزاب: ٧، الشورى: ١٣، الأعلى: ١٨ ـ ١٩.

(٥) النساء: ٥٤، الأنعام: ٧٤ ـ ٩٠، الزخرف: ٢٨.

(٦) الحديد: ٢٦.

(٧) الشعراء: ٨٤، مريم: ٥٠.

﴿الْمُسْلِمينَ﴾[١]، وقال: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[٢].

وجعل الكعبة البيت الحرام التي بناها قبلة للعالمين وشرع مناسك الحج وهي في الحقيقة أعمال ممثلة لقصة إسكانه ابنه وأم ولده وتضحية ابنه إسماعيل وما سعى به إلى ربه والتوجه له وتحمل الأذى والمحنة في ذاته.

٣ ـ أثره المبارك في المجتمع البشري

ومن مننه عليه السلام السابغة أن دين التوحيد ينتهي إليه أينما كان وعند من كان فإن الدين المنعوت بالتوحيد اليوم هو دين اليهود، وينتهي إلى الكليم موسى بن عمران عليه السلام وينتهي نسبه إلى إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام، ودين النصرانية وينتهي إلى المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام، ودين الإسلام والصادع به هو محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وينتهي نسبه إلى إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل عليه السلام، فدين التوحيد في الدنيا أثره الطيب المبارك، ويشاهد في الإسلام من شرائعه الصلاة والزكاة والحج وإباحة لحوم الأنعام والتبري من أعداء الله، والسلام، والطهارات العشر الحنيفية البيضاء خمس منها في الرأس وخمس منها في البدن: أما التي في الرأس فأخذ الشارب وإعفاء اللحى وطم الشعر والسواك والخلال وأما التي في البدن فحلق الشعر من البدن والختان وتقليم الأظفار والغسل من الجنابة والطهور بالماء.

---

(١) الحج : ٧٨.

(٢) الأنعام : ١٦١.

والبحث المستوفى يؤيد أن السنن الصالحة من الاعتقاد والعمل في المجتمع البشري كائنة ما كانت من آثار النبوة الحسنة كما تكررت الإشارة إليه في المباحث المتقدمة، فلإبراهيم عليه السلام الأيادي الجميلة على جميع البشر اليوم علموا بذلك أوجهلوا.

٤ ـ ما تقصّه التوراة الموجودة في إبراهيم عليه السلام

قالت التوراة : وعاش تارح أبو إبراهيم سبعين سنة وولد أبرام وناحور وهاران.

وهذه مواليد تارح: ولد تارح أبرام وناحور وهاران، وولد هاران لوطاً، ومات هاران قبل أبيه في أرض ميلاده في «أور» الكلدانيين.

واتخذ أبرام وناحور لأنفسهما امرأتين اسم امرأة أبرام «ساراي» واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكة وأبي بسكة، وكانت ساراي عاقرا ليس لها ولد وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه، وساراي كنته امرأة أبرام ابنه فخرجوا معا من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى حاران وأقاموا هناك، وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين، ومات تارح في حاران.

قالت التوراة: وقال الرب لأبرام: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك وتكون بركة وأبارك مباركيك، ولاعنك ألعنه، ويتبارك فيك جميع قبائل الأرض، فذهب أبرام كما قال له الرب، وذهب معه لوط، وكان أبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران فأخذ أبرام ساراي امرأته ولوطا ابن أخيه وكل مقتنياتهما التي

اقتنيا والنفوس التي امتلكا في حاران، وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان فأتوا إلى أرض كنعان.

واجتاز أبرام في أرض إلى مكان «شكيم» إلى «بلوطة مورة» وكان الكنعانيون حينئذ في الأرض، وظهر الرب لأبرام وقال: لنسلك أعطى هذه الأرض فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له، ثم نقل من هناك إلى الجبل شرقي «بيت إيل» ونصبت خيمته وله «بيت إيل» من المغرب و «عاي» من المشرق فبنى هناك مذبحاً للرب ودعا باسم الرب، ثم ارتحل أبرام ارتحالا متوالياً نحو الجنوب.

وحدث جوع في الأرض فانحدر أبرام إلى مصر ليغرب هناك لأن الجوع في الأرض كان شديداً، وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته فيقتلونني ويستبقونك، قولي: إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك، فحدث لما دخل أبرام إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى أبرام خيراً بسببها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال. فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة أبرام فدعا فرعون أبرام، وقال: ما هذا الذي صنعت لي؟ لماذا لم تخبرني أنها امرأتك؟ لماذا؟ قلت: هي أختي أخذتها لتكون زوجتي؟ والآن هو ذا امرأتك خذها واذهب، فأوصى عليه رجالاً فشيعوه وامرأته وكل ما كان له.

ثم ذكرت التوراة: أن أبرام خرج من مصر ومعه ساراي ولوط ومعهم الأغنام والخدم والأموال العظيمة ووردوا «بيت إيل» المحل الذي كانت فيه خيمته مضروبة بين «بيت إيل» و«عاي» ثم بعد حين تفرق هو ولوط لأن الأرض

ما كانت تسعهما فسكن أبرام كنعان، وكان الكنعانيون والفرزيون ساكنون هناك، ونزل لوط أرض سدوم.

ثم ذكرت : أنه في تلك الأيام نشبت حرب في أرض سدوم بين «أمرافل» ملك شنعار ومعه ثلاثة من الملوك، وبين بارع ملك سدوم ومعه أربعة من الملوك المتعاهدين فانهزم ملك سدوم ومن معه انهزاما فاحشا وهربوا من الأرض بعد ما قتل من قتل منهم ونهبت أموالهم وسبيت نساؤهم وذراريهم، وكان فيمن أسر لوط وجميع أهله ونهبت أمواله.

قالت التوراة: فأتى من نجى وأخبر أبرام العبراني وكان ساكنا عند «بلوطات ممرى» الآموري أخو «أشكول» وأخي «عانر» وكانوا أصحاب عهد مع أبرام، فلما سمع أبرام أن أخاه سبي جر غلمانه المتمرنين ولدان بيته ثلاثمائة وثمانية عشر وتبعهم إلى «دان» وانقسم عليهم هو وعبيده فكسرهم وتبعهم إلى «حوبة» التي عن شمال دمشق واسترجع كل الأموال واسترجع لوطا أخاه أيضاً وأملاكه والنساء أيضاً والشعب. فخرج ملك سدوم لاستقباله بعد رجوعه من «كسرة كدر لعومر» والملوك الذين معه إلى عمق «شوى» الذي هو عمق الملك، وملكي صادق ملك «شاليم» أخرج خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي وباركه وقال: مبارك أبرام من الله العلي مالك السماوات والأرض ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك فأعطاه عشرا من كل شيء. وقال ملك سدوم لأبرام: أعطني النفوس، وأما الأملاك فخذها لنفسك فقال أبرام لملك سدوم: رفعت يدي إلى الرب الإله العلي ملك السماء والأرض لا آخذن لا خيطا ولا شراك نعل ولا من كل ما هو لك فلا تقول: أنا أغنيت أبرام ليس لي غير الذي أكله الغلمان وأما نصيب الرجال الذين ذهبوا معي «عابر» و«أسلول» و«ممرا» فهم يأخذون نصيبهم.

إلى أن قالت: وأما ساراي فلم تلد له وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراي لأبرام: هو ذا الرب قد أمسكني عن الولادة أدخل على جاريتي لعلي أرزق منها بنين فسمع أبرام لقول ساراي فأخذت ساراي امرأة أبرام هاجر المصرية جاريتها من بعد عشر سنين لإقامة أبرام في أرض كنعان وأعطتها لأبرام رجلها زوجة له فدخل على هاجر فحبلت.

ثم ذكرت: أن هاجر لما حبلت حقرت ساراي واستكبرت عليها فشكت ساراي ذلك إلى أبرام ففوض أبرام أمرها إليها فهربت هاجر منها فلقيها ملك فأمرها بالرجوع إلى سيدتها وأخبرها أنها ستلد ولداً ذكراً وتدعو اسمه إسماعيل لأن الربّ قد سمع لمذلتها، وأنه يكون إنساناً وحشياً يضاد الناس ويضادونه، وولدت هاجر لأبرام ولداً وسماه أبرام إسماعيل وكان أبرام ابن ست وسبعين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام.

قالت التوراة: ولما كان أبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لأبرام وقال له: أنا الله القدير سر أمامي وكن كاملا فأجعل عهدي بيني وبينك وأكثرك كثيراً جداً فسقط أبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلاً : أما أنا فهو ذا عهدي معك وتكون أبا لجمهور من الأمم، فلا يدعى اسمك بعد أبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأني أجعلك أبا لجمهور من الأمم وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما: وملوك منك يخرجون، وأقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في أجيالهم عهدا أبديا لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك وأعطي لك ولنسلك من بعد أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم.

ثم ذكرت: أن الرب جعل في ذلك عهدا بينه وبين إبراهيم ونسله أن يختتن هو وكل من معه ويختتنوا أولادهم اليوم الثامن من الولادة فختن إبراهيم وهو ابن

تسع وتسعين سنة وختن ابنه إسماعيل وهو ابن ثلاث عشرة سنة وسائر الذكور من بنيه وعبيده.

قالت التوراة: وقال الله لإبراهيم: ساراي امرأتك لا تدعو اسمها ساراي بل اسمها سارة وأباركها وأعطيت أيضاً منها ابنا، وأباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون، فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال في قلبه: وهل يولد لابن مائة سنة؟ هل تلد سارة وهي بنت تسعين سنة ؟

وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك، فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق، وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده، وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا، اثنا عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة، ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده سارة في هذا الوقت في السنة الآتية، فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم.

ثم ذكرت قصة نزول الرب مع الملكين لإهلاك أهل سدوم قوم لوط وأنهم وردوا على إبراهيم فضافهم وأكلوا من الطعام الذي عمله لهم من عجل قتله والزبد واللبن اللذين قدمهما إليهم ثم بشروه وبشروا سارة بإسحاق وذكروا أمر قوم لوط فجادلهم إبراهيم في هلاكهم فأقنعوه وكان بعده هلاك قوم لوط.

ثم ذكرت أن إبراهيم انتقل إلى أرض «حرار» وتغرب فيها وأظهر لملكه «أبي مالك» أن سارة أخته فأخذها الملك منه فعاتبها الرب في المنام فأحضر إبراهيم وعاتبه على قوله: إنها أختي فاعتذر أنه إنما قال ذلك خوفا من القتل واعترف أنه في الحقيقة أخته من أبيه دون أمه تزوج بها فرد إليه سارة وأعطاهما مالاً جزيلاً نظير ما قص في فرعون.

قالت التوراة: وافتقد الرب سارة كما قال وفعل الرب لسارة كما تكلم

فحبلت سارة وولدت لإبراهيم ابناً في شيخوخته في الوقت الذي تكلم الله عنه ودعا إبراهيم اسم ابنه الذي ولدته له سارة إسحاق، وختن إبراهيم إسحاق ابنه وهو ابن ثمانية أيام كما أمره الله، وكان إبراهيم ابن مائة سنة حين ولد له إسحاق ابنه، وقالت سارة: فقد صنع إلي الله، ضحكا كل من يسمع يضحك لي، وقالت من قال لإبراهيم: سارة ترضع بنين حتى ولدت ابنا في شيخوخته فكبر الولد وفطم وصنع إبراهيم وليمة عظيمة يوم فطام إسحاق.

ورأت سارة ابن هاجر المصرية الذي ولدته لإبراهيم يمزح فقالت لإبراهيم: اطرد هذه الجارية وابنها لأن ابن هذه الجارية لا يرث مع ابني إسحاق فقبح الكلام جداً في عيني إبراهيم لسبب ابنه فقال الله لإبراهيم: لا يقبح في عينيك من أجل الغلام ومن أجل جاريتك في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها لأنه بإسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضاً سأجعله أمة لأنه نسلك. فبكر إبراهيم صباحاً وأخذ خبزا وقربة ماء وأعطاهما لهاجر واضعا إياهما على كتفها والولد وصرفها فمضت وتاهت في برية بئر سبع ولما فرغ الماء من القربة طرحت الولد تحت إحدى الأشجار ومضت وجلست مقابله بعيداً نحو رمية قوس لأنها قالت: لا أنظر موت الولد فجلست مقابله ورفعت صوتها وبكت فسمع الله صوت الغلام ونادى ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها: ما لك يا هاجر؟ لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو قومي واحملي الغلام وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة، وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام، وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في البرية، وكان ينمو رامي قوس، وسكن في برية فاران، وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر.

قالت التوراة: وحدث بعد هذه الأمور أن الله امتحن إبراهيم فقال له: يا

إبراهيم فقال: ها أنا ذا فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تـحبه إسـحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك، فبكر إبراهيم صباحا وشد على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق معه وشقق حطبا لمحرقة وقام وذهب إلى الموضع الذي قال له الله، وفي اليوم الثالث رفع إبراهيم عينيه وأبصر الموضع من بعيد فقال إبراهيم لغلاميه: اجلسا أنتما هاهنا مع الحمار، أما أنا والغلام فنذهب إلى هناك ونسجد ونرجع إليكما، فأخـذ إبـراهـيم حـطب المحرقة ووضعه على إسحاق ابنه وأخذ بيده النار والسكين فذهبا كلاهما مـعا، وكلم إسحاق أباه إبراهيم وقال له: يا أبي فقال: ها أنا ذا يا ابني فقال: هو ذا النار والحطب ولكن أين الخروف للمحرقة؟ فـقال إبـراهـيم: الله يـرى له الخـروف للمحرقة يا ابني فذهبا كلاهما معا.

فلما أتيا إلى الموضع الذي قال له الله بنى هنالك إبراهـيم المـذبح ورتب الحطب وربط إسحاق ابنه ووضعه على المذبح فوق الحطب ثم مد إبراهيم يـده وأخذ السكين لذبح ابنه فناداه ملاك الرب من السماء وقال: إبراهيم إبراهيم! فقال: ها أنا ذا، فقال: لا تمد يدك إلى الغلام ولا تفعل به شيئاً لأنـي الآن عـلمت أنك خائف الله فلم تمسك ابنك وحيدك عني فرفع إبراهيم عينيه ونظر وإذا كبش وراءه ممسكاً في الغابة بقرنيه فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقة عوضا عن ابنه فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع «يهوه برأه» حتى أنه يقال اليوم في جبل الرب «برى»، ونادى ملاك الرب إبراهيم ثانية من السماء وقال: بذاتي أقسمت يـقول الرب: إني من أجل أنك فعلت هذا الأمر ولم تمسك ابنك وحيدك أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذي على شاطىء البحر ويرث نسلك باب أعدائه ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أنك سمعت لقولي ثم

رجع إبراهيم إلى غلاميه فقاموا وذهبوا معا إلى بئر سبع وسكن إبراهيم في بئر سبع. ثم ذكرت تزويجه إسحاق من عشيرته بكلدان، ثم موت سارة وهي بنت مائة وسبع وعشرين في حبرون، ثم زواج إبراهيم بعدها بقطورة وإيلادها عدة من البنين، ثم موت إبراهيم وهو ابن مائة وخمس وسبعين سنة، ودفن ابنيه إسحاق وإسماعيل إياه في غار «مكفيلة» وهو مشهد الخليل اليوم.

فهذه خلاصة قصص إبراهيم عليه السلام وتاريخ حياته المورد في التوراة[1] وعلى الباحث الناقد أن يطبق ما ورد منه فيها على ما قصه القرآن الكريم ثم يرى رأيه.

٥ ـ تناقضات التوراة أفضل دليل على تحريفها

الذي تشتمل عليه من القصّة المسرودة على ما فيها من التدافع بين جملها والتناقض بين أطرافها مما يصدق القرآن الكريم فيما ادعاه أن هذا الكتاب المقدس لعبت به أيدي التحريف.

فمن عمدة ما فيها من المغمض أنها أهملت ذكر مجاهداته في أول أمره وحجاجاته قومه وما قاساه منهم من المحن والأذايا، وهي طلائع بارقة لماعة من تاريخه عليه السلام.

ومن ذلك إهمالها ذكر بنائه الكعبة المشرفة وجعله حرما آمنا وتشريعه الحج، ولا يرتاب أي باحث ديني ولا ناقد اجتماعي أن هذا البيت العتيق الذي لا يزال قائماً على قواعده منذ أربعة آلاف سنة من أعظم !الآيات الإلهية التي تذكر

(١) التوراة: ١٤ ـ ٣٥، سفر التكوين الإصحاح الحادي عشر ـ الإصحاح الخامس والعشرون.

أهل الدنيا بالله سبحانه وآياته، وتستحفظ كلمة الحق دهراً طويلاً، وهو أول بيت لله تعالى وضع للناس مباركاً وهدى للعالمين.

وليس إهمال ذكره إلّا لنزعة إسرائيلية من كتاب التوراة ومؤلفيها دعتهم إلى الصفح عن ذكر الكعبة؟ وإحصاء ما بناه من المذابح ومذبح بناه بأرض شكيم، وآخر بشرقي بيت إيل، وآخر بجبل الرب.

ثم الذي وصفوا به النبي الكريم إسماعيل: أنه كان غلاماً وحشياً يضاد الناس ويضادونه، ولم يكن له من الكرامة إلّا أنه كان مطروداً من حضرة أبيه نما رامي قوس! ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ﴾.

ومن ذلك: ما نسبته إليه مما لا يلائم مقام النبوة ولا روح التقوى والفتوة كقولها: إن ملكي صادق ملك «شاليم» أخرج إليه خبزاً وخمراً وكان كاهناً لله العلي وباركه.

ومن ذلك قولها: إن إبراهيم أخبر تارة رؤساء فرعون مصر أن سارة أخته ووصى سارة أن تصدقه في ذلك إذ قال لها: قولي: إنك أختي ليكون لي خير بسببك، وتحيا نفسي من أجلك، وأظهر تارة أخرى لأبي مالك ملك حرار أنها أخته، فأخذها للزوجية فرعون تارة، وأبو مالك أخرى، ثم ذكرت التوراة تأول إبراهيم في قوله: «إنها أختي» مرة بأنها أختي في الدين، وأخرى أنها ابنة أبي من غير أمي فصارت لي زوجة.

وأيسر ما في هذا الكلام أن يكون إبراهيم وحاشا مقام الخليل يعرض زوجته سارة لأمثال فرعون وأبي مالك مستغلا بها حتى يأخذاها زوجة وهي ذات بعل وينال هو بذلك جزيل العطاء ويستدرهما بما عندهما من الخير!

على أن كلام التوراة صريح في أن سارة كانت عندئذ وخاصة حينما أخذها أبو مالك عجوزا قد عمرت سبعين أو أكثر، والعادة تقضي أن المرأة تفتقد في سن العجائز نضارة شبابها ووضاءة جمالها، والملوك والجبابرة المترفون لا يميلون إلى غير الفتيات البديعة جمالا الطرية حسنا.

وربما وجد ما يشاكل هذا المعنى في بعض الروايات ففي صحيحي البخاري ومسلم عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لم يكذب إبراهيم النبي عليه السلام قط إلا ثلاث كذبات اثنتين في ذات الله : قوله ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار ومعه سارة وكانت أحسن الناس فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك فإن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام فإني لا أعلم في الأرض مسلما غيرك وغيري، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار فأتاه فقال له: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك فأرسل إليها فأتي بها فقام إبراهيم إلى الصلاة فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها فقبضت يده قبضة شديدة فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي ولا أضرك ففعلت فعاد فقبضت أشد من القبضتين الأوليين فقال: ادعي الله أن يطلق يدي فلك الله أن لا أضرك ففعلت فأطلقت يده ودعا الذي جاء بها فقال له إنك إنما أتيتني بشيطان ولم تأتني بإنسان فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر.

قال: فأقبلت تمشي فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف وقال لها: مهيم، فقالت: خيراً كف الله يد الفاجر وأخدم خادماً.

قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء[١].[٢]

وفي صحيح البخاري، بطرق كثيرة عن أنس وأبي هريرة، وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة وحذيفة، وفي مسند أحمد، عن أنس وابن عباس وأخرجه الحاكم عن ابن مسعود والطبراني عن عبادة بن الصامت وابن أبي شيبة عن سلمان، والترمذي عن أبي هريرة، وأبو عوانة عن حذيفة عن أبي بكر حديث شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة، وهو حديث طويل فيه : أن أهل الموقف يأتون الأنبياء واحداً بعد واحد يسألونهم الشفاعة عند الله، وكلما أتوا نبيا وسألوه الشفاعة ردهم إلى من بعده واعتذر بشيء من عثراته حتى ينتهوا إلى خاتم النبيين محمد ﷺ فيجيبهم إلى مسألتهم وفي الحديث : أنهم يأتون إبراهيم عليه السلام يطلبون منه أن يشفع لهم عند الله فيقول لهم: لست هناكم إني كذبت ثلاث كذبات: قوله : ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ ، وقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ وقوله لامرأته: «أخبريه أني أخوك».[٣]

والاعتبار الصحيح لا يوافق مضمون الحديثين كما ذكره بعض الباحثين، إذ لو كان المراد بهما أن الأقاويل الثلاث التي وصفت فيهما أنها كذبات ليست كذبات حقيقية بل من قبيل التوريات والمعاريض البديعية كما ربما يلوح من بعض ألفاظ الحديث كالذي ورد في بعض طرقه من قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات كلها في ذات الله»، وكذا قوله ﷺ: «ما منها كذبة إلّا ماحل بها عن

---

(١) ماء السماء: من ملوك العرب.

(٢) صحيح البخاري ٤: ١٧١.

(٣) صحيح البخاري ٦: ١٠٦، صحيح الترمذي ٥: ٣٢١، ح ٣١٦٦، مسند أحمد ٣: ص ٢٤٤.

دين الله»، فما بال إبراهيم في حديث القيامة يعدها ذنوبا لنفسه ومانعة عن القيام بأمر الشفاعة ويعتذر بها عنها؟ فإنها على هذا التقدير كانت من محنة في ذات الله وحسناته في الدين لو جاز لنبي من الأنبياء أن يكذب لمصلحة الدين لكنك قد عرفت في ما تقدّم[١] أن ذلك مما لا يجوز على الأنبياء عليهم السلام قطعاً لاستيجابه سلب الوثوق عن إخباراتهم وأحاديثهم من أصلها.

على أن هذا النوع من الإخبار لو جاز عده كذبا ومنعه عن الشفاعة عند الله سبحانه كان قوله عليه السلام لما رأى كوكبا والقمر والشمس: هذا ربي وهذا ربي أولى بأن يعد كذباً مانعاً عن الشفاعة المنبئة عن القرب من الله تعالى.

على أن قوله عليه السلام على ما حكاه الله تعالى بقوله: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾، لا يظهر بشيء من قرائن الكلام كونه كذبا غير مطابق للواقع فلعله عليه السلام كان سقيماً بنوع من السقم لا يحجزه عما هم به من كسر الأصنام.

وكذا قوله عليه السلام للقوم إذ سألوه عن أمر الأصنام المكسورة بقولهم: ﴿أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ﴾، فأجابهم وهم يعلمون أن أصنامهم من الجماد الذي لا شعور فيه ولا إرادة له: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، ثم أردفه بقوله: ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾، لا سبيل إلى عده كذباً فإنه كلام موضوع مكان التبكيت مسوق لإلزام الخصم على الاعتراف ببطلان مذهبه، ولذا لم يجد القوم بدا دون أن اعترفوا بذلك فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ * قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ * أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[٢].

---

(١) تفسير الميزان، الجزء الثاني، مباحث النبوة.

(٢) الأنبياء: ٦٧.

ولو كان المراد أن الأقاويل الثلاث كذبات حقيقية كان ذلك من المخالفة الصريحة لكتاب الله تعالى.

وليت شعري كيف ترضى نفس باحث ناقد أو تجوز أن ينطبق مثل قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيّاً﴾[1]، على رجل كذاب يستريح إلى كذب القول كلما ضاقت عليه المذاهب؟ أو كيف يمدح الله بتلك المدائح الكريمة رجلاً لا يراقب الله سبحانه في حق أو صدق، حاشا ساحة خليل الله عن ذلك.

وأما الأخبار المروية عن أئمة أهل البيت عليهم السلام فإنها تصدق التوراة في أصل القصة غير أنها تجل إبراهيم عليه السلام عما نسب إليه من الكذب وسائر ما لا يلائم قدس ساحته، ومن أجمع ما يتضمن قصة الخليل عليه السلام ما في الكافي، عن علي، عن أبيه وعدة من أصحابنا، عن سهل، جميعاً، عن ابن محبوب، عن إبراهيم بن زيد الكرخي، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن إبراهيم عليه السلام كان مولده بكوثار وكان أبوه من أهلها، وكانت أمّ إبراهيم وأمّ لوط عليهما السلام وسارة وورقة ـ وفي نسخة رقبة ـ أختين وهما ابنتان للاحج، وكان لاحج نبياً منذراً ولم يكن رسولاً.

وكان إبراهيم عليه السلام في شبيبته على الفطرة التي فطر الله عز وجل الخلق عليها حتى هداه الله تبارك وتعالى إلى دينه واجتباه، وأنه تزوج سارة ابنة لاحج وهي ابنة خالته وكانت سارة صاحبة ماشية كثيرة وأرض واسعة وحال حسنة، وكانت قد ملكت إبراهيم جميع ما كانت تملكه فقام فيه وأصلحه وكثرت الماشية والزرع حتى لم يكن بأرض كوثاريا رجل أحسن حالا منه.

---

(١) مريم: ٤١.

وإن إبراهيم عليه السلام لما كسر أصنام نمرود وأمر به نمرود فأوثق وعمل له حيراً وجمع له فيه الحطب وألهب فيه النار ثم قذف إبراهيم عليه السلام في النار لتحرقه ثم اعتزلوها حتى خمدت النار ثم أشرفوا على الحير فإذا هم بإبراهيم عليه السلام سليماً مطلقاً من وثاقه، فأخبر نمرود خبره فأمرهم أن ينفوا إبراهيم عليه السلام من بلاده، وأن يمنعوه من الخروج بماشيته وماله فحاجهم إبراهيم عليه السلام عند ذلك فقال: إن أخذتم ماشيتي ومالي فإن حقي عليكم أن تردوا علي ما ذهب من عمري في بلادكم، واختصموا إلى قاضي نمرود فقضى على إبراهيم عليه السلام أن يسلم إليهم جميع ما أصاب في بلادهم، وقضى على أصحاب نمرود أن يردوا على إبراهيم عليه السلام ما ذهب من عمره في بلادهم، وأخبر بذلك نمرود فأمرهم أن يخلوا سبيله وسبيل ماشيته وماله وأن يخرجوه، وقال: إنه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم وأضر بآلهتكم فأخرجوا إبراهيم ولوطاً عليهما السلام معه من بلادهم إلى الشام.

فخرج إبراهيم ومعه لوط لا يفارقه وسارة، وقال لهم: إني ذاهب إلى ربي سيهدين، يعني إلى بيت المقدس فتحمل إبراهيم بماشيته وماله وعمل تابوتاً وجعل فيه سارة وشد عليها الأغلاق غيرة منه عليها ومضى حتى خرج من سلطان نمرود، وسار إلى سلطان رجل من القبط يقال له «عزارة» فمر بعاشر له فاعترضه العاشر ليعشر ما معه فلما انتهى إلى العاشر ومعه التابوت قال العاشر لإبراهيم عليه السلام: افتح هذا التابوت لنعشر ما فيه فقال له إبراهيم عليه السلام: قل ما شئت فيه من ذهب أو فضة حتى نعطي عشره ولا نفتحه.

قال: فأبى العاشر إلا فتحه قال: وغضب إبراهيم عليه السلام على فتحه، فلما بدت له سارة وكانت موصوفة بالحسن والجمال قال له العاشر: ما هذه المرأة منك؟ قال إبراهيم عليه السلام: هي حرمتي وابنة خالتي، فقال له العاشر: فما دعاك إلى أن خبيتها في

هذا التابوت؟ فقال إبراهيم عليه السلام: الغيرة عليها أن يراها أحد، فقال له العاشر: لست أدعك تبرح حتى أعلم الملك حالها وحالك.

قال: فبعث رسولاً إلى الملك فأعلمه، فبعث الملك رسولاً من قبله ليأتوه بالتابوت فأتوا ليذهبوا به فقال لهم إبراهيم عليه السلام: إني لست أفارق التابوت حتى يفارق روحي جسدي فأخبروا الملك بذلك فأرسل الملك أن احملوه والتابوت معه فحملوا إبراهيم عليه السلام والتابوت وجميع ما كان معه حتى أدخل على الملك: فقال له الملك افتح التابوت فقال له إبراهيم عليه السلام: أيها الملك إن فيه حرمتي وابنة خالتي وأنا مفتد فتحه بجميع ما معي.

قال: فغضب الملك إبراهيم على فتحه فلما رأى سارة لم يملك حلمه سفهه أن مد يده إليها فأعرض إبراهيم عليه السلام وجهه عنها وعنه غيرة منه وقال: اللهم احبس يده عن حرمتي وابنة خالتي، فلم تصل يده إليها ولم ترجع إليه فقال له الملك: إن إلهك هو الذي فعل بي هذا؟ فقال له: نعم إن إلهي غيور يكره الحرام، وهو الذي حال بينك وبين ما أردته من الحرام، فقال له الملك: فادع إلهك يرد علي يدي فإن أجابك فلم أعرض لها، فقال إبراهيم عليه السلام : إلهي رد إليه يده ليكف عن حرمتي.

قال: فردّ الله عزّ وجل إليه يده فأقبل الملك نحوها ببصره ثم عاد بيده نحوها فأعرض إبراهيم عنه بوجهه غيرة منه، وقال: اللهمَّ احبس يده عنها. قال: فيبست يده ولم تصل إليها. فقال الملك لإبراهيم عليه السلام: إن إلهك لغيور وإنك لغيور فادع إلهك يرد إلي يدي فإنه إن فعل لم أعد، فقال إبراهيم عليه السلام: أسأله ذلك على أنك إن عدت لم تسألني أن أسأله فقال له الملك: نعم، فقال إبراهيم عليه السلام: اللهمَّ إن كان صادقاً فرد يده عليه فرجعت إليه يده.

فلما رأى ذلك الملك من الغيرة ما رأى ورأى الآية في يده عظّم إبراهيم عليه السلام

وهابه وأكرمه واتقاه، وقال له: قد أمنت من أن أعرض لها أو لشيء مما معك فانطلق حيث شئت ولكن لي إليك حاجة فقال إبراهيم عليه السلام: ما هي؟ فقال له: أحب أن تأذن لي أن أخدمها قبطية عندي جميلة عاقلة تكون لها خادماً قال: فأذن إبراهيم عليه السلام فدعا بها فوهبها لسارة وهي هاجر أم إسماعيل عليهما السلام.

فسار إبراهيم عليه السلام بجميع ما معه، وخرج الملك معه يمشي خلف إبراهيم عليه السلام إعظاما لإبراهيم وهيبة له فأوحى الله تبارك وتعالى إلى إبراهيم عليه السلام أن قف ولا تمش قدام الجبار المتسلط ويمشي وهو خلفك، ولكن اجعله أمامك وامش خلفه وعظمه وهبه فإنه مسلط ولا بد من إمرة في الأرض برة أوفاجرة فوقف إبراهيم عليه السلام وقال للملك: امض فإن إلهي أوحى إلي الساعة أن أعظمك وأهابك، وأن أقدمك أمامي وأمشي خلفك إجلالا لك فقال له الملك: أوحي إليك بهذا؟ فقال إبراهيم عليه السلام: نعم، فقال له الملك: أشهد إن إلهك لرفيق حليم كريم وأنك ترغبني في دينك.

قال: وودعه الملك فسار إبراهيم عليه السلام حتى نزل بأعلى الشامات، وخلف لوطاً عليه السلام في أدنى الشامات. ثم إن إبراهيم عليه السلام لما أبطأ عليه الولد قال لسارة: لو شئت لبعتني هاجر لعل الله أن يرزقنا منها ولداً فيكون لنا خلفاً، فابتاع إبراهيم عليه السلام هاجر من سارة فوقع عليها فولدت إسماعيل عليه السلام.[١]

ومن ذلك ما ذكرته ـ أعني التوراة ـ في قصة الذبح، أن الذبيح هو إسحاق دون إسماعيل عليه السلام مع أن قصة إسكانه بأرض تهامة وبنائه الكعبة المشرفة وتشريع عمل الحج الحاكي لما جرى عليه وعلى أُمّه من المحنة والمشقة في ذات الله، وقد

---

(١) الكافي ٨: ٣٧٠ ـ ٣٧٣ ح ٥٦٠.

اشتمل على الطواف والسعي والتضحية كل ذلك تؤيد كون الذبيح هو إسماعيل دون إسحاق عليه السلام.

وقد وقع في إنجيل برنابا أن المسيح لام اليهود ووبخهم على قولهم بأن الذبيح هو إسحاق دون إسماعيل قال في الفصل (٤٤): فكلم الله إبراهيم قائلاً: خذ ابنك بكرك إسماعيل واصعد الجبل لتقدمه ذبيحة فكيف يكون إسحاق البكر وهو لما ولد كان إسماعيل ابن سبع سنين.[1]

وأما القرآن فإن آياته كالصريحة في كون الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، قال تعالى بعدما ذكر قصة كسر الأصنام وإلقائه في النار وجعلها برداً وسلاماً:

﴿فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ * وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾[2].

والمتدبر في الآيات الكريمة لا يجد مناصاً دون أن يعترف أن الذبيح هو الذي ذكر الله سبحانه البشارة به في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ وأن البشارة الأُخرى التي ذكرها أخيراً بقوله: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ غير البشارة الأُولى، والذي بشّر به في الثانية وهو إسحاق عليه السلام غير الذي بشر به في الأُولى وأردفها بذكر قصّة التضحية به.

(١) انجيل برنابا، الفصل ٤٤، الآيات: ١١ و ١٢.

(٢) الصافات: ٩٨ ـ ١١٣.

وأما الروايات فالتي وردت منها من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تذكر أن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام، والتي رويت من طرق أهل السنة والجماعة مختلفة: فصنف يذكر إسماعيل وصنف يذكر إسحاق عليه السلام غير أنك عرفت أن الصنف الأوّل هو الذي يوافق الكتاب.

قال الطبري في تاريخه: اختلف السلف من علماء أُمّة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم في الذي أمر إبراهيم بذبحه من ابنيه فقال بعضهم: هو إسحاق بن إبراهيم، وقال بعضهم: هو إسماعيل بن إبراهيم.

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلا القولين لو كان فيهما صحيح لم نعده إلى غيره غير أن الدليل من القرآن على صحة الرواية التي رويت عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: هو إسحاق أوضح وأبين منه على صحة الأُخرى.

إلى أن قال: وأما الدلالة من القرآن التي قلنا: إنها على أن ذلك إسحاق أصح فقوله تعالى مخبراً عن دعاء خليله إبراهيم حين فارق قومه مهاجراً إلى ربّه إلى الشام مع زوجته سارة قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ وذلك قبل أن يعرف هاجر، وقبل أن تصير له أُم إسماعيل ثم أتبع ذلك ربّنا عزّ وجل الخبر عن إجابة دعائه وتبشيره إياه بغلام حليم، ثم عن رؤيا إبراهيم أنه يذبح ذلك الغلام حين بلغ معه السعي.

ولا نعلم في كتاب الله عزّ وجل تبشيراً لإبراهيم بولد ذكر إلّا بإسحاق وذلك قوله: ﴿وَامْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَاء إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾[1].

وقوله: ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * فَأَقْبَلَتِ

---

(١) هود: ٧١.

امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾(١).

ثمّ ذلك كذلك في كل موضع ذكر فيه تبشير إبراهيم بغلام فإنما ذكر تبشير الله إياه به من زوجته سارة فالواجب أن يكون ذلك في قوله: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ نظير ما في سائر سور القرآن من تبشيره إياه من زوجته سارة.

وأما اعتلال من اعتل بأن الله لم يأمر بذبح إسحاق وقد أتته البشارة من الله قبل ولادته بولادته وولادة يعقوب منه من بعده فإنها علة غير موجبة صحة ما قال، وذلك أن الله تعالى إنما أمر إبراهيم بذبح إسحاق بعد إدراك إسحاق السعي وجائز أن يكون يعقوب ولد له قبل أن يؤمر أبوه بذبحه.

وكذلك لا وجه لاعتلال من اعتل في ذلك بقرن الكبش أنه رآه معلقا بالكعبة وذلك أنه غير مستحيل أن يكون حمل من الشام إلى الكعبة فعلق هنالك.(٢)

وليت شعري كيف خفي عليه أن إبراهيم عليه السلام لما سأل ربه الولد عند مهاجرته إلى الشام وعنده سارة ولا خبر عن هاجر يومئذ سأل ذلك بقوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، فسأل ربّه الولد، ولم يسأل أن يرزقه ذلك من سارة حتى تحمل البشارة المذكورة عقيبه على البشارة بإسحاق فإنما قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِي﴾ ولم يقل: رب هب لي من سارة.

وأما ما ذكره أن المعروف من سائر مواضع كتاب الله هو البشرى بإسحاق فيجب أن نحمل البشرى في هذا الموضع عليه أيضاً.

---

(١) الذاريات: ٢٨ و ٢٩.

(٢) تاريخ الطبري ١: ٢٦٣ ـ ٢٧١.

فمع ما سيجيء من الكلام عليه في سائر الموارد التي أشار إليها هـو فـي نفسه قياس لا دليل عليه، بل الدليل على خلافه فإن الله سبحانه في هذه الآيات لما ذكر البشارة بغلام حليم ثم ذكر قصة الذبح استأنف ثانياً ذكر البشارة بإسحاق ولا يرتاب المتدبر في هذا السياق أن المبشر به ثانياً غير المبشر به أولاً فقد بشر إبراهيم عليه السلام قبل إسحاق بولد له آخر وليس إلا إسماعيل، وقد اتفق الرواة والنقلة وأهل التاريخ أن إسماعيل ولد لإبراهيم قبل إسحاق عليهما السلام جميعاً .

تناقض آخر في التوراة

ومن ذلك التدافع البيّن فيما تذكره التوراة من أمر إسماعيل فإنها تصرح أن إسماعيل ولد لإبراهيم عليه السلام قبل أن يولد له إسحاق بما يقرب من أربعة عشر عاماً وأن إبراهيم عليه السلام طرده وأُمّه هاجر بعد تولد إسحاق لما استهزأ بسارة ثم تسرد قصة إسكانهما الوادي ونفاد الماء الذي حملته هاجر وعطش إسماعيل ثم إراءة الملك إياها الماء، ولا يرتاب الناظر المتدبّر في القصة أن إسماعيل كان عـندئذ صـبياً مرضعاً فعليك بالرجوع إليها والتأمّل فيها. وهذا هو الذي يـوافـق المأثـور مـن أخبارنا .

القرآن الكريم يعتني أبلغ الاعتناء بقصة إبراهيم عليه السلام من جهة نفسه ومن جهة ابنيه الكريمين إسماعيل وإسحاق وذريتهما معا بخلاف ما يتعرض له في التوراة فإنها تقصر الخبر عنه بما يتعلق بإسحاق وشعب إسرائيل، ولا يلتفت إلى إسماعيل إلا ببعض ما يهون أمره ويحقر شأنه، ومع ذلك لا يخلو يسير ما تخبر عـنه عـن التدافع فتارة تذكر خطاب الله سبحانه لإبراهيم عليه السلام أن نسـلك البـاقي هـو مـن

إسحاق، وتارة أخرى خطابه أن الله بارك لنسلك من عقب إسماعيل وسيجعله أمة كبيرة، وتارة تعرفه إنسانا وحشيا يضاد الناس ويضاده الناس قد نشأ رامي قوس مطرودا عن بيت أبيه، وتارة تذكر أن الله معه.

وبالتأمل فيما تقدم من قصته عليه السلام في القرآن يظهر الجواب عن إشكالين أشكل بهما على الكتاب العزيز.

الإشكال الأول ما ذكره بعض المستشرقين أن القرآن في سوره المكية لا يتعرض لشأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام إلا كما يتعرض لشأن سائر الرسل من أنهم كانوا على دين التوحيد ينذرون الناس ويدعونهم إلى الله سبحانه من غير أن يذكر بناءه الكعبة وصلته بإسماعيل وكونهما داعيين للعرب إلى دين الفطرة والملة الحنيفية.

لكن السور المدنية كالبقرة والحج وغيرهما تذكر إبراهيم وإسماعيل متصلين اتصال الأبوة والبنوة وأبوين للعرب مشرعين لها دين الإسلام بانيين للكعبة البيت الحرام.

وسر هذا الاختلاف أن محمداً كان قد اعتمد على اليهود في مكة فما لبثوا أن اتخذوا حياله خطة عداء فلم يكن له بد أن التمس غيرهم ناصراً.

هناك هداه ذكاء مسدد إلى شأن جديد لأبي العرب إبراهيم وبذلك استطاع أن يخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم فعدّه أبا للعرب مشيداً لدينهم الإسلام بانياً لبيتهم المقدس الذي في مكة لما أن هذه المدينة كانت تشغل جل تفكيره.

وقد أزرى المستشكل على نفسه بهذه الفرية التي نسبها إلى الكتاب العزيز

الذي له شهرته العالمية التي لا يتحجب معها على شرقي ولا غربي فكل باحث متدبر يشاهد أن القرآن الكريم لم يداهن مشركاً ولا يهودياً ولا نصرانياً ولا غيرهم في سورة مكية ولا مدنية ولم يختلف لحن قوله في تخطئة اليهود ولا غيرهم بحسب مكية السور ومدنيتها.

غير أن الآيات القرآنية لما نزلت نجوماً بحسب وقوع الحوادث المرتبطة بالدعوة الدينية، وكان الابتلاء بأمر اليهود بعد الهجرة كان التعرض لشؤونهم والإبانة عن التشديد في حقهم لا محالة في الآيات النازلة في تضاعيف السور المدنية كتفاصيل الأحكام المشرعة التي أنزلت فيها حسب مسيس الحاجة بحدوث الحوادث.

وأما ما ذكراه من اختصاص حديث اتصال إسماعيل بإبراهيم عليهما السلام وبناء الكعبة وتأسيس الدين الحنيف بالسور المدنية فيكذبه قوله تعالى في سورة إبراهيم وهي مكية فيما حكاه من دعاء إبراهيم عليه السلام:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ـ إلى أن قال: ـ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ـ إلى أن قال ـ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[1]. وقد مرّ نظيره في الآيات المنقولة من سورة الصافات آنفاً المنبئة عن قصة الذبيح.

وأما ما ذكراه من يهودية إبراهيم عليه السلام فإن القرآن يردّه بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ

(١) إبراهيم: ٣٥ ـ ٣٩.

الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ـ إلى أن قال: ـ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1].

الإشكال الثاني: أن الصابئين وهم عبدة الكواكب الذين يذكر القرآن تعرض إبراهيم عليه السلام لآلهتهم بقوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَباً قَالَ هَذَا رَبِّي﴾ إلى آخر الآيات، إنما كانوا بمدينة حران التي هاجر إليها إبراهيم عليه السلام من بابل أو من «أور» ولازمه أن يكون حجاجه عبدة الكواكب بعد مدة من حجاجه عبدة الأصنام وكسره الأصنام ودخوله النار، ولا يلائم ذلك ما هو ظاهر الآيات أن قصة الحجاج مع عبدة الأصنام والكواكب وقعت جميعا في يومين عند أول شخوصه إلى أبيه وقومه.

قال المؤلّف رحمه الله وهذا في الحقيقة إشكال على التفسير الذي تقدم إيراده في بيان الآيات لا على أصل الكتاب.

ومع ذلك ففيه غفلة عما يثبته التاريخ ويعطيه الاعتبار الصحيح أما الاعتبار فإن المملكة التي ينتحل في بعض بلاده العظيمة بدين من الأديان الشائعة المعروفة كالصابئية التي كانت يومئذ من الأديان المعروفة في الدنيا لا يخلو من شيوع في سائر بلادها ووجود جماعة من منتحليه منتشرة في أقطارها.

وأما التاريخ فقد ذكر شيوعه كشيوع الوثنية ببابل ووجود معابد كثيرة فيها بنيت على أسماء الكواكب وأصنام لها منصوبة فيها فقد جاء في تاريخ أرض بابل وما والاها ذكر بناء معبد إله الشمس وإله القمر في حدود سنة ثلاثة آلاف ومائتين

---

(١) آل عمران: ٦٥ ـ ٦٧.

قبل المسيح، وفي نصب شريعة حمورابي ذكر إله الشمس وإله القمر وهو مما يقرب زمن الخليل إبراهيم عليه السلام.

وقد تقدم فيما نقلناه من كتاب الآثار الباقية لأبي ريحان البيروني : أن يوذاسف ظهر عند مضي سنة من ملك طهمورث بأرض الهند، وأتى بالكتابة الفارسية، ودعا إلى ملة الصابئين فاتبعه خلق كثير، وكانت الملوك البيشدادية وبعض الكيانية ممن كان يستوطن بلخ يعظمون النيرين والكواكب وكليات العناصر إلى وقت ظهور زراتشت عند مضي ثلاثين سنة من ملك بشتاسف.

وساق الكلام إلى أن قال: وينسبون التدبير إلى الفلك وأجرامه ويقولون بحياتها ونطقها وسمعها وبصرها، ويعظمون الأنوار، ومن آثارهم القبة التي فوق المحراب عند المقصورة من جامع دمشق كان مصلاهم، وكان اليونانيون والروم على دينهم، ثم صارت في أيدي اليهود فعملوها كنيستهم، ثم تغلب عليها النصارى فصيروها بيعة إلى أن جاء الإسلام وأهله فاتخذوها مسجدا.

وكانت لهم هياكل وأصنام بأسماء الشمس معلومة الأشكال كما ذكرها أبو معشر البلخي في كتابه في بيوت العبادات مثل هيكل بعلبك كان لصنم الشمس، وقران فإنها منسوبة إلى القمر وبناؤها على صورته كالطيلسان، وبقربها قرية تسمى سلمسين واسمها القديم: صنم سين أي صنم القمر: وقرية أخرى تسمى ترع عوز أي باب الزهرة.

ويذكرون أن الكعبة وأصنامها كانت لهم، وعبدتها كانوا من جملتهم وأن اللات كان باسم زحل، والعزى باسم الزهرة .

وذكر المسعودي أن مذهب الصابئة كان نوعاً من التحول والتكامل في دين الوثنية وأن الصبوة ربما كانت تتحول إلى الوثنية لتقارب مأخذيهما، وأن الوثنية

ربما كانوا يعبدون أصنام الشمس والقمر والزهرة وسائر الكواكب تقربا بها إلى آلهتها ثم إلى إله الآلهة.[١]

قال في مروج الذهب: كان كثير من أهل الهند والصين وغيرهم من الطوائف يعتقدون أن الله عزّ وجل جسم، وأن الملائكة أجسام لها أقدار وأن الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء، فدعاهم ذلك إلى أن اتخذوا تماثيل وأصناما على صورة الباري عز وجل وبعضها على صورة الملائكة مختلفة القدود والأشكال، ومنها على صورة الإنسان وعلى خلافها من الصور يعبدونها، وقربوا لها القرابين، ونذروا لها النذور لشبهها عندهم بالباري تعالى وقربها منه.

فأقاموا على ذلك برهة من الزمان وجملة من الأعصار حتى نبههم بعض حكمائهم على أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله تعالى وأنها حية ناطقة، وأن الملائكة تختلف فيهما بينها وبين الله، وأن كل ما يحدث في هذا العالم فإنما هو على قدر ما تجري به الكواكب عن أمر الله فعظّموها وقربوا لها القرابين لتنفعهم فمكثوا على ذلك دهرا.

فلما رأوا الكواكب تخفى بالنهار وفي بعض أوقات الليل لما يعرض في الجو من السواتر أمرهم بعض من كان فيهم من حكمائهم أن يجعلوا لها أصناما وتماثيل على صورها وأشكالها فجعلوا لها أصناما وتماثيل بعدد الكواكب الكبار المشهورة، وكل صنف منهم يعظم كوكبا منها، ويقرب لها نوعاً من القربان خلاف ما للآخر على أنهم إذا عظموا ما صوروا من الأصنام تحركت لهم الأجسام العلوية من السبعة بكل ما يريدون، وبنوا لكل صنم بيتا وهيكلا مفردا، وسموا تلك الهياكل

---

(١) مروج الذهب ٢: ٢٢٥.

بأسماء تلك الكواكب.

وقد ذهب قوم إلى أن البيت الحرام هو بيت زحل، وإنما طال عندهم بقاء هذا البيت على مرور الدهور معظما في سائر الأعصار لأنه بيت زحل، وأن زحل تولاه لأن زحل من شأنه البقاء والثبوت، فما كان له فغير زائل ولا داثر، وعن التعظيم غير حائل وذكروا أمورا أعرضنا عن ذكرها لشناعة وصفها.

ولما طال عليهم العهد عبدوا الأصنام على أنها تقربهم إلى الله وألغوا عبادة الكواكب فلم يزالوا على ذلك حتى ظهر يوذاسف بأرض الهند وكان هنديا، وكان يوذاسف خرج من أرض الهند إلى السند ثم سار إلى بلاد سجستان وبلاد زابلستان وهي بلاد فيروز بن كبك ثم دخل السند ثم إلى كرمان.

فتنبأ وزعم أنه رسول الله، وأنه واسطة بين الله وبين خلقه، وأتى أرض فارس، وذلك في أوائل ملك طهمورث ملك فارس، وقيل: ذلك في ملك جم، وهو أول من أظهر مذاهب الصابئة على حسب ما قدمنا آنفا فيما سلف من هذا الكتاب.

وقد كان يوذاسف أمر الناس بالزهد في هذا العالم، والاشتغال بما علا من العوالم، إذ كان من هناك بدء النفوس وإليها يقع الصدر من هذا العالم، وجدد يوذاسف عند الناس عبادة الأصنام والسجود لها لشبه ذكرها، وقرب لعقولهم عبادتها بضروب من الحيل والخدع.

وذكر ذووالخبرة بشأن هذا العالم وأخبار ملوكهم: أن جم الملك أول من عظم النار ودعا الناس إلى تعظيمها، وقال: إنها تشبه ضوء الشمس والكواكب لأن النور عنده أفضل من الظلمة، وجعل للنور مراتب.

ثم تنازع هؤلاء بعده فعظم كل فريق منهم ما يرون تعظيمه من الأشياء تقربا

إلى الله بذلك.

ثم ذكر المسعودي البيوت المعظمة عندهم وهي سبعة الكعبة البيت الحرام باسم زحل، وبيت على جبل مارس بأصفهان، وبيت مندوسان ببلاد الهند، وبيت نوبهار بمدينة بلخ على اسم القمر، وبيت غمدان بمدينة صنعاء من بلاد اليمن على اسم الزهرة، وبيت كاوسان بمدينة فرغانة على اسم الشمس، وبيت بأعالي بلاد الصين على اسم العلة الأولى.

واليونان والروم القديم والصقالبة بيوت معظمة بعضها مبنية على اسم الكواكب كالبيت الذي بتونس للروم الذي على اسم الزهرة.

ثم ذكر المسعودي أن للصابئين من الحرانيين هياكل على أسماء الجواهر العقلية والكواكب فمن ذلك هيكل العلة الأولى، وهيكل العقل.

قال: ومن هياكل الصابئة هيكل السلسلة، وهيكل الصورة وهيكل النفس وهذه مدورات الشكل، وهيكل زحل مسدس، وهيكل المشتري مثلث، وهيكل المريخ مربع مستطيل، وهيكل الشمس مربع، وهيكل عطارد مثلث الشكل، وهيكل الزهرة مثلث في جوف مربع مستطيل، وهيكل القمر مثمن الشكل، وللصابئة فيما ذكرنا رموز وأسرار يخفونها.[١]

وقريب منه ما في الملل والنحل، للشهرستاني.[٢]

وقد تبيّن ممّا نقلناه:

أوّلاً: أن الوثنية كما كانت تعبد أصناماً للآلهة وأرباب الأنواع كذلك كانت

---

(١) مروج الذهب ٢: ٢٢٥ ـ ٢٣٦.

(٢) الملل والنحل ٢: ٥٥ ـ ٥٦.

تعبد أصنام الكواكب والشمس والقمر، وكانت عندهم هياكل على أسمائها، ومن الممكن أن يكون حجاج إبراهيم عليه السلام في أمر الكواكب والقمر والشمس، مع الوثنية العابدين لها المتقربين بها دون الصابئة كما يمكن أن يكون مع بعض الصابئين في مدينة بابل أوبلدة أور أوكوثاريا على ما في بعض الروايات المنقولة سالفاً.

على أن ظاهر ما يقصه القرآن الكريم: أن إبراهيم عليه السلام حاج أباه وقومه وتحمل أذاهم في الله حتى اعتزلهم وهجرهم بالمهاجرة من أرضهم إلى الأرض المقدسة من غير أن يتغرب من أرضهم إلى حران أولا ثم من حران إلى الأرض المقدسة، والذي ضبطه كتب التاريخ من مهاجرته إلى حران أولا ثم من حران إلى الأرض المقدسة لا مأخذ له غير التوراة أو أخبار غير سليمة من نفثة إسرائيلية كما هو ظاهر لمن تدبر تاريخ الطبري، وغيره.[١]

على أن بعضهم ذكروا أن حران المذكور في التوراة كان بلداً قرب بابل بين الفرات وخابور، وهو غير حران الواقع قرب دمشق الموجود اليوم.

نعم، ذكر المسعودي أن الذي بقي من هياكلهم ـ الصابئة ـ المعظمة في هذا الوقت ـ وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة ـ بيت لهم بمدينة حران في باب الرقة يعرف بـ«مغليتيا» وهو هيكل آزر أبي إبراهيم الخليل عليه السلام عندهم، وللقوم في آزر وابنه إبراهيم كلام كثير.[٢]

ولا حجة في قولهم على شيء.

وثانياً: أنه كما أن الوثنية ربما كانت تعبد الشمس والقمر والكواكب كذلك

---

(١) قاموس الكتاب المقدّس، مادة حرّان.

(٢) مروج الذهب ٢: ٢٣٧.

الصابئة كانت تبني بيوتا وهياكل لعبادة غير الكواكب والقمر والشمس كالعلة الأولى والعقل والنفس وغيرها كالوثنية وتتقرب إليها مثلهم وقد ذكر هيرودوتوس في تاريخه في ما يصف معبد بابل أنه كان مشتملا على ثمانية أبراج بعضها مبنية على بعض وأن آخر الأبراج وهو أعلاها كان مشتملاً على قبة وسيعة ما فيها غير عرش عظيم حياله طاولة من ذهب، وليس في القبة شيء من التماثيل والأصنام، ولا يبيت فيها أحد إلا امرأة يزعم الناس أن الله هو اختارها للخدمة ووظفها للملازمة.

ولعله كان للعلة الأولى المنزهة عن الهيئات والأشكال وإن كانوا ربما يصورونه بما يتوهمونه من الصور كما ذكره المسعودي.

وقد ثبت أن فلاسفتهم كانوا ينزهون الله تعالى عن الهيئات الجسمانية والأشكال والأوضاع المادية ويصفونه بما يليق به من الصفات غير أنهم كانوا يتقون العامة أن يظهروا ما يعتقدونه فيه سبحانه إما لعدم استعداد أفهامهم لتلقي ذلك، أو لمقاصد وأغراض سياسية توجب كتمان الحق.[١]

---

(١) الميزان ٧: ٣٠٠ ـ ٣٣٤.

بحث روائي

حول نشأة إبراهيم عليه السلام

في كمال الدين: أبي وابن الوليد معاً، عن سعد، عن ابن بريد، عن ابن أبي عمير، عن هشام بن سالم، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أبو إبراهيم منجماً لنمرود بن كنعان، وكان نمرود لا يصدر إلا عن رأيه فنظر في النجوم ليلة من الليالي فأصبح فقال: لقد رأيت في ليلتي هذه عجباً فقال له نمرود: ما هو؟ فقال: رأيت مولودا يولد في أرضنا هذه يكون هلاكنا على يديه، ولا يلبث إلا قليلاً حتى يحمل به فعجب من ذلك نمرود وقال: هل حمل به النساء؟ فقال: لا، وكان فيما أوتي من العلم أنه سيحرق بالنار، ولم يكن أوتي أن الله سينجيه.

قال: فحجب النساء عن الرجال فلم يترك امرأة إلا جعلت بالمدينة حتى لا يخلص إليهن الرجال.

قال: وباشر أبو إبراهيم امرأته فحملت به فظن أنه صاحبه فأرسل إلى نساء من القوابل لا يكون في البطن شيء إلا علمنا به فنظرنا إلى أُم إبراهيم فألزم الله تبارك وتعالى ذكره ما في الرحم الظهر فقلن: ما نرى شيئاً في بطنها.

فلما وضعت أم إبراهيم أراد أبوه أن يذهب به إلى نمرود فقالت له امرأته: لا تذهب بابنك إلى نمرود فيقتله دعني أذهب به إلى بعض الغيران أجعله فيه حتى يأتي عليه أجله ولا تكون أنت تقتل ابنك فقال لها: فاذهبي فذهبت به إلى غار ثم

أرضعته ثم جعلت على باب الغار صخرة ثم انصرفت عنه فجعل الله رزقه في إبهامه فجعل يمصها فيشرب لبنا، وجعل يشب في اليوم كما يشب غيره في الجمعة، ويشب في الجمعة كما يشب غيره في الشهر، ويشب في الشهر كما يشب غيره في السنة فمكث ما شاء الله أن يمكث.

ثم إن أُمّه قالت لأبيه: لو أذنت لي أن أذهب إلى ذلك الصبي فأراه فعلت، قال: ففعل فأتت الغار فإذا هي بإبراهيم وإذا عيناه تزهران كأنهما سراجان فأخذته وضمته إلى صدرها وأرضعته ثم انصرفت عنه فسألها أبوه عن الصبي فقالت: قد واريته في التراب. فمكثت تعتل فتخرج في الحاجة، وتذهب إلى إبراهيم فتضمه إليها أصل لازم وترضعه ثم تنصرف فلما تحرك أتته أمه كما كانت تأتيه، وصنعت كما كانت تصنع فلما أرادت الانصراف أخذ ثوبها فقالت له: ما لك؟ فقال: اذهبي بي معك فقالت له: حتى استأمر أباك فلم يزل إبراهيم في الغيبة مخفيا بشخصه كاتماً لأمره حتى ظهر فصدع بأمر الله تعالى ذكره، وأظهر الله قدرته فيه.[١]

قال المؤلّف ﷺ: وروي في قصص الأنبياء، عن الصدوق، عن أبيه وابن الوليد ثم ساق السند إلى أبي بصير، عن أبي عبد الله ؑ قال: كان آزر عم إبراهيم منجماً لنمرود وكان لا يصدر إلا عن رأيه قال: لقد رأيت في ليلتي عجبا قال: ما هو؟ قال: إن مولوداً يولد في أرضنا هذه يكون هلاكنا على يديه فحجب الرجال عن النساء، وكان تارخ وقع على أم إبراهيم فحملت ثم ساق الحديث إلى آخره.[٢]

وقد حمل وحدة السند في الحديثين، ووحدة المضمون إلا في أبي إبراهيم

(١) كمال الدين ١: ١٣٨ ح ٧.

(٢) بحار الأنوار ١٢: ٤٢ ح ٣١، قصص الأنبياء للجزائري: ١١٧.

صاحب البحار أن قال: الظاهر أن ما رواه الراوندي هو هذا الخبر بعينه، وإنما غيره ليستقيم على أصول الإمامية.[١]

ثم حمل الرواية وما في مضمونها من الروايات الدالّة على أن آزر الوثني كان والداً لإبراهيم صلبياً على التقية.[٢]

وقد روى مثل المضمون السابق القمي في تفسيره[٣]، والعياشي في تفسيره[٤]، وروي من طرق أهل السنّة عن مجاهد، ورواه الطبري في تاريخه[٥]، والثعلبي في قصص الأنبياء، عن عامة السلف وأهل العلم.

وكيف كان فالذي ينبغي أن يقال: إن علماء الحديث والآثار كأنهم مجمعون على أن إبراهيم عليه السلام كان في بادي عمره قد أخفي في سرب خوفاً من أن يقتله الملك نمرود، ثم خرج عنه بعد حين فحاج أباه وقومه في أمر الأصنام والكوكب والقمر والشمس وحاج الملك في دعواه الربوبية، وقد تقدم أن سياق آيات القصة يؤيد هذا المعنى.

وأما أبو إبراهيم فقد ذكر أهل التاريخ أن اسمه تارخ ـ بالحاء المهملة أو المعجمة ـ وآزر إما لقبه أو اسم صنم أو وصف ذم أو مدح بحسب لغتهم بمعنى المعتضد أو الأعرج وصفه به إبراهيم.

وذكروا أن هذا المشرك الذي سماه القرآن أبا إبراهيم وذكر محاجته إياه

---

(١) بحار الأنوار ١٢: ٤٢.

(٢) بحار الأنوار ١٢: ٤٨.

(٣) تفسير القمّي ١: ٣٠٦.

(٤) تفسير العيّاشي ١: ٣٦٢ح ٣٢.

(٥) تاريخ الطبري ١: ٢١١ ـ ٢٣٥.

كان هو تارخ أباه الصلبي ووالده الحقيقي ووافقهم على ذلك عدة من علماء الحديث والكلام من أهل السنة، وخالفهم جمع منهم، والشيعة كالمجمع على ذلك أوهم مجمعون إلا ما يتراءى من بعض المحدثين حيث أودعوا تلك الأخبار كتبهم، وعمدة ما احتج به القائلون بأن آزر المشرك لم يكن والد إبراهيم، وإنما كان عمه أوجده لأمه الأخبار الواردة من طرق الفريقين في أن آباء النبي ﷺ كانوا موحدين جميعاً لم يكن فيهم مشرك، وقد طالت المشاجرة بين الفريقين.[1]

قال المؤلّف ﷺ: إنّ البحث على هذا النمط كيفما تم خارج عن البحث التفسيري وإن كان الباحثون من الفريقين في حاجة إلى إيراده واستنتاج حق ما ينتجه لكنا في غنى عن ذلك فقد تقدم أن الآيات دالة على أن آزر المشرك الذي يذكره الله تعالى في هذه الآيات من سورة الأنعام لم يكن والدا حقيقيا لإبراهيم عليه السلام.

فالروايات الدالة على كون آزر أباه الحقيقي على ما فيها من الاختلاف في سرد القصة روايات مخالفة للكتاب لا يعبأ بها، ولا حاجة مع ذلك إلى حملها على التقية إن صح الحمل مع هذا الاختلاف بين القوم.[2]

---

(١) تاريخ الطبري ١: ٢١١ ـ ٢٣٥.

(٢) الميزان ٧: ٢٨٧ ـ ٢٩١.

بحث روائي

حول قصّة إبراهيم ونمرود وإلقائه عليه السلام في النار

في روضة الكافي: علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن أحمد بن محمد بن أبي نصر، عن أبان بن عثمان، عن حجر، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خالف إبراهيم عليه السلام قومه وعاب آلهتهم إلى قوله فلما تولوا عنه مدبرين إلى عيد لهم دخل إبراهيم عليه السلام إلى آلهتهم بقدوم فكسرها إلا كبيراً لهم ووضع القدوم في عنقه، فرجعوا إلى آلهتهم فنظروا إلى ما صنع بها فقالوا: لا والله ما اجترى عليها ولا كسرها إلا الفتى الذي كان يعيبها ويبرأ منها، فلم يجدوا له قتلة أعظم من النار.

فجمع له الحطب واستجادوه حتى إذا كان اليوم الذي يحرق فيه برز له نمرود وجنوده وقد بني له بناء لينظر إليه كيف تأخذه النار؟ ووضع إبراهيم في منجنيق، وقالت الأرض: يا رب ليس على ظهري أحد يعبدك غيره يحرق بالنار؟ قال الرب إن دعاني كفيته.

فذكر أبان، عن محمد بن مروان، عمّن رواه، عن أبي جعفر عليه السلام: أن دعاء إبراهيم عليه السلام يومئذ كان: يا أحد يا أحد، يا صمد يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد.

ثم قال: توكّلت على الله، فقال الرب تبارك وتعالى: كفيت، فقال للنار: كوني برداً!

قال: فاضطربت أسنان إبراهيم من البرد حتى قال الله عزّ وجل: وسلاماً على إبراهيم وانحط جبرئيل فإذا هو جالس مع إبراهيم يحدثه في النار.

قال نمرود من اتخذ إلها فليتخذ مثل إله إبراهيم. قال: فقال عظيم من عظمائهم: إني عزمت على النار أن لا تحرقه فأخذ عنق من النار نحوه حتى أحرقه قال: فآمن له لوط فخرج مهاجرا إلى الشام هو وسارة ولوط.[١]

وفيه أيضاً، عن علي بن إبراهيم، عن أبيه وعدّة من أصحابنا، عن سهل بن زياد جميعاً، عن الحسن بن محبوب، عن إبراهيم بن أبي زياد الكرخي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن إبراهيم عليه السلام لما كسر أصنام نمرود أمر به نمرود فأوثق وعمل له حيراً وجمع له فيه الحطب وألهب فيه النار ثم قذف إبراهيم في النار لتحرقه ثم اعتزلوها حتى خمدت النار ثم أشرفوا على الحير فإذا هم بإبراهيم سليماً مطلقاً من وثاقه.

فأخبر نمرود خبره فأمر أن ينفوا إبراهيم من بلاده وأن يمنعوه من الخروج بماشيته وماله فحاجهم إبراهيم عند ذلك فقال: إن أخذتم ماشيتي ومالي فحقي عليكم أن تردوا علي ما ذهب من عمري في بلادكم، واختصموا إلى قاضي نمرود وقضى على إبراهيم أن يسلم إليهم جميع ما أصاب في بلادهم، وقضى على أصحاب نمرود أن يردوا على إبراهيم ما ذهب من عمره في بلادهم، فأخبر بذلك نمرود فأمرهم أن يخلوا سبيله وسبيل ماشيته وماله وأن يخرجوه، وقال: إنه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم وأضر بآلهتكم.[٢]

---

(١) الكافي ٨: ٣٦٨.

(٢) الكافي ٨: ٣٧٠.

وفي العلل، بإسناده إلى عبد الله بن هلال قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: لما ألقي إبراهيم عليه السلام في النار تلقاه جبرئيل في الهواء وهو يهوي فقال: يا إبراهيم ألك حاجة؟ فقال: أما إليك فلا.(١)

قال المؤلّف رحمه الله: وقد ورد حديث قذفه بالمنجنيق في عدة من الروايات من العامة والخاصة وكذا قول جبريل له: ألك حاجة؟ وقوله: أما إليك فلا، رواه الفريقان.

وفي الدر المنثور، أخرج الفاريابي وابن أبي شيبة وابن جرير، عن علي بن أبي طالب: في قوله: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً﴾، قال: بردت عليه حتى كادت تؤذيه حتى قيل: وسلاما قال: لا تؤذيه.(٢)

وفي الكافي، والعيون، عن الرضا عليه السلام في حديث في الإمامة قال: ثم أكرمه الله عزّ وجل يعني إبراهيم بأن جعلها يعني الإمامة في ذريته وأهل الصفوة والطهارة فقال عزّ وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلّاً جَعَلْنَا صَالِحِينَ * وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرناً قرناً حتى ورثها النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال الله جلّ جلاله: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾، فكانت خاصة، فقلدها علي عليه السلام بأمر الله عزّ وجل على رسم ما فرض الله تعالى فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان بقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾، فهي في ولد علي بن أبي طالب عليه السلام خاصة إلى يوم

---

(١) علل الشرائع: ٣٦.

(٢) الدر المنثور ٤: ٣٢٢.

القيامة، إذ لا نبي بعد محمد ﷺ.[١]

وفي المعاني، بإسناده عن يحيى بن عمران، عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله عزّ وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً﴾، قال: ولد الولد نافلة.[٢]

وفي تفسير القمي: في قوله: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ الْخَبَائِثَ﴾، قال: كانوا ينكحون الرجال.[٣]

قال المؤلّف رحمه الله: والروايات في قصص إبراهيم عليه السلام كثيرة جداً لكنها مختلفة اختلافاً شديداً في الخصوصيات مما لا يرجع إلى منطوق الكتاب، وقد اكتفينا منها بما قدمناه.[٤]

---

(١) الكافي ١: ١٩٩، عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ٢١٦.

(٢) معاني الأخبار: ٢٢٤.

(٣) تفسير القمّي ٢: ٧٣.

(٤) الميزان ١٤: ٤٣٢ـ ٤٣٥.

بحث روائي حول هاجر وولادة إسماعيل عليه السلام

في تفسير القمي[1]، عن الصادق عليه السلام قال: إن إبراهيم كان نازلاً في بادية الشام، فلمّا ولد له من هاجر إسماعيل اغتمت سارة من ذلك غمّاً شديداً، لأنه لم يكن لها ولد، وكانت تؤذي إبراهيم في هاجر وتغمه، فشكى إبراهيم ذلك إلى الله عز وجل، فأوحى الله إليه: «مثل المرأة مثل الضلع العوجاء، إن تركتها استمتعت بها، وإن أقمتها كسرتها» ثم أمره: أن يخرج إسماعيل وأُمّه، فقال: يا ربّ إلى أي مكان؟ فقال: إلى حرمي وأمني، وأوّل بقعة خلقتها من الأرض، وهي مكة.

فأنزل الله عليه جبرئيل بالبراق فحمل هاجر وإسماعيل وإبراهيم وكان إبراهيم لا يمر بموضع حسن فيه شجر وزرع ونخل إلا وقال إبراهيم: يا جبرئيل إلى هاهنا، إلى هاهنا، فيقول جبرئيل: لا، امض، امض، حتى وافى مكة فوضعه في موضع البيت، وقد كان إبراهيم عاهد سارة أن لا ينزل حتى يرجع إليها، فلما نزلوا في ذلك المكان كان فيه شجر، فألقت هاجر على ذلك الشجر كساء كان معها، فاستظلوا تحته، فلما سرحهم إبراهيم ووضعهم أراد الانصراف عنهم إلى سارة، قالت له هاجر: يا إبراهيم أتدعنا في موضع ليس فيه أنيس ولا ماء ولا زرع؟ فقال إبراهيم: الله الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان هو يكفيكم ثم انصرف عنهم.

فلما بلغ كداء، وهو جبل بذي طوى التفت إبراهيم، فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ

---

(١) تفسير القمّي ١: ٦٠.

مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾[1]، ثم مضى وبقيت هاجر، فلمّا ارتفع النهار عطش إسماعيل، فقامت هاجر في موضع السعي فصعدت على الصفا، ولمع لها السراب في الوادي، فظنت أنه ماء، فنزلت في بطن الوادي، وسعت فلما بلغت المروة غاب عنها إسماعيل، عادت حتى بلغت الصفا، فنظرت حتى فعلت ذلك سبع مرات فلما كان في الشوط السابع، وهي على المروة نظرت إلى إسماعيل وقد ظهر الماء من تحت رجليه فعادت حتى جمعت حوله رملاً، فإنه كان سائلاً، فزمته بما جعلت حوله، فلذلك سميت زمزم وكانت جرهم نازلة بذي المجاز وعرفات.

فلما ظهر الماء بمكة عكفت الطير والوحش على الماء، فنظرت جرهم إلى تعكف الطير والوحش على ذلك المكان فاتبعتها، حتى نظروا إلى امرأة وصبي نازلين في ذلك الموضع، قد استظلا بشجرة، وقد ظهر الماء لهما، فقالوا لهاجر: من أنت وما شأنك وشأن هذا الصبي؟ قالت: أنا أم ولد إبراهيم خليل الرحمن، وهذا ابنه، أمره الله أن ينزلنا هاهنا، فقالوا لها: أتأذنين لنا أن نكون بالقرب منكم؟ فقالت لهم: حتى يأتي إبراهيم.

فلما زارهم إبراهيم في اليوم الثالث قالت هاجر: يا خليل الله إن هاهنا قوماً من جرهم يسألونك أن تأذن لهم، حتى يكونوا بالقرب منا، أفتأذن لهم في ذلك؟ قال إبراهيم: نعم، فأذنت هاجر لهم، فنزلوا بالقرب منهم، وضربوا خيامهم، فأنست هاجر وإسماعيل بهم.

---

(١) إبراهيم: ٣٧.

فلما زارهم إبراهيم في المرة الثانية نظر إلى كثرة الناس حولهم فسر بذلك سروراً شديداً، فلما تحرك إسماعيل وكانت جرهم قد وهبوا لإسماعيل كل واحد منهم شاة، وشاتين فكانت هاجر وإسماعيل يعيشان بها فلما بلغ إسماعيل مبلغ الرجال، أمر الله إبراهيم: أن يبني البيت إلى أن قال: فلمّا أمر الله إبراهيم أن يبني البيت لم يدر في أي مكان يبنيه، فبعث الله جبرئيل، وخط له موضع البيت إلى أن قال فبنى إبراهيم البيت، ونقل إسماعيل من ذي طوى فرفعه في السماء تسعة أذرع، ثم دله على موضع الحجر فاستخرجه إبراهيم، ووضعه في موضعه الذي هو فيه الآن، فلما بنى جعل له بابين، باباً إلى الشرق، وباباً إلى الغرب، والباب الذي إلى الغرب، يسمى المستجار، ثم ألقى عليه الشجر والإذخر، وألقت هاجر على بابها كساء كان معها وكانوا يكونون تحته، فلما بنى وفرغ منه، حج إبراهيم وإسماعيل، ونزل عليهما جبرئيل يوم التروية، لثمان من ذي الحجة فقال: يا إبراهيم قم وارتو من الماء، لأنه لم يكن بمنى وعرفات ماء، فسميت التروية لذلك ثم أخرجه إلى منى فبات بها ففعل به ما فعل بآدم، فقال إبراهيم لما فرغ من بناء البيت: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم﴾ الآية، قال عليه السلام: من ثمرات القلوب، أي حببهم إلى الناس، ليستأنسوا بهم، ويعودوا إليهم.(١)

---

(١) الميزان ١: ٤٣٤ ـ ٤٣٧.

بحث روائي حول قصّة ذبح إسماعيل عليه السلام

عن أمالي الشيخ، بإسناده إلى سليمان بن يزيد قال: حدّثنا علي بن موسى قال: حدّثني أبي، عن أبيه، عن أبي جعفر، عن أبيه، عن آبائه عليهم السلام قال: الذبيح إسماعيل عليه السلام.[1]

قال المؤلّف رحمه الله: وروي مثله في مجمع البيان[2]، عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام.

وبهذا المضمون روايات كثيرة أُخرى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام، وقد وقع في بعض رواياتهم أنه إسحاق وهو مطروح لمخالفة الكتاب.

وعن الفقيه: سئل الصادق عليه السلام عن الذبيح من كان؟ فقال إسماعيل لأن الله تعالى ذكر قصته في كتابه ثم قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾.[3]

قال المؤلّف رحمه الله: هذا ما تقدّم في بيان الآية أن الآية بسياقها ظاهرة، بل صريحة في ذلك.

وفي المجمع، عن ابن إسحاق: أن إبراهيم كان إذا زار إسماعيل وهاجر حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة ويروح من مكة فيبيت عند أهله

---

(١) أمالي الطوسي ١: ٣٤٨.

(٢) مجمع البيان ٨: ٤٥٣.

(٣) من لا يحضره الفقيه ٢: ١٤٨ ح ٥.

بالشام حتى إذا بلغ معه السعي رأى في المنام أن يذبحه، فقال له: يا بني خذ الحبل والمدية، ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب.

فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما قد ذكره الله عنه فقال: يا أبت اشدد رباطي حتى لا أضطرب واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح من دمي شيئاً فتراه أُمّي واشحذ شفرتك وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون علي فإن الموت شديد!

فقال له إبراهيم: نعم العون أنت يا بني على أمر الله.

ثم ساق القصة، وفيها: ثم انحنى إليه بالمدية وقلب جبرئيل المدية على قفاها واجتر الكبش من قبل «ثبير» واجتر الغلام من تحته ووضع الكبش مكان الغلام، ونودي من ميسرة مسجد الخيف: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾.[1]

قال المؤلّف رحمه الله: والروايات في القصة كثيرة ولا تخلو من اختلاف.

وفيه: روى العياشي بإسناده عن بريد بن معاوية العجلي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كم كان بين بشارة إبراهيم بإسماعيل وبين بشارته بإسحاق عليه السلام؟ قال: كان بين البشارتين خمس سنين، قال الله سبحانه: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾، يعني إسماعيل، وهي أول بشارة بشر الله به إبراهيم عليه السلام في الولد[2].[3]

(١) مجمع البيان ٨: ٤٥٤.
(٢) مجمع البيان ٨: ٤٥٥.
(٣) الميزان ١٧: ٢٣٤ ـ ٢٣٦.

أدب إبراهيم ﷺ في احتجاجه مع قومه

ودعائه وطلبه من الله

من جملة آداب الأنبياء ما حكاه الله تعالى عن إبراهيم ﷺ في محاجته قومه:

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ * أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ * فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ * الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ * رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ * وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ * وَاجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ * وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ * وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾[1]. دعاء يدعو ﷺ به لنفسه، ولأبيه عن موعدة وعدها إياه، وقد كان هذا أول أمره ولم ييأس بعد من إيمان أبيه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه.

وقد بدأ فيه بالثناء على ربه ثناء جميلاً على ما هو أدب العبودية وهذا أول ثناء مفصل حكاه الله سبحانه عنه ﷺ، وما حكى عنه قبل ذلك ليس بهذا النحو كقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ

---

(١) الشعراء: ٧٥ ـ ٨٧.

وَالأَرْضَ﴾[١]، وقوله لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيّاً﴾[٢].

وقد استعمل عليه السلام من الأدب في ثنائه أن أتى بثناء جامع أدرج فيه عناية ربه به من بدء خلقه إلى أن يعود إلى ربه، وأقام فيه نفسه مقام الفقر والحاجة كلها، ولم يذكر لربه إلا الغنى والجود المحض، ومثل نفسه عبداً داخراً لا يقدر على شيء وتقلبه المقدرة الإلهية حالاً إلى حال من خلق ثم إطعام وسقي وشفاء عن مرض، ثم أماته، ثم إحياء، ثم إشخاص إلى جزاء يوم الجزاء، وليس له إلا الطاعة المحضة والطمع في غفران الخطيئة.

ومن الأدب المراعي في بيانه نسبة المرض إلى نفسه في قوله: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، لما أن نسبته إليه تعالى في مثل المقام وهو مقام الثناء لا يخلو عن شيء، والمرض وإن كان من جملة الحوادث وهي لا تخلو عن نسبة إليه تعالى، لكن الكلام ليس مسوقاً لبيان حدوثه حتى ينسب إليه تعالى، بل لبيان أن الشفاء من المرض من رحمته وعنايته تعالى، ولذلك نسب المرض إلى نفسه والشفاء إلى ربّه بدعوى أنه لا يصدر منه إلا الجميل.

ثم أخذ في الدعاء واستعمل فيه من الأدب البارع أن ابتدأ باسم الربّ وقصر مسألته على النعم الحقيقية الباقية من غير أن يلتفت إلى زخارف الدنيا الفانية، واختار مما اختاره ما هو أعظم وأفخم فسأل الحكم وهو الشريعة واللحوق بالصالحين وسأل لسان صدق في الآخرين وهو أن يبعث الله بعده زمانا بعد زمان، وحينا بعد حين من يقوم بدعوته، ويروج شريعته، وهو في الحقيقة سؤال أن يخصه بشريعة باقية إلى يوم القيامة ثم سأل وراثة الجنة ومغفرة أبيه

---

(١) الأنعام: ٧٨ ـ ٧٩.

(٢) مريم: ٤٧.

وعدم الخزي يوم القيامة.

وقد أجابه الله تعالى إلى جميع ما سأله عنه على ما ينبىء به كلامه تعالى إلا دعاءه لأبيه وحاشا ربّ العالمين أن يذكر دعاء عبد من عباده المكرمين مما ذهب سدى لم يستجبه، قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾[١]، وقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً﴾[٢]، وقال: ﴿وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٣]، وحيّاه بسلام عام إذ قال: ﴿سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾[٤].

وسير التاريخ بعده عليه السلام يصدق جميع ما ذكره القرآن الشريف من محامده وأثنى فيه عليه فإنه عليه السلام هو النبي الكريم قام وحده بدين التوحيد وإحياء ملّة الفطرة وانتهض لهدم أركان الوثنية، وكسر الأصنام على حين اندرست فيه آيات التوحيد، وعفت الأيام فيها رسوم النبوة ونسيت الدنيا اسم نوح والكرام من أنبياء الله، فأقام دين الفطرة على ساق، وبث دعوة التوحيد بين الناس ودين التوحيد حتى اليوم وقد مضى من زمنه ما يقرب من أربعة آلاف سنة حي باسمه باق في عقبه فإن الذي تعرفه الدنيا من دين التوحيد هو دين اليهود ونبيهم موسى، ودين النصارى ونبيهم عيسى، وهما من آل إسرائيل يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ودين الإسلام الذي بعث به محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهو من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

ومما ذكره الله من دعائه قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[٥]، يسأل الله

(١) الحج : ٧٨.

(٢) الزخرف : ٢٨.

(٣) البقرة : ١٠٣.

(٤) الصافات : ١٩٠.

(٥) الصافات : ١٠٠.

فيه ولداً صالحاً، وفيه اعتصام بربه، وإصلاح لمسألته التي هي بوجه دنيوية بوصف الصلاح ليعود إلى جهة الله وارتضائه.

ومما ذكره تعالى من دعائه ما دعا به حين قدم إلى أرض مكة وقد أسكن إسماعيل وأمه بها، قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[1]، يسأل ربّه أن يتّخذ أرض مكة ـ وهي يومئذ أرض قفرة وواد غير ذي زرع ـ حرماً لنفسه ليجمع بذلك شمل الدين، ويكون ذلك رابطة أرضية جسمانية بين الناس وبين ربهم يقصدونه لعبادة ربهم، ويتوجهون إليه في مناسكهم، ويراعون حرمته فيما بينهم فيكون ذلك آية باقية خالدة لله في الأرض يذكر الله كل من ذكره، ويقصده كل من قصده، وتتشخص به الوجهة، وتتحد به الكلمة.

والدليل على أنه عليه السلام يريد بالأمن الأمن التشريعي الذي هو معنى اتخاذه حرما دون الأمن الخارجي من وقوع المقاتلات والحروب وسائر الحوادث المفسدة للأمن المخلة بالرفاهية قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَماً آمِناً يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، فإن في الآية امتناناً عليهم بأمن الحرم وهو المكان الذي احترمه الله لنفسه فاتصف بالأمن من جهة ما احترمه الناس لا من جهة عامل تكويني يقيه من الفساد والقتل، والآية نزلت وقد شاهدت مكة حروباً مبيدة بين قريش وجرهم فيها، وكذا من القتل والجور والفساد ما لا يحصى، وكذا قوله

(١) البقرة: ١٦٢.

(٢) القصص: ٥٧.

تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً آمِناً وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[1]، أي لا يتخطفون من الحرم لاحترام الناس إياه لمكان الحرمة التي جعلناها .

وبالجملة كان مطلوبه ﷺ هو أن يكون لله في الأرض حرم تسكنه ذريته، وكان لا يحصل ذلك إلا ببناء بلد يقصده الناس من كل جانب فيكون مجمعا دينيا يؤمونه بالسكونة واللواذ والزيارة إلى يوم القيامة فلذلك سأل أن يجعله بلدا آمنا، وقد كان غير ذي زرع فسأل أن يرزقهم من الثمرات حتى يعمر بسكانه ولا يتفرقوا منه.

ثم لما أحس أن دعاءه بهذا التشريف يشمل المؤمن والكافر قيد مسألته بإيمان المدعو لهم بالله واليوم الآخر فقال: ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، وأما أن ذلك كيف يمكن في بلد لو اتفق أن يسكن فيه المؤمنون والكفار معا واختلفوا، أو إذا قطن فيه الكفار فقط؟ وكيف يرزقون من الثمرات والأرض بطحاء غير ذي زرع؟ فلم يتعرض له في مسألته.

وهذا من أدبه ﷺ في مقام الدعاء فإن من فضول القول أن يعلم الداعي ربه كيف يقضي حاجته؟ وما هو الطريق إلى إجابة مسألته؟ وهو رب عليم حكيم قدير إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

لكن الله سبحانه إذ كان يريد أن يقضي حاجته على السنة الجارية في الأسباب العادية ولا يفرق فيها بين المؤمن والكافر تمم دعاءه ﷺ بما قيد به كلامه من قوله: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

وهذا الدعاء الذي أدى إلى تشريع الحرم الإلهي وبناء الكعبة المقدسة التي

---

(١) العنكبوت: ٦٧.

هي أول بيت وضع للناس ببكة مباركة وهدى للعالمين هو إحدى ثمرات همته العالية المقدسة التي امتن به على من بعده من المسلمين إلى يوم القيامة.

ومما دعا عليه السلام دعاؤه في آخر عمره على ما حكاه الله تعالى بقوله:

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ * رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ * رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فَي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاء * الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ * رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء * رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾[1].

وهذا مما دعا عليه السلام به في أواخر عمره الشريف وقد بنيت بلدة مكة، والدليل عليه قوله فيه: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ﴾، وقوله: ﴿اجْعَلْ هَـذَا الْبَلَدَ آمِناً﴾ ولم يقل كما في دعائه السابق: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً﴾[2].

ومما استعمل فيه من الأدب تمسكه بالربوبية في دعائه، وكلما ذكر ما يختص بنفسه قال: ﴿رَبِّ﴾، وكلّما ذكر ما يشاركه فيه غيره قال: ﴿رَبَّنَا﴾.

ومن الأدب المستعمل في دعائه أن كلما ذكر حاجة من الحوائج يمكن أن

---

(١) إبراهيم: ٣٥ ـ ٤١.

(٢) البقرة: ١٢٦.

يسأل لغرض مشروع أو غير مشروع ذكر غرضه الصحيح من حاجته، وفيه من إثارة الرحمة الإلهية ما لا يخفى فلما قال: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ﴾، إلخ، ذكر بعده قوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً﴾، إلخ، وحيث قال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ﴾، إلخ، قال بعده: ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾، وإذ دعا بقوله: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ ذيله بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾.

ومن أدبه فيه أنه أردف كل حاجة ذكرها بما يناسب مضمونها من أسماء الله الحسنى كالغفور والرحيم وسميع الدعاء، وكرر اسم الربّ كلّما ذكر حاجة من حوائجه فإن الربوبية هي السبب الموصول بين العبد وبين الله تعالى، وهو المفتاح لباب كل دعاء.

ومن أدبه فيه قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث لم يدع عليهم بشيء يسوء غير أنه ذكر مع ذكرهم اسمين من أسماء الله تعالى هما الواسطتان في شمول نعمة السعادة على كل إنسان أعني الغفور الرحيم حباً منه لنجاة أُمّته وانبساط جود ربّه.

ومن ذلك ما حكاه الله عنه وعن ابنه إسماعيل وقد اشتركا فيه، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1].

دعاء دعوا به عند بنائهما الكعبة، وفيه من الأدب الجميل ما في سابقه.

---

(١) البقرة: ١٢٧ ـ ١٢٩.

أدب اسماعيل ﷺ مع الله

ومن ذلك ما حكاه الله عن إسماعيل ﷺ في قصة الذبح قال تعالى:

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾[1].

وصدر كلامه وإن كان من أدبه مع أبيه إلا أن الذيل فيما بينه وبين ربّه على أن التأدّب مع مثل إبراهيم خليل الله ﷺ تأدّب مع الله تعالى.

وبالجملة لما ذكر له أبوه ما رآه في المنام، وكان أمراً إلهياً بدليل قول إسماعيل: ﴿افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ أمره أن يرى فيه رأيه، وهو من أدبه ﷺ مع ابنه فقال له إسماعيل: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾، ولم يذكر أنه الرأي الذي رآه هضماً لنفسه وتواضعاً لأبيه كأنه لا رأي له قبال رأيه ولذلك صدر القول بخطابه بالأبوة، ولم يقل: «إن شئت فافعل ذلك» ليكون مسألته التطعية تطييباً لنفس أبيه، ولأنه ذكر في كلامه أنه أمر أمر به إبراهيم، ولا يتصور في حق مثله أن يتروى أو يتردد في فعل ما أمر به دون أن يمتثل أمر ربه.

ثم في قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾، تطييب آخر لنفس

(١) الصافات: ١٠١ ـ ١٠٢.

أبيه، وكل ذلك من أدبه مع أبيه عليه السلام.

وقد تأدّب مع ربه إذ لم يأت بما وعده إياه في صورة القطع والجزم دون أن استثنى بمشيئة الله فإن في القطع من غير تعليق الأمر بمشيئة الله شائبة دعوى الاستقلال في السببية، ولتخل عنها ساحة النبوة، وقد ذم الله لذلك قوماً إذ قطعوا أمراً ولم يعلقوا كما قال في قصة أصحاب الجنة: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾[1]، وقد أدب الله سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم في كتابه بأن يستثني في قوله تأديباً بكناية عجيبة إذ قال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[2].[3]

(١) القلم: ١٨.

(٢) الكهف: ٢٣ ـ ٢٤.

(٣) الميزان ٦: ٢٨٣ ـ ٢٩٠.

سيرة إبراهيم عليه السلام دورة كاملة من العبودية

إذا رجعنا إلى قصة إبراهيم عليه السلام وسيره بولده وحرمته إلى أرض مكة، وإسكانهما هناك، وما جرى عليهما من الأمر، حتى آل الأمر، إلى ذبح إسماعيل وفدائه من جانب الله وبنائهما البيت، وجدنا القصة دورة كاملة من السير العبودي الذي يسير به العبد من موطن نفسه إلى قرب ربه، ومن أرض البعد إلى حظيرة القرب بالإعراض عن زخارف الدنيا، وملاذها، وأمانيها من جاه، ومال، ونساء وأولاد، والانقلاع والتخلص عن وساوس الشياطين، وتكديرهم صفو الإخلاص والإقبال والتوجه إلى مقام الرب ودار الكبرياء.

فها هي وقائع متفرقة مترتبة تسلسلت وتألفت قصة تاريخية تحكي عن سير عبودي من العبد إلى الله سبحانه وتشمل من أدب السير والطلب والحضور ورسوم الحب والوله والإخلاص على ما كلما زدت في تدبره إمعانا زادك استنارة ولمعاناً.

ثم: إن الله سبحانه أمر خليله إبراهيم، أن يشرع للناس عمل الحج، كما قال: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[1]، وما شرعه عليه السلام وإن لم يكن معلوماً لنا بجميع خصوصياته، لكنه كان شعاراً دينياً عند العرب في الجاهلية إلى أن بعث الله النبي صلى الله عليه وآله وسلم وشرع فيه ما شرع

---

(١) الحج: ٢٧.

ولم يخالف فيه ما شرعه إبراهيم إلا بالتكميل كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً﴾[١]، وقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾[٢].

وكيف كان فما شرعه النبي ﷺ من نسك الحج المشتمل على الإحرام والوقوف بعرفات ومبيت المشعر والتضحية ورمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة والطواف والصلاة بالمقام تحكي قصة إبراهيم، وتمثّل مواقفه ومواقف أهله ومشاهدهم ويا لها من مواقف طاهرة إلهية القائد إليها جذبة الربوبية والسائق نحوها ذلة العبودية.

والعبادات المشروعة ـ على مشرعيها أفضل السلام ـ صور لمواقف الكملين من الأنبياء من ربهم، وتماثيل تحكي عن مواردهم ومصادرهم في مسيرهم إلى مقام القرب والزلفى، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[٣]، وهذا أصل.

وفي الأخبار المبينة لحكم العبادات وأسرار جعلها وتشريعها شواهد كثيرة على هذا المعنى، يعثر عليها المتتبع البصير.[٤]

(١) الأنعام: ١٦١.

(٢) الشورى: ١٣.

(٣) الأحزاب: ٢١.

(٤) الميزان ١: ٤٤٨ ـ ٤٥٠.

بحث تاريخي بخصوص الكعبة وبنائها

من المتواتر المقطوع به أن الذي بنى الكعبة إبراهيم الخليل عليه السلام وكان القاطنون حولها يومئذ ابنه إسماعيل وجرهم من قبائل اليمن وهي بناء مربع تقريباً وزواياها الأربع إلى الجهات الأربع تتكسر عليها الرياح ولا تضرها مهما اشتدت.

ما زالت الكعبة على بناء إبراهيم حتى جددها العمالقة ثم بنو جرهم أو بالعكس كما مر في الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام.[1]

ثم لما آل أمر الكعبة إلى قصي بن كلاب أحد أجداد النبي صلى الله عليه وآله وسلم القرن الثاني قبل الهجرة هدمها وبناها فأحكم بناءها، وسقفها بخشب الدوم وجذوع النخل وبنى إلى جانبها دار الندوة، وكان في هذه الدار حكومته وشوراه مع أصحابه، ثم قسم جهات الكعبة بين طوائف قريش فبنوا دورهم على المطاف حول الكعبة، وفتحوا عليه أبواب دورهم.

وقبل البعثة بخمس سنين هدم السيل الكعبة فاقتسمت الطوائف العمل لبنائها وكان الذي يبنيها ياقوم الرومي، ويساعده عليه نجار مصري، ولما انتهوا إلى وضع الحجر الأسود تنازعوا بينهم في أن أيها يختص بشرف وضعه فرأوا أن يحكموا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم، وسنه إذ ذاك خمس وثلاثون سنة لما عرفوا من وفور عقله وسداد رأيه، فطلب رداء ووضع عليه الحجر، وأمر القبائل فأمسكوا بأطرافه

---

(١) تفسير البرهان ١: ٣٠١ ح ٣٦.

ورفعوه حتى إذا وصل إلى مكانه من البناء في الركن الشرقي أخذه هو فوضعه بيده في موضعه.

وكانت النفقة قد بهظتهم فقصروا بناءها على ما هي عليه الآن وقد بقي بعض ساحته خارج البناء من طرف الحجر حجر إسماعيل لاستصغارهم البناء.

وكان البناء على هذا الحال حتى تسلط عبد الله بن الزبير على الحجاز في عهد يزيد بن معاوية فحاربه الحصين قائد يزيد بمكة، وأصاب الكعبة بالمنجنيق فانهدمت وأحرقت كسوتها وبعض أخشابها، ثم انكشف عنها لموت يزيد، فرأى ابن الزبير أن يهدم الكعبة ويعيد بناءها فأتى لها بالجص النقي من اليمن، وبناها به وأدخل الحجر في البيت، وألصق الباب بالأرض، وجعل قبالته باباً آخر ليدخل الناس من باب ويخرجوا من آخر، وجعل ارتفاع البيت سبعة وعشرين ذراعا ولما فرغ من بنائها ضمخها بالمسك والعبير داخلاً وخارجاً، وكساها بالديباج، وكان فراغه من بنائها ١٧ رجب سنة ٦٤ هجرية.

ثم لما تولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعث الحجاج بن يوسف قائده فحارب ابن الزبير حتى غلبه فقتله، ودخل البيت فأخبر عبد الملك بما أحدثه ابن الزبير في الكعبة، فأمره بإرجاعها إلى شكلها الأول، فهدم الحجاج من جانبها الشمالي ستة أذرع وشبرا، وبنى ذلك الجدار على أساس قريش، ورفع الباب الشرقي وسد الغربي ثم كبس أرضها بالحجارة التي فضلت منها.

ولما تولى السلطان سليمان العثماني الملك سنة ستين وتسعمائة غير سقفها، ولما تولى السلطان أحمد العثماني سنة إحدى وعشرين بعد الألف أحدث فيها ترميماً، ولما حدث السيل العظيم سنة تسع وثلاثين بعد الألف هدم بعض حوائطها الشمالية والشرقية والغربية فأمر السلطان مراد الرابع من ملوك آل عثمان بترميمها

ولم يزل على ذلك حتى اليوم وهو سنة ألف وثلاثمائة وخمس وسبعين هجرية قمرية وسنة ألف وثلاثمائة وثمانية وثلاثين هجرية شمسية.

شكل الكعبة

شكل الكعبة مربع تقريباً، وهي مبنية بالحجارة الزرقاء الصلبة ويبلغ ارتفاعها ستة عشر متراً، وقد كانت في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخفض منه بكثير على ما يستفاد من حديث رفع النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً عليه السلام على عاتقه يوم الفتح لأخذ الأصنام التي كانت على الكعبة وكسرها.

وطول الضلع الذي فيه الميزاب والذي قبالته عشرة أمتار وعشرة سانتي مترات، وطول الضلع الذي فيه الباب والذي قبالته اثنا عشر متراً، والباب على ارتفاع مترين من الأرض، وفي الركن الذي على يسار الباب للداخل، الحجر الأسود على ارتفاع متر ونصف من أرض المطاف، والحجر الأسود حجر ثقيل بيضي الشكل غير منتظم لونه أسود ضارب إلى الحمرة، وفيه نقط حمراء، وتعاريج صفراء، وهي أثر لحام القطع التي كانت تكسرت منه، قطره نحو ثلاثين سانتي متراً.

وتسمى زوايا الكعبة من قديم أيامها بالأركان فيسمى الشمالي بالركن العراقي، والغربي بالشامي والجنوبي باليماني، والشرقي الذي فيه الحجر الأسود بالأسود، وتسمى المسافة التي بين الباب وركن الحجر بالملتزم لالتزام الطائف إياه في دعائه واستغاثته، وأما الميزاب على الحائط الشمالي ويسمى ميزاب الرحمة فمما أحدثه الحجاج بن يوسف ثم غيره السلطان سليمان سنة ٩٥٤ إلى

ميزاب من الفضة ثم أبدله السلطان أحمد سنة ١٠٢١ بآخر من فضة منقوشة بالميناء الزرقاء يتخللها نقوش ذهبية، ثم أرسل السلطان عبد المجيد من آل عثمان سنة ١٢٧٣ ميزاباً من الذهب فنصب مكانه وهو الموجود الآن.

وقبالة الميزاب حائط قوسي يسمى بالحطيم، وهو قوس من البناء طرفاه إلى زاويتي البيت الشمالية والغربية، ويبعدان عنهما مقدار مترين وثلاثة سانتي مترات، ويبلغ ارتفاعه مترا، وسمكه متراً ونصف متر، وهو مبطن بالرخام المنقوش، والمسافة بين منتصف هذا القوس من داخله إلى منتصف ضلع الكعبة ثمانية أمتار وأربعة وأربعون سانتي متراً.

والفضاء الواقع بين الحطيم وبين حائط البيت هو المسمى بحجر إسماعيل، وقد كان يدخل منه ثلاثة أمتار تقريباً في الكعبة في بناء إبراهيم، والباقي كان زريبة لغنم هاجر وولدها، ويقال: إن هاجر وإسماعيل مدفونان في الحجر.

وأما تفصيل ما وقع في داخل البيت من تغيير وترميم، وما للبيت من السنن والتشريفات فلا يهمنا التعرض له.

كسوة الكعبة

قد تقدّم في ما نقلناه من الروايات في سورة البقرة في قصة هاجر وإسماعيل ونزولهما أرض مكة أن هاجر علق كساءها على باب الكعبة بعد تمام بنائها.

وأما كسوة البيت نفسه فيقال: إن أول من كساها تبع أبو بكر أسعد كساها بالبرود المطرزة بأسلاك الفضة، وتبعه خلفاؤه ثم أخذ الناس يكسونها بأردية

مختلفة فيضعونها بعضها على بعض، وكلما بلي منها ثوب وضع عليها آخر إلى زمن قصي، ووضع قصي على العرب رفادة لكسوتها سنوياً واستمر ذلك في بنيه وكان أبو ربيعة بن المغيرة يكسوها سنة وقبائل قريش سنة.

وقد كساها النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالثياب اليمانية، وكان على ذلك حتى إذا حج الخليفة العباسي المهدي شكى إليه سدنة الكعبة من تراكم الأكسية على سطح الكعبة، وذكروا أنه يخشى سقوطه فأمر برفع تلك الأكسية، وإبدالها بكسوة واحدة كل سنة، وجرى العمل على ذلك حتى اليوم، وللكعبة كسوة من داخل، وأول من كساها من داخل أم العباس بن عبد المطلب لنذر نذرته في ابنها العباس.

منزلة الكعبة

كانت الكعبة مقدسة معظمة عند الأمم المختلفة فكانت الهنود يعظمونها، ويقولون: إن روح سيفاً وهو الأقنوم الثالث عندهم حلت في الحجر الأسود حين زار مع زوجته بلاد الحجاز.

وكانت الصابئة من الفرس والكلدانيين يعدونها أحد البيوت السبعة المعظمة، وربما قيل: إنه بيت زحل لقدم عهده وطول بقائه.

وكانت الفرس يحترمون الكعبة أيضاً زاعمين أن روح هرمز حلت فيها، وربما حجّوا إليها زائرين.

وكانت اليهود يعظمونها ويعبدون الله فيها على دين إبراهيم، وكان بها صور وتماثيل منها تمثال إبراهيم وإسماعيل، وبأيديهما الأزلام، ومنها صورتا العذراء والمسيح، ويشهد ذلك على تعظيم النصارى لأمرها أيضاً كاليهود.

وكانت العرب أيضاً تعظمها كل التعظيم، وتعدها بيتاً لله تعالى، وكانوا يحجون إليها من كل جهة وهم يعدون البيت بناء لإبراهيم، والحج من دينه الباقي بينهم بالتوارث.

ولاية الكعبة

كانت الولاية على الكعبة لإسماعيل ثم لولده من بعده حتى تغلبت عليهم جرهم فقبضوا بولايتها ثم ملكتها العماليق وهم طائفة من بني كركر بعد حروب وقعت بينهم، وقد كانوا ينزلون أسفل مكة كما أن جرهم كانت تنزل أعلى مكة وفيهم ملوكهم.

ثم كانت الدائرة لجرهم على العماليق فعادت الولاية إليهم فتولوها نحو من ثلاثمائة سنة، وزادوا في بناء البيت ورفعته على ما كان في بناء إبراهيم.

ثم لما نشأ ولد إسماعيل وكثروا وصاروا ذوي قوة ومنعة وضاقت بهم الدار حاربوا جرهم فغلبوهم وأخرجوهم من مكة ومقدم الإسماعيليين يومئذ عمرو بن لحي، وهو كبير خزاعة فاستولى على مكة وتولى أمر البيت، وهو الذي وضع الأصنام على الكعبة ودعا الناس إلى عبادتها، وأول صنم وضعه عليها هو «هبل»، حمله معه من الشام إلى مكة ووضعه عليها ثم أتبعه بغيره حتى كثرت وشاعت عبادتها بين العرب، وهجرت الحنيفية.

وفي ذلك يقول شحنة بن خلف الجرهمي يخاطب عمرو بن لحي :

يا عمرو إنك قد أحدثت آلهة   شتى بمكة حول البيت أنصابا

وكان للبيت رب واحد أبداً   فقد جعلت له في الناس أربابا

لتعرفن بأن الله في مهل سيصطفي دونكم للبيت حجابا

وكانت الولاية في خزاعة إلى زمن حليل الخزاعي فجعلها حليل من بعده لابنته وكانت تحت قصي بن كلاب، وجعل فتح الباب وغلقها لرجل من خزاعة يسمى أبا غبشان الخزاعي فباعه أبو غبشان من قصي بن كلاب ببعير وزق خمر، وفي ذلك يضرب المثل السائر «أخسر من صفقة أبي غبشان».

فانتقلت الولاية إلى قريش، وجدد قصي بناء البيت كما قدمناه وكان الأمر على ذلك حتى فتح النبي صلى الله عليه وآله وسلم مكة، ودخل الكعبة وأمر بالصور والتماثيل فمحيت، وأمر بالأصنام فهدمت وكسرت، وقد كان مقام إبراهيم وهو الحجر الذي عليه أثر قدمي إبراهيم موضوعاً بمعجن في جوار الكعبة ثم دفن في محله الذي يعرف به الآن، وهو قبة قائمة على أربعة أعمدة يقصدها الطائفون للصلاة.

وأخبار الكعبة وما يتعلق بها من المعاهد الدينية كثيرة طويلة الذيل اقتصرنا منها على ما تمسه حاجة الباحث المتدبر في آيات الحج والكعبة.

ومن خواص هذا البيت الذي بارك الله فيه وجعله هدى أنه لم يختلف في شأنه أحد من طوائف الإسلام.[1]

---

(١) الميزان ٣: ٥٥٤ ـ ٥٦١.





قصّة

ذو القرنين



وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَباً ﴿٨٥﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْراً ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴿٨٩﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً ﴿٩٠﴾ كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْراً ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴿٩٢﴾ حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْماً لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَى أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَاراً قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً ﴿٩٧﴾ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً ﴿٩٨﴾



قصّة ذي القرنين في القرآن

لم يتعرض لاسمه ولا لتاريخ زمان ولادتـه وحـياته ولا لنسـبه وسـائر مشخصاته على ما هو دأبه في ذكر قصص الماضين، بل اكتفى على ذكر ثلاث رحلات منه ؛ فرحلة أُولى إلى المغرب حـتى إذا بـلغ مـغرب الشـمس وجـدها تغرب في «عين حمئة» أو «حـامية» ووجـد عـندها قـوماً، ورحـلة ثـانية إلى المشرق حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلع على قوم لم يجعل الله لهم مـن دونها ستراً، ورحلة ثالثة حتى إذا بلغ بين السـدين وجـد مـن دونـهما قـوماً لا يكادون يفقهون قولاً فشكوا إليه إفساد يأجوج ومأجوج في الأرض وعـرضوا عليه أن يجعلوا له خرجاً على أن يجعل بين القوم وبين يأجوج ومأجـوج سـداً فأجابهم إلى بناء السد ووعدهم أن يبني لهم فـوق مـا يأمـلون وأبـى أن يـقبل خرجهم وإنما طلب منهم أن يعينوه بقوة وقد أشير منها فـي القـصة إلى الرجـال وزبر الحديد والمنافخ والقطر.

والخصوصيات والجهات الجوهرية التي تستفاد من القصة هي :

أوّلاً : أن صاحب القصة كان يسمى قبل نزول قصته في القرآن، بل حتى في زمان حياته بذي القرنين كما يظهر في سياق القصة من قوله: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ﴾ ، ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ ، و ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ .

وثانياً: أنه كان مؤمناً بالله واليوم الآخر ومتديناً بدين الحـق كـما يـظهر

من قوله: ﴿هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾، وقوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُّكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى﴾ ويزيد في كرامته الدينية.

أن قوله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ يدل على تأييده بوحي أو إلهام أو نبي من أنبياء الله كان عنده يسدده بتبليغ الوحي.

وثالثاً: أنه كان ممن جمع الله له خير الدنيا والآخرة، أما خير الدنيا فالملك العظيم الذي بلغ به مغرب الشمس ومطلعها فلم يقم له شيء وقد ذلت له الأسباب، وأما خير الآخرة فبسط العدل وإقامة الحق والصفح والعفو والرفق وكرامة النفس وبث الخير ودفع الشر، وهذا كله مما يدل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً﴾ مضافاً إلى ما يستفاد من سياق القصة من سيطرته الجسمانية والروحانية.

ورابعاً: أنه صادف قوماً ظالمين بالمغرب فعذّبهم.

وخامساً: أن الردم الذي بناه هو في غير مغرب الشمس ومطلعها فإنه بعد ما بلغ مطلع الشمس أتبع سبباً حتى إذا بلغ بين السدين.

ومن مشخصات ردمه مضافاً إلى كونه واقعاً في غير المغرب والمشرق أنه واقع بين جبلين كالحائطين، وأنه ساوى بين صدفيهما وأنه استعمل في بنائه زبر الحديد والقطر، ولا محالة هو في مضيق هو الرابط بين ناحيتين من نواحي الأرض المسكونة.

ذكرى ذي القرنين والسد ويأجوج ومأجوج

في أخبار الماضين، لم يذكر القدماء من المؤرخين في أخبارهم ملكاً يسمى في عهده بذي القرنين أو ما يؤدي معناه من غير اللفظ العربي ولا يأجوج ومأجوج بهذين اللفظين ولا سداً ينسب إليه باسمه، نعم ينسب إلى بعض ملوك حمير من اليمنيين أشعار في المباهاة يذكر فيها ذا القرنين وأنه من أسلافه التبابعة وفيها ذكر سيره إلى المغرب والمشرق وسد يأجوج ومأجوج وسيوافيك نبذة منها في بعض الفصول الآتية.

وورد ذكر «يأجوج» و «مأجوج» في مواضع من كتب العهد العتيق، ففي الإصلاح العاشر من سفر التكوين من التوراة: وهذه مواليد بني نوح: سام وحام ويافث وولد لهم بنون بعد الطوفان. بنو يافث جومر ومأجوج وماداي وباوان ونوبال وماشك ونبراس.

وفي كتاب حزقيال، الإصحاح الثامن والثلاثون: وكان إلى كلام الرب قائلاً: يا بن آدم اجعل وجهك على جوج أرض مأجوج رئيس روش ماشك ونوبال، وتنبأ عليه وقل: هكذا قال السيد الرب: ها أنا ذا عليك يأجوج رئيس روش وماشك ونوبال وأرجعك وأضع شكائم في فكيك وأخرجك أنت وكل جيشك خيلاً وفرساناً كلهم لابسين أفخر لباس جماعة عظيمة مع أتراس ومجان كلهم ممسكين السيوف. فارس وكوش وفوط معهم كلهم بمجن وخوذة، وجومر وكل جيوشه وبيت نوجرمه من أقاصي الشمال مع كل جيشه شعوباً كثيرين معك.

قال: لذلك تنبأ يا بن آدم وقل لجوج: هكذا قال السيد الرب في ذلك اليوم عند سكنى شعب إسرائيل آمنين أفلا تعلم وتأتي من موضعك من أقاصي

الشمال... إلخ.

وقال في الإصحاح التاسع والثلاثين ماضياً في الحديث السابق: وأنت يابن آدم تنبأ على جوج وقل: هكذا قال السيد الرب، ها أنا ذا عليك يأجوج رئيس روش ماشك ونوبال وأردك وأقودك وأصعدك من أقاصي الشمال. وآتي بك على جبال إسرائيل وأضرب قوسك من يدك اليسرى وأسقط سهامك من يدك اليمنى فتسقط على جبال إسرائيل أنت وكل جيشك والشعوب الذين معك أبذلك مأكلا للطيور الكاسرة من كل نوع ولوحوش الحقل، على وجه الحقل تسقط لأني تكلمت بقول السيد الرب، وأرسل نارا على مأجوج وعلى الساكنين في الجزائر آمنين فيعلمون أني أنا الرب... إلخ.

وفي رؤيا يوحنا في الإصحاح العشرين: ورأيت ملاكاً نازلاً من السماء معه مفتاح الهاوية وسلسلة عظيمة على يده فقبض على التنين الحية القديمة الذي هو إبليس والشيطان، وقيده ألف سنة، وطرحه في الهاوية وأغلق عليه وختم عليه لكيلا يضل الأمم فيما بعد حتى تتم الألف سنة، وبعد ذلك لا بد أن يحل زماناً يسيراً.

قال: ثم متى تمت الألف سنة لن يحل الشيطان من سجنه ويخرج ليضل الأمم الذين في أربع زوايا الأرض جوج ومأجوج ليجمعهم للحرب الذين عددهم مثل رمل البحر فصعدوا على عرض الأرض، وأحاطوا بمعسكر القديسين وبالمدينة المحبوبة فنزلت نار من عند الله من السماء وأكلتهم، وإبليس الذي كان يضلهم طرح في بحيرة النار والكبريت حيث الوحش والنبي الكذاب وسيعذبون نهاراً وليلاً إلى أبد الآبدين.

ويستفاد منها أن «مأجوج» أو «جوج ومأجوج» أمة أو أمم عظيمة كانت

قاطنة في أقاصي شمال آسيا من معمورة الأرض يومئذ وأنهم كانوا أمماً حربية معروفة بالمغازي والغارات.

ويقرب حينئذ أن يحدس أن ذا القرنين هذا هو أحد الملوك العظام الذين سدوا الطريق على هذه الأمم المفسدة في الأرض، وأن السد المنسوب إليه يجب أن يكون فاصلاً بين منطقة شمالية من قارة آسيا وجنوبها كحائط الصين أو سد باب الأبواب أو سد «داريال» أو غير هذه.

وقد تسلمت تواريخ الأُمم اليوم من أن ناحية الشمال الشرقي من آسيا وهي الأحداب والمرتفعات في شمال الصين كانت موطنا لأمة كبيرة بدوية همجية لم تزل تزداد عدداً وتكثر سواداً فتكر على الأُمم المجاورة لها كالصين وربما نسلت من أحدابها وهبطت إلى بلاد آسيا الوسطى والدنيا وبلغت إلى شمال أوربا فمنهم من قطن في أراض أغار عليها كأغلب سكنة أوربا الشمالية فتمدين بها واشتغل بالزراعة والصناعة، ومنهم من رجع ثم عاد وعاد.

وهذا أيضاً مما يؤيد ما استقربناه آنفاً أن السد الذي نبحث عنه هو أحد الأسداد الموجودة في شمال آسيا الفاصلة بين الشمال وجنوبه.

مَن هو ذو القرنين ؟ وأين سدّه ؟

للمؤرخين وأرباب التفسير في ذلك أقوال بحسب اختلاف أنظارهم في تطبيق القصة :

أ ـ ينسب إلى بعضهم أن السد المذكور في القرآن هو حائط الصين، وهو حائط طويل يحول بين الصين وبين منغوليا بناه «شينهوانكتي» أحد ملوك الصين

لصد هجمات المغول عن الصين، طوله ثلاثة آلاف كيلو متر في عرض تسعة أمتار وارتفاع خمسة عشر متراً وقد بنى بالأحجار شرع في بنائه سنة ٢٦٤ ق م وقد تم بناؤه في عشر أو عشرين وعلى هذا فذو القرنين هو الملك المذكور.

ويدفعه أن الأوصاف والمشخصات المذكورة في القرآن لذي القرنين وسده لا تنطبق على هذا الملك وحائط الصين الكبير فلم يذكر من هذا الملك أنه سار من أرضه إلى المغرب الأقصى، والسد الذي يذكره القرآن يصفه بأنه ردم بين جبلين وقد استعمل فيه زبر الحديد والقطر وهو النحاس المذاب والحائط الكبير يمتد ثلاثة آلاف كيلو متر يمر في طريقه على السهول والجبال، وليس بين جبلين وهو مبني بالحجارة لم يستعمل فيه حديد ولا قطر.

ب ـ نسب إلى بعضهم أن الذي بنى السد هو أحد ملوك آشور ، وقد كان يهجم في حوالي القرن السابع قبل الميلاد أقوام سيت من مضيق جبال ققفاز إلى أرمينستان ثم غربي إيران وربما بلغوا بلاد آشور وعاصمتها نينوا فأحاطوا بهم قتلا وسبيا ونهبا فبنى ملك آشور السد لصدهم، وكأن المراد به سد باب الأبواب المنسوب تعميره أو ترميمه إلى كسرى أنوشيروان من ملوك الفرس هذا. ولكن الشأن في انطباق خصوصيات القصة عليه.

ج ـ قال في روح المعاني: وقيل: هو يعني ذا القرنين فريدون بن أثفيان بن جمشيد خامس ملوك الفرس الفيشدادية، وكان ملكاً عادلاً مطيعاً لله تعالى، وفي كتاب صور الأقاليم، لأبي زيد البلخي: أنه كان مؤيداً بالوحي ، وفي عامة التواريخ أنه ملك الأرض وقسمها بين بنيه الثلاثة: إيرج وسلم وتور فأعطى إيرج العراق والهند والحجاز وجعله صاحب التاج، وأعطى سلم الروم وديار مصر والمغرب، وأعطى تور الصين والترك والمشرق، ووضع لكل قانوناً يحكم به، وسميت

القوانين الثلاثة «سياسة» وهي معربة «سي أيسا» أي ثلاثة قوانين.

ووجه تسميته ذا القرنين أنه ملك طرفي الدنيا أو طول أيام سلطنته فإنها كانت على ما في روضة الصفا، خمسمائة سنة، أو عظم شجاعته وقهره الملوك.[١]

وفيه أن التاريخ لا يعترف بذلك.

د ـ وقيل: إن ذا القرنين هو الإسكندر المقدوني وهو المشهور في الألسن وسد الإسكندر كالمثل السائر بينهم، وقد ورد ذلك في بعض الروايات كما في رواية قرب الإسناد[٢]، عن موسى بن جعفر عليه السلام، ورواية عقبة بن عامر، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، ورواية وهب بن منبه المرويتين في الدر المنثور[٣].

وبه قال بعض قدماء المفسرين من الصحابة والتابعين كمعاذ بن جبل على ما في مجمع البيان[٤]، وقتادة على ما رواه في الدر المنثور[٥]، ووصفه الشيخ أبو علي بن سينا عندما ذكره في كتاب الشفاء، بذي القرنين، وأصر على ذلك الإمام الرازي في تفسيره الكبير[٦]، قال فيه ما ملخصه: إن القرآن دلّ على أن ملك الرجل بلغ إلى أقصى المغرب وأقصى المشرق وجهة الشمال، وذلك تمام المعمورة من الأرض ومثل هذا الملك يجب أن يبقى اسمه مخلدا، والملك الذي اشتهر في كتب التواريخ أن ملكه بلغ هذا المبلغ ليس إلا الإسكندر.

---

(١) روح المعاني ١٦: ٢٥.

(٢) قرب الاسناد

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٩٣.

(٤) مجمع البيان ٤: ١٩٩.

(٥) الدر المنثور ٤: ٢٤٢.

(٦) التفسير الكبير ٢١: ١٦٥.

وذلك أنه بعد موت أبيه جمع ملوك الروم والمغرب وقهرهم وانتهى إلى البحر الأخضر ثم إلى مصر، وبنى الإسكندرية ثم دخل الشام وقصد بني إسرائيل وورد بيت المقدس، وذبح في مذبحه.

ثم انعطف إلى أرمينية وباب الأبواب، ودان له العراقيون والقبط والبربر، واستولى على إيران، وقصد الهند والصين وغزا الأمم البعيدة ورجع إلى خراسان وبنى المدن الكثيرة ثم رجع إلى العراق ومات في شهرزور أورومية المدائن وحمل إلى إسكندرية ودفن بها، وعاش ثلاثا وثلاثين سنة، ومدة ملكه اثنتا عشرة سنة.

فلما ثبت بالقرآن أن ذا القرنين ملك أكثر المعمورة، وثبت بالتواريخ أن الذي هذا شأنه هو الإسكندر وجب القطع بأن المراد بذي القرنين هو الإسكندر.

وفيه أولاً: أن الذي ذكره من انحصار ملك معظم المعمورة في الإسكندر المقدوني غير مسلم في التاريخ ففي الملوك من يماثله أو يزيد عليه ملكاً.

وثانياً: أن الذي يذكره القرآن من أوصاف ذي القرنين لا يتسلمه التاريخ للإسكندر أوينفيه عنه فقد ذكر القرآن أن ذا القرنين كان مؤمناً بالله واليوم الآخر وهو دين التوحيد وكان الإسكندر وثنياً من الصابئين كما يحكى أنه ذبح ذبيحته للمشتري، وذكر القرآن أن ذا القرنين كان من صالحي عباد الله ذا عدل ورفق والتاريخ يقص للإسكندر خلاف ذلك.

وثالثاً: أنه لم يرد في شيء من تواريخهم أن الإسكندر المقدوني بنى سد يأجوج ومأجوج على ما يذكره القرآن.

وقال في البداية والنهاية[1]، في خبر ذي القرنين: وقال إسحاق بن بشر عن سعيد بن بشير عن قتادة قال: إسكندر هو ذو القرنين وأبوه أول القياصرة، وكان من ولد سام بن نوح.

فأما ذو القرنين الثاني فهو إسكندر بن فيلبس وساق نسبه إلى عيص بن إسحاق بن إبراهيم المقدوني اليوناني المصري باني إسكندرية الذي يؤرخ بأيامه الروم، وكان متأخراً عن الأول بدهر طويل.

وكان هذا قبل المسيح بنحوٍ من ثلاثمائة سنة، وكان أرسطاطاليس الفيلسوف وزيره، وهو الذي قتل دارا بن دارا، وأذل ملوك الفرس وأوطأ أرضهم.

قال: وإنما نبهنا عليه لأن كثيرا من الناس يعتقد أنهما واحد وأن المذكور في القرآن هو الذي كان أرسطاطاليس وزيره فيقع بسبب ذلك خطأ كبير، وفساد عريض طويل كثير فإن الأول كان عبداً مؤمناً صالحاً، وملكاً عادلاً، وكان وزيره الخضر وقد كان نبياً على ما قررناه قبل هذا، وأما الثاني فكان مشركاً، وقد كان وزيره فيلسوفا، وقد كان بين زمانيهما، أزيد من ألفي سنة فأين هذا من هذا لا يستويان ولا يشتبهان إلا على غبي لا يعرف حقائق الأمور، انتهى.

وفيه تعريض بالإمام الرازي في مقاله السابق لكنك لو أمعنت فيما نقلنا من كلامه ثم راجعت كتابه فيما ذكره من قصة ذي القرنين وجدته لا يرتكب من الخطإ أقل مما ارتكبه الإمام الرازي فلا أثر في التاريخ عن ملك كان قبل المسيح بأكثر من ألفين وثلاثمائة سنة ملك الأرض من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق وجهة الشمال وبنى السد وكان مؤمناً صالحاً، بل نبياً ووزيره الخضر ودخل الظلمات في

(١) البداية والنهاية ٢: ١٠٥.

طلب ماء الحياة سواء كان اسمه الإسكندر أو غير ذلك.

هـ ـ ذكر جمع من المؤرخين أن ذا القرنين أحد التبابعة الأذواء اليمنيين من ملوك حمير باليمن كالأصمعي في تاريخ العرب قبل الإسلام، وابن هشام في السيرة، والتيجان وأبي ريحان البيروني في الآثار الباقية، ونشوان بن سعيد الحميري في شمس العلوم ـ على ما نقل عنهم ـ وغيرهم.

وقد اختلفوا في اسمه فقيل اسمه مصعب بن عبد الله ؛ وقيل: صعب بن ذي المرائد وهو أول التبابعة، وهو الذي حكم لإبراهيم في بئر السبع، وقيل: تبع الأقرن واسمه حسان، وذكر الأصمعي أنه أسعد الكامل الرابع من التبابعة بن حسان الأقرن ملكي كرب تبع الثاني ابن الملك تبع الأول ؛ وقيل: اسمه «شمر يرعش».

وقد ورد ذكر ذي القرنين والافتخار به في عدة من أشعار الحميريين وبعض شعراء الجاهلية ففي البداية والنهاية : أنشد ابن هشام للأعشى:

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً بالجنو في جدث أشم مقيما

قال المقريزي في الخطط : اعلم أن التحقيق عند علماء الأخبار أن ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه العزيز فقال: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْراً * إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً ...﴾، عربي قد كثر ذكره في أشعار العرب.

وأن اسمه الصعب بن ذي مرائد بن الحارث الرائش بن الهمال ذي سدد بن عاد ذي منح بن عار الملطاط بن سكسك بن وائل بن حمير بن سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام.

وأنه ملك من ملوك حمير وهم العرب العاربة، ويقال لهم أيضاً العرب العرباء، وكان ذو القرنين تبعاً متوجا، ولما ولي الملك تجبر ثم تواضع لله، واجتمع بالخضر، وقد غلط من ظن أن الإسكندر بن فيلبس هو ذوالقرنين الذي بنى السد فإن لفظة ذو عربية، وذو القرنين من ألقاب العرب ملوك اليمن، وذاك رومي يوناني.

قال أبو جعفر الطبري: وكان الخضر في أيام أفريدون الملك بن الضحاك في قول عامة علماء أهل الكتاب الأول، وقيل: موسى بن عمران ﷺ، وقيل: إنه كان على مقدمة ذي القرنين الأكبر الذي كان على أيام إبراهيم الخليل ﷺ وإن الخضر بلغ مع ذي القرنين أيام مسيره في البلاد نهر الحياة فشرب من مائه وهو لا يعلم به ذوالقرنين ولا من معه فخلد وهو حي عندهم إلى الآن، وقال آخرون: إن ذا القرنين الذي كان على عهد إبراهيم الخليل ﷺ هو أفريدون بن الضحاك وعلى مقدمته كان الخضر.

وقال أبو محمد عبد الملك بن هشام في كتاب التيجان، في معرفة ملوك الزمان بعد ما ذكر نسب ذي القرنين الذي ذكرناه: وكان تبعاً متوجاً لما ولي الملك تجبر ثم تواضع واجتمع بالخضر ببيت المقدس، وسار معه مشارق الأرض ومغاربها وأوتي من كل شيء سبباً كما أخبر الله تعالى، وبنى السد على يأجوج ومأجوج ومات بالعراق.

وأما الإسكندر فإنه يوناني، ويعرف بالإسكندر المجدوني ويقال المقدوني: سئل ابن عباس عن ذي القرنين: ممن كان؟ فقال: من حمير وهو الصعب بن ذي مرائد الذي مكنه الله في الأرض وآتاه من كل شيء سببا فبلغ قرني الشمس ورأس الأرض وبنى السد على يأجوج ومأجوج. قيل له: فالإسكندر؟

قال: كان رجلاً صالحاً رومياً حكيماً بنى على البحر في إفريقية منارا، وأخذ أرض رومة، وأتى بحر العرب، وأكثر عمل الآثار في العرب من المصانع والمدن.

وسئل كعب الأحبار عن ذي القرنين فقال: الصحيح عندنا من أحبارنا وأسلافنا أنه من حمير وأنه الصعب بن ذي مرائد، والإسكندر كان رجلا من يونان من ولد عيصو بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام، ورجال الإسكندر أدركوا المسيح بن مريم منهم جالينوس وأرسطاطاليس.

وقال الهمداني في كتاب الأنساب : وولد كهلان بن سبأ زيداً، فولد زيد عريباً ومالكاً وغالباً وعميكرب، وقال الهيثم: عميكرب بن سبأ أخو حمير وكهلان فولد عميكرب أبا مالك فدرحا ومهيليل ابني عميكرب، وولد غالب جنادة بن غالب وقد ملك بعد مهيليل بن عميكرب بن سبأ، وولد عريب عمراً، فولد عمر وزيداً والهميسع ويكنى أبا الصعب وهو ذو القرنين الأوّل، وهو المساح والبناء، وفيه يقول النعمان بن بشير.

فمن ذا يعادونا من الناس معشراً كراما فذو القرنين منا وحاتم

وفيه يقول الحارثي:

سمّوا لنا واحداً منكم فنعرفه في الجاهلية لاسم الملك محتملا

كالتبعين وذي القرنين يقبله أهل الحجى فأحق القول ما قبلا

وفيه يقول ابن أبي ذئب الخزائي:

ومنا الذي بالخافقين تغربا وأصعد في كل البلاد وصوبا

فقد نال قرن الشمس شرقا ومغربا وفي ردم يأجوج بنى ثم نصبا

وذلك ذو القرنين تفخر حمير بعسكر فيل ليس يحصى فيحسبا

قال الهمداني: وعلماء همدان تقول: ذوالقرنين الصعب بن مالك بن الحارث الأعلى بن ربيعة بن الحيار بن مالك، وفي ذي القرنين أقاويل كثيرة. انتهى .

وهو كلام جامع، ويستفاد منه أولاً: أن لقب ذي القرنين تسمى به أكثر من واحد من ملوك حمير وأن هناك ذا القرنين الأوّل الكبير وغيره.

وثانياً: أن ذا القرنين الأوّل وهو الذي بنى سد يأجوج ومأجوج قبل الإسكندر المقدوني بقرون كثيرة سواء كان معاصرا للخليل عليه السلام أو بعده كما هو مقتضى ما نقله ابن هشام من ملاقاته الخضر ببيت المقدس المبني بعد إبراهيم بعدة قرون في زمن داود وسليمان عليهما السلام فهو على أي حال قبله مع ما في تاريخ ملوك حمير من الإبهام.

ويبقى الكلام على ما ذكره واختاره من جهتين: أحدهما: أنه أين موضع هذا السد الذي بناه تبع الحميري؟

وثانيهما: أنه من هم هذه الأُمة المفسدة في الأرض التي بنى السد لصدهم فهل هذا السد أحد الأسداد المبنية في اليمن أو ما والاها كسد مأرب وغيره فهي أسداد مبنية لادخار المياه للشرب والسقي لا للصد على أنها لم يعمل فيها زبر الحديد والقطر كما ذكره الله في كتابه، أوغيره؟ وهل كان هناك أمة مفسدة مهاجمة، وليس فيما يجاورهم إلا أمثال القبط والآشور وكلدان وغيرهم وهم أهل حضارة ومدنية؟

وذكر بعض أجلة المحققين[١] من معاصرينا في تأييد هذا القول ما محصله: أن ذا القرنين المذكور في القرآن قبل الإسكندر المقدوني بمئات من السنين

---

(١) العلّامة السيّد هبة الدين الشهرستاني .

فليس هو هو بل هو أحد الملوك الصالحين من التبابعة الأذواء من ملوك اليمن، وكان من شيمة طائفة منهم التسمي بذي كذي همدان وذي غمدان وذي المنار وذي الإذعار وذي يزن وغيرهم.

وكان مسلماً موحداً وعادلاً حسن السيرة وقوياً ذا هيبة وشوكة سار في جيش كثيف نحو المغرب فاستولى على مصر وما وراءها ثم لم يزل يسير على سواحل البحر الأبيض حتى بلغ ساحل المحيط الغربي فوجد الشمس تغيب في عين حمئة أو حامية.

ثم رجع سائراً نحو المشرق وبنى في مسيره «إفريقيا»، وكان شديد الولع وذا خبرة في البناء والعمارة، ولم يزل يسير حتى مر بشبه جزيرة وبراري آسيا الوسطى وبلغ تركستان وحائط الصين ووجد هناك قوماً لم يجعل الله لهم من دون الشمس ستراً.

ثم مال إلى الجانب الشمالي حتى بلغ مدار السرطان، ولعله الذي شاع في الألسن أنه دخل الظلمات، فسأله أهل تلك البلاد أن يبني لهم سداً يصد عنهم يأجوج ومأجوج لما أن اليمنيين ـ وذو القرنين منهم ـ كانوا معروفين بعمل السد والخبرة فيه فبنى لهم السد.

فإن كان هذا السد هو الحائط الكبير الحائل بين الصين ومنغوليا فقد كان ذلك ترميماً منه لمواضع تهدمت من الحائط بمرور الأيام وإلا فأصل الحائط إنما بناه بعض ملوك الصين قبل ذلك، وإن كان سدا آخر غير الحائط فلا إشكال.

ومما بناه ذو القرنين واسمه الأصلي «شمريرعش» في تلك النواحي مدينة سمرقند على ما قيل.

وأيد ذلك بأن كون ذي القرنين ملكاً عربياً صالحاً يسأل عنه الأعراب رسول الله ﷺ، ويذكره القرآن الكريم للتذكر والاعتبار أقرب للقبول من أن يذكر قصة بعض ملوك الروم أو العجم أو الصين، وهم من الأُمم البعيدة التي لم يكن للأعراب هوى في أن يسمعوا أخبارهم أو يعتبروا بآثارهم، ولذا لم يتعرض القرآن لشيء من أخبارهم. انتهى ملخصاً.

والذي يبقى عليه أن كون حائط الصين هو سد ذي القرنين لا سبيل إليه فإن ذا القرنين قبل الإسكندر بعدة قرون على ما ذكره وقد بنى حائط الصين بعد الإسكندر بما يقرب من نصف قرن وأما غير الحائط الكبير ففي ناحية الشمال الغربي من الصين بعض أسداد أخر لكنها مبنية من الحجارة على ما يذكر لا أثر فيها من زبر الحديد والقطر.

وقال في تفسير الجواهر بعد ذكر مقدمة ملخصها أن المعروف من دول اليمن بمعونة من النقوش المكشوفة في خرائب اليمن ثلاث دول:

دولة معين وعاصمتها قرناء، وقد قدر العلماء أن آثار دولة معين تبتدىء من القرن الرابع عشر قبل الميلاد إلى القرن السابع أوالثامن قبله، وقد عثروا على بعض ملوك هذه الدولة وهم ستة وعشرون ملكا مثل «أب يدع» و «أب يدع ينيع» أي المنقد.

ودولة سبأ وهم من القحطانيين كانوا أولاً أذواء فأقيالا، والذي نبغ منهم «سبأ» صاحب قصر صرواح شرقي صنعاء فاستولى على الجميع، ويبتدىء ملكهم من ٨٥٠ ق م إلى ١١٥ ق م، والمعروف من ملوكهم سبعة وعشرون ملكاً خمسة عشر منهم يسمى مكربا كالمكرب «يثعمر» والمكرب «ذمر على»، واثنا عشرة منهم يسمى ملكا فقط كالملك «ذرح» والملك «يريم أيمن».

ودولة الحميريين وهم طبقتان الأولى ملوك سبأ وريدان من سنة ١١٥ ق م إلى سنة ٢٧٥ ق م وهؤلاء ملوك فقط، والطبقة الثانية ملوك سبأ وريدان وحضرموت وغيرها، وهؤلاء أربعة عشر ملكاً أكثرهم تبابعة أولهم «شمريرعش» وثانيهم «ذو القرنين» وثالثهم «عمرو» زوج بلقيس وينتهي إلى ذي جدن ويبتدىء ملكهم من سنة ٢٧٥ م إلى سنة ٥٢٥.

ثم قال: فقد ظهرت صلة الاتصاف بلقب «ذي» بملوك اليمن ولا نجد في غيرهم كملوك الروم مثلا من يلقب بذي، فذو القرنين من ملوك اليمن، وقد تقدم من ملوكهم من يسمى بذي القرنين، ولكن هل هذا هو ذوالقرنين المذكور في القرآن؟

نحن نقول: كلا لأن هذا مذكور في ملوك قريبي العهد منا جداً، ولم ينقل ذلك عنهم اللهم إلا في روايات ذكرها القصاصون في التاريخ مثل أن «شمريرعش» وصل إلى بلاد العراق وفارس وخراسان والصغد، وبنى مدينة سمرقند وأصله شمركند، وأن أسعد أبو كرب غزا أذربيجان، وبعث حساناً ابنه إلى الصغد، وابنه يعفر إلى الروم، وابن أخيه إلى الفرس، وأن من الحميريين من بقوا في الصين لهذا العهد بعد غزو ذلك الملك لها.

وكذب ابن خلدون وغيره هذه الأخبار، ووسموها بأنها مبالغ فيها، ونقضوها بأدلة جغرافية وأُخرى تاريخية.

إذن يكون ذو القرنين من أُمّة العرب ولكنه في تاريخ قديم قبل التاريخ المعروف.

و ـ وقيل: إن ذا القرنين هو كورش أحد ملوك الفرس الهخامنشيين ٥٦٠ ـ ٥٣٩ ق م وهو الذي أسس الإمبراطورية الإيرانية، وجمع بين مملكتي الفارس

وماد، وسخر بابل وأذن في رجوع اليهود من بابل إلى أورشليم وساعد في بناء الهيكل وسخر مصر ثم اجتاز إلى يونان فغلبهم وبلغ المغرب ثم سار إلى أقاصي المعمورة في المشرق.

ذكره بعض من قارب عصرنا(١) ثم بذل الجهد في إيضاحه وتقريبه بعض محققي(٢) الهند في هذه الأواخر بيان ذلك إجمالاً أن الذي ذكره القرآن من وصف ذي القرنين منطبق على هذا الملك العظيم فقد كان مؤمنا بالله بدين التوحيد عادلاً في رعيته سائراً بالرأفة والرفق والإحسان سائساً لأهل الظلم والعدوان، وقد آتاه الله من كل شيء سبباً فجمع بين الدين والعقل وفضائل الأخلاق والعدة والقوة والثروة والشوكة ومطاوعة الأسباب.

وقد سار كما ذكره الله في كتابه مرة نحو المغرب حتى استولى على ليديا وحواليها ثم سار ثانياً نحو المشرق حتى بلغ مطلع الشمس ووجد عنده قوماً بدويين همجيين يسكنون في البراري ثم بنى السد وهو على ما يدل عليه الشواهد السد المعمول في مضيق داريال بين جبال قفقاز بقرب «مدينة تفليس» هذا إجمال الكلام ودونك التفصيل.

إيمانه بالله واليوم الآخر

يدلّ على ذلك ما في كتب العهد العتيق ككتاب عزرا، (الإصحاح ١) وكتاب دانيال (الإصحاح ٦) وكتاب أشعيا، (الإصحاح ٤٤و ٤٥) من تجليله وتقديسه

---

(١) القائل هو أحمد خان الهندي.

(٢) هو: مولانا أبو الكلام آزاد.

حتى سماه في كتاب الأشعياء «راعي الرب».

وقال في الإصحاح الخامس والأربعين: «هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكت بيمينه لأدوس أمامه أمماً وأحقاء ملوك أحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق.

أنا أسير قدامك والهضاب أمهد أكسر مصراعي النحاس ومغاليق الحديد أقصف.

وأعطيك ذخائر الظلمة وكنوز المخابي.

لكي تعرف أني أنا الرب الذي يدعوك باسمك.

لقبتك وأنت لست تعرفني».

ولو قطع النظر عن كونه وحياً فاليهود على ما بهم من العصبية المذهبية لا يعدون رجلاً مشركاً مجوسياً أو وثنياً ـ لو كان كورش كذلك ـ مسيحاً إلهياً مهدياً مؤيداً وراعياً للرب.

على أن النقوش والكتابات المخطوطة بالخط المسماري المأثور عن داريوش الكبير وبينهما من الفصل الزماني ثماني سنين ناطقة بكونه موحداً غير مشرك، وليس من المعقول أن يتغير ما كان عليه كورش في هذا الزمن القصير.

وأما فضائله النفسانية فيكفي في ذلك الرجوع إلى المحفوظ من أخباره وسيرته وما قابل به الطغاة والجبابرة الذين خرجوا عليه أوحاربهم كملوك «ماد» و «ليديا» و «بابل» و «مصر» وطغاة البدو في أطراف «بكتريا» وهو البلخ وغيرهم، وكان كلما ظهر على قوم عفا عن مجرميهم، وأكرم كريمهم ورحم ضعيفهم وساس مفسدهم وخائنهم.

وقد أثنى عليه كتب العهد القديم، واليهود يحترمه أعظم الاحترام لما نجاهم من إسارة بابل وأرجعهم إلى بلادهم وبذل لهم الأموال لتجديد بناء الهيكل ورد إليهم نفائس الهيكل المنهوبة المخزونة في خزائن ملوك بابل، وهذا في نفسه مؤيد آخر لكون ذي القرنين هو كورش فإن السؤال عن ذي القرنين إنما كان بتلقين من اليهود على ما في الروايات.

وقد ذكره مؤرخو اليونان القدماء كهرودت وغيره فلم يسعهم إلا أن يصفوه بالمروة والفتوة والسماحة والكرم والصفح وقلة الحرص والرحمة والرأفة ويثنوا عليه بأحسن الثناء.

وأما تسميته بذي القرنين

فالتواريخ وإن كانت خالية عما يدل على شيء في ذلك لكن اكتشاف تمثاله الحجري أخيراً في مشهد مرغاب في جنوب إيران يزيل الريب في اتصافه بذي القرنين فإنه مثل فيه ذا قرنين نابتين من أم رأسه من منبت واحد أحد القرنين مائل إلى قدام والآخر آخذ جهة الخلف.

وهذا قريب من قول من قال من القدماء في وجه تسمية ذي القرنين أنه كان له تاج أو خوذة فيه قرنان.

وقد ورد في كتاب دانيال، ذكر رؤيا رأى كورش فيه في صورة كبش ذي قرنين قال فيه: في السنة الثالثة من ملك «بيلشاصر» الملك ظهرت لي أنا دانيال رؤيا بعد التي ظهرت لي في الابتداء. فرأيت في الرؤيا وكأن في رؤياي وأنا في «شوشن» القصر الذي في ولاية عيلام.

ورأيت في الرؤيا وأنا عند نهر «أولاي» فرفعت عيني وإذا بكبش واقف عند النهر وله قرنان والقرنان عاليان والواحد أعلى من الآخر والأعلى طالع أخيراً.

رأيت الكبش ينطح غربا وشمالا وجنوبا فلم يقف حيوان قدامه ولا منفذ من يده وفعل كمرضاته وعظم.

وبينما كنت متأملاً إذا بتيس من المعز جاء من المغرب على وجه كل الأرض ولم يمس الأرض وللتيس قرن معتبر بين عينيه.

وجاء إلى الكبش صاحب القرنين الذي رأيته واقفاً عند النهر وركض إليه بشدة قوته ورأيته قد وصل جانب الكبش فاستشاط عليه وضرب الكبش وكسر قرنيه فلم تكن للكبش قوة على الوقوف أمامه وطرحه على الأرض وداسه ولم يكن للكبش منفذ من يده.

فتعظم تيس المعز جداً.

ثم ذكر بعد تمام الرؤيا أن جبرئيل تراءى له وعبر رؤياه بما ينطبق فيه الكبش ذو القرنين على كورش، وقرناه مملكتا الفارس وماد، والتيس ذوالقرن الواحد على الإسكندر المقدوني.

وأما سيره نحو المغرب والمشرق فسيره نحو المغرب كان لدفع طاغية «ليديا» وقد سار بجيوشه نحو كورش ظلما وطغيانا من غير أي عذر يجوز له ذلك فسار إليه وحاربه وهزمه ثم عقبه حتى حاصره في عاصمة ملكه ثم فتحها وأسره ثم عفا عنه وعن سائر أعضاده وأكرمه وإياهم وأحسن إليهم وكان له أن يسوسهم ويبيدهم وانطباق القصة على قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا

تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ ـ ولعلها الساحل الغربي من آسيا الصغرى ـ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْماً قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْناً﴾ وذلك لاستحقاقهم العذاب بطغيانهم وظلمهم وفسادهم.

ثم إنه سار نحو الصحراء الكبير بالمشرق حوالي بكتريا لإخماد غائلة قبائل بدوية همجية انتهضوا هناك للمهاجمة والفساد وانطباق قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً﴾ عليه ظاهر.

وأما بناؤه السد

فالسد الموجود في مضيق جبال قفقاز الممتدة من بحر الخزر إلى البحر الأسود، ويسمى المضيق «داريال» وهو واقع بين بلدة «تفليس» وبين «ولادي كيوكز».

وهذا السد واقع في مضيق بين جبلين شاهقين يمتدان من جانبيه وهو وحدة الفتحة الرابطة بين جانبي الجبال الجنوبي والشمالي والجبال مع ما ينضم إليها من بحر الخزر والبحر الأسود حاجز طبيعي في طول ألوف من الكيلو مترات يحجز جنوب آسيا من شمالها.

وكان يهجم في تلك الأعصار أقوام شريرة من قاطني الشمال الشرقي من آسيا من مضيق جبال قفقاز إلى ما يواليها من الجنوب فيغيرون على ما دونها من أرمينستان ثم إيران حتى الآشور وكلدة، وهجموا في حوالي المائة السابعة قبل الميلاد فعمموا البلاد قتلا وسبيا ونهبا حتى بلغوا نينوى عاصمة الآشور وكان ذلك

في القرن السابق على عهد كورش تقريباً.

وقد ذكر المؤرخون من القدماء كهرودوت اليوناني سير كورش إلى شمال إيران لإخماد نوائر فتن اشتعلت هناك، والظاهر أنه بنى السد في مضيق داريال في مسيره هذا لاستدعاء من أهل الشمال وتظلم منهم، وقد بناه بالحجارة والحديد وهو الردم الوحيد الذي استعمل فيه الحديد، وهو بين سدين جبلين، وانطباق قوله تعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ﴾، الآيات عليه ظاهر.

وممّا أيد به هذا المدعى وجود نهر بالقرب منه يسمى «سايروس» وهو اسم كورش عند الغربيين، ونهر آخر يمر بتفليس يسمى «كر» وقد ذكر هذا السد «يوسف» اليهودي المؤرخ عند ذكر رحلته إلى شمال قفقاز وليس هو الحائط الموجود في باب الأبواب على ساحل بحر الخزر فإن التاريخ ينسب بناءه إلى كسرى أنوشيروان وكان يوسف قبله.

على أن سد باب الأبواب غير سد ذي القرنين المذكور في القرآن قطعاً إذ لم يستعمل فيه حديد قط.

وأما يأجوج ومأجوج

فالبحث عن التطورات الحاكمة على اللغات يهدينا إلى أنهم المغول فإن الكلمة بالتكلم الصيني «منكوك» أو «منجوك» ولفظتا يأجوج ومأجوج كأنهما نقل عبراني وهما في التراجم اليونانية وغيرها للعهد العتيق «كوك» و «مأكوك» والشبه الكامل بين «مأكوك» و «منكوك» يقضي بأن الكلمة متطورة من التلفظ الصيني

«منكوك» كما اشتق منه «منغول» و «مغول» ولذلك في باب تطورات الألفاظ نظائر لا تحصى.

فيأجوج ومأجوج هما المغول وكانت هذه الأمة القاطنة بالشمال الشرقي من آسيا من أقدم الأعصار أمة كبيرة مهاجمة تهجم برهة إلى الصين وبرهة من طريق داريال قفقاز إلى أرمينستان وشمال إيران وغيرها وبرهة وهي بعد بناء السد إلى شمال أوربة وتسمى عندهم بسيت ومنهم الأمة الهاجمة على الروم وقد سقطت في هذه الكرة دولة رومان، وقد تقدم أيضاً أن المستفاد من كتب العهد العتيق أن هذه الأمة المفسدة من سكنة أقاصي الشمال.

هذه جملة ما لخصناه من كلامه، وهو وإن لم يخل عن اعتراض ما في بعض أطرافه لكنه أوضح انطباقا على الآيات وأقرب إلى القبول من غيره.

ز ـ ومما قيل في ذي القرنين ما سمعته عن بعض مشايخي أنه من أهل بعض الأدوار السابقة على هذه الدورة الإنسانية وهو غريب ولعله لتصحيح ما ورد في الأخبار من عجائب حالات ذي القرنين وغرائب ما وقع منه من الوقائع كموته وحياته مرة بعد مرة ورفعه إلى السماء ونزوله إلى الأرض وقد سخر له السحاب يسير به إلى المغرب والمشرق، وتسخير النور والظلمة والرعد والبرق له، ومن المعلوم أن تاريخ هذه الدورة لا يحفظ شيئاً من ذلك فلا بد أن يكون ذلك في بعض الأدوار السابقة هذا، وقد بالغ في حسن الظن بتلك الأخبار.

هل يأجوج ومأجوج كانوا من المغول ؟

أمعن أهل التفسير والمؤرخون في البحث حول القصة، وأشبعوا الكلام في

أطرافها، وأكثرهم على أن يأجوج ومأجوج أمة كبيرة في شمال آسيا، وقد طبق جمع منهم ما أخبر به القرآن من خروجهم في آخر الزمان وإفسادهم في الأرض على هجوم التتر في النصف الأول من القرن السابع الهجري على غربي آسيا، وإفراطهم في إهلاك الحرث والنسل بهدم البلاد وإبادة النفوس ونهب الأموال وفجائع لم يسبقهم إليها سابق.

وقد أخضعوا أولاً الصين ثم زحفوا إلى تركستان وإيران والعراق والشام وقفقاز إلى آسيا الصغرى، وأفنوا كل ما قاومهم من المدن والبلاد والحصون كسمرقند وبخارا وخوارزم ومرو ونيسابور والري وغيرها فكانت المدينة من المدن تصبح وفيها مات الألوف من النفوس، وتمسي ولم يبق من عامة أهلها نافخ نار، ولا من هامة أبنيتها حجر على حجر.

ثم رجعوا إلى بلادهم ثم عادوا وحملوا على الروس ودمروا أهل بولونيا وبلاد المجر وحملوا على الروم وألجئوهم على الجزية كل ذلك في فجائع يطول شرحها.

لكنهم أهملوا البحث عن أمر السد من جهة خروجهم منه وحل مشكلته فإن قوله تعالى: ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً * قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاء وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاء وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، الآيات ظاهرة على ما فسّروه أن هذه الأُمّة المفسدة محبوسون فيما وراءه لا مخرج لهم إلى سائر الأرض ما دام معموراً قائماً على ساقه حتى إذا جاء وعد الله سبحانه جعله دكاء مثلماً أو منهدماً فخرجوا منه إلى الناس وساروا بالفساد والشر.

فكان عليهم ـ على هذا أن يقرروا للسد وصفه هذا فإن كانت هذه الأُمّة

المذكورة هي التتر وقد ساروا من شمال الصين إلى إيران والعراق والشام وقفقاز إلى آسيا الصغرى فأين كان هذا السد الموصوف في القرآن الذي وطئوه ثم طلعوا منه إلى هذه البلاد وجعلوا عاليها سافلها؟

وإن لم تكن هي التتر أوغيرها من الأُمم المهاجمة في طول التاريخ فأين هذا السد المشيد بالحديد ومن صفته أنه يحبس أمة كبيرة منذ ألوف من السنين من أن تهجم على سائر أقطار الأرض ولا مخرج لهم إلى سائر الدنيا دون السد المضروب دونهم وقد ارتبطت اليوم بقاع الأرض بعضها ببعض بالخطوط البرية والبحرية والهوائية وليس يحجز حاجز طبيعي كجبل أو بحر أو صناعي كسد أو سور أو خندق أُمّة من أُمّة فأي معنى لانصداد قوم عن الدنيا بسد بين جبلين بأي وصف وصف وعلى أي نحو فرض؟

والذي أرى في دفع هذا الإشكال ـ والله أعلم ـ أن قوله: ﴿دَكَّاءَ﴾ من الدك بمعنى الذلة، قال في لسان العرب: وجبل دك: ذليل.[1]

والمراد بجعل السد دكاء جعله ذليلاً لا يعبأ بأمره ولا ينتفع به من جهة اتساع طرق الارتباط وتنوع وسائل الحركة والانتقال براً وبحراً وجواً.

فحقيقة هذا الوعد هو الوعد برقي المجتمع البشري في مدنيته، واقتراب شتى أُممه إلى حيث لا يسده سد ولا يحوطه حائط عن الانتقال من أي صقع من أصقاع الأرض إلى غيره ولا يمنعه من الهجوم والزحف إلى أي قوم شاءوا.

ويؤيد هذا المعنى سياق قوله تعالى في موضع آخر يذكر فيه هجوم يأجوج ومأجوج: ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ حيث

(١) لسان العرب ١٠: ٤٢٤.

عبر بفتح يأجوج ومأجوج ولم يذكر السد.

وللدك معنى آخر وهو الدفن بالتراب ففي الصحاح:، دككت الركي ـ وهو البئر ـ دفنته بالتراب انتهى، ومعنى آخر وهو صيرورة الجبل رابية من طين، قال في الصحاح، وتدكدكت الجبال أي صارت روابي من طين واحدتها دكاء.[١]

فمن الممكن أن يحتمل أن السد من جملة أبنية العهود القديمة التي ذهبت مدفونة تحت التراب عن رياح عاصفة أو غريقة بانتقال البحار أو اتساع بعضها على ما تثبتها الأبحاث الجيولوجية، وبذلك يندفع الإشكال لكن الوجه السابق أوجه والله أعلم.[٢]

(١) الصحاح ٤: ١٥٨٤.

(٢) الميزان ١٣: ٥٢٢ ـ ٥٤٤.

بحث روائي

في قصّة ذي القرنين

في تفسير القمي: فلما أخبر رسول الله ﷺ بخبر موسى وفتاه والخضر قالوا له فأخبرنا عن طائف طاف الأرض: المشرق والمغرب من هو؟ وما قصته؟ فأنزل الله: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ...﴾.[1]

قال المؤلّف ﷺ: وقد تقدّم في الكلام على قصة أصحاب الكهف تفصيل هذه الرواية وروي أيضاً ما في معناه في الدر المنثور[2]، عن ابن أبي حاتم عن السدي وعن عمر مولى غفرة.

واعلم أن الروايات المروية من طرق الشيعة وأهل السنة عن النبي ﷺ ومن طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت ﷺ، وكذا الأقوال المنقولة عن الصحابة والتابعين ويعامل معها أهل السنة معاملة الأحاديث الموقوفة في قصة ذي القرنين مختلفة اختلافاً عجيباً متعارضة متهافتة في جميع خصوصيات القصة وكافة أطرافها وهي مع ذلك مشتملة على غرائب يستوحش منها الذوق السليم أو يحيلها العقل وينكرها الوجود لا يرتاب الباحث الناقد إذا قاس بعضها إلى بعض

---

(١) تفسير القمّي ٢: ٤٠.

(٢) الدر المنثور ٤: ٢٤٠.

وتدبر فيها أنها غير سليمة عن الدس والوضع ومبالغات عجيبة في وصف القصة وأغربها ما روي عن علماء اليهود الذين أسلموا كوهب بن منبه وكعب الأحبار أو ما يشعر القرائن أنه مأخوذ منهم فلا يجدينا والحال هذه نقلها بالاستقصاء على كثرتها وطولها، وإنما نشير بعض الإشارة إلى وجوه اختلافها، ونقتصر على نقل ما يسلم عن الاختلاف في الجملة.

فمن الاختلاف اختلافها في نفسه فمعظم الروايات على أنه كان بشراً، وقد ورد في بعضها أنه كان ملكاً سماوياً أنزله الله إلى الأرض وآتاه من كل شيء سبباً.[1]

وفي خطط المقريزي عن الجاحظ في كتاب الحيوان، أن ذا القرنين كانت أمه آدمية وأبوه من الملائكة.

ومن ذلك الاختلاف في سمته ففي أكثر الروايات أنه كان عبداً صالحاً أحب الله فأحبه وناصح الله فناصحه، وفي بعضها[2] أنه كان محدثاً يأتيه الملك فيحدثه، وفي بعضها[3] أنه كان نبياً.

ومن ذلك الاختلاف في اسمه ففي بعضها[4] أن اسمه عياش، وفي بعضها[5] إسكندر، وفي بعضها[6] مرزيا بن مرزبة اليوناني من ولد يونن بن يافث بن نوح،

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٤١.
(٢) الدر المنثور ٤: ٢٤١، تفسير البرهان ٢: ٤٨٣، نور الثقلين ٣: ٢٩٤ ح ٢٠١.
(٣) الدر المنثور ٤: ٢٤١، تفسير العيّاشي ٢: ٣٤٠ ح ٧٥.
(٤) تفسير العيّاشي ٢: ٣٤١ ح ٧٩، البرهان ٢: ٤٨٦ ح ٢٧.
(٥) الدر المنثور ٤: ٢٤١.
(٦) الدر المنثور ٤: ٢٤٢.

وفي بعضها[١] مصعب بن عبد الله من قحطان، وفي بعضها[٢] صعب بن ذي المراثد أول التبابعة وكأنه التبع أبو كرب، وفي بعضها[٣] عبد الله بن ضحاك بن معد، إلى غير ذلك وهي كثيرة.

ومن ذلك الاختلاف في وجه تسميته بذي القرنين ففي بعضها[٤] أنه دعا قومه إلى الله فضربوه على قرنه الأيمن فغاب عنهم زماناً، ثم جاءهم ودعاهم إلى الله ثانياً فضربوه على قرنه الأيسر فغاب عنهم زماناً، ثم آتاه الله الأسباب فطاف شرق الأرض وغربها فسمي بذلك ذا القرنين، وفي بعضها[٥] أنهم قتلوه بالضربة الأُولى ثم أحياه الله فجاءهم ودعاهم فضربوه وقتلوه ثانياً، ثم أحياه الله ورفعه إلى السماء الدنيا، ثم أنزله إلى الأرض وآتاه من كل شيء سبباً.

وفي بعضها[٦] أنه نبت له بعد الإحياء الثاني قرنان في موضعي الشجتين وسخر الله له النور والظلمة، ثم لما نزل إلى الأرض سار فيها ودعا إلى الله وكان يزأر كالأسد ويبرق ويرعد قرناه وإذا استكبر عن دعوته قوم سلط عليهم الظلمة فأعيتهم حتى اضطروا إلى إجابتها.

وفي بعضها[٧] أنه كان له قرنان في رأسه وكان يتعمم عليهما يواريهما بذلك

---

(١) البداية والنهاية ٢: ١٠٤.
(٢) البداية والنهاية ٢: ١٠٥.
(٣) الخصال: ٢٥٥.
(٤) البرهان ٢: ٤٨٧ ح ٣٣، تفسير القمّي ٢: ٤١.
(٥) تفسير العيّاشي ٢: ٣٤١ح ٧٩، الدر المنثور ٤: ٢٤١.
(٦) تفسير العيّاشي ٢: ٣٤١ح ٧٩.
(٧) الدر المنثور ٤: ٢٤٢.

وهو أول من تعمم وقد كان يخفيهما عن الناس ولم يكن يطلع على ذلك أحد إلا كاتبه وقد نهاه أن يخبر به أحداً فضاق صدر الكاتب بذلك فأتى الصحراء فوضع فمه بالأرض ثم نادى ألا إن للملك قرنين فأنبت الله من كلمته قصبتين فمر بهما راع فأعجبهما فقطعهما واتخذهما مزمارا فكان إذا زمر خرج من القصبتين: ألا إن للملك قرنين فانتشر ذلك في المدينة فأرسل إلى الكاتب واستنطقه وهدده بالقتل إن لم يصدق فقص عليه القصة فقال ذوالقرنين هذا أمر أراد الله أن يبديه فوضع العمامة عن رأسه.

وقيل[1]: سمي ذا القرنين لأنه ملك قرني الأرض وهما المشرق والمغرب؛ وقيل[2]: لأنه رأى في المنام أنه أخذ بقرني الشمس فعبر له بملك الشرق والغرب وسمي بذي القرنين؛ وقيل[3]: لأنّه كان له عقيصتان في رأسه؛ وقيل[4]: لأنه ملك الروم وفارس؛ وقيل[5]: لأنه كان له في رأسه شبه قرنين؛ وقيل[6]: لأنه كان على تاجه قرنان من الذهب إلى غير ذلك مما قيل.

ومن ذلك اختلافها في سيره إلى المغرب والمشرق وفيه أشد الاختلاف، فقد روي أنه سخر له السحاب فكان يركب السحاب ويسير في الأرض غرباً وشرقاً.[7]

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٤٢.
(٢) نور الثقلين ٣: ٢٩٦ح ٢١١.
(٣) الدر المنثور ٤: ٢٤٢.
(٤) الدر المنثور ٤: ٢٤٢.
(٥) الدر المنثور ٤: ٢٤١.
(٦) روح المعاني ١٦: ٢٥.
(٧) الدر المنثور ٤: ٢٤٦، تفسير البرهان ٢: ٤٨٣ح ٢٢٤.

وروي أنه بلغ جبل قاف وهو جبل أخضر محيط بالدنيا منه خضرة السماء.[١]

وروي أنه طلب عين الحياة فأشير عليه أنها في الظلمات فدخلها وفي مقدمته الخضر فلم يرزق ذوالقرنين أن يشرب منها وشرب الخضر واغتسل منها فكان له البقاء المؤبد وفي هذه الروايات أن الظلمات في جانب المشرق.[٢]

ومن ذلك اختلافها في موضع السد الذي بناه، ففي بعضها[٣] أنه في المشرق، وفي بعضها[٤] أنه في الشمال، وقد بلغ من مبالغة بعض الروايات[٥] أن ذكرت أن طول السد وهو مسافة ما بين الجبلين مائة فرسخ وعرضه خمسون فرسخاً وارتفاعه ارتفاع الجبلين وقد حفر له أساساً حتى بلغ الماء وقد جعل حشوه الصخور وطينه النحاس ثم علاه بزبر الحديد والنحاس المذاب وجعل خلاله عرقا من نحاس أصفر فصار كأنه برد محبر.

ومن ذلك اختلافها في وصف يأجوج ومأجوج فروي أنهم من الترك ومن ولد يافث بن نوح كانوا يفسدون في الأرض فضرب السد دونهم.[٦]

وروي أنهم من غير ولد آدم[٧]، وفي عدة من الروايات[٨] أنهم قوم ولود لا

(١) الدر المنثور ٤: ٢٤٦، البرهان ٢: ٤٨٦ح ٢٨.
(٢) الدر المنثور ٤: ٢٤٦، تفسير القمّي ٢: ٤٢، تفسير العيّاشي ٢: ٣٤٠ح ٧٧.
(٣) الدر المنثور ٤: ٢٤٤.
(٤) الدر المنثور ٤: ٢٤٤.
(٥) الدر المنثور ٤: ٢٤٤.
(٦) نور الثقلين ٣: ٣٠٧ح ٢٢٧.
(٧) نور الثقلين ٣: ٣٠٧ح ٢٢٨.
(٨) الدر المنثور ٤: ٢٥٠، تاريخ الطبري ١٦: ١٩.

يموت الواحد منهم من ذكر أو أنثى حتى يولد له ألف من الأولاد وأنهم أكثر عدداً من سائر البشر حتى عدوا في بعض[١] الروايات تسعة أضعاف البشر، وروي[٢] أنهم من الشدة والبأس بحيث لا يمرون ببهيمة أو سبع أو إنسان إلا افترسوه وأكلوه ولا على زرع أو شجر إلا رعوه ولا على ماء نهر إلا شربوه ونشفوه، وروي[٣] أنهم أمتان كل منهما أربع مائة ألف أمة كل أمة لا يحصي عددهم إلا الله سبحانه.

وروي[٤] أنهم طوائف ثلاث فطائفة كالأرز وهو شجر طوال، وطائفة يستوي طولهم وعرضهم: أربعة أذرع في أربعة أذرع وطائفة وهم أشدهم للواحد منهم أذنان يفترش بإحداهما ويلتحف بالأخرى يشتو في إحداهما لابساً له وهي وبرة ظهرها وبطنها ويصيف في الأخرى وهي زغبة ظهرها وبطنها، وهم صلب على أجسادهم من الشعر ما يواريها، وروي[٥] أن الواحد منهم شبر أو شبران أو ثلاثة، وروي[٦] أن الذين كانوا يقاتلونهم كان وجوههم وجوه الكلاب.

ومن ذلك اختلافها في زمان ملكه ففي بعضها[٧] أنه كان بعد نوح، وروي[٨] أنه كان في زمن إبراهيم ومعاصره وقد حج البيت ولقيه وصافحه وهي أول

(١) الدر المنثور ٣: ٢٤٩.
(٢) الدر المنثور ٤: ٢٤٢.
(٣) الدر المنثور ٤: ٢٥٠.
(٤) الدر المنثور ٤: ٢٤٤.
(٥) الدر المنثور ٤: ٢٥٠.
(٦) الدر المنثور ٤: ٢٤٢.
(٧) تفسير العيّاشي ٢: ٣٥١ ح ٨٧.
(٨) الدر المنثور ٤: ٢٤٢.

مصافحة على وجه الأرض، وروي[١] أنه كان في زمن داود.

ومن ذلك اختلافها في مدة ملكه فروي[٢] ثلاثون سنة، وروي[٣] اثنتا عشرة سنة، إلى غير ذلك من جهات الاختلاف التي يعثر عليها من راجع أخبار القصة من جوامع الحديث وخاصة الدر المنثور، والبحار، والبرهان، ونور الثقلين.

وفي كتاب كمال الدين، بإسناده عن الأصبغ بن نباتة قال: قام ابن الكواء إلى علي عليه السلام وهو على المنبر فقال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن ذي القرنين أنبياً كان أم ملكاً؟ وأخبرني عن قرنيه أمن ذهب أم من فضة؟ فقال له: لم يكن نبياً ولا ملكاً، ولم يكن قرناه من ذهب ولا فضة ولكن كان عبداً أحب الله فأحبه الله ونصح الله فنصحه الله، وإنما سمي ذا القرنين لأنه دعا قومه إلى الله عزّ وجل فضربوه على قرنه فغاب عنهم حيناً ثم عاد إليهم فضرب على قرنه الآخر، وفيكم مثله.[٤]

قال المؤلّف رحمه الله: الظاهر أن «الملك» في الرواية بفتح اللام لا بكسرها لاستفاضة الروايات عنه وعن غيره عليه السلام بملك ذي القرنين فنفيه عليه السلام أن يكون ذو القرنين نبياً أو ملكاً بفتح اللام إنكار منه لصحة ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض الروايات أنه كان نبياً وفي بعضها الآخر أنه كان ملكاً من الملائكة وبه كان يقول عمر بن الخطاب كما تقدمت الإشارة إليه.

وقوله: «وفيكم مثله» أي مثل ذي القرنين في شجتيه يشير عليه السلام إلى نفسه فإنه أصيب بضربة من عمرو بن عبد ود وبضربة من عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله

(١) الدر المنثور ٤: ٢٤٤.

(٢) البرهان ٢: ٤٧٩ ح ٢.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٤٧.

(٤) كمال الدين: ٣٩٣.

فاستشهد بها، ولرواية مستفيضة عنه عليه السلام روته عنه الشيعة وأهل السنة بألفاظ مختلفة، وأبسط ألفاظها ما أوردناه، وقد لعبت به يد النقل بالمعنى فأظهرته في صور عجيبة وبلغ بها التحريف غايته.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن مردويه عن سالم بن أبي الجعد قال: سئل علي عن ذي القرنين أنبي هو؟ فقال سمعت نبيكم صلى الله عليه وآله وسلم يقول: هو عبد ناصح الله فنصحه.[1]

وفي احتجاج الطبرسي، عن الصادق عليه السلام في حديث طويل: وفيه قال السائل أخبرني عن الشمس أين تغيب؟ قال: إن بعض العلماء قال: إذا انحدرت أسفل القبة دار بها الفلك إلى بطن السماء صاعدة أبداً إلى أن تنحط إلى موضع مطلعها، يعني أنها تغيب في عين حمئة ثم تخرق الأرض راجعة إلى موضع مطلعها فتحير تحت العرش حتى يؤذن لها بطلوع ويسلب نورها كل يوم وتتجلل نوراً أحمر.[2]

قال المؤلّف رحمه الله: قوله: «إذا انحدرت أسفل القبة ـ إلى قوله: ـ مطلعها» بيان لسير الشمس من حين غروبها إلى إبان طلوعها في مدارها السماوي على ما تفرضه هيئة بطليموس الدائرة في تلك الأعصار المبنية على سكون الكرة الأرضية وحركة الأجرام السماوية حولها، ولذا نسبه عليه السلام إلى بعض العلماء.

وقوله: «يعني أنها تغيب في عين حمئة ثم تخرق الأرض راجعة إلى موضع مطلعها»، من كلام بعض رواة الخبر لا من كلامه عليه السلام فالراوي لقصور منه في الفهم

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٤٠.

(٢) الاحتجاج ٢: ٩٩.

فسر قوله تعالى: ﴿تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ بسقوط القرص في العين وغيبوبته فيها ثم سبحه فيها كالسمكة في الماء وخرقه الأرض حتى يبلغ المطلع ثم ذهابه إلى تحت العرش وهو على زعمه سماء فوق السماوات السبع أوجسم نوراني كأعظم ما يكون موضوع فوق السماء السابعة ومكثه هناك حتى يؤذن له في الطلوع فيكسى نورا أحمر ويطلع.

والراوي يشير بقوله: «فتحير تحت العرش حتى يؤذن لها... إلخ» إلى رواية أخرى مأثورة عن النبي ﷺ أن الملائكة تذهب بالشمس بعد غروبها فتوقفها تحت العرش وهي مسلوبة النور فتمكث هناك وهي لا تدري ما تؤمر به غداً حتى تكسى نوراً وتؤمر بالطلوع، الرواية.

وقد ارتكب فهمه في تفسير العرش هناك نظير ما ارتكبه في تفسير الغروب هاهنا فزاد عن الحق بعداً على بعد.

ولم يرد تفسير «العرش» في كتاب ولا سنة قابلة للاعتماد بالفلك التاسع أو بجسم نوراني علوي كهيئة السرير التي اختلقها فهمه وقد قدمنا معظم روايات العرش في أوائل الجزء الثامن من هذا الكتاب.

وفي التسمية أعني قوله: «قال بعض العلماء بعض الإشارة إلى أن هذا القول لم يكن مرضيا عنده ﷺ ومع ذلك لم يسعه أن يسمح بحق القول في المسألة كيف؟ وإذا ساقتهم سذاجة الفهم في فرضية سهلة التصور عند أهله في تلك الأعصار هذا المساق فما ظنك بهم لو ألقي إليهم ما لا يصدقه ظاهر حسهم ولا يسعه ظرف فكرهم.

وفي الدر المنثور، أخرج عبد الرزاق وسعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق عثمان بن أبي حاضر: أن ابن عباس ذكر له أن

معاوية بن أبي سفيان قرأ الآية التي في سورة الكهف «تغرب في عين حامية».

قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: ما نقرؤها إلا حمئة فسأل معاوية عبد الله بن عمر وكيف تقرؤه؟ فقال عبد الله: كما قرأتها.

قال ابن عباس: فقلت لمعاوية: في بيتي نزل القرآن، فأرسل إلى كعب فقال له: أين تجد الشمس تغرب في التوراة؟ فقال له كعب: سل أهل العربية فإنهم أعلم بها، وأما أنا فإني أجد الشمس تغرب في التوراة في ماء وطين، وأشار بيده إلى المغرب.

قال ابن أبي حاضر: لو أني عندكما أيدتك بكلام تزداد به بصيرة في حمئة.

قال ابن عباس: وما هو؟ قلت: فيما نأثر قول تبع فيما ذكر به ذا القرنين في كلفه بالعلم واتباعه إياه:

قد كان ذوالقرنين عمر مسلماً ملكاً تدين له الملوك وتحشد

فأتى المشارق والمغارب يبتغي أسباب ملك من حكيم مرشد

فرأى مغيب الشمس عند غروبها في عين ذي خلب وثأط حرمد

فقال ابن عباس: ما الخلب؟ قلت: الطين بكلامهم. قال: فما الثأط؟ قلت: الحمأة. قال: فما الحرمد؟ قلت: الأسود، فدعا ابن عباس غلاماً فقال له: اكتب ما يقول هذا الرجل.(١)

قال المؤلّف ﷺ: والحديث لا يلائم ما ذهبوا إليه من تواتر القراءات تلك الملاءمة وعن التيجان لابن هشام الحديث وفيه أن ابن عباس أنشد هذه الأشعار

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٤٨.

لمعاوية وأن معاوية سأله عن معنى الخلب والثأط والحرمد قال: الخلب الحمأة والثأط ما تحتها من الطين والحرمد ما تحته من الحصى والحجر، وقد أورد القصيدة، وهذا الاختلاف يؤذن بشيء في الرواية.

في تفسير العياشي، عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام: في قول الله عز وجل: ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْراً﴾، قال: لم يعلموا صنعة البيوت.(١)

وفي تفسير القمي: في الآية قال: لم يعلموا صنعة الثياب.(٢)

وفي الدر المنثور، أخرج ابن المنذر عن ابن عباس: في قوله: ﴿حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾، قال: الجبلين أرمينية وآذربيجان.(٣)

وفي تفسير العياشي، عن المفضل قال: سألت الصادق عليه السلام عن قوله: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾، قال: التقية، ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْباً﴾، إذا عملت بالتقية لم يقدروا لك على حيلة، وهو الحصن الحصين، وصار بينك وبين أعداء الله سداً لا يستطيعون له نقباً.(٤)

وفيه، أيضاً عن جابر عنه عليه السلام في الآية قال: التقية.(٥)

قال المؤلّف رحمه الله: الروايتان من الجري وليستا بتفسير.

وفي تفسير العياشي، عن الأصبغ بن نباتة عن علي عليه السلام: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ

---

(١) تفسير العيّاشي ٢: ٣٥٠ح ٨٤.
(٢) تفسير القمّي ٢: ٤١.
(٣) الدر المنثور ٤: ٢٤٩.
(٤) تفسير العيّاشي ٢: ٣٥١.
(٥) تفسير العيّاشي ٢: ٣٥١.

يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾، يعني يوم القيامة.[١]

قال المؤلّف ﷺ: ظاهر الآية بحسب السياق أنه من أشراط الساعة، ولعله المراد بيوم القيامة فربما تطلق على ظهور مقدماتها.

وفيه، عن محمد بن حكيم قال: كتبت رقعة إلى أبي عبد الله عليه السلام فيها: أتستطيع النفس المعرفة؟ قال: فقال لا فقلت: يقول الله: ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاء عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾ قال: هو كقوله: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُواْ يُبْصِرُونَ﴾، قلت: فعابهم؟ قال: لم يعبهم بما صنع هو بهم ولكن عابهم بما صنعوا، ولو لم يتكلفوا لم يكن عليهم شيء.[٢]

قال المؤلّف ﷺ: يعني أنهم تسببوا لهذا الحجاب فرجع إليهم تبعته.

وفي تفسير القمي: في الآية قال: كانوا لا ينظرون إلى ما خلق الله من الآيات والسماوات والأرض.[٣]

قال المؤلّف ﷺ: وفي العيون[٤]، عن الرضا عليه السلام: تطبيق الآية على منكري الولاية وهو من الجري.[٥]

---

(١) تفسير العيّاشي ٢: ٣٥١.

(٢) تفسير العيّاشي ٢: ٣٥١.

(٣) تفسير القمّي ٢: ٤٦.

(٤) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٣٦ ح ٣٣.

(٥) الميزان ١٣: ٥١٠ ـ ٥٢١.



قصّة

يوسف عليه السلام



الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لأَبِيهِ يَا أَبتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذاً لَّخَاسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُواْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـذَا وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاؤُواْ أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا

يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لِّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلاَمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لاِمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ

هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانَ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لاَ يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِـي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا

تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَآؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللّهُ بِهَا
مِن سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ
وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا
فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ
الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي
عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾
وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ
سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ
لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُواْ أَضْغَاثُ أَحْلاَمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الأَحْلاَمِ
بِعَالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَاْ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ
فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ
سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلاَتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى
النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ
فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ
شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ
ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ
فَلَمَّا جَاءهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي
قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ
يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ

الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّىءُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّيَ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مِكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلاَ تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَاْ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلاَ كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلاَ تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُواْ بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُواْ إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلاَّ كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَاعَهُمْ وَجَدُواْ بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى

تُؤْتُونِ مَوْثِقاً مِّنَ اللّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ وَأَقْبَلُواْ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاء أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاء أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّن نَّشَاء وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَاللّهُ أَعْلَمْ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ

إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلاَّ مَن وَجَدْنَا
مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّـآ إِذاً لَّظَالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْأَسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً قَالَ
كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُواْ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقاً مِّنَ اللّهِ وَمِن قَبْلُ
مَا فَرَّطتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ
اللّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ارْجِعُواْ إِلَى أَبِيكُمْ فَقُولُواْ يَا أَبَانَا إِنَّ
ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾
وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٢﴾
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللّهُ أَن يَأْتِيَنِي
بِهِمْ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى
عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَالله تَفْتَأُ
تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا
أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَا بَنِيَّ
اذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلاَ تَيْأَسُواْ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِنَّهُ لاَ
يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيْهِ قَالُواْ يَا
أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ
وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ اللّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا
فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُواْ أَإِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ
قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيِصْبِرْ فَإِنَّ
اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللّهُ عَلَيْنَا وَإِن

كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَاللّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاَلِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّا أَن جَاء الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيَ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَىَ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَـذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بَي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاء بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاء إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنُيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾

قصّة يوسف ﷺ في القرآن

هو يوسف النبي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، كان أحد أبناء يعقوب الاثني عشر وأصغر إخوته غير أخيه بنيامين، أراد الله سبحانه أن يتمّ عليه نعمته بالعلم والحكم والعزة والملك ويرفع به قدر آل يعقوب فبشره وهو صغير برؤيا رآها كان أحد عشر كوكبا والشمس والقمر ساجدة له فذكر ذلك لأبيه فوصاه أبوه أن لا يقصّ رؤياه على إخوته فيحسدوه، ثم أوّل رؤياه أن الله سيجتبيه ويعلمه من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليه وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويه من قبل إبراهيم وإسحاق.

كانت هذه الرؤيا نصب عين يوسف آخذة بمجامع قلبه، ولا يزال تنزع نفسه إلى حب ربه والتوله إليه على ما به من علو النفس وصفاء الروح والخصائص الحميدة، وكان ذا جمال بديع يبهر القول ويدهش الألباب.

وكان يعقوب يحبه حبا شديدا لما يشاهد فيه من الجمال البديع ويتفرس فيه من صفاء السريرة ولا يفارقه ولا ساعة فثقل ذلك على إخوته الكبار واشتد حسدهم له حتى اجتمعوا وتآمروا في أمره فمن مشير على قتله، ومن قائل: اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين، ثم اجتمع رأيهم على ما أشار به عليهم بعضهم وهو أن يلقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة وعقدوا على ذلك.

فلقوا أباهم وكلموه أن يرسل يوسف معهم غداً يرتع ويلعب وهم له حافظون، فلم يرض به يعقوب واعتذر أنه يخاف أن يأكله الذئب، فلم يزالوا به يراودونه حتى أرضوه وأخذوه منه وذهبوا به معهم إلى مراتع أغنامهم بالبر، فألقوه في جبّ هناك وقد نزعوا قميصه.

ثم جاءوا بقميصه ملطخاً بدم كذب إلى أبيهم وهو يبكون فأخبروه أنهم ذهبوا اليوم للاستباق وتركوا يوسف عند متاعهم فأكله الذئب وهذا قميصه الملطخ بدمه.

فبكى يعقوب وقال: بل سولت لكم أنفسكم أمراً، فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون، ولم يقل ذلك إلّا بتفرس إلهي ألقي في روعه، ولم يزل يعقوب يذكر يوسف ويبكي عليه ولا يتسلى عنه بشيء حتى ابيضت عيناه من الحزن وهو كظيم.

ومضى بنوه يراقبون الجب حتى جاءت سيارة فأرسلوا واردهم للاستقاء فأدلى دلوه فتعلّق يوسف بالدلو فخرج فاستبشروا به فدنا منهم بنو يعقوب وادعوا أنه عبد لهم ثم ساوموهم حتى شروه بثمن بخس دراهم معدودة.

وسارت به السيارة إلى مصر وعرضوه للبيع فاشتراه عزيز مصر وأدخله بيته وقال لامرأته: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً، وذلك لما كان يشاهد في وجهه من آثار الجلال وصفاء الروح على ما له من الجمال البديع فاستقر يوسف في بيت العزيز في كرامة وأهنأ عيش، وهذا أوّل ما ظهر من لطيف عناية الله بيوسف وعزيز ولايته له حيث توسل إخوته بإلقائه في الجب وبيعه من السيارة إلى إماتة ذكره وتحريمه كرامة الحياة في بيت أبيه أما إماتة الذكر فلم ينسه أبوه قط، وأما مزية الحياة فإن الله سبحانه بدل له بيت الشعر وعيشة البدوية

قصرا ملكيا وحياة حضرية راقية فرفع الله قدره بعين ما أرادوا أن يحطوه ويضعوه، وعلى ذلك جرى صنع الله به ما سار في مسير الحوادث.

وعاش يوسف في بيت العزيز في أهنأ عيش حتى كبر وبلغ أشده ولم يزل تزكو نفسه ويصفو قلبه يشتغل بربه حتى توله في حبه وأخلص له فصار لا همّ له إلّا فيه فاجتباه الله وأخلصه لنفسه وآتاه حكماً وعلماً وكذلك يفعل بالمحسنين.[١]

﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾.

الآية الكريمة على ما فيها من الإيجاز تنبيء عن إجمال قصة المراودة غير أن التدبر في القيود المأخوذة فيها والسياق الذي هي واقعة فيه وسائر ما يلوح من أطراف قصته الموردة في السورة يجلي عن حقيقة الحال ويكشف القناع عن تفصيل ما خبيء من الأمر.

يوسف: هو ذا طفل صغير حولته أيدي المقادير إلى بيت العزيز عليه سيماء العبيد ولعله لم يسأل إلا عن اسمه، ولم يتكلم إلا أن قال: اسمي يوسف أو قيل عنه ذلك ولم يلح من لهجته إلا أنه كان قد نشأ بين العبريين ،لم يسأل عن بيته ونسبه فليس للعبيد بيوت ولم يكن من المعهود أن يحفظ للأرقاء أنساب وهو ساكت مختوم على لسانه لا يتكلم بشيء وكم من حديث بين جوانحه فلم يعرف نسبه إلا بعد سنين من ذلك حينما قال لصاحبيه في السجن: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِيَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾، ولا كشف عما في سره من توحيد العبودية لله بين أُولئك

---

(١) الميزان ١١: ٣٤٩ـ ٣٥١.

الوثنيين إلا ما ذكره لامرأة العزيز حين راودته عن نفسه بقوله: ﴿مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي ...﴾.

هو اليوم حليف الصمت والسكوت لكن قلبه مليء بما يشاهده من لطيف صنع الله به فهو على ذكر مما بثه إليه أبوه يعقوب النبي من حقيقة التوحيد ومعنى العبودية ثم ما بشر به من الرؤيا أن الله سيخلصه لنفسه ويلحقه بآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وليس ينسى ما فعله به إخوته ثم ما وعده به ربه في غيابة الجب حين ما انقطع عن كافة الأسباب: أنه تحت الولاية الإلهية والتربية الربوبية معني بأمره وسينبأ إخوته بأمرهم هذا وهم لا يشعرون.

فكان ﷺ مملوء الحس مستغرق النفس في مشاهدة ألطاف ربه الخفية يرى نفسه تحت ولاية الله محبوراً بصنائعه الجميلة لا يرد إلا على خير ولا يواجه إلا جميلاً.

وهذا هو الذي هون عليه ما نزل به من النوائب، وتواتر عليه من المحن والبلايا فصبر عليها على ما بها من المرارة فلم يشك ولم يجزع ولم يضل الطريق وقد ذكر ذلك لإخوته حين عرفهم نفسه بقوله: ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1].

فلم يزل يوسف ﷺ تنجذب نفسه إلى جميل صنائع ربه ويمعن قلبه في لطيف الإشارات إليه، ويزداد كل يوم حبا بما يجده من شواهد الولاية ويشاهد أن ربه هو القائم على كل نفس بما كسبت وهو على كل شيء شهيد حتى تمكنت المحبة الإلهية منه واستقر الوله والهيمان في سره فكان همه في ربه لا يشغله عنه

---

(١) يوسف: ٩٠.

شاغل ولا يصرفه عنه صارف ولا طرفة عين، وهذا بمكان من الوضوح لمن تدبر فيما تحكي عنه السورة من المحاورات كقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي﴾، وقوله: ﴿مَا كَانَ لَنَا أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾، وقوله: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾، وقوله: ﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾، وغير ذلك كما سنبين إن شاء الله تعالى.

فهذا ما عند يوسف عليه السلام فقد كان شبحا ما وراءه إلا محبة إلهية أنسته نفسه وشغلته عن كل شيء، وصورة معناها أنها خالصة أخلصها الله لنفسه فلم يشاركه فيه أحد.

ولم يظهر للعزيز منه أول يوم إذ حل في بيته إلا أنه غلام صغير عبري مملوك له غير أن قوله لامرأته: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ يكشف أنه شاهد منه وقاراً وتمكيناً وتفرس فيه عظمة وكبرياء نفسانية أطمعته في أن ينتفع به أو يلحقه بنفسه بالتبني على ما في يوسف من عجيب الجمال والحسن.

امرأة العزيز: امرأة العزيز وهي عزيزة مصر، وصاها العزيز يوسف أن تكرم مثواه وأعلمها أن له فيه إربة أمنية فلم تزل تجتهد في إكرام يوسف وتحسن مثواه وتهتم بأمره لا كما يهتم في أمر رفيق مملوك بل كما يعنى بأمر جوهر كريم أو قطعة كبد وتحبه لبديع جماله وغزير كماله وتزداد كلما مضت الأيام حباً إلى حب حتى إذا بلغ الحلم واستوى على مستوى الرجال لم تملك نفسها دون أن تعشقه وتذل على ما لها من مناعة الملك العزة وعصمة العفة والخدارة تجاه هواه القاطن بسرها الآخذ بمجامع قلبها.

وقد كان يوسف يلازمها في العشرة ولا يفارق بينها من جانب وكانت عزيزة لا يثني أمرها ولا ترد عزيمتها وكانت فيما تزعم سيدة يوسف وهو عبدها المملوك لا يسعه إلا أن يطيعها وينقاد لها، ولبيوت الملوك والأعزة أن تحتال

لشتى مقاصدها ومآربها بأنواع الحيل والمكايد فإن عامة الأسباب وإن عزت وامتنعت ميسرة لها، وكانت العزيزة ذات جمال وزينة فإن حريم الملوك لا تدخلها كل شوهاء دميمة ولا تحل بها إلا غوان ذوات حسن فتانات.

والعادة تحكم أن هذه الأسباب ـ وقد اجتمعت على عزيزة مصر ـ أسعرت في سرها كل لهيب،أججت كل نار حتى استغرقت في حب يوسف وتولهت في غرامه واشتغلت به عن كل شيء، وقد أحاط بقلبها من كل جانب، هو أول منطقها إذا تكلمت وفي ضميرها إذا سكتت فلا هم لها إلا يوسف ولا بغية لها إلا فيه ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً﴾ وليوسف الجمال الذي يأخذ بمجامع القلوب فكيف إذا امتلأت به عين محب واله وأدام النظر إليه مهيم ذو غرام.

يوسف وامرأة العزيز: لم تزل عزيزة مصر تعد نفسها وتمنيها بوصال يوسف والظفر بما تبتغيه منه وتلاطفه في عشرته وتشفع ذلك بما لربات الحسن والزينة من الغنج والدلال لتصطاده بما عندها كما اصطاده بما عنده،لعل الذي كانت تشاهده من صبر يوسف وسكوته كان يغرها فيما ترومه ويغريها عليه.

حتى إذا تاقت نفسها له وبلغت بها وأعيتها المذاهب خلت به في بيتها وقد غلّقت الأبواب فلم يبق فيه إلا هي ويوسف.

وهي لا تشك أن سيطيعها يوسف في أمرها ولا يمتنع عليها لما كانت ولا تزال تراه بالسمع والطاعة،تشاهد أن الأوضاع والأحوال الحاضرة تقضي بفوزها ونيلها ما تريده منه.

فتى واله في حبه وفتاة تائقة في غرامها اجتمعا في بيت خالية أما هي فمشغوفة بحب يوسف تريد أن تصرفه عن نفسه إلى نفسها وتتوسل إلى ذلك بتغليق الأبواب ومراودته عن نفسه والاعتماد على ما لها من العزة والملك حيث

تدعوه إلى نفسها بلفظ الأمر ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ لتقهره على ما تريده منه.

وأما هو فقد استغرق في حب ربه وأخلص وصفى ذلك نفسه فلم يترك لشيء في قلبه محلا غير حبيبه فهو في خلوة مع ربه وحضرة منه يشاهد فيه جماله وجلاله وقد طارت الأسباب الكونية على ما لها من ظاهر التأثير من نظره فهو على خلافها لا يتبجح بالأسباب ولا يركن إلى الأعضاد.

ترى أنها تتوسل عليه بالأسباب بتغليق الأبواب والمراودة والأمر بقولها: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ وأما هو فقد قابلها بقوله: ﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾ فلم يجبها بتهديد ولم يقل: إني أخاف العزيز أو لا أخونه أو إني من بيت النبوة والطهارة أو إن عفتي أو عصمتي تمنعني من الفحشاء، ولم يقل إني أرجو ثواب الله أو أخاف عذابه إلى غير ذلك، ولو كان قلبه متعلقا بشيء من الأسباب الظاهرة لذكره وبدأ به عند مفاجأة الشدة ونزول الاضطرار على ما هو مقتضى طبع الإنسان.

بل استمسك بعروة التوحيد وأجاب بالعياذ بالله فحسب ولم يكن في قلبه أحد سوى ربه ولا تعدى بصره إياه إلى غيره فهذا هو التوحيد الخالص الذي هدته إليه المحبة الإلهية وأولهه في ربه فأنساه الأسباب كلها حتى أنساه نفسه فلم يقل إني أعوذ منك بالله أو ما يؤدي معناه، وإنما قال: ﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾، وكم من الفرق بين قوله هذا وبين قول مريم للروح لما تمثل لها بشراً سوياً: ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَن مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً﴾[1].

وأما قوله لها ثانياً: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، فإنه يوضح كلمة التوحيد الذي أفاده بقوله: ﴿مَعَاذَ اللّهِ﴾ ويجليه، يقول: إن الذي

---

(١) مريم: ١٨.

أشاهده أن إكرامك مثواي عن قول العزيز لك ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ فعل من ربي وإحسان منه إلي فربي أحسن مثواي وإن انتسب إليك ذلك بوجه فهو الذي يجب علي أن أعوذ به وألوذ إليه، وإنما أعوذ به لأن إجابتك فيما تسألين وارتكاب هذه المعصية ظلم ولا يفلح الظالمون فلا سبيل إلى ارتكابه.

فقد أفاد عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، أولاً: أنه موحد لا يرى شرك الوثنية فليس ممن يتخذ أربابا من دون الله كما تقول به الوثنية يتخذون مع الله أرباباً أخرى ينسبون إليهم تدبير العالم بل هو يقول بأن الله هو ربه لا رب سواه.

وثانياً: أنه ليس ممن يوحد الله سبحانه قولاً ويشرك به فعلاً بإعطاء الاستقلال لهذه الأسباب الظاهرة تؤثر ما تؤثر بإذن الله بل هو يرى ما ينسب من جميل الآثار إلى الأسباب فعلا جميلا لله سبحانه في عين هذا الانتساب فيما تراه امرأة العزيز أنها هي التي أكرمت مثواه عن وصية العزيز وأنها وبعلها ربان له يتوليان أمره يرى هو أن الله سبحانه هو الذي أحسن مثواه وأنه ربه الذي يتولى تدبير أمره فعليه أن يعوذ به.

وثالثاً: أنه إنما تعوذ بالله مما تدعوه إليه لأنه ظلم لا يفلح المتلبس به ولا يهتدي إلى سعادته ولا يتمكن في حضرة الأمن عند ربه كما قال تعالى حكاية عن جده إبراهيم عليه السلام: ﴿الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾[1].

ورابعاً: أنه مربوب ـ أي مملوك مدبر ـ لله سبحانه ليس له من الأمر شيء، ولا يملك لنفسه نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله له أو أحب أن يأتي به ولذلك لم يرد ما

---

(١) الأنعام: ٨٢.

سألته منه بصريح اللفظ بل بالكناية عنه بقوله: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾، فلم يقل: لا أفعل ما تأمرينني به ولم يقل: لا أرتكب كذا، ولم يقل: أعوذ بالله منك، وما يشابه ذلك حذراً من دعوى الحول والقوة، وإشفاقا من وسمة الشرك والجهالة اللهم إلا ما في قوله: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾، حيث أشار فيه إلى نفسه مرتين وليس فيه إلا تثبيت المربوبية وتأكيد الذلة والحاجة، ولهذه العلة بعينها بدل الإكرام إحسانا فأتى حذاء قول العزيز: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ بقوله: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ لما في الإكرام من الإشعار باحترام الشخصية وتعظيمها.

وبالجملة الواقعة وإن كانت مراجعة ومغالبة بين امرأة العزيز ويوسف عليه السلام بحسب ظاهر الحال فهي كانت تنازعا بين حب وهيمان إلهي وعشق وغرام حيواني يتشاجران في يوسف كل منهما يجذبه إلى نفسه، وكانت كلمة الله هي العليا فأخذته الجذبة السماوية الإلهية ودافعت عنه المحبة الإلهية والله غالب على أمره.

فقوله تعالى: ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ يدلّ على أصل المراودة، والإتيان بالوصف أعني كونه في بيتها للدلالة على أن الأوضاع والأحوال كانت لها عليه وأن الأمر كان عليه شديداً، وكذا قوله: ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ﴾، حيث عبر بالتغليق وهو يدلّ على المبالغة وعلق الغلق بالأبواب وهو جمع محلى باللام وكذا قوله: ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ حيث عبر بالأمر المولوي الدال على إعمال المولوية والسيادة مع إشعاره بأنها هيأت له من نفسها ما ليس بينه وبين طلبتها إلا مجرد إقبال من يوسف ولا بين يوسف ـ على ما هيأت من العلل الشرائط ونظمتها بزعمها وبين الإقبال عليها شيء حائل غير أن الله كان أقرب إلى يوسف من نفسه ومن العزيزة امرأة العزيز، ولله سبحانه العزة جميعا.

وقوله: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ...﴾، جواب ليوسف يقابل به مسألتها بالعياذ بالله يقول: أعوذ بالله معاذاً مما تدعينني إليه لأنه ربي الذي تولى أمري وأحسن مثواي وجعلني بذلك سعيداً مفلحاً ولو اقترفت هذا الظلم لتغربت به عن الفلاح وخرجت به من تحت ولايته.

وقد راعى عليه السلام في كلامه هذا أدب العبودية كله كما تقدّم وقد أتى أولاً بلفظة «الجلالة» ثم بصفة الربوبية ليدلّ به على أنه لا يعبد رباً غير الله ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

على أنه عليه السلام لم يكن ليعد العزيز رباً لنفسه، وهو حر غير مملوك له وإن كان الناس يزعمون ذلك بناء على الظاهر، وقد قال لأحد صاحبيه في السجن: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[1]، وقال لرسول الملك: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾[2]، ولم يعبر عن الملك بلفظ «ربي» على عادتهم في ذكر الملوك، وقال أيضاً لرسول الملك: ﴿فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾، حيث يأخذ الله سبحانه رباً لنفسه قبال ما يأخذ الملك رباً للرسول.

ويؤيد ما ذكرنا أيضاً قوله في الآية التالية: ﴿لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

التدبر البالغ في أطراف القصة وإمعان النظر فيما محتف به الجهات والأسباب والشرائط العاملة فيها يعطي أن نجاة يوسف منها لم تكن إلا أمرا خارقا

(١) يوسف: ٤٢.

(٢) يوسف: ٥٠.

للعادة وواقعة هي أشبه بالرؤيا منها باليقظة.

فقد كان يوسف ﷺ رجلا ومن غريزة الرجال الميل إلى النساء، وكان شاباً بالغاً أشده وذلك أوان غليان الشهوة وثوران الشبق، وكان ذا جمال بديع يدهش العقول ويسلب الألباب والجمال والملاحة يدعو إلى الهوى والترح، وكان مستغرقاً في النعمة وهنيء العيش محبوراً بمثوى كريم وذلك من أقوى أسباب التهوس والإتراف، وكانت الملكة فتاة فائقة الجمال وكذلك تكون حرم الملوك والعظماء.

وكانت لا محالة متزينة بما يأخذ بمجامع كل قلب، وهي عزيزة مصر وهي عاشقة والهة تتوق إليها النفوس وتتوق نفسها إليه، وكانت لها سوابق الإكرام والإحسان والإنعام ليوسف وذلك كله مما يقطع اللسان ويصمت الإنسان، وقد تعرضت له ودعته إلى نفسها والصبر مع التعرض أصعب، وقد راودته هذه الفتانةأتت فيها بما في مقدرتها من الغنج والدلال، وقد ألحت عليه فجذبته إلى نفسها حتى قدت قميصه والصبر معها أصعب وأشق، وكانت عزيزة لا يرد أمرها ولا يثنى رأيها، وهي ربته خصه بها العزيز، وكانا في قصر زاه من قصور الملوك ذي المناظر الرائقة التي تبهر العيون وتدعو إلى كل عيش هنيء.

وكانا في خلوة وقد غلقت الأبواب وأرخت الستور، وكان لا يأمن الشر مع الامتناع، وكان في أمن من ظهور الأمر وانهتاك الستر لأنها كانت عزيزة بيدها أسباب الستر والتعمية، ولم تكن هذه المخالطة فائتة لمرة بل كان مفتاحا لعيش هنيء طويل، وكان يمكن ليوسف أن يجعل هذه المخالطة والمعاشقة وسيلة يتوسل بها إلى كثير من آمال الحياة وأمانيها كالملك والعزة والمال.

فهذه أسباب وأمور هائلة لو توجهت إلى جبل لهدته أو أقبلت على صخرة

صماء لأذابتها ولم يكن هناك مما يتوهم مانعاً إلا الخوف من ظهور الأمر أو مناعة نسب يوسف أو قبح الخيانة للعزيز.

أما الخوف من ظهور الأمر فقد مرّ أنه كان في أمن منه.

ولو كان بدأ من ذلك شيء لكان في وسع العزيزة أن تؤوله تأويلا كما فعلت فيما ظهر من أمر مراودتها فكادت حتى أرضت نفس العزيز إرضاء فلم يؤاخذها بشيء وقلبت العقوبة ليوسف حتى سجن.

وأما مناعة النسب فلو كانت مانعة لمنعت إخوة يوسف عما هو أعظم من الزنا وأشد إثماً فإنهم كانوا أبناء إبراهيم وإسحاق ويعقوب أمثال يوسف فلم تمنعهم.

شرافة النسب من أن يهموا بقتله ويلقوه في غيابت الجب ويبيعوه من السيارة بيع العبيد ويثكلوا فيه أباهم يعقوب النبي عليه السلام فبكى حتى ابيضت عيناه.

وأما قبح الخيانة وحرمتها فهو من القوانين الاجتماعية، والقوانين الاجتماعية إنما تؤثر أثرها بما تستتبعه من التبعة على تقدير المخالفة، وذلك إنما يتم فيما إذا كان الإنسان تحت سلطة القوة المجرية والحكومة العادلة، وأما لو أغفلت القوة المجرية أو فسقت فأهملت أو خفي الجرم عن نظرها أو خرج من سلطانها فلا تأثير حينئذ لشيء من هذه القوانين كما سنتكلم فيه عن قريب.

فلم يكن عند يوسف عليه السلام ما يدفع به عن نفسه ويظهر به على هذه الأسباب القوية التي كانت لها عليه إلا أصل التوحيد وهو الإيمان بالله.

وإن شئت فقل المحبة الإلهية التي ملأت وجوده وشغلت قلبه فلم تترك لغيرها محلاً ولا موضع إصبع فهذا هو ما يفيده التدبر في القصة.

ولنرجع إلى متن الآية.

فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾، لا ريب أن الآية تشير إلى وجه نجاة يوسف من هذه الغائلة، والسياق يعطي أن المراد بصرف السوء والفحشاء عنه إنجاؤه مما أريد منه وسئل بالمراودة والخلوة، وأن المشار إليه بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ هو ما يشتمل عليه قوله: ﴿أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾.

فيئول معنى قوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ...﴾ إلى أنه عليه السلام لما كان من عبادنا المخلصين صرفنا عنه السوء والفحشاء بما رأى من برهان ربه فرؤية برهان ربه هي السبب الذي صرف الله سبحانه به السوء والفحشاء عن يوسف عليه السلام.

ولازم ذلك أن يكون الجزاء المقدر لقوله: ﴿لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ هو ارتكاب السوء والفحشاء، ولازم ذلك أن يكون ﴿لَوْلا أَن رَّأَى...﴾ قيداً لقوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ وذلك يقتضي أن يكون المراد بهمه بها نظير همها به هو القصد إلى المعصية ويكون حينئذ همه بها داخلا تحت الشرط، والمعنى أنه لولا أن رأى برهان ربه لهم بها أوشك أن يرتكب فإن ﴿لَوْلا﴾ وإن كانت ملحقة بأدوات الشرط وقد منع النحاة تقدم جزائها عليها قياسا على إن الشرطية إلا أن قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ ليس جزاء لها بل هو مقسم به بالعطف على قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ وهو في معنى الجزاء استغنى به عن ذكر الجزاء فهو كقولنا: والله لأضربنه إن يضربني والمعنى: والله إن يضربني أضربه.

ومعنى الآية: والله لقد همت به والله لولا أن رأى برهان ربه لهم بها وأوشك أن يقع في المعصية، وإنما قلنا: أوشك أن يقع، ولم نقل: وقع لأن الهم ـ كما قيل ـ

لا يستعمل إلا فيما كان مقرونا بالمانع كقوله تعالى: ﴿وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ﴾[١]، وقوله: ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلاَ﴾[٢]، وقول صخر:

أهم بأمر الحزم لا أستطيعه وقد حيل بين العير والنزوان

فلولا ما رآه من البرهان لكان الواقع هو الهم والاقتراب دون الارتكاب والاقتراف، وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء﴾ ولم يقل: لنصرفه من السوء والفحشاء فتدبر فيه.

ومن هنا يظهر أن الأنسب أن يكون المراد بالسوء هو الهم بها والميل إليها كما أن المراد بالفحشاء اقتراف الفاحشة وهي الزنا فهو ﷺ لم يفعل ولم يكد، ولولا ما أراه الله من البرهان لهم وكاد أن يفعل، وهذا المعنى هو الذي يؤيده ما قدمناه من الاعتبار والتأمل في الأسباب والعوامل المجتمعة في هذا الحين القاضية لها عليه.

والذي رآه يوسف ﷺ من برهان ربه وإن لم يوضحه كلامه تعالى كل الإيضاح لكنه ـ على أي حال ـ كان سببا من أسباب اليقين لا يجامع الجهل والضلال بتاتا، ويدل على أنه كان من قبيل العلم قول يوسف ﷺ فيما يناجي ربه كما سيأتي: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾[٣]، يدل على أنه ليس من العلم المتعارف بحسن الأفعال وقبحها ومصلحتها ومفسدتها إن هذا النوع من العلم قد يجامع الضلال والمعصية وهو ظاهر قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ

---

(١) التوبة: ٧٤.

(٢) آل عمران: ١٢٢.

(٣) يوسف: ٣٣.

مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ﴾[١]، وقال: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾[٢].

فالبرهان الذي أراه به وهو الذي يريه الله عباده المخلصين نوع من العلم المكشوف واليقين المشهود تطيعه النفس الإنسانية طاعة لا تميل معها إلى معصية أصلاً.

ومن لطيف الإشارة في الآية ما في قوله: ﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ حيث أخذ السوء والفحشاء مصروفين عنه لا هو مصروفاً عنهما، لما في الثاني من الدلالة على أنه كان فيه ما يقتضي اقترافهما المحوج إلى صرفه عن ذلك، وهو ينافي شهادته تعالى بأنه من عباده المخلصين وهم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا يشاركه فيهم شيء فلا يطيعون غيره من تسويل شيطان أو تزيين نفس أو أي داع يدعو من دون الله سبحانه.

وقوله: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ في مقام التعليل لقوله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ...﴾، والمعنى: عاملنا يوسف كذلك لأنه من عبادنا المخلصين، وهم يعاملون هذه المعاملة.

ويظهر من الآية أن من شأن المخلصين من عباد الله أن يروا برهان ربهم، وإن الله سبحانه يصرف كل سوء وفحشاء عنهم فلا يقترفون معصية ولا يهمون بها بما يريهم الله من برهانه، وهذه هي العصمة الإلهية.

ويظهر أيضاً أن هذا البرهان سبب علمي يقيني لكن لا من العلوم المتعارفة

---

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) النمل: ١٤.

المعهودة لنا.[1]

قوله تعالى: ﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ﴾.

سياق الآيات يعطي أن استباقها كان لغرضين مختلفين فكان يوسف عليه السلام يريد أن يفتحه ويتخلص منها بالخروج من البيت، وامرأة العزيز كانت تريد أن تسبقه إليه فتمنعه من الفتح والخروج لعلها تفوز بما تريده منه،إن يوسف سبقها إلى الباب فاجتذبته من قميصه من الوراء فقدته ولم ينقد إلا لأنه كان في حال الهرب مبتعداً منها وإلا لم ينشق طولاً.

وقوله: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

حيث بدأت امرأة العزيز تشكو يوسف إليه وتسأله أن يجازيه فذكرت أنه أراد بها سوءاً وعليه أن يسجنه أو يعذبه عذاباً أليماً لكنها لم تصرح بذلك ولا بشيء من أطراف الواقعة، بل كنّت وأتت بحكم عام عقلائي يتضمن مجازاة من قصد ذوات البعل بالفحشاء فقالت: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، فلم يصرح باسم يوسف وهو المريد، ولا باسم نفسها وهي الأهل، ولا باسم السوء وهو الزنا بذات البعل كل ذلك تأدباً في حضرة العزيز وتقديساً لساحته.

ولم يتعين الجزاء، بل رددته بين السجن والعذاب الأليم لأن قلبها الواله إليه المليء بحبه ما كان يساعدها على التعيين فإن في الإبهام نوعاً من الفرج إلا أن في تعبيرها بقولها: ﴿بِأَهْلِكَ﴾ نوعاً من التحريض عليه وتهييجه على مؤاخذته ولم

---

(١) الميزان ١١ : ١٦١ ـ ١٧٥. (خلاصة).

يكن ذلك إلا كيداً منها للعزيز بالتظاهر بالوجد والأسى لئلا يتفطن بواقع الأمر فيؤاخذها أما إذا صرفته عن نفسها المجرمة فإن صرفه عن مؤاخذة يوسف عليه السلام لم يكن صعباً عليها تلك الصعوبة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ...﴾ .

لم يبدأ يوسف عليه السلام بالقول أدباً مع العزيز وصوناً لها أن يرميها بالجرم لكن لما اتهمته بقصدها بالسوء لم ير بداً دون أن يصرح بالحق فقال: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ ، وفي الكلام دلالة على القصر، وهي من قصر القلب أي لم أردها بالسوء، بل هي التي أرادت ذلك فراودتني عن نفسي.

وفي كلامه هذا ـ وهو خالٍ عن أقسام التأكيد كالقسم ونحوه ـ دلالة على سكون نفسه عليه السلام وطمأنينته وأنه لم يحتشم ولم يجزع ولم يتملق حين دعوى براءته مما رمته به إذ كان لم يأت بسوءٍ ولا يخافها ولا ما اتهمته وقد استعاذ بربه حين قال: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ .

قوله تعالى: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ .... وَهُوَ مِن الصَّادِقِينَ﴾ .

وقد أشار هذا الشاهد إلى دليل تنحل به العقدة ويتضح طريق القضية فتكلم فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾ ، فإن من البين أن أحدهما صادق في دعواه والآخر كاذب، وكون القدّ من قبل يدل على منازعتهما ومصارعتهما بالمواجهة فالقضاء لها عليه، وإن كان قميصه قدّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين فإن كون القد من دبر يدل على هربه منها وتعقيبها إياه واجتذابها له إلى نفسها فالقضاء له عليها. وهو ظاهر.

وأما من هذا الشاهد؟ فقد اختلف فيه المفسرون فقال بعضهم[١]: كان رجلاً حكيماً أشار للعزيز بما أشار كما عن الحسن وقتادة وعكرمة؛ وقيل[٢]: كان رجلاً وهو ابن عم المرأة وكان جالساً مع زوجها لدى الباب؛ وقيل[٣]: لم يكن من الإنس ولا الجن بل خلقا من خلق الله كما عن مجاهد، ورد بمنافاته الصريحة لقوله تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِهَا﴾.

ومن طرق أهل البيت عليهم السلام وبعض طرق أهل السنّة أنه كان صبياً في المهد من أهلها، وسيجيء في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى.

والذي ينبغي أن ينظر فيه أن الذي أتى به هذا الشاهد بيان عقلي ودليل فكري يؤدي إلى نتيجة هي القاضية لأحد هذين المتداعيين على الآخر، ومثل هذا لا يسمى شهادة عرفاً فإنها هي البيان المتعمد على الحس أو ما في حكمه، وبالجملة القول الذي لا يعتمد على التفكير والتعقل كما في قوله: ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ﴾[٤]، وقوله: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ﴾[٥]، فإن الحكم بصدق الرسالة وإن كان في نفسه مستنداً إلى التفكر والتعقل لكن المراد بالشهادة تأدية ما عنده من الحق المعلوم قطعاً من غير ملاحظة كونه عن تفكر وتعقل كما في موارد يعبر عنه فيها بالقول ونحوه.

فليس من البعيد أن يكون في التعبير عن قول هذا القائل بمثل ﴿وَشَهِدَ

(١) مجمع البيان ٥: ٢٧٧.
(٢) مجمع البيان ٥: ٢٧٧.
(٣) مجمع البيان ٥: ٢٧٧.
(٤) فصلت: ٢٠.
(٥) المنافقون: ١.

شَاهِدٌ﴾ إشارة إلى كون ذلك كلاماً صدر عنه من غير ترو وفكر فيكون شهادة لعدم اعتماده على تفكر وتعقل لا قولاً يعبر به عرفاً عن البيان الذي يبتني على ترو وتفكر، وبهذا يتأيد ما ورد من الرواية أنه كان صبياً في المهد فقد كان ذلك بنوع من الإعجاز أيد الله سبحانه به قول يوسف عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾.

أي فلمّا رأى العزيز قميص يوسف والحال أنه مقدود مشقوق من خلف، قال: إن الأمر من كيدكن معاشر النساء إن كيدكن عظيم، فمرجع الضمائر معلوم من السياق.

ونسبة الكيد إلى جماعة النساء مع كونه من امرأته للدلالة على أنه إنما صدر منها بما أنها من النساء،كيدهن معهود معروف، ولذا استعظمه وقال ثانياً: ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وذلك أن الرجال أوتوا من الميل والانجذاب إليهن ما ليس يخفى وأوتين من أسباب الاستمالة والجلب ما في وسعهن أن يأخذن بمجامع قلوب الرجال ويسخرن أرواحهم بجلوات فتانة وأطوار سحارة تسلب أحلامهم، وتصرفهم إلى إرادتهن من حيث لا يشعرون وهو الكيد وإرادة الإنسان بالسوء ومفاد الآية أن العزيز لما شاهد أن قميصه مقدود من خلف قضى ليوسف عليه السلام على امرأته.

قوله تعالى: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾.

هذه الآية من مقول قول العزيز أي إنه بعد ما قضى له عليها أمر يوسف أن يعرض عن الأمر وأمر امرأته أن تستغفر لذنبها ومن خطيئتها.

فقوله: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا﴾ يشير إلى ما وقع من الأمر ويعزم على يوسف أن يعرض عنه ويفرضه كأن لم يكن فلا يحدّث به ولا يذيعه، ولم يرد في كلامه تعالى ما يدل على أن يوسف عليه السلام حدث به أحداً وهو الظن به عليه السلام كما نرى أنه لم يظهر حديث المراودة للعزيز حتى اتهمته بسوء القصد فذكر الحق عند ذلك لكن كيف يخفى حديث استمر عهداً ليس بالقصير، وقد استولى عليها الوله وسلب منها الغرام كل حلم وحزم، ولم تكن المراودة مرة أو مرتين والدليل على ذلك ما سيأتي من قول النسوة: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً﴾.

وقوله: ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ يقرر لها الذنب ويأمرها أن تستغفر ربها لذلك الذنب لأنها كانت بذلك من أهل الخطيئة، ولذلك قيل: ﴿مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ ولم يقل من الخاطئات.

وهذا كلّه من كلام العزيز على ما يعطيه السياق لا من كلام الشاهد لأنه قضاء وحكم والقضاء للعزيز لا للشاهد.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾.

قصة نسوة مصر مع يوسف في بيت العزيز تتضمنها الآية السابقة إلى تمام ست آيات.

والذي يعطيه التدبر فيها بما ينضم إليها من قرائن الأحوال وما يستوجبه طبع القصة أنه لما كان من أمر يوسف والعزيزة ما كان، شاع الخبر في المدينة تدريجاً، وصارت النساء وهن سيدات المدينة يتحدثن به في مجامعهن ومحافلهن فيما بينهن ويعيرن بذلك عزيزة مصر ويعبنها أنها تولهت إلى فتاها وافتتنت به وقد أحاط بها حباً فظلت تراوده عن نفسه، وضلت به ضلالاً مبيناً.

وكان ذلك مكراً منهن بها على ما في طبع أكثر النساء من الحسد والعجب فإن المرأة تغلبها العواطف الرقيقة والإحساسات اللطيفة وركوز لطف الخلقة وجمال الطبيعة فيها مشعوفة القلب بالزينة والجمال متعلقة الفؤاد برسوم الدلال، ويورث ذلك فيها وخاصة في الفتيات إعجاباً بالنفس وحسداً للغير.

وبالجملة كان تحديثهن بحديث الحب والمراودة مكرا منهن بالعزيزة ـ وفيه بعض السلوة لنفوسهن والشفاء لغليل صدورهن ـ ولما يرين يوسف، ولا شاهدن منه ما شاهدته العزيزة فولها وهتك سترها إنما كن يتخيلن شيئا ويقايسن قياسا، وأين الرواية من الدراية والبيان من العيان؟

وشاع التحديث به في المسامرات حق بلغ الخبر امرأة العزيز تلك التي لا هم لها إلا أن تفوز في طلب يوسف وبلوغ ما تريد منه ولا تعبأ في حبه بشيء من الملك والعزة إلا لأن تتوصل به إلى حبه لها وميله إليها وإنجاحه لطلبتها فاستيقظت من رقدتها وعلمت بمكرهن بها فأرسلت إليهن للحضور لديها وأنهن سيدات ونساء أشراف المدينة وأركان البلاد ممن له رابطة المعاشرة مع بيت العزيز أو لياقة الحضور فيه.

فتهيّأن للحضور وتبرزن بأحسن الجمال وأوقع الزينة على ما هو الدأب في أمثال هذه الاحتفالات من أمثال هؤلاء السيدات، وكل تتمنى أن ترى يوسف وتشاهد ما عنده من الحسن الذي أوقع على العزيزة ما أوقع وفضحها.

والعزيزة لا همّ لها يومئذ إلا أن تريهن يوسف حتى يعذرنها ويشتغلن عنها بأنفسهن فتتخلص من لسانهن فتأمن مكرهن، وهي لا تعبأ بافتتانهن بيوسف ولا تخاف عليه منهن لأنها ـ على ما تزعم ـ مولاته وصاحبته ومالكة أمره، وهو فتاها المخصوص بها، وهي تعلم أن يوسف ليس بالذي يرغب فيهن أو يصبو إليهن وهو

لا ينقاد لها فيما تريده منه بما عنده من الاستعصام والاعتزاز عن هذه الأهـواء والأميال.

ثم لما حضرن عند العـزيزة وأخـذن مـقاعدهن، ووقـع الأنس وجـرت المحادثة والمفاوضة وأخذن في التفكّه آتت كل واحدة منهن سكيناً وقد هيأت لهن وقدمت إليهن الفاكهة، عند ذلك أمرت يوسف أن يـخرج إليـهن وقـد كـان مستوراً عنهن.

فلما طلع يوسف عليهن ووقعت عليه أعينهن طـارت عـقولهن وطـاحت أحلامهن ولم يدرين دون أن قطعن أيديهن مكان الفاكهة التي فيها لما دخل عليهن من البهت والذهول، وهذه خاصة الوله والفزع فإن نفس الإنسان إذا انجذبت إلى شيء مما تفرط في حبه أو تخافه وتهوله اضطربت وبهتت فـفاجأها المـوت أو سلبت الشعور اللازم في تدبير القوى والأعضاء وتنظيم الأمر، فربما أقدم مسرعا إلى الخطر الذي أدهشه لقاؤه وربما نسي الفرار فبقي كالجماد الذي لا حراك به، وربما يفعل غير ما هو قاصده وفاعله اختباطا، ونظائرها في جانب الحب كثيرة وحكايات المغرمين والمتولهين من العشاق مشهورة.

وكان هذا هو الفرق بين العزيزة وبينهن فإن استغراقها في حب يوسف إنما حصل لها تدريجاً، وأما نساء المدينة فإنهن فوجئن به دفعة فغشيت قلوبهن غاشية الجمال، وغادرهن الحب ففضحهن وأطار عقلهن وأضل رأيهن فنسين الفاكـهة وقطعن أيديهن وتركن كل تجلد واصطبار، وأبدين ما في أنفسهن من وله الحب، وقلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾.

هذا وهنّ في بيت العزيز وهو بيت يجب فيه التحفظ على كل أدب ووقار، وكان يجب أن يتقينها ويحتشمن موقعها وهن شريفات ذوات جمال وذوات بعولة

وذوات خدر وستر وهذه كلها جهات مانعة عن الخلاعة والتهتك، وهن لم ينسين ما كنّ بالأمس يتحدثن به ويلمن ويذممن امرأة العزيز في حبها ليوسف وهما في بيتٍ واحد منذ سنين.

فكان من الواجب على كل منهن أن تتقي صواحبها فلا تتهتك وهن يعلمن ما انجر إليه أمر امرأة العزيز من سوء الذكر وفضاحة الشهرة هذا كله ويوسف واقف أمامهن يسمع قولهن ويشاهد صنعهن.

لكن الذي شاهدنه على المفاجأة من حسن يوسف نسخ ما قدرنه من قبل في أنفسهن وبدل مجلس الأدب والاحتشام حفلة عيش لا يكتم محتفلوها من أنفسهم ضميراً، ولا يبالي حضارها ما قيل أو يقال فيهم ولم يلبثن دون أن قلن ﴿حَاشَ لِلّهِ مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، وقد قلن غير بعيد: ﴿امْـرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾.

وكلامهن هذا بعد قولهن ذاك إعذار منهن فمفاده أن الذي كنا نقوله قبل إنما هو حق لو كان هذا بشراً وليس به وإنما يذم الإنسان ويعاب لو ابتلي بهوى بشر ومراودته وكان في وسعه أن يكتفي عنه بما يكافئه ويغني عنه، وأما الجمال الذي لا يعادله جمال، ويسلب كل حزم واختيار، فلا لوم على هواه، ولا ذم في غرامه.

ولهذا انقلب المجلس دفعة، وانقطعت قيود الاحتشام فانبسطن وتظاهرن بالقول في حسن يوسف وكل تتكلم بما في ضميرها منه، وقالت امرأة العزيز: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ﴾ فأبدت سراً ما كانت تعترف به قبل ثم هددت يوسف تجلداً وحفظاً لمقامها عندهن وطمعاً في مطاوعته وانقياده: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾.

وأما يوسف فلم يأخذه شيء من تلك الوجوه الحسان بألحاظها الفتانة ولا

التفت إلى شيء من لطيف كلامهن ونعيم مراودتهن أو هائل تهديدها فقد كان وجهة نفسه جمال فوق كل جمال، وجلال يذل عنده كل عزة وجلال فلم يكلمهن بشيء ولم يلتفت إلى ما كانت امرأة العزيز تسمعه من القول، وإنما رجع إلى ربه فقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وكلامه هذا إذا قيس إلى ما قاله لامرأة العزيز وحدها في مجلس المراودة: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، دلّ بسياقه على أن هذا المقام كان أشق وأمر على يوسف ﷺ إذ كان بالأمس يقاوم هم امرأة العزيز ويعالج كيدها وحدها، وقد توجهت إليه اليوم هممهن ومكايدهن جميعاً، وكان ما بالأمس واقعة في خلوة على تستر منها، وهي وهن اليوم متجاهرات في حبه متظاهرات في إغوائه ملجآت على مراودته، وجميع الأسباب والمقتضيات اليوم قاضية لهن عليه أشد مما كانت عليه بالأمس.

ولذا تضرع إلى ربّه سبحانه في دفع كيدهن هاهنا، واكتفى بالاستعاذة إليه سبحانه هناك فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم.

ولنرجع إلى البحث عن الآيات.

فقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا...﴾، «النسوة» اسم جمع للمرأة وتقييد بقوله: في المدينة تفيد أنهن كن من جهة العدد أو الشأن بحال تؤثر قولهن في شيوع الفضيحة.

و«امرأة العزيز» هي التي كان يوسف في بيتها وقد راودته عن نفسه و«العزيز» معناه معروف، وقد كان يلقب به السيد الذي اشترى يوسف من السيارة وكان يلقب به الرؤساء بمصر كما لقب به يوسف بعد ما جعل على خزائن الأرض.

وفي قوله: «تراود» دلالة على الاستمرار وهو أفحش المراودة، و «الفتى» الغلام الشاب والمرأة فتاة، وقد شاع تسمية العبد فتى وكأنه بهذه العناية أضيف إلى ضميرها فقيل: «فتاها».

وفي المفردات: «شغفها حبّاً»، أي أصاب شغاف قلبها أي باطنه. عن الحسن؛ وقيل: وسطه. عن أبي علي، وهما يتقاربان. وشغاف القلب غلافه المحيط به.

والمعنى: وقال عدة من نساء المدينة لا يخلو قولهن من أثر فيها وفي حقها: امرأة العزيز تستمر في مراودة عبدها عن نفسه ولا يحري بها ذلك لأنها مرأة ومن القحة أن تراود المرأة الرجل بل ذاك ـ إن كان ـ من طبع الرجال وأنها امرأة العزيز فهي عزيزة مصر فمن الواجب الذي لا معدل عنه أن تراعي شرف بيتها وعزة زوجها ومكانة نفسها، وإن الذي علقت به عبدها من الشنيع أن يتوله مثلها وهي عزيزة مصر بعبد عبراني من جملة عبيدها، وأنها أحبته وتعدت ذلك إلى مراودته فامتنع من إجابتها فلم تنته حتى ألحت واستمرت على مراودته وذلك أقبح وأشنع وأمعن في الضلال.

ولذلك عقبن قولهن: ﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ...﴾، بقولهن: ﴿إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً...﴾.

قال في المجمع[1]: المكر هو الفتل بالحيلة على ما يراد من الطلبة.

(١) مجمع البيان ٥: ٢٣٠.

وتسمية هذا القول منهن مكراً بامرأة العزيز لما فيه من فضاحتها وهتك سترها من ناحية رقيباتها حسداً وبغياً، وإنما أرسلت إليهن لتريهن يوسف وتبتليهن بما ابتليت به نفسها فيكففن عن لومها ويعذرنها في حبّه.

وعلى هذا إنما سمي قولهن مكراً ونسب السمع إليه لأنه صدر منهن حسداً وبغياً لغاية فضاحتها بين الناس.

وقيل: إنما كان قولهن مكراً لأنهن جعلنه ذريعة إلى لقاء يوسف لما سمعن من حسنه البديع فإنما قلن هذا القول لتسمعه امرأة العزيز فترسل إليهن ليحضرن عندها فتريهن إياه ليعذرنها فيما عزلنها له فيتخذن ذلك سبيلاً إلى أن يراودنه عن نفسه هذا، والوجه الأول أقرب إلى سياق الآيات.

وقوله: ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ﴾ معناه معلوم وهو كناية عن الدعوة إلى الحضور عندها.

وقوله: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً﴾، الإعتاد الإعداد والتهيئة أي أعدت وهيأت، والمتّكأ: ما يتكأ عليه من نمرق أو كرسي كما كان معمولاً في بيوت العظماء.

وقوله: ﴿وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّيناً﴾، أي لقطع ما يرون أكله من الفاكهة كالأترج أو ما يشابهه من الفواكه المأكولة بالقطع.

وقوله: ﴿وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾، أي أمرت يوسف أن يخرج عليهن وهن خاليات الأذهان فارغات القلوب مشتغلات بأخذ الفاكهة وقطعها، وفي اللفظ دلالة على أنه عليه السلام كان غائباً عنهن وكان في مخدع هناك أو بيت آخر في داخل بيت المأدبة الذي كن فيه فإنها قالت: ﴿اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ ولو كان في خارج من

البيت لقالت: «ادخل عليهن».

وفي السياق دلالة على أن هذا التدبير كان مكراً منها تجاه مكرهن ليفتضحن به فيعذرنها فيما عذلنها قد أصابت في رأيها حيث نظمت برنامج الملاقاة فاعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً، وأخفت يوسف عن أعينهن ثم فاجأتهن بإظهاره دفعة لهن ليغبن عن عقولهن، ويندهشن بذاك الجمال البديع ويأتين بما لا يأتي به ذو شعور البتة وهو تقطيع الأيدي مكان الفواكه لا من الواحدة والثنتين منهن بل من الجميع.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَراً إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ الإكبار الإعظام وهو كناية عن اندهاشهن وغيبتهن عن شعورهن وإرادتهن بمفاجأة مشاهدة ذاك الحسن الرائع طبقاً للناموس الكوني العام وهو خضوع الصغير للكبير وقهر العظيم للحقير فإذا ظهر العظيم الكبير بعظمته وكبريائه لشعور الإنسان قهر سائر ما في ذهنه من المقاصد والأفكار فأنساها وصار يتخبط في أعماله.

ولذلك لما رأينه قهرت رؤيته شعورهن فقطعن أيديهن تقطيعا مكان الفاكهة التي كن يردن قطعها، وفي صيغة التفعيل دلالة على الكثرة يقال: قتل القوم تقتيلاً وموتهم الجدب تمويتاً.

وقوله: ﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ﴾ تنزيه لله سبحانه في أمر يوسف وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَـٰذَا سُبْحَانَكَ هَـٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾[1]، وهو من أدب الكلام عند المليين إذا جرى القول في أمر فيه نوع تنزيه وتبرئة لأحد يبدأ فينزه

(١) النور: ١٦.

الله سبحانه ثم يشتغل بتنزيه من أريد تنزيهه فهن لما أردن تنزيهه ﷺ بقولهن: ﴿مَا هَـذَا بَشَراً ...﴾، بدأن بتنزيهه تعالى، ثم أخذن ينزهنه.

وقوله: ﴿مَا هَـذَا بَشَراً إِنْ هَـذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ نفي أن يكون يوسف ﷺ بشرا وإثبات أنه ملك كريم، وهذا بناء على ما يعتقده المليون ومنهم الوثنيون أن الملائكة موجودات شريفة هم مبادىء كل خير وسعادة في العالم منهم يترشح كل حياة وعلم وحسن وبهاء وسرور وسائر ما يتمنى ويؤمل من الأمور ففيهم كل جمال صوري ومعنوي، وإذا مثلوا تخيلوا في حسن لا يقدر بقدر، ويتصوره أصحاب الأصنام في صور إنسانية حسنة بهية.

ولعل هذا هو السبب في قولهن: ﴿إِنْ هَـذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، حيث لم يصفنه بما يدل على حسن الوجه وجمال المنظر مع أن الذي فعل بهن ما فعل هو حسن وجهه واعتدال صورته بل سمينه ملكا كريما لتكون فيه إشارة إلى حسن صورته وسيرته معاً، وجمال خلقه وخلقه وظاهره وباطنه جميعاً. والله أعلم.

وتقدم قولهن هذا على قول امرأة العزيز: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ يدل على أنهن لم يفهمن بهذا الكلام إعذار لامرأة العزيز في حبها له وتيمها وغرامها به، وإنما كان ذلك اضطرارا منهن على الثناء عليه وإظهارا قهريا لانجذاب نفوسهن وتوله قلوبهن إليه فقد كان فيه فضاحتهن، ولم تقل امرأة العزيز: ﴿فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾ إلا بعد ما فضحتهن فعلاً وقولاً بتقطيع الأيدي وتنزيه الحسن فلم يبق لهن إلا أن يصدقنها فيما تقول ويعذرنها فيما تفعل.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ ...﴾، الكلام في موضع دفع الدخل كان قائلاً يقول: فما ذا قالت امرأة العزيز لهن؟ فقيل: ﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ﴾.

وقد فرعت كلامها على ما تقدمه من قولهن وفعلهن وأشارت إلى شخص الذي لمنها فيه ووصفته بأنه الذي لمنها فيه ليكون هو بعينه جوابا لما رمينها به من ترك شرف بيتها وعزة زوجها وعفة نفسها في حبه، وعذراً قبال لومهن إياها في مراودته، وأقوى البيان أن يحال السامع إلى العيان، ومن هذا الباب قوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ﴾(١)، قوله: ﴿رَبَّنَا هَـؤُلاء أَضَلُّونَا﴾(٢).

ثم اعترفت بالمراودة وذكرت لهن أنها راودته لكنه أخذ بالعفة وطلب العصمة، وإنما استرسلت وأظهرت لهن ما لم تزل تخفيه لما رأت موافقة القلوب على التوله فيه فبثت الشكوى لهن ونبهت يوسف أنها غير تاركته فليوطن نفسه على طاعتها فيما تأمر به، وهذا معنى قولها: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ...﴾.

ثم ذكرت لهن ما عزمت عليه من إجباره على الموافقة وسياسته لو خالفت فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾، وقد أكدت الكلام بوجوه من التأكيد كالقسم والنون واللام ونحوها ليدل على أنها عزمت على ذلك عزيمة جازمة، وعندها ما يجبره على ما أرادته ولو استنكف فليوطن نفسه على السجن بعد الراحة، والصغار والهوان بعد الإكرام والاحترام، وفي الكلام تجلد ونوع تعزز وتمنع بالنسبة إليهن ونوع تنبيه وتهديد بالنسبة إلى يوسف عليه السلام.

وهذا التهديد الذي يتضمنه قولها: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِّنَ الصَّاغِرِينَ﴾ أشد وأهول مما سألته زوجها يوم المراودة بقولها: ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

---

(١) الأنبياء: ٣٦.

(٢) الأعراف: ٣٨.

أما أولاً: فلأنها رددت الجزاء هناك بين السجن والعذاب الأليم وجمع ها هنا بين الجزاءين وهو السجن والكون من الصاغرين.

وأما ثانياً: فلأنها هاهنا قامت بالتهديد بنفسها لا بأن تسأل زوجها، وكلامها كلام من لا يتردد فيما عزم عليه ولا يرجع عما جزم به.

وقد حققت أنها تملك قلب زوجها وتقدر أن تصرفه مما يريده إلى ما تريده، وتقوى على التصرف في أمره كيفما شاءت؟

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

قال الراغب في المفردات: صبا فلان يصبو صبواً وصبوة إذا نزع واشتاق وفعل فعل الصبيان، قال تعالى: ﴿أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾.

وفي المجمع: الصبوة لطافة الهوى.

تفاوضت امرأة العزيز والنسوة فقالت وقلن واسترسلن في بثّ ما في ضمائرهن ويوسف عليه السلام واقف أمامهن يدعونه ويراودنه عن نفسه لكن يوسف عليه السلام لم يلتفت إليهن ولا كلمهن ولا بكلمة، بل رجع إلى ربه الذي ملك قلبه بقلب لا مكان فيه إلا له ولا شغل له إلا به و ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ...﴾. وقوله هذا ليس بدعاء على نفسه بالسجن وأن يصرف الله عنه ما يدعونه إليه بإلقائه في السجن، وإنما هو بيان حال لربه وأنه عن تربية إلهية يرجح عذاب السجن في جنب الله على لذة المعصية والبعد منه، فهذا الكلام منه نظير ما قاله لامرأة العزيز حين خلت به وراودته عن نفسه: ﴿مَعَاذَ اللّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، ففي الكلامين معاً تمنع وتعزز بالله، وإنما الفرق أنه

يخاطب بأحدهما امرأة العزيز وبالآخر ربّه القوي العزيز وليس شيء من الكلامين دعاء البتة.

وفي قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ...﴾، نوع توطئة لقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ...﴾، الذي هو دعاء في صورة بيان الحال.

فمعنى الآية: رب إني لو خيرت بين السجن وبين ما يدعونني إليه لاخترت السجن على غيره وأسألك أن تصرف عني كيدهن فإنك إن لا تصرف عني كيدهن أنتزع وأمل إليهن وأكن من الجاهلين فإني إنما أتوقى شرهن بعلمك الذي علمتنيه وتصرف به عني كيدهن فإن أمسكت عن إفاضته عليَّ صرت جاهلاً ووقعت في مهلكة الصبوة والهوى. وقد ظهر من الآية بمعونة السياق:

أولاً: أن قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ ...﴾، ليس دعاء من يوسف عليه السلام على نفسه بالسجن، بل بيان حال منه لربه بالإعراض عنهن والرجوع إليه، ومعنى ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ أني أختاره على ما يدعونني إليه لو خيرت، وليس فيه دلالة على كون ما يدعونه إليه محبوبا عنده بوجه إلا بمقدار ما تدعو إليه داعية الطبع الإنساني والنفس الأمارة.

وإن قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ إشارة إلى استجابة ما يشتمل عليه قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ ...﴾، من معنى الدعاء.

ويؤيده تعقيبه بقوله: ﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾، وليس استجابة لدعائه بالسجن على نفسه كما توهمه بعضهم.

ومن الدليل عليه قوله بعد في قصة دخوله السجن: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾ ولو كان دعاء بالسجن واستجابة الله سبحانه

وقدر له السجن لم يكن التعبير بثم وفصل المعنى عما تقدمه بأنسب فافهم.

وثانياً: أن النسوة دعونه وراودنه كما دعته امرأة العزيز إلى نفسها وراودته عن نفسه، وأما أنهن دعونه إلى أنفسهن أو إلى امرأة العزيز أو أتين بالأمرين فدعينه بحضرة من امرأة العزيز إليها ثم أسرت كل واحدة منهن داعية إياه إلى نفسها فالآية ساكتة عن ذلك سوى ما يستفاد من قوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ...﴾، إذ لولا دعوة منهن إلى أنفسهن لم يكن معنى ظاهر للصبوة إليهن.

والذي يشعر به قوله تعالى حكاية عن قوله في السجن لرسول الملك: ﴿ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ـ إلى أن قال: ـ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَاْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ * ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾(١).

أنهن دعينه إلى امرأة العزيز وقد أشركهن في القصة ثم قال: ﴿لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، ولم يقل: لم أخن بالغيب ولا قال: لم أخنه وغيره فتدبر فيه.

ومع ذلك فمن المحال عادة أن يرين منه ما يغيبهن عن شعورهن ويدهش عقولهن ويقطعن أيديهن ثم ينسللن انسلالاً ولا يتعرض له أصلاً ويذهبن لوجوههن، بل العادة قاضية أنهن ما فارقن المجلس إلا وهن متيمات فيه والهات لا يصبحن ولا يمسين إلا وهو همهن وفيه هواهن يفدينه بالنفس ويطمعنه بأي زينة في مقدرتهن ويعرضن له أنفسهن ويتوصلن إلى ما يردنه منه بكل ما يستطعن. وهو ظاهر مما حكاه الله من يوسف في قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ

---

(١) يوسف: ٥٠ ـ ٥٢.

﴿مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾، فإنه لم يعرض عن تكليمهن إلى مناجاة ربّه الخبير بحاله السميع لمقاله إلا لشدة الأمر عليه وإحاطة المحنة والمصيبة من ناحيتهن به.

وثالثاً: أن تلك القوة القدسية التي استعصم بها يوسف عليه السلام كانت كأمر تدريجي يفيض عليه آنا بعد آن من جانب الله سبحانه، وليست الأمر الدفعي المفروغ عنه وإلا لانقطعت الحاجة إليه تعالى، ولذا عبر عنه بقوله: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي﴾، ولم يقل: «وإن لم تصرف عني» وإن كانت الجملة الشرطية منسلخة الزمان لكن في الهيئة إشارات.

ولذلك أيضاً قال تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ...﴾ فنسب دفع الشر عنه إلى استجابة وصرف جديد.

ورابعاً: أن هذه القوة القدسية من قبيل العلوم والمعارف ولذا قال عليه السلام: ﴿وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ﴾ ولم يقل: أكن من الظالمين، كما قال لامرأة العزيز: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾، أو أكن من الخائنين كما قال للملك: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾، وقد فرق في نحو الخطاب بينهما وبين ربه فخاطبهما بظاهر الأمر رعاية لمنزلتهما في الفهم فقال: إنه ظلم والظالم لا يفلح، وإنه خيانة والله لا يهدي كيد الخائن، وخاطب ربه بحقيقة الأمر وهو أن الصبوة إليهن من الجهل. وستوافيك حقيقة الحال في هذين الأمرين في أبحاث ملحقة بالبيان إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، أي استجاب الله مسألته في صرف كيدهن عنه حين قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي

كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ إنه هو السميع بأقوال عباده العليم بأحوالهم.[١]

﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الآيَاتِ لَيَسجُنُنَّهُ حَتى حِينٍ﴾.

المراد بالآية الشواهد والأدلة الدالة على براءة يوسف عليه السلام وطهارة ذيله مما اتهموه به كشهادة الصبي وقدّ القميص من خلفه واستباقهما الباب معاً، ولعل منها تقطيع النسوة أيديهن برؤيته واستعصامه عن مراودتهن إياه عن نفسه واعتراف امرأة العزيز لهن أنها راودته عن نفسه فاستعصم.

ثم ظهر للعزيز ومن يتلوه من امرأته وسائر مشاوريه رأي جديد في يوسف من بعد ما رأوا هذه الآيات الدالة على براءته وعصمته وهو أن يسجنوه حيناً من الزمان حتى ينسى حديث المراودة الذي يجلب لهم العار والشين وأقسموا على ذلك. ويظهر بذلك أنهم إنما عزموا على ذلك لمصلحة بيت العزيز وصوناً لأسرته عن هوان التهمة والعار، لعل من غرضهم أن يتحفظوا على أمن المدينة العام ولا يخلوا الناس وخاصة النساء أن يفتتنوا به فإن هذا الحسن الذي أوله امرأة العزيز والسيدات من شرفاء المدينة وفعل بهم ما فعل من طبعه أن لا يلبث دون أن يقيم في المدينة بلوى.

ودخل يوسف السجن، ودخل معه فتيان، وسياق الآيات يدل على أنهما كانا عبدين من عبيد الملك. وفي صباح أحد الأيام قال أحدهما ليوسف عليه السلام: إني رأيت فيما يرى النائم إني أعصر عنباً للخمر.

وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه، أي تنهشه.

وقالا له: ﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، وفي قوله: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ

(١) الميزان ١١: ١٩١ ـ ٢٠٩. (ملخصاً).

﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لسؤالهما التأويل و﴿نَرَاكَ﴾، أي نعتقدك من المحسنين لما نشاهد فيك من سيماهم، وإنما أقبلا عليه في تأويل رؤياهما لإحسانه، لما يعتقد عامة الناس أن المحسنين الأبرار ذوو قلوب طاهرة ونفوس زاكية فهم ينتقلون إلى روابط الأمور وجريان الحوادث انتقالا أحسن وأقرب إلى الرشد من انتقال غيرهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيكُمَا﴾، لما أقبل صاحبا السجن على يوسف عليه السلام في سؤاله عن تأويل رؤيا رأياها عن حسن ظن به من جهة ما كانا يشاهدان منه سيماء المحسنين اغتنم عليه السلام الفرصة في بث ما عنده من أسرار التوحيد والدعوة إلى ربه سبحانه الذي علمه ذلك فأخبرهما أنه عليم بذلك بتعليم من ربه خبير بتأويل الأحاديث وتوسل بذلك إلى الكشف عن سر التوحيد ونفي الشركاء ثم أول رؤياهما.

فقال أولاً: لا يأتيكما طعام ترزقانه ـ وأنتما في السجن ـ إلا نبأتكما بتأويله ـ أي بتأويل ذاكما الطعام وحقيقته وما يؤول إليه أمره ـ فأنا خبير بذلك فليكن آية لصدقي فيما أدعوكما إليه من دين التوحيد.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ * وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآئِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ﴾، بين عليه السلام أن العلم والتنبؤ بتأويل الأحاديث ليس من العلم العادي الاكتسابي في شيء بل هو مما علمه إياه ربه ثم علل ذلك بتركه ملة المشركين واتباعه ملة آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب أي رفضه دين الشرك وأخذه بدين التوحيد.

قوله تعالى: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، لا يخلو من إشعار

بأن الصاحبين أو أحدهما كذب نفسه في دعواه الرؤيا ولعله الثاني لما سمع تأويل رؤياه بالصلب وأكل الطير من رأسه، ويتأيد بهذا ما ورد من الرواية من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام: أن الثاني من الصاحبين قال له: إني كذبت فيما قصصت عليك من الرؤيا فقال عليه السلام: ﴿قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾، أي إن التأويل الذي استفتيتما فيه مقضي مقطوع لا مناص عنه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾، أي قال يوسف للذي ظن هو أنه سينجو منهما: اذكرني عند ربّك بما يثير رحمته لعلّه يخرجني من السجن.

وقوله: ﴿فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ...﴾، أي فأنسى الشيطان صاحبه الناجي أن يذكره لربه أو عند ربه فلبث يوسف في السجن بضع سنين والبضع ما دون العشرة.

ثناء الله على يوسف عليه السلام ومنزلته المعنوية

كان عليه السلام من المخلصين وكان صديقاً وكان من المحسنين، وقد آتاه الله حكماً وعلماً وعلمه من تأويل الأحاديث وقد اجتباه الله وأتم نعمته عليه وألحقه بالصالحين[١]، وأثنى عليه بما أثنى على آل نوح وإبراهيم عليه السلام من الأنبياء وقد ذكره فيهم[٢].

(١) سورة يوسف.

(٢) سورة الأنعام.

قصّة يوسف عليه السلام في التوراة الحاضرة

قالت التوراة[1]: وكان بنو يعقوب اثني عشرة: بنو ليئة «رأوبين» بكر يعقوب و «شمعون» و «لاوي» و «يهودا» و «يساكر» و «زنولون»، وابنا «راحيل» يوسف، وبنيامين، وابنا «بلهة» جارية راحيل «دان» و «نفتالي»، وابنا «زلفة» جارية ليئة «جاد» و «أشير».

هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا في «فدان أرام».

قالت التوراة[2]: يوسف إذ كان ابن سبع عشرة سنة كان يرعى مع إخوته الغنم وهو غلام عند بني بلهة وبني زلفة امرأتي أبيه، وأتى يوسف بنميمتهم الردية إلى أبيهم، وأما إسرائيل فأحب يوسف أكثر من سائر بنيه لأنه ابن شيخوخته فصنع له قميصاً ملوناً فلما رأى إخوته أن أباهم أحبه أكثر من جميع إخوته أبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام.

وحلم يوسف حلماً فأخبر إخوته فازدادوا أيضا بغضا له فقال لهم: اسمعوا هذا الحلم الذي حلمت: فها نحن حازمون حزماً في الحفل وإذا حزمتي قامت وانتصبت فاحتاطت حزمكم وسجدت لحزمتي.

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الاصحاح ٣٥، تذكر التوراة انّ ليئة وراحيل امرأتي يعقوب بنتا لابان الارامي وانّ راحيل أمّ يوسف ماتت حين وضعت بنيامين.

(٢) التوراة، سفر التكوين، الاصحاح ٣٧.

فقال له إخوته: ألعلك تملك علينا ملكاً أم تتسلط علينا تسلطاً، وازدادوا أيضاً بغضا له من أجل أحلامه ومن أجل كلامه.

ثم حلم أيضاً حلماً آخر وقصه على إخوته فقال: إني قد حلمت حلماً أيضاً وإذا الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي، وقصه على أبيه وعلى إخوته فانتهره أبوه وقال له: ما هذا الحلم الذي حلمت؟ هل نأتي أنا وأمك وإخوتك لنسجد لك إلى الأرض فحسده إخوته وأما أبوه فحفظ الأمر.

ومضى إخوته ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم فقال إسرائيل ليوسف: أليس إخوتك يرعون عند شكيم؟ تعال فأرسلك إليهم، فقال له: ها أنا ذا فقال له: اذهب انظر سلامة إخوتك وسلامة الغنم ورد لي خبراً فأرسله من وطاء حبرون فأتى إلى شكيم فوجده رجل وإذا هو ضال في الحقل فسأله الرجل قائلاً: ماذا تطلب؟ فقال: أنا طالب إخوتي أخبرني أين يرعون؟ فقال الرجل: قد ارتحلوا من هنا لأني سمعتهم يقولون: لنذهب إلى دوثان فذهب يوسف وراء إخوته فوجدهم في دوثان.

فلما أبصروه من بعيد قبل ما اقترب إليهم احتالوا له ليميتوه فقال بعضهم لبعض: هو ذا هذا صاحب الأحلام قادم فلآن هلم نقتله ونطرحه في إحدى هذه الآبار ونقول: وحش ردي أكله فنرى ما ذا يكون أحلامه؟ فسمع رأوبين وأنقذه من أيديهم وقال: لا نقتله وقال لهم رأوبين: لا تسفكوا دما اطرحوه في هذه البئر التي في البرية ولا تمدوا إليه يدا لكي ينقذه من أيديهم ليرده إلى أبيه فكان لما جاء يوسف إلى إخوته أنهم خلعوا عن يوسف قميصه القميص الملون الذي عليه وأخذوه وطرحوه في البئر وأما البئر فكانت فارغة ليس فيها ماء.

ثم جلسوا ليأكلوا طعاما فرفعوا عيونهم ونظروا وإذا قافلة إسماعيليين مقبلة

من «جلعاد»، وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولادنا ذاهبين لينزلوا بها إلى مصر فقال يهوذا لإخوته: ما الفائدة أن نقتل أخانا ونخفي دمه؟ تعالوا فنبيعه للإسماعيليين ولا تكن أيدينا عليه لأنه أخونا ولحمنا فسمع له إخوته.

واجتاز رجال مديانيون تجار فسحبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوا يوسف للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسف إلى مصر، ورجع رأوبين إلى البئر وإذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه ثم رجع إلى إخوته وقال: الولد ليس موجودا، وأنا إلى أين أذهب؟.

فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيسا من المعزى وغمسوا القميص في الدم، وأرسلوا القميص الملون أحضروه إلى أبيهم وقالوا: وجدنا هذا، حقق أقميص ابنك هو أم لا؟ فتحققه وقال: قميص ابني وحش ردي أكله افترس يوسف افتراساً فمزق يعقوب ثيابه ووضع مسحاً على حقويه وناح على ابنه أياماً كثيرة فقام جميع بنيه وجميع بناته ليعزوه فأبى أن يتعزى وقال: إني أنزل إلى ابني نائحاً إلى الهاوية وبكى عليه أبوه.

قالت التوراة[1]: وأما يوسف فأنزل إلى مصر واشتراه ـ فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط رجل مصري ـ من يد الإسماعيليين الذين أنزلوه إلى هناك، وكان الرب مع يوسف ـ فكان رجلا ناجحا وكان في بيت سيده المصري.

ورأى سيده أن الرب معه، وأن كل ما يصنع كان الرب ينجحه بيده ـ فوجد يوسف نعمة في عينيه وخدمه فوكله إلى بيته ـ ودفع إلى يده كل ما كان له، وكان من حين وكله على بيته ـ وعلى كل ما كان له أن الرب بارك بيت المصري بسبب

(١) التوراة، سفر التكوين، الاصحاح ٣٩.

يوسف، وكانت بركة الرب على كل ما كان له في البيت ـ وفي الحقل فترك كل ما كان له في يد يوسف ـ ولم يكن معه يعرف شيئا إلا الخبز الذي يأكل، وكان يوسف حسن الصورة وحسن المنظر.

وحدث بعد هذه الأمور ـ أن امرأة سيده رفعت عينيها إلى يوسف ـ وقالت: اضطجع معي فأبى ـ وقال لامرأة سيده: هو ذا سيدي لا يعرف معي ما في البيت ـ وكل ماله قد دفعه إلي ليس هو في هذا البيت، ولم يمسك عني شيئاً غيرك لأنك امرأته ـ فكيف أصنع هذا الشر العظيم؟ وأخطىء إلى الله؟ وكان إذ كلمت يوسف يوماً فيوماً ـ أنه لم يسمع لها أن يضطجع بجانبها ليكون معها.

ثم حدث نحو هذا الوقت أنه دخل البيت ليعمل عمله ـ ولم يكن إنسان من أهل البيت هناك في البيت ـ فأمسكته بثوبه قائلة: اضطجع معي ـ فترك ثوبه في يدها وهرب وخرج إلى خارج، وكان لما رأت أنه ترك ثوبه في يدها وهرب إلى خارج ـ أنها نادت أهل بيتها وكلمتهم قائلة: انظروا! قد جاء إلينا برجل عبراني ليداعبنا.

دخل إلي ليضطجع معي فصرخت بصوت عظيم، وكان لما سمع أني رفعت صوتي ـ وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب وخرج إلى خارج.

فوضعت ثوبه بجانبها حتى جاء سيده إلى بيته ـ فكلمته بمثل هذا الكلام قائلة: دخل إلي العبد العبراني الذي جئت به إلينا ليداعبني ـ وكان لما رفعت صوتي ـ وصرخت أنه ترك ثوبه بجانبي وهرب إلى خارج.

فكان لما سمع سيده كلام امرأته الذي كلمته به قائلة ـ بحسب هذا الكلام صنع بي عبدك أن غضبه حمي ـ فأخذ يوسف سيده ووضعه في بيت السجن ـ المكان الذي كان أسرى الملك محبوسين فيه، وكان هناك في بيت السجن.

ولكن الرب كان مع يوسف وبسط إليه لطفا ـ وجعل نعمة له في عيني رئيس بيت السجن ـ فدفع رئيس بيت السجن إلى يد يوسف جميع الأسرى ـ الذين في بيت السجن، وكل ما كانوا يعملون هناك كان هو العامل، ولم يكن رئيس بيت السجن ينظر شيئا البتة مما في يده ـ لأن الرب كان معه، ومهما صنع كان الرب ينجحه.

ثم ساقت التوراة قصة صاحبي السجن ورؤياهما ورؤيا فرعون مصر ـ وملخصه أنهما كانا رئيس سقاة فرعون ورئيس الخبازين ـ أذنباه فحبسهما فرعون في سجن رئيس الشرط عند يوسف ـ فرأى رئيس السقاة في منامه أنه يعصر خمراً، والآخر أن الطير تأكل من طعام حمله على رأسه ـ فاستفتيا يوسف فعبر رؤيا الأول ـ برجوعه إلى سقي فرعون شغله السابق، والثاني بصلبه وأكل الطير من لحمه، وسأل الساقي أن يذكره عند فرعون ـ لعله يخرج من السجن لكن الشيطان أنساه ذلك.

ثم بعد سنتين رأى فرعون في منامه ـ سبع بقرات سمان حسنة المنظر خرجت من نهر ـ وسبع بقرات مهزولة قبيحة المنظر وقفت على الشاطىء ـ فأكلت المهازيل السمان فاستيقظ فرعون ـ ثم نام فرأى سبع سنابل خضر حسنة سمينة ـ وسبع سنابل رقيقة ملفوحة بالريح الشرقية نابتة وراءها ـ فأكلت الرقيقة السمينة فهال فرعون ذلك ـ وجمع سحرة مصر وحكمائها ـ وقص عليهم رؤياه فعجزوا عن تعبيره.

وعند ذلك ادكر رئيس السقاة يوسف ـ فذكره لفرعون وذكر ما شاهده من عجيب تعبيره للمنام ـ فأمر فرعون بإحضاره ـ فلما أدخل عليه كلمه ـ واستفتاه فيما رآه في منامه مرة بعد أخرى ـ فقال يوسف لفرعون حلم فرعون واحد ـ قد

أخبر الله فرعون بما هو صانع: البقرات السبع الحسنة في سبع سنين ـ والسنابل السبع الحسنة في سبع سنين هو حلم واحد، والبقرات السبع الرقيقة القبيحة ـ التي طلعت وراءها هي سبع سنين ـ السنابل السبع الفارغة الملفوحة بالريح الشرقية ـ يكون سبع سنين جوعاً.

هو الأمر الذي كلمت به فرعون ـ قد أظهر الله لفرعون وما هو صانع، هو ذا سبع سنين قادمة شعباً عظيماً في كل أرض مصر ـ ثم تقوم بعدها سبع سنين جوعا ـ فينسى كل السبع في أرض مصر ويتلف الجوع الأرض، ولا يعرف السبع في الأرض من أجل ذلك الجوع بعده ـ لأنه يكون شديدا جدا، وأما عن تكرار الحلم على فرعون مرتين ـ فلأن الأمر مقرر من عند الله والله مسرع لصنعه.

فالان لينظر فرعون رجلاً بصيراً وحكيماً ـ ويجعله على أرض مصر يفعل فرعون فيوكل نظارا على الأرض ـ ويأخذ خمس غلة أرض مصر في سبع سني الشبع ـ فيجمعون جميع طعام هذه السنين الجيدة القادمة ـ ويخزنون قمحا تحت يد فرعون طعاما في المدن ـ ويحفظونه فيكون الطعام ذخيرة للأرض ـ لسبع سني الجوع التي تكون في أرض مصر ـ فلا تنقرض الأرض بالجوع.

قالت التوراة[١] ما ملخصه: أن فرعون استحسن كلام يوسف وتعبيره وأكرمه، وأعطاه إمارة المملكة في جميع شؤونها، وخلع عليه بخاتمه وألبسه ثياب بوص، ووضع طوق ذهب في عنقه، وأركبه في مركبته الخاصة ونودي أمامه: أن اركعوا، وأخذ يوسف يدبر الأمور في سني الخصب، ثم في سني الجدب أحسن إدارة.

---

(١) التوراة، سفر التكوين، الاصحاح ٤٢ و ٤٣ و ٤٥.

ثم قالت التوراة ما ملخصه : أنه لما عمت السنة أرض كنعان، أمر يعقوب بنيه أن يهبطوا إلى مصر، فيأخذوا طعاماً فساروا ودخلوا على يوسف، فعرفهم وتنكر لهم وكلمهم بجفاء وسألهم من أين جئتم؟ قالوا: من أرض كنعان لنشتري طعاماً. قال يوسف: بل جواسيس أنتم جئتم إلى أرضنا لتفسدوها، قالوا: نحن جميعاً أبناء رجل واحد في كنعان، كنا اثني عشر أخاً فقد منّا واحد، وبقي أصغرنا ها هو اليوم عند أبينا، والباقون بحضرتك، ونحن جميعاً أمناء لا نعرف الفساد والشر.

قال يوسف: لا وحياة فرعون نحن نراكم جواسيس، ولا نخلي سبيلكم حتى تحضرونا أخاكم الصغير حتى نصدقكم فيما تدعون فأمر بهم فحبسوا ثلاثة أيام، ثم أحضرهم وأخذ من بينهم شمعون وقيده أمام عيونهم، وأذن لهم أن يرجعوا إلى كنعان ويجيئوا بأخيهم الصغير.

ثم أمر أن يملأ أوعيتهم قمحا وترد فضة كل واحد منهم إلى عدله، ففعل فرجعوا إلى أبيهم وقصّوا عليه القصص، فأبى يعقوب أن يرسل بنيامين معهم، وقال : أعدمتموني الأولاد يوسف مفقود وشمعون مفقود، وبنيامين تريدون أن تأخذوه لا يكون ذلك أبداً، قال: قد أسأتم في قولكم للرجل: إن لكم أخاً تركتموه عندي قالوا: إنه سأل عنا وعن عشيرتنا قائلاً: هل أبوكم حيّ بعد؟ وهل لكم أخ آخر، فأخبرناه كما سألنا وما كنا نعلم أنه سيقول : جيئوا إلي بأخيكم.

فلم يزل يعقوب يمتنع ، حتى أعطاه يهودا الموثق أن يرد إليه بنيامين ، فأذن في ذهابهم به معهم، أمرهم أن يأخذوا من أحسن متاع الأرض هدية إلى الرجل ، وأن يأخذوا معهم أصرة الفضة التي ردت إليهم في أوعيتهم ففعلوا.

ولما وردوا مصر لقوا وكيل يوسف على أموره ، وأخبروه بحاجتهم وأن

بضاعتهم ردت إليهم في رحالهم ، وعرضوا له هديتهم فرحب بهم وأكرمهم ، وأخبرهم أن فضتهم لهم وأخرج إليهم شمعون الرهين ، ثم أدخلهم على يوسف فسجدوا له وقدموا إليه هديتهم ، فرحب بهم واستفسرهم عن حالهم وعن سلامة أبيهم ، وعرضوا عليه أخاهم الصغير فأكرمه ودعا له ، ثم أمر بتقديم الطعام فقدم له وحده ، ولهم وحدهم ولمن عنده من المصريين وحدهم.

ثم أمر وكيله أن يملأ أوعيتهم طعاماً ، وأن يدس فيها هديتهم ، وأن يضع طاسة في عدل أخيهم الصغير ففعل ، فلما أضاء الصبح من غد شدوا الرحال على الحمير وانصرفوا.

فلما خرجوا من المدينة ، ولما يبتعدوا قال لوكيله أدرك القوم وقل لهم: بئس ما صنعتم جازيتم الإحسان بالإساءة ، سرقتم طاس سيدي الذي يشرب فيه ، ويتفأل به فبهتوا من استماع هذا القول ، وقالوا: حاشانا من ذلك ، هو ذا الفضة التي وجدناها في أفواه عدالنا جئنا بها إليكم من كنعان ، فكيف نسرق من بيت سيدك فضة أو ذهبا ، من وجد الطاس في رحله يقتل ، ونحن جميعا عبيد سيدك ، فرضي بما ذكروا له من الجزاء فبادروا إلى عدولهم ، وأنزل كل واحد منهم عدله وفتحه ، فأخذ يفتشها وابتدأ من الكبير ، حتى انتهى إلى الصغير وأخرج الطاس من عدله.

فلما رأى ذلك إخوته مزقوا ثيابهم ، ورجعوا إلى المدينة ودخلوا على يوسف ، وأعادوا عليه قولهم معتذرين معترفين بالذنب ، وعليهم سيماء الصغار والهوان والخجل ، فقال: حاشا أن نأخذ إلا من وجد متاعنا عنده ، وأما أنتم فارجعوا بسلام إلى أبيكم.

فتقدم إليه يهوذا وتضرع إليه واسترحمه ، وذكر له قصتهم مع أبيهم ، حين

أمرهم يوسف بإحضار بنيامين ، فسألوا أباهم ذلك فأبى أشد الإباء ، حتى آتاه يهوذا الميثاق على أن يرد بنيامين إليه ، وذكر أنهم لا يستطيعون أن يلاقوا أباهم ، وليس معهم بنيامين، وأن أباهم الشيخ لو سمع منهم ذلك لمات من وقته ، ثم سأله أن يأخذه مكان بنيامين عبداً لنفسه ويطلق بنيامين ، لتقر بذلك عين أبيهم المستأنس به بعد فقد أخيه من أمه يوسف.

قالت التوراة: فلم يستطع يوسف أن يضبط نفسه لدى جميع الواقفين عنده ، فصرخ أخرجوا كل إنسان عني فلم يقف أحد عنده ، حين عرف يوسف إخوته بنفسه فأطلق صوته بالبكاء ، فسمع المصريون وسمع بيت فرعون، وقال يوسف لإخوته: أنا يوسف، أحيّ أبي بعد؟ فلما يستطيع إخوته أن يجيبوه لأنهم ارتاعوا منه.

وقال يوسف لإخوته: تقدموا إلي، فتقدموا فقال: أنا يوسف أخوكم الذي بعتموه إلى مصر ، والآن لا تتأسفوا ولا تغتاظوا لأنكم بعتموني إلى هنا ، لأنه لاستبقاء حياة أرسلني الله قدامكم ، لأن للجوع في الأرض الآن سنتين وخمس سنين أيضا ، لا يكون فيها فلاحة ولا حصاد ، فقد أرسلني الله قدامكم ليجعل لكم بقية في الأرض ، وليستبقي لكم نجاة عظيمة فالآن ليس أنتم أرسلتموني إلى هنا ، بل الله وهو قد جعلني أباً لفرعون وسيداً لكل بيته ، ومتسلط على كل أرض مصر.

أسرعوا وأصعدوا إلى أبي وقولوا له ، هكذا يقول ابنك يوسف: أنزل إليَّ لا تقف فتسكن في أرض جاسان ، وتكون قريباً مني أنت وبنوك وبنو بيتك ، وغنمك وبقرك وكل ما لك، وأعولك هناك لأنه يكون أيضاً خمس سنين جوعاً ، لئلّا تفتقر أنت وبيتك وكل ما لك، وهو ذا عيونكم ترى وعينا أخي بنيامين ، أن فمي هو الذي يكلمكم، وتخبرون أني بكل مجدي في مصر وبكل ما رأيتم وتستعجلون ،

وتنزلون بأبي إلى هنا ثم وقع على عين بنيامين أخيه وبكى، وبكى بنيامين على عنقه وقبل جميع إخوته وبكى عليهم.

ثم قالت التوراة: ما ملخصه، أنه جهزهم أحسن التجهيز وسيرهم إلى كنعان ، فجاءوا أباهم وبشروه بحياة يوسف، وقصوا عليه القصص فسر بذلك وسار بأهله جميعا إلى مصر، وهم جميعا سبعون نسمةوردوا أرض جاسان من مصر، وركب يوسف إلى هناك يستقبل أباه، ولقيه قادما فتعانقا وبكى طويلا، ثم أنزله وبنيه وأقرهم هناك، وأكرمهم فرعون إكراما بالغا وآمنهم، وأعطاهم ضيعة في أفضل بقاع مصر، وعالهم يوسف ما دامت السنون المجدبة، وعاش يعقوب في أرض مصر بعد لقاء يوسف سبع عشرة سنة.

هذا ما قصته التوراة من قصة يوسف فيما يحاذي القرآن أوردناها ملخصة إلّا في بعض فقراتها لمسيس الحاجة.[1]

---

(١) الميزان ١١: ٣٥١ ـ ٣٦٥.

قصّة يوسف عليه السلام في الروايات

بعض الروايات بخصوص رؤيا يوسف عليه السلام

في تفسير القمي، قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: تأويل هذه الرؤيا أنه سيملك مصر ويدخل عليه أبواه وإخوته. فأما الشمس فأمُّ يوسف راحيل، والقمر يعقوب، وأما أحد عشر كوكباً فإخوته، فلما دخلوا عليه سجدوا شكرا لله وحده حين نظروا إليه، وكان ذلك السجود لله.[1]

وفي الدر المنثور: أخرج ابن المنذر عن ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً﴾ قال: إخوته ﴿وَالشَّمْسَ﴾ قال: أُمّه ﴿وَالْقَمَرَ﴾ قال: أبوه، ولأُمّه راحيل ثلث الحسن.[2]

قال المؤلّف رحمه الله: والروايتان ـ كما ترى ـ تفسران الشمس بأُمّه والقمر بأبيه ولا تخلوان من ضعف، وربما روي أن التي دخلت عليه بمصر هي خالته دون أمه فقد ماتت أمه قبل ذلك.

وفي تفسير القمي، عن الباقر عليه السلام: كان له أحد عشر أخاً، وكان له من أُمّه أخ واحد يسمى بنيامين.

---

(١) تفسير القمّي ١: ٣٣٩.

(٢) الدر المنثور ٤: ٤.

قال: فرأى يوسف هذه الرؤيا وله تسع سنين فقصها على أبيه فقال: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ...﴾.[1]

قال المؤلّف ﷺ: وفي بعض الروايات أنه كان يومئذ ابن سبع سنين وفي التوراة أنه كان ابن ست عشر سنة. وهو بعيد.

وفي قصة الرؤيا روايات أخرى سيجيء بعضها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله تعالى.[2]

رواية الامام السجاد عليه السلام بخصوص قصّة يوسف ويعقوب عليهما السلام

في المعاني، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي قال: صليت مع علي بن الحسين عليهما السلام الفجر بالمدينة يوم الجمعة فلما فرغ من صلاته وتسبيحه نهض إلى منزله وأنا معه فدعا مولاة له تسمى سكينة فقال لها: لا يعبر على بابي سائل إلا أطعمتموه فإن اليوم يوم الجمعة.

قلت: ليس كل من يسأل مستحقاً، فقال: يا ثابت أخاف أن يكون بعض من يسألنا محقاً فلا نطعمه ونرده فينزل بنا أهل البيت ما نزل بيعقوب وآله أطعموهم. إن يعقوب كان يذبح كل يوم كبشاً فيتصدق به ويأكل هو وعياله منه، وإن سائلاً مؤمناً صوّاماً محقّاً له عند الله منزلة وكان مجتازاً غريباً اعتر على باب يعقوب عشية جمعة عند أوان إفطاره يهتف على بابه: أطعموا السائل المجتاز الغريب الجائع من فضل طعامكم. يهتف بذلك على بابه مرارا قد جهلوا حقه ولم يصدقوا

---

(١) تفسير القمّي ١: ٣٤٠.

(٢) الميزان ١١: ١١٤ ـ ١١٥.

قوله. فلما أيس أن يطعموه وغشيه الليل استرجع واستعبر وشكى جوعه إلى الله وبات طاوياً وأصبح صائماً جائعاً صابراً حامداً لله وبات يعقوب وآل يعقوب شباعاً بطاناً، وأصبحوا وعندهم من فضل طعامهم.

قال: فأوحى الله عزّ وجل إلى يعقوب في صبيحة تلك الليلة: لقد أذللت يا يعقوب عبدي ذلة استجررت بها غضبي، واستوجبت بها أدبي ونزول عقوبتي وبلواي عليك وعلى ولدك يا يعقوب إن أحب أنبيائي إلي وأكرمهم علي من رحم مساكين عبادي وقربهم إليه وأطعمهم وكان لهم مأوى وملجأ.

يا يعقوب ما رحمت دميال عبدي المجتهد في عبادته القانع باليسير من ظاهر الدنيا عشاء أمس لما اعتر ببابك عند أوان إفطاره ويهتف بكم أطعموا السائل الغريب المجتاز القانع، فلم تطعموه شيئا فاسترجع واستعبر وشكى ما به إلي، وبات جائعاً وطاوياً حامداً وأصبح لي صائماً وأنت يا يعقوب وولدك شباع وأصبحت وعندكم فضل من طعامكم. أوما علمت يا يعقوب إن العقوبة والبلوى إلى أوليائي أسرع منها إلى أعدائي؟ وذلك حسن النظر مني لأوليائي واستدراج مني لأعدائي. أما وعزتي لأنزلن بك بلواي، ولأجعلنك وولدك غرضا لمصابي، ولأؤدبنك بعقوبتي فاستعدوا لبلواي وارضوا بقضائي واصبروا للمصائب. فقلت لعلي بن الحسين عليهما السلام: جعلت فداك متى رأى يوسف الرؤيا؟

فقال: في تلك الليلة التي بات فيها يعقوب وآل يعقوب شباعاً، وبات فيها دميال طاويا جائعاً، فلما رأى يوسف الرؤيا وأصبح يقصها على أبيه يعقوب اغتم يعقوب لما سمع من يوسف وبقي مغتما فأوحى الله إليه أن استعد للبلاء فقال يعقوب ليوسف: لا تقصص رؤياك على إخوتك فإني أخاف أن يكيدوا لك كيدا فلم يكتم يوسف رؤياه، وقصها على إخوته.

قال علي بن الحسين عليه السلام: إن أول بلوى نزلت بيعقوب وآل يعقوب الحسد ليوسف لما سمعوا منه الرؤيا.

قال: فاشتدت رقة يعقوب على يوسف وخاف أن يكون ما أوحى الله عز وجل إليه من الاستعداد للبلاء إنما هو في يوسف خاصة فاشتدت رقته عليه من بين ولده.

فلما رأى إخوة يوسف ما يصنع يعقوب بيوسف، وتكرمته إياه، وإيثاره إياه عليهم اشتد ذلك عليهم وبدأ البلاء فيهم فتآمروا فيما بينهم و ﴿قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ﴾، أي تتوبون. فعند ذلك ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ﴾، فقال يعقوب: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ فانتزعه مقدراً حذراً عليه منه أن يكون البلوى من الله عزّ وجل على يعقوب من يوسف خاصة لموقعه في قلبه وحبه له.

قال: فغلب قدرة الله وقضاؤه ونافذ أمره في يعقوب ويوسف وإخوته فلم يقدر يعقوب على دفع البلاء عن نفسه ولا يوسف وولده، فدفعه إليهم وهو لذلك كاره متوقع البلوى من الله في يوسف. فلما خرجوا من منزلهم لحقهم مسرعا فانتزعه من أيديهم وضمه إليه واعتنقه وبكى ودفعه إليهم فانطلقوا به مسرعين مخافة أن يأخذه منهم ولا يدفعه إليهم فلما أمعنوا به أتوا به غيضة أشجار فقالوا: نذبحه ونلقيه تحت هذه الشجرة فيأكله الذئب الليلة فقال كبيرهم: ﴿لاَ تَقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ ولكن ﴿أَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ﴾. فانطلقوا به إلى الجب فألقوه فيه وهم يظنون أنه يغرق فيه، فلما صار في قعر الجب

ناداهم: يا ولد رومين اقرأوا يعقوب السلام مني، فلما رأوا كلامه، قال بعضهم لبعض: لا تزولوا من هاهنا حتى تعلموا أنه قد مات فلم يزالوا بحضرته حتى أيسوا ورجعوا إلى أبيهم عشاء يبكون، ﴿قَالُواْ يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ .

فلما سمع مقالتهم استرجع واستعبر وذكر ما أوحى الله عزّ وجل إليه من الاستعداد للبلاء فصبر وأذعن للبلوى وقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً﴾ ، وما كان الله ليطعم لحم يوسف الذئب من قبل أن أرى تأويل رؤياه الصادقة.

قال أبو حمزة: ثم انقطع حديث علي بن الحسين عليهما السلام عند هذا.

قال أبو حمزة: فلما كان من الغد غدوت إليه وقلت له: جعلت فداك إنك حدثتني أمس بحديث ليعقوب وولده ثم قطعته فيما كان من قصة إخوة يوسف وقصة يوسف بعد ذاك؟ فقال: إنهم لما أصبحوا قالوا: انطلقوا بنا حتى ننظر ما حال يوسف: أمات أم هو حي؟ فلما انتهوا إلى الجب وجدوا بحضرة الجب سيارة وقد أرسلوا واردهم فأدلى دلوه فإذا جذب دلوه فإذا هو غلام معلق بدلوه فقال لأصحابه: يا بشرى هذا غلام، فلما أخرجوه أقبل إليهم إخوة يوسف فقالوا: هذا عبدنا سقط منا أمس في هذا الجب وجئنا اليوم لنخرجه فانتزعوه من أيديهم ونحوا به ناحية فقالوا له: إما أن تقر لنا أنك عبد لنا فنبيعك بعض السيارة أو نقتلك فقال لهم يوسف: لا تقتلوني واصنعوا ما شئتم. فأقبلوا به إلى السيارة فقالوا: من يشتري منكم هذا العبد منا؟ فاشتراه رجل منهم بعشرين درهماً وكان إخوته فيه من الزاهدين وسار به الذي اشتراه من البدو حتى أدخله مصر فباعه الذي اشتراه من البدو من ملك مصر وذلك قول الله عزّ وجل: ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً﴾ .

قال أبو حمزة: فقلت لعلي بن الحسين عليهما السلام: ابن كم كان يوسف يوم ألقوه في الجب؟ فقال: ابن تسع سنين فقلت: كم كان بين منزل يعقوب يومئذ وبين مصر فقال: مسيرة اثنا عشر يوماً.[١]

قال المؤلّف رحمه الله: وللحديث ذيل سنورده في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى وفيه نكات ربما لم تلائم ظاهر ما تقدم من بيان الآيات لكنها ترتفع بأدنى تأمل.

وفي الدر المنثور، أخرج أحمد والبخاري عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.[٢]

وفي تفسير العياشي، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: الأنبياء على خمسة أنواع منهم من يسمع الصوت مثل صوت السلسلة فيعلم ما عني به، ومنهم من ينبأ في منامه مثل يوسف وإبراهيم عليهما السلام، ومنهم من يعاين، ومنهم من نكت في قلبه ويوقر في أذنه.[٣]

وفيه، عن أبي خديجة عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنما ابتلي يعقوب بيوسف أنه ذبح كبشا سمينا ورجل من أصحابه يدعى بيوم بقوم محتاج لم يجد ما يفطر عليه فأغفله ولم يطعمه فابتلي بيوسف، وكان بعد ذلك كل صباح مناديه ينادي: من لم يكن صائما فليشهد غداء يعقوب، فإذا كان المساء نادى من كان

---

(١) علل الشرائع: ٤٥ ـ ٤٨.

(٢) الدر المنثور ٤: ٤٠.

(٣) تفسير العيّاشي ٢: ١٦٦.

صائماً فليشهد عشاء يعقوب.[١]

وفي تفسير القمي، قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول: لا يشعرون أنك أنت يوسف. أتاه جبرئيل وأخبره بذلك.[٢]

وفيه، وفي رواية أبي الجارود: في قول الله: ﴿وَجَآؤُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾، قال: إنهم ذبحوا جدياً على قميصه.[٣]

وفي أمالي الشيخ، بإسناده: في قوله عز وجل: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ قال: بلا شكوى.[٤]

قال المؤلّف رحمه الله: وكأن الرواية عن الصادق عليه السلام بقرينة كونه مسبوقاً بحديث عنه، وروي هذا المعنى في الدر المنثور[٥]، عن حيان بن جبلة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وفي المضامين السابقة روايات أُخر.[٦]

رواية الإمام السجاد عليه السلام بخصوص قصة يوسف وزليخا

في المعاني، بإسناده عن أبي حمزة الثمالي، عن السجاد عليه السلام قال: وكان

---

(١) تفسير العيّاشي ٢: ١٦٧.
(٢) تفسير القمّي ١: ٣٤٠.
(٣) تفسير القمّي ١: ٣٤١.
(٤) أمالي الطوسي: ٢٩٤.
(٥) الدر المنثور ٤: ١٠.
(٦) الميزان ١١: ١٥١ ـ ١٥٥.

يوسف من أجمل أهل زمانه، فلما راهق يوسف راودته امرأة الملك عن نفسه فقال: معاذ الله إنا أهل بيت لا يزنون فغلقت الأبواب عليها وعليه وقالت: لا تخف وألقت نفسها عليه فأفلت منها هارباً إلى الباب ففتحه فلحقته فجذبت قميصه من خلفه فأخرجته منه فأفلت يوسف منها في ثيابه فالفيا سيدها لدى الباب قالت: ما جزاء من أراد بأهلك سوءا إلا أن يسجن أو عذاب أليم.

قال: فهم الملك بيوسف ليعذبه فقال له يوسف: ما أردت بأهلك سوءاً، بل هي راودتني عن نفسي فسل هذا الصبي أيّنا راود صاحبه عن نفسه؟

قال: كان عندها من أهلها صبي زائر لها فأنطق الله الصبي لفصل القضاء فقال: أيها الملك انظر إلى قميص يوسف فإن كان مقدوداً من قدامه فهو الذي راودها، وإن كان مقدوداً من خلفه فهي التي راودته.

فلما سمع الملك كلام الصبي وما اقتصه أفزعه ذلك فزعاً شديداً فجيء بالقميص فنظر إليه، فلما رآه مقدوداً من خلفه قال لها: إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم.

وقال ليوسف: أعرض عن هذا ولا يسمعه منك أحد واكتمه.

قال: فلم يكتمه يوسف وأذاعه في المدينة حتى قلن نسوة منهن: امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه فبلغها ذلك فأرسلت إليهن، وهيأت لهن طعاماً ومجلساً، ثم أتتهن بأترنج وآتت كل واحدة منهن سكيناً ثم قالت ليوسف اخرج عليهن، فلما رأينه أكبرنه وقطّعن أيديهن وقلن ما قلن يعني النساء، فقالت لهن: هذا الذي لمتنني فيه تعني في حبه. وخرجن النسوة من تحتها فأرسلت كل واحدة منهن إلى يوسف سراً من صاحبتها تسأله الزيارة فأبى عليهن وقال: إلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين وصرف الله عنه كيدهن.

فلما شاع أمر يوسف وامرأة العزيز والنسوة في مصر بدا للملك بعد ما سمع قول الصبي ليسجنن يوسف فسجنه في السجن ودخل السجن مع يوسف فتيان، وكان من قصتهما وقصة يوسف ما قصه الله في الكتاب.

قال أبو حمزة: ثم انقطع حديث علي بن الحسين عليهما السلام.[١]

قال المؤلّف رحمه الله: وروى ما في معناه العياشي في تفسيره[٢]، عن أبي حمزة عنه عليه السلام باختلاف يسير، وقوله عليه السلام: «قال معاذ الله إنا أهل بيت لا يزنون» تفسير بقرينة المحاذاة لقوله في الآية: ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ...﴾، وهو يؤيّد ما قدمناه في بيان الآية أن الضمير إلى الله سبحانه لا إلى عزيز مصر كما ذهب إليه أكثر المفسرين فافهم ذلك.

وقوله: فأبى عليهن وقال: ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي...﴾ ظاهر في أنه عليه السلام لم يأخذ قوله: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ جزءاً من الدعاء فيوافق ما قدمناه في بيان الآية أنه ليس بدعاء.

بعض الروايات بخصوص الآيات

وفي العيون، بإسناده عن حمدان، عن علي بن محمد بن الجهم قال: حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا علي بن موسى فقال له المأمون: يا ابن رسول الله أليس من قولك: إن الأنبياء معصومون؟ قال: بلى، وذكر الحديث إلى أن قال فيه: فأخبرني عن قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى

---

(١) علل الشرائع: ٤٨ و ٤٩.

(٢) تفسير العيّاشي ٢: ١٧٢.

بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، فقال الرضا عليه السلام: لقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربّه لهمَّ بها لكنه كان معصوماً، والمعصوم لا يهم بذنب ولا يأتيه.

ولقد حدثني أبي، عن أبيه الصادق عليه السلام أنه قال: همّت بأن تفعل، وهمَّ بأن لا يفعل، فقال المأمون: لله درك يا أبا الحسن.(١)

قال المؤلّف رحمه الله: تقدم أن ابن الجهم هذا لا يخلو عن شيء لكن صدر الحديث أعني جواب الرضا عليه السلام يوافق ما قدمناه في بيان الآية، وأما ما نقله عن جده الصادق عليه السلام «أنها همّت بأن تفعل وهمَّ بأن لا يفعل» فلعل المراد به ما ذكره الرضا عليه السلام من الجواب لقبوله الانطباق عليه ولعل المراد به همّه بقتلها كما يؤيده الحديث الآتي فينطبق على بعض الاحتمالات المتقدّمة في بيان الآية.

وفيه، بإسناده عن أبي الصلت الهروي قال: لما جمع المأمون لعلي بن موسى الرضا عليهما السلام أهل المقالات من أهل الإسلام ومن الديانات من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين وسائر أهل المقالات فلم يقم أحد إلا وقد ألزمه حجته كأنه ألقم حجراً. قام إليه علي بن محمد بن الجهم فقال: يا ابن رسول الله أتقول بعصمة الأنبياء؟ فقال: نعم. فقال له فما تقول في قوله عزّ وجل في يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾؟

فقال له: أما قوله تعالى في يوسف: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ فإنها همّت بالمعصية وهمَّ يوسف بقتلها إن أجبرته لعظيم ما تداخله فصرف الله عنه قتلها والفاحشة، وهو قوله عزّ وجل: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ﴾ والسوء

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ٢: ١٧٤ ح ١.

القتل والفحشاء الزنا.[١]

وفي الدر المنثور: أخرج أبو نعيم في الحلية عن علي بن أبي طالب: في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾ قال: طمعت فيه وطمع فيها، وكان من الطمع أن همّ بحلّ التكة فقامت إلى صنم مكللٍ بالدر والياقوت في ناحية البيت فسترته بثوب أبيض بينها وبينه فقال: أيّ شيء تصنعين؟ فقالت: أستحيي من إلهي أن يراني على هذه الصورة فقال يوسف عليه السلام: تستحين من صنم لا يأكل ولا يشرب، ولا أستحيي أنا من إلهي الذي هو قائم على كل نفس بما كسبت؟ ثم قال: لا تنالينها مني أبداً. وهو البرهان الذي رأى.[٢]

قال المؤلّف رحمه الله: والرواية من الموضوعات كيف وكلامه وكلام سائر أئمة أهل البيت عليهم السلام مشحون بذكر عصمة الأنبياء ومذهبهم في ذلك مشهور.

على أن سترها الصنم وانتقاله من ذلك إلى ما ذكره لها من الحجة لا يعد من رؤية البرهان، وقد ورد هذا المعنى في عدة روايات من طرق أهل البيت عليهم السلام لكنها آحاد لا تعويل عليها.

نعم لا يبعد أن تقوم المرأة إلى ستر صنم كان هناك فتنزع نفس يوسف عليه السلام إلى مشاهدة آية التوحيد عند ذلك فيرتفع الحجاب بينه وبين ساحة الكبرياء فيرى ما يصرفه عن كل سوء وفحشاء كما كان له ذلك من قبل، وقد قال تعالى في حقه: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾.

فإن صح شيء من هذه الروايات فليكن هذا معناه.

---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١: ١٥٣.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٣.

وفيه: أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: عثر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات: حين همّ بها فسجن، وحين قال: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، فأنساه الشيطان ذكر ربّه، فلبث في السجن بضع سنين، وحين قال: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ قالوا: إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل.(١)

قال المؤلّف رحمه الله: والرواية تخالف صريح كلامه تعالى حيث يذكر أن الله اجتباه وأخلصه لنفسه وأن الشيطان لا سبيل له إلى من أخلصه الله لنفسه وكيف يستقيم لمن هم على أفحش معصية وأنساه الشيطان ذكر ربه ثم كذب في مقاله فعاقبه الله بالسجن ثم بلبثه فيه بضع سنين وجبه بالسرقة أن يعده الله صديقاً من عباده المخلصين والمحسنين، ويذكر أنه آتاه الحكم والعلم واجتباه وأتم عليه نعمته، وعلى هذا السبيل روايات جمّة رواها في الدر المنثور، وقد تقدم نقل شطر منها عند بيان الآيات، ولا تعويل على شيء منها.

وفيه: أخرج أحمد وابن جرير والبيهقي في الدلائل، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: تكلم أربعة وهم صغار: ابن ماشطة بنت فرعون، وشاهد يوسف، وصاحب جريح، وعيسى بن مريم.(٢)

وفيه: قال: وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً﴾ يقول: قد حجبها حبه عن الناس فلا تعقل غيره، والحجاب هو الشغاف، والشغاف هو حجاب القلب.(٣)

وفي تفسير القمي: في حديث جمعها النسوة وتقطيعهن أيديهن قال: فما

(١) الدر المنثور ٤: ١٤.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٥.

(٣) الدر المنثور ٤: ١٦.

أمسى يوسف عليه السلام في ذلك اليوم حتى بعثت إليه كل امرأة رأته تدعوه إلى نفسها فضجر يوسف في ذلك اليوم فقال: ﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾.(١)

في تفسير القمي، في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ﴾، فالآيات شهادة الصبي والقميص المخرق من دبر واستباقهما الباب حتى سمع مجاذبتها إياه على الباب، فلما عصاها لم تزل مولعة بزوجها حتى حبسه. ودخل معه السجن فتيان يقول: عبدان للملك أحدهما خباز والآخر صاحب الشراب، والذي كذب ولم ير المنام هو الخباز.

وذكر الحديث علي بن إبراهيم القمي قال: ووكل الملك بيوسف رجلين يحفظانه فلما دخل السجن قالوا له: ما صناعتك؟ قال: أعبّر الرؤيا، فرأى أحد الموكلين في منامه كما قال يعصر خمراً.

قال يوسف: تخرج وتصير على شراب الملك وترتفع منزلتك عنده، وقال الآخر: إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه، ولم يكن رأى ذلك فقال له يوسف: أنت يقتلك الملك ويصلبك وتأكل الطير من رأسك، فضحك الرجل وقال: إني لم أر ذلك فقال يوسف كما حكى الله: ﴿يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

(١) الميزان ١١ : ٢٢٤ ـ ٢٢٩.

فقال أبو عبد الله عليه السلام في قوله: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، قال: كان يقوم على المريض، ويلتمس للمحتاج، ويوسع على المحبوس فلما أراد من يرى في نومه يعصر خمراً الخروج من الحبس قال له يوسف: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، فكان كما قال الله: ﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾.

أقول: وفي الرواية اضطراب لفظي، وظاهرها أن صاحبيه في السجن لم يكونا مسجونين وإنما كانا موكلين عليه من قبل الملك، ولا يلائم ذلك ظاهر قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾، وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾.[١]

وفي تفسير العياشي، عن سماعة: عن قول الله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، قال: هو العزيز.[٢]

وفي الدر المنثور، أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب العقوبات وابن جرير والطبراني وابن مردويه، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لو لم يقل يوسف الكلمة التي قال ما لبث في السجن طول ما لبث حيث يبتغي الفرج من عند غير الله تعالى.[٣]

قال المؤلّف رحمه الله: ورواه عن ابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي هريرة عنه صلى الله عليه وآله وسلم، ولفظه: رحم الله يوسف لو لم يقل: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن طول ما لبث.

وروي مثله عن عكرمة والحسن وغيرهما.[٤]

---

(١) تفسير القمّي ١: ٣٤٤.

(٢) تفسير العيّاشي ٢: ١٧٧.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٠.

(٤) الدر المنثور ٤: ٢٠.

وروى ما في معناه العياشي في تفسيره، عن طربال، وعن ابن أبي يعقوب، وعن يعقوب بن شعيب، عن أبي عبد الله عليه السلام، ولفظ الأخير قال: قال الله ليوسف: ألست الذي حببتك إلى أبيك وفضلتك على الناس بالحسن؟ أولست الذي سقت إليك السيارة فأنقذتك وأخرجتك من الجب؟ أولست الذي صرفت عنك كيد النسوة؟ فما حملك على أن ترفع رعية أو تدعو مخلوقاً هو دوني؟ فالبث لما قلت بضع سنين، وقد تقدم أن هذه وأمثالها روايات تخالف نص الكتاب.[١]

ومثلها ما في الدر المنثور، عن ابن مردويه عن ابن عباس قال: عثر يوسف عليه السلام ثلاث عثرات: قوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، وقوله لإخوته: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾، وقوله: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾، فقال له جبرئيل: لا حين هممت؟ فقال: ﴿وَمَا أُبَرِّىءُ نَفْسِي﴾، وفي الرواية نسبة الفرية والكذب الصريح إلى الصديق عليه السلام.[٢]

وفي بعض هذه الروايات[٣] أن عثراته الثلاث هي همّه بها، وقوله: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾، وقوله: ﴿إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾. والله سبحانه يبرئه من هذه المفتريات بنص كتابه.[٤]

---

(١) تفسير العيّاشي ٢: ١٧٦ ح ٢٣.

(٢) الدر المنثور ٤: ١٤.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢١.

(٤) الميزان ١١: ٢٤٧ ـ ٢٢٩.



قصّة

شعيب عليه السلام

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ وَلاَ تَنقُصُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّيَ أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُواْ الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تَبْخَسُواْ النَّاسَ أَشْيَاءهُمْ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىَ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً وَلَوْلاَ رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيّاً إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُواْ عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُواْ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا أَلاَ بُعْداً لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾

كلام في قصّة شعيب وقومه في القرآن

١ ـ شعيب عليه السلام ثالث الرسل من العرب

هو عليه السلام ثالث الرسل من العرب الذين ذكرت أسماؤهم في القرآن وهم هود وصالح وشعيب ومحمد صلى الله عليه وآله وسلم ذكر الله تعالى طرفاً من قصصه في سور الأعراف وهود والشعراء والقصص والعنكبوت.

كان عليه السلام من أهل مدين ـ مدينة في طريق الشام من الجزيرة ـ وكان معاصراً لموسى عليه السلام، وقد زوجه إحدى ابنتيه على أن يأجره ثماني حجج وإن أتم عشراً فمن عنده[1]، فخدمه موسى عشر سنين ثم ودعه وسار بأهله إلى مصر.

و كان قومه من أهل مدين يعبدون الأصنام وكانوا قوماً منعمين بالأمن والرفاهية والخصب ورخص الأسعار فشاع الفساد بينهم والتطفيف بنقص المكيال والميزان[2] وغيرها، فأرسل الله إليهم شعيباً وأمره أن ينهاهم عن عبادة الأصنام وعن الفساد في الأرض ونقص المكيال والميزان فدعاهم إلى ما أمر به ووعظهم بالإنذار والتبشير وذكرهم ما أصاب قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم لوط.

وبالغ عليه السلام في الاحتجاج عليهم وعظتهم فلم يزدهم إلا طغياناً وكفراً

---

(١) القصص: ٢٧.

(٢) هود: ٨٤.

وفسوقاً[١]، ولم يؤمنوا به إلا عدة قليلة منهم فأخذوا في إيذائهم والسخرية بهم وتهديدهم عن اتباع شعيب ﷺ، كانوا يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله من آمن به ويبغونها عوجاً[٢].

وأخذوا يرمونه ﷺ بأنه مسحور وأنه كاذب[٣]، وأخافوه بالرجم، وهددوه والذين آمنوا به بالإخراج من قريتهم أو ليعودن في ملتهم[٤]، ولم يزالوا به حتى أيأسوه من إيمانهم فتركهم وأنفسهم[٥]، ودعا الله بالفتح قال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[٦].

فأرسل الله إليهم عذاب يوم الظلّة[٧]، وقد كانوا يستهزءون به أن أسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين وأخذتهم الصيحة[٨]، والرجفة[٩]، فأصبحوا في ديارهم جاثمين ونجى شعيباً ومن معه من المؤمنين[١٠]، فتولى عنهم وقال: يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين[١١].

---

(١) الأعراف وهود وغيرهما من السور.
(٢) الأعراف: ٨٦.
(٣) الشعراء: ١٨٥ و ١٨٦.
(٤) الأعراف: ٨٨.
(٥) هود: ٩٣.
(٦) الأعراف: ٨٩.
(٧) الشعراء: ١٨٩.
(٨) هود: ٩٤.
(٩) الأعراف: ٩١، العنكبوت: ٣٧.
(١٠) هود: ٩٤.
(١١) الأعراف: ٩٣.

٢ ـ شخصيته المعنوية

كان عليه السلام من زمرة الرسل المكرمين وقد أشركه الله تعالى فيما أثناهم به من الثناء الجميل في كتابه، وقد حكى عنه فيما كلم به قومه وخاصة في سور الأعراف وهود والشعراء شيئاً كثيراً من حقائق المعارف والعلوم الإلهية والأدب البارع مع ربه ومع الناس.

وقد سمى نفسه الرسول الأمين[(١)]، ومصلحاً[(٢)]، وأنه من الصالحين[(٣)]، فحكى الله ذلك عنه حكاية إمضاء، وقد خدمه الكليم موسى بن عمران عليه السلام زهاء عشر سنين سلام الله عليه.

٣ ـ ذكره في التوراة

لم تقص التوراة قصته مع قومه وإنما أشارت إليه في ضمن ما ذكرت قصة قتل موسى القبطي وفراره من مصر إلى مديان القصة فسمته «رعوئيل كاهن مديان».[(٤)]

---

(١) الشعراء: ١٧٨.

(٢) هود: ٨٨.

(٣) الشعراء: ٢٧.

(٤) الميزان ١٠: ٥٦٥ ـ ٥٦٨.

أدب شعيب ﷺ في الدعاء

ومن جملة أدعية الأنبياء ما دعا به شعيب ﷺ على قومه إذ قال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾[1].

وهذا استنجاز منه للوعد الإلهي بعد ما يئس من نجاح دعوته فيهم، ومسألة للقضاء بينه وبينهم بالحق على ما قاله الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاء رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[2].

و إنما قال ﴿بَيْنَنَا﴾، لأنه ضمّ المؤمنين به إلى نفسه، وقد كان الكافرون من قومه هددوا إياه والمؤمنين به جميعا إذ قالوا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾[3]، فضمهم إلى نفسه وهاجر قومه في عملهم وسار بهم إلى ربه وقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا ...﴾. وقد استمسك في دعائه باسمه الكريم: ﴿خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ لما مر أن التمسك بالصفة المناسبة لمتن الدعاء تأييد بالغ بمنزلة الإقسام، وهذا بخلاف قول موسى ﷺ : ﴿رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ المنقول آنفاً لما تقدّم أن لفظه ليس بدعاء حقيقة، بل هو كناية عن الإمساك عن الدعوة وإرجاع للأمر إلى الله فلا مقتضى للإقسام بخلاف قول شعيب.[4]

---

(١) الأعراف: ٨٩.

(٢) يونس: ٤٨.

(٣) الأعراف: ٨٨.

(٤) الميزان ٦: ٤٠٦.



قصّة

موسى وهارون عليهما السلام



طسم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغاً إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ

عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ

أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَاراً قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾ اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُرْهَانَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءاً يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَاناً فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرىً وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِندِهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا

أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحاً لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُم مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾

سورة القصص

كلام في قصّة موسى وهارون عليهما السلام

١ ـ منزلة موسى عند الله وموقفه العبودي

كان عليه السلام أحد الخمسة أولي العزم الذين هم سادة الأنبياء ولهم كتاب وشريعة كما خصهم الله تعالى بالذكر في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقاً غَلِيظاً﴾(١)، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾(٢)، ولقد امتن الله سبحانه عليه وعلى أخيه في قوله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾(٣)، وسلّم عليهما في قوله: ﴿سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ﴾(٤).

وأثنى على موسى عليه السلام بأجمل الثناء في قوله: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً * وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيّاً﴾(٥)، وقال: ﴿وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾(٦)، وقال: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً﴾(٧).

---

(١) الأحزاب: ٧.

(٢) الشورى: ١٣.

(٣) الصافات: ١١٤.

(٤) الصافات: ١٢٠.

(٥) مريم: ٥٢.

(٦) الأحزاب: ٦٩.

(٧) النساء: ١٦٤.

وذكره في جملة من ذكرهم من الأنبياء في سورة الأنعام[١] فأخبر أنهم كانوا محسنين صالحين وأنه فضلهم على العالمين واجتباهم وهداهم إلى صراط مستقيم.

وذكره في جملة الأنبياء في سورة مريم، ثم ذكر في الآية ٥٨ منها أنهم الذين أنعم الله عليهم.

فاجتمع بذلك له ﷺ معنى الإخلاص والتقريب والوجاهة والإحسان والصلاح والتفضيل والاجتباء والهداية والإنعام وقد مرّ البحث عن معاني هذه الصفات في مواضع تناسبها من هذا الكتاب وكذا البحث عن معنى النبوة والرسالة والتكليم.

وذكر الكتاب النازل عليه وهو التوراة فوصفها بأنها إمام ورحمة[٢]، وبأنها فرقان وضياء و ذكر[٣]، وبأن فيها هدى ونور[٤]، وقال: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[٥].

غير أنه تعالى ذكر في مواضع من كلامه أنهم حرفوها واختلفوا فيها.

وقصّة بخت نصر وفتحه فلسطين ثانياً وهدمه الهيكل وإحراقه التوراة وحشره اليهود إلى بابل سنة خمسمائة وثمان وثمانين قبل المسيح ثم فتح كورش الملك بابل سنة خمسمائة وثمان وثلاثين قبل المسيح وإذنه لليهود أن يرجعوا إلى فلسطين ثانيا وكتابة عزراء الكاهن التوراة لهم معروف في التواريخ .

---

(١) الآيات ٨٤ـ ٨٨.

(٢) الأحقاف: ١٢ .

(٣) الأنبياء: ٤٨ .

(٤) المائدة: ٤٤ .

(٥) الأعراف: ١٤٥ .

٢ ـ قصص موسى عليه السلام في القرآن

هو عليه السلام أكثر الأنبياء ذكراً في القرآن الكريم فقد ذكر اسمه ـ على ما عدوه ـ في مائة وستة وستين موضعاً من كلامه تعالى، وأشير إلى قصته إجمالاً أو تفصيلاً في أربع وثلاثين سورة من سور القرآن، وقد اختص من بين الأنبياء بكثرة المعجزات، وقد ذكر في القرآن شيء كثير من معجزاته الباهرة كصيرورة عصاه ثعبانا، واليد البيضاء، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، وفلق البحر، وإنزال المنّ والسلوى، وانبجاس العيون من الحجر بضرب العصا، وإحياء الموتى، ورفع الطور فوق القوم وغير ذلك.

وقد ورد في كلامه تعالى طرف من قصصه عليه السلام من دون استيفائها في كل ما دق وجل بل بالاقتصار على فصول منها يهم ذكرها لغرض الهداية والإرشاد على ما هو دأب القرآن الكريم في الإشارة إلى قصص الأنبياء وأممهم.

وهذه الفصول التي فيها كليات قصصه هي أنه تولد بمصر في بيت إسرائيلي حينما كانوا يذبحون المواليد الذكور من بني إسرائيل بأمر فرعون وجعلت أمه إياه في تابوت وألقته في البحر وأخذ فرعون إياه ثم رده إلى أمه للإرضاع والتربية ونشأ في بيت فرعون.

ثم بلغ أشده وقتل القبطي وهرب من مصر إلى مدين خوفاً من فرعون وملئه أن يقتلوه قصاصاً.

ثم مكث في مدين عند شعيب النبي عليه السلام وتزوج إحدى بنتيه.

ثم لما قضى موسى الأجل وسار بأهله آنس من جانب الطور ناراً وقد ضلوا الطريق في ليلة شاتية فأوقفهم مكانهم وذهب إلى النار ليأتيهم بقبس أو يجد على النار هدى فلما أتاها ناداه الله من شاطىء الوادي الأيمن في البقعة المباركة

من الشجرة وكلمه واجتباه وآتاه معجزة العصا واليد البيضاء في تسع آيات واختاره للرسالة إلى فرعون وملئه وإنجاء بني إسرائيل وأمره بالذهاب إليه.

فأتى فرعون ودعاه إلى كلمة الحق وأن يرسل معه بني إسرائيل ولا يعذبهم وأراه آية العصا واليد البيضاء فأبى وعارضه بسحر السحرة وقد جاءوا بسحر عظيم من ثعابين وحيات فألقى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقي السحرة ساجدين قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون وأصر فرعون على جحوده وهدد السحرة و لم يؤمن.

فلم يزل موسى ﷺ يدعوه وملأه ويريهم الآية بعد الآية كالطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصّلات وهم يصرّون على استكبارهم، وكلما وقع عليهم الرجز قالوا: يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل فلما كشف الله عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون.

فأمره الله أن يسري بني إسرائيل ليلاً فساروا حتى بلغوا ساحل البحر فعقبهم فرعون بجنوده فلما تراءى الفريقان قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال كلا إن معي ربي سيهدين فأمر بأن يضرب بعصاه البحر فانفلق الماء فجاوزوا البحر واتبعهم فرعون وجنوده حتى إذا اداركوا فيها جميعا أطبق الله عليهم الماء فأغرقهم عن آخرهم.

ولما أنجاهم الله من فرعون وجنوده وأخرجهم إلى البر ولا ماء فيه ولا كلاء أكرمهم الله فأنزل عليهم المن والسلوى وأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً قد علم كل أناس مشربهم فشربوا منها وأكلوا منهما وظللهم الغمام.

ثم واعد الله موسى أربعين ليلة لنزول التوراة بجبل الطور فاختار قومه سبعين رجلا ليسمعوا تكليمه تعالى إياه فسمعوا ثم قالوا: لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون ثم أحياهم الله بدعوة موسى، ولما تم الميقات أنزل الله عليه التوراة وأخبره أن السامري قد أضل قومه بعده فعبدوا العجل.

فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا فأحرق العجل ونسفه في اليم وطرد السامري وقال له: اذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وأما القوم فأمروا أن يتوبوا ويقتلوا أنفسهم فتيب عليهم بعد ذلك ثم استكبروا عن قبول شريعة التوراة حتى رفع الله الطور فوقهم.

ثم إنهم ملوا المن والسلوى وقالوا لن نصبر على طعام واحد وسألوه أن يدعو ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها فأمروا أن يدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لهم فأبوا فحرمها الله عليهم وابتلاهم بالتيه يتيهون في الأرض أربعين سنة.

ومن قصص موسى عليه السلام ما ذكره الله في سورة الكهف من مضيه مع فتاه إلى مجمع البحرين للقاء العبد الصالح وصحبته حتى فارقه.

٣ـ منزلة هارون عليه السلام عند الله وموقفه العبودي

أشركه الله تعالى مع موسى عليه السلام في سورة الصافات في المن وإيتاء الكتاب والهداية إلى الصراط المستقيم وفي التسليم وأنه من المحسنين ومن عباده

المؤمنين[١]، وعده مرسلاً[٢]، ونبياً[٣]، وأنه ممن أنعم عليهم[٤]، وأشركه مع من عدهم من الأنبياء في سورة الأنعام في صفاتهم الجميلة من الإحسان والصلاح والفضل والاجتباء والهداية[٥].

وفي دعاء موسى ليلة الطور: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾[٦].

وكان عليه السلام ملازماً لأخيه في جميع مواقفه يشاركه في عامة أمره ويعينه على جميع مقاصده.

ولم يرد في القرآن الكريم مما يختص به من القصص إلا خلافته لأخيه حين غاب عن القوم للميقات، وقال لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين، ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً وقد عبدوا العجل ألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين، قال رب اغفر لي ولأخي وأدخلنا في رحمتك وأنت أرحم الراحمين.

---

(١) الصافات: ١١٤ ـ ١٢٢.

(٢) طه: ٤٧.

(٣) مريم: ٥٣.

(٤) مريم: ٥٨.

(٥) الأنعام: ٨٤ ـ ٨٨.

(٦) طه: ٢٩ ـ ٣٥.

٤ ـ قصة موسى عليه السلام في التوراة الحاضرة

قصّصه عليه السلام موضوعة فيما عدا السفر الأول من أسفار التوراة الخمسة وهي: سفر الخروج وسفر اللاويين وسفر العدد وسفر التثنية تذكر فيها تفاصيل قصصه عليه السلام من حين ولادته إلى حين وفاته و ما أوحي إليه من الشرائع والأحكام.

غير أن فيها اختلافات في سرد القصة مع القرآن في أمور غير يسيرة.

ومن أهمها أنها تذكر أن نداء موسى وتكليمه من الشجرة كان في أرض مدين قبل أن يسير بأهله وذلك حين كان يرعى غنم يثرون حمية كاهن مديان فساق الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريب وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة فناداه الله وكلمه بما كلمه وأرسله إلى فرعون لإنجاء بني إسرائيل.[1]

ومنها: ما ذكرت أن فرعون الذي أرسل إليه موسى غير فرعون الذي أخذ موسى ورباه ثم هرب منه موسى لما قتل القبطي خوفا من القصاص.[2]

ومنها أنها لم تذكر إيمان السحرة لما ألقوا عصيهم فصارت حيات فتلقفتها عصا موسى بل تذكر أنهم كانوا عند فرعون وعارضوا موسى في آيتي الدم والضفادع فأتوا بسحرهم مثل ما أتى به موسى عليه السلام معجزة.[3]

ومنها أنها تذكر أن الذي صنع لهم العجل فعبدوه هو هارون النبي أخو موسى عليه السلام وذلك أنه لما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل اجتمع

---

(١) الاصحاح الثالث من سفر الخروج .

(٢) الاصحاح الثاني من سفر الخروج ، الآية ٢٣ .

(٣) الاصحاح السابع والثامن من سفر الخروج .

الشعب على هارون وقالوا له: قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه؟ فقال لهم هارون: انزعوا أقراط الشعب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها.[١]

فنزع كل الشعب أقراط الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل فصبغه عجلاً مسبوكاً فقالوا: أهذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر؟[٢]

وفي الآيات القرآنية تعريضات للتوراة في هذه المواضع من قصصه عليه السلام غير خفيّة على المتدبر فيها.

و هناك اختلافات جزئية كثيرة كما وقع في التوراة في قصّة قتل القبطي أن المتضاربين ثانياً كانا جميعاً إسرائيليين.[٣]

وأيضاً وقع فيها أن الذي ألقى العصا فتلقفت حيات السحرة هو هارون ألقاها بأمر موسى.

وأيضاً لم تذكر فيها قصة انتخاب السبعين رجلاً للميقات ونزول الصاعقة عليهم وإحياءهم بعده.

وأيضاً فيها أن الألواح التي كانت مع موسى لما نزل من الجبل وألقاها كانت لوحين من حجر وهما لوحا الشهادة، إلى غير ذلك من الاختلافات.[٤]

---

(١) الاصحاح الثاني والثلاثون من سفر الخروج.
(٢) الاصحاح الثاني من سفر الخروج.
(٣) الاصحاح السابع من سفر الخروج.
(٤) الميزان ١٦: ٥٧ ـ ٦٢.

أدب موسى عليه السلام في دعائه

ومن جملة أدعية الأنبياء ما حكاه الله سبحانه عن نبيه موسى عليه السلام في أوائل نشوئه بمصر حين وكز القبطي فقضى عليه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[1]، وقوله حين فرّ من مصر فبلغ مدين وسقى لابنتي شعيب ثم تولى إلى الظل فقال: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[2].

وقد استعمل عليه السلام في مسألتيه من الأدب بعد الالتجاء بالله والتعلق بربوبيته أن صرّح في دعائه الأوّل بالطلب لأنه كان متعلقاً بالمغفرة والله سبحانه يحب أن يستغفر كما قال: ﴿وَاسْتَغْفِرُواْ اللّهَ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[3]، وهو الذي دعا إليه نوح فمن بعده من الأنبياء عليهم السلام، ولم يصرّح بحاجته بعينه في دعائه الثاني الذي ظاهره بحسب دلالة المقام أنه كان يريد رفع حوائج الحياة كالغذاء والمسكن مثلاً، بل إنما ذكر الحاجة ثم سكت، فما للدنيا عند الله من قدر.

واعلم أن قوله عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ يجري في الاعتراف بالظلم وطلب المغفرة مجرى قول آدم وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، بمعنى أن المراد بالظلم هو ظلمه

---

(١) القصص: ١٦.

(٢) القصص: ٢٤.

(٣) البقرة: ١٩٩.

على نفسه لاقترافه عملاً يخالف مصلحة حياته كما أن الأمر كان على هذا النحو في آدم وزوجته.

فإن موسى ﷺ إنما فعل ما فعل قبل أن يبعثه الله بشريعته الناهية عن القتل وإنما قتل نفساً كافرة غير محترمة، ولا دليل على وجود النهي عن مثل هذا القتل قبل شريعته وكان الأمر في عصيان آدم وزوجته على هذه الوتيرة فقد ظلما أنفسهما بالأكل من الشجرة قبل أن يشرع الله شريعة بين النوع الانساني فإنما أسس الله الشرائع كائنة ما كانت بعد هبوطهما من الجنة إلى الأرض.

ومجرد النهي عن اقتراب الشجرة لا دليل على كونه مولوياً مستلزماً لتحقق المعصية المصطلحة بمخالفته، مع أن القرائن قائمة على كون النهي المتعلق بهما إرشادياً كما في آيات سورة طه على ما بيناه في تفسير قصة جنة آدم في الجزء الأول من الكتاب.

على أن الكتاب الإلهي نص في كون موسى ﷺ مخلصاً، وأن إبليس لا سبيل له إلى إغواء المخلصين من عباد الله تعالى ومن الضروري أن لا معصية بدون إغواء إبليس قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً﴾[١]، وقال تعالى: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٢].

ومن هنا يظهر أن المراد بالمغفرة المسؤولة في دعائه كما في دعائهما عليهما السلام ليست هي إمحاء العقاب الذي يكتبه الله على المجرمين كما في المعاصي المولوية

---

(١) مريم: ٥١.

(٢) ص: ٨٢ ـ ٨٣.

بل إمحاء الآثار السيئة التي كان يستتبعها الظلم على النفس في مجرى الحياة فقد كان موسى عليه السلام يخاف أن يفشو أمره ويظهر ما هو ذنب له عندهم فسأله تعالى أن يستر عليه ويغفره، والمغفرة في عرف القرآن أعم من إمحاء العقاب بل هي إمحاء الأثر السيىء كائنا ما كان، ولا ريب أن أمر الجميع بيد الله سبحانه.

و نظير هذا من وجه قول نوح عليه السلام فيما تقدم من دعـائه ﴿وَإِلَّا تَـغْفِرْ لِـي وَتَرْحَمْنِي﴾، أي وإن لم تؤدبني بأدبك، ولم تعصمني بعصمتك ووقايتك وترحمني بذلك أكن من الخاسرين، فافهم ذلك.

و منه دعاؤه عليه السلام أول ما ألقي إليه الوحي وبعث بالرسالة إلى قومه على ما حكاه الله، قال تعالى:

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي * وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي * يَفْقَهُوا قَوْلِي * وَاجْعَل لِّي وَزِيراً مِّنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْـدُدْ بِـهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً * إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾[1].

ينصح عليه السلام لما بعث لها من الدعوة الدينية ويذكر لربه ـ على ما يفيده الكلام بإعانة من المقام ـ إنك كنت بصيراً بحالي أنا وأخي أنا منذ نشأنا نحب تسبيحك، وقد حملتني الليلة ثقل الرسالة وفي نفسي من الحدة وفي لساني من العقدة ما أنت أعلم به وإني أخاف أن يكذبوني أن دعوتهم إليك وبلغتهم رسالتك فيضيق صدري ولا ينطلق لساني فاشرح لي صدري، ويسر لي أمري، وهذا رفع التـحرج الذي ذكره الله بقوله: ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيما فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ

(١) طه: ٢٥ ـ ٣٥.

خَلَوْا مِن قَبْلُ﴾[١]، واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي، وأخي هارون أفصح مني لساناً، وهو من أهلي فأشركه في هذا الأمر واجعله وزيراً لي كي نسبحك ـ كما كنا نحبه ـ كثيرا ونذكرك عند ملأ الناس بالتعاضد كثيراً فهذا محصل ما سأله عليه السلام ربه من أسباب الدعوة والتبليغ، والأدب الذي استعمل فيه أن ذكر غايته وغرضه من أسئلته لئلا يوهم كلامه أنه يسأل ما يسأل لنفسه فقال: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً * وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً﴾ واستشهد على صدقه في دعواه بعلم الله نفسه بإلقاء أنفسهما بين يديه وعرضها عليه فقال: ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيراً﴾ وعرض السائل المحتاج نفسه في حاجتها على المسؤول الغني الجواد من أقوى ما يهيج عاطفة الرحمة لأنه يفيد إراءة نفس الحاجة فوق ما يفيده ذكر الحاجة باللسان الذي لا يمتنع عليه أن يكذب.

ومنه ما حكى الله عنه مما دعا به على فرعون وملئه إذ قال: ﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّى يَرَوُاْ الْعَذَابَ الأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلاَ تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٢].

الدعاء لموسى وهارون ولذلك صدر بكلمة ﴿رَبَّنَا﴾ ويدل عليه ما في الآية التالية: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾ دعوا أولا على أموالهم أن يطمس الله عليها ثم على أنفسهم أن يشد الله على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم فلا يقبل إيمانهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ

(١) الأحزاب: ٣٨.

(٢) يونس: ٨٨ ـ ٨٩.

آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً﴾[١]، أي انتقم منهم بتحريم الإيمان عليهم بمفاجأة العذاب كما حرموه على عبادك بإضلالهم، وهذا أشد ما يمكن أن يدعى به على أحد فإنه الدعاء بالشقوة الدائمة ولا شيء شراً منه بالنسبة إلى إنسان.

و الدعاء بالشر غير الدعاء بالخير حكماً فإن الرحمة الإلهية سبقت غضبه وقد قال لموسى فيما أوحي إليه: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٢]، فسعة الرحمة الإلهية تقضي بكراهية إصابة الشر والضر لعبد من عباده وإن كان ظالماً، ويشهد بذلك ما يفيض الله سبحانه من نعمه عليهم وسترهم بكرمه وأمره عباده بالحلم والتصبر عند جهالتهم وخرقهم اللهم إلا في إقامة حق لازم، أو عند اضطرار في مظلمة إذا كانوا على علم بأن مصلحة ملزمة كمصلحة الدين أو أهل الدين تقتضي ذلك.

على أن جهات الخير والسعادة كلما كانت أرق لطافة وأدق رتبة كانت أوقع عند النفوس بالفطرة التي فطر الله الناس عليها بخلاف جهات الشر والشقاء فإن الإنسان بحسب طبعه يفر من الوقوف عليها، ويحتال أن لا يلتفت إلى أصلها فضلا عن تفاصيل خصوصياتها، وهذا المعنى يوجب اختلاف الدعاءين أعني الدعاء بالخيرالدعاء بالشر من حيث الآداب.

فمن أدب الدعاء بالشر أن تذكر الأمور التي بعثت إلى الدعاء بالتكنية وخاصة في الأمور الشنيعة الفظيعة بخلاف الدعاء بالخير فإن التصريح بعوامل الدعاء فيه هو المطلوب، وقد راعاه عليه السلام في دعائه حيث قال: ﴿لِيُضِلُّواْ عَن

(١) الأنعام: ١٨٥.

(٢) الأعراف: ١٦٥.

سَبِيلِكَ﴾، ولم يأت بتفاصيل ما كان يأتي به آل فرعون من الفظائع.

ومن أدبه الإكثار من الاستغاثة والتضرع وقد راعاه فيما يقول: ﴿رَبَّنَا﴾ وتكرره مرات في دعائه على قصره.

ومن أدبه أن لا يقدم عليه إلا مع العلم بأنه على مصلحة الحق من دين أو أهله من دون أن يجري على ظن أو تهمة، وقد كان ﷺ على علم منه وقد قال الله فيه: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى﴾(١)، وكأنه لذلك أمره الله سبحانه وأخاه عند ما أخبرهما بالاستجابة بقوله: ﴿فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الله أعلم.

ومن دعاء موسى ما حكاه الله عنه في قوله:

﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ * وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَـذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾(٢).

يبتدىء الدعاء من قوله: ﴿فَاغْفِرْ لَنَا...﴾، غير أن الموقف لما كان موقفاً صعباً قد أخذهم الغضب الإلهي والبطش الذي لا يقوم له شيء، وما مسألة المغفرة والرحمة من سيد ساخط قد هتكت حرمته وأهين على سؤدده كمسألة من هو في حال سوي فلذلك قدم ﷺ ما تسكن به فورة الغضب الإلهي حتى يتخلص إلى طلب المغفرة والرحمة.

---

(١) طه: ٥٦.

(٢) الأعراف: ١٥٥ ـ ١٥٦.

فقال: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ﴾ يريد عليه السلام ـ كما تدل عليه قرينة المقام ـ رب إن نفسي ونفوسهم جميعاً قبض قدرتك، وطوع مشيئتك، لو شئت أهلكتهم وأنا فيهم قبل اليوم كما أهلكتهم اليوم وأبقيتني فماذا أقول لقومي إذا رجعت إليهم واتهموني بأني قتلتهم، وحالهم ما أنت أعلم به؟ وهذا يبطل دعوتي ويحبط عملي.

ثم عدّ عليه السلام إهلاك السبعين إهلاكاً له ولقومه فذكر أنهم سفهاء من قومه لا يعبأ بفعلهم فأخذ ربه برحمته حيث لم يكن من عادته تعالى أن يهلك قوماً بفعل السفهاء منهم، وليس ذلك إلا مورداً من موارد الامتحان العام الذي لا يزال جارياً على الإنسان فيضلّ به كثير، ويهتدي به كثير، ولم تقابلها إلا بالصفح والستر.

وإذ كان بيدك أمر نفسي ونفوسنا تقدر على إهلاكنا متى شئت، وكانت هذه الواقعة غير بدع في مسير امتحانك العام الذي يعقب ضلال قوم وهداية آخرين، ولا ينتهي إلا إلى مشيئتك فأنت ولينا الذي يقوم بأمرك ومشيئتك تدبير أمورنا، ولا صنع لنا فيها فاقض فينا بالمغفرة والرحمة فإن من جملة صفاتك أنك خير الغافرين، واكتب لنا في هذه الدنيا عيشة آمنة من العذاب وهي التي يستحسنها من أحاط به غمر السخط الإلهي، وفي الآخرة حسنة بالمغفرة والجنة.

وهذا ما ساقه عليه السلام في مسألته، وقد أخذتهم الرجفة وشملتهم البلية فانظر كيف استعمل جميل أدب العبودية واسترحم ربه، ولم يزل يستوهب الرحمة، ويسكن بثنائه فورة السخط الإلهي حتى أجيب إلى ما لم يذكره من الحاجة بين ما ذكره، وهو إعادة حياتهم إليهم بعد الإهلاك، وأوحي إليه بما حكاه الله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾[١]، فما ظنك به تعالى بعد ما قال لموسى ﷺ جواباً لمسألته: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾.

وقد ذكر تعالى صريح عفوه عن هؤلاء، وإجابته إلى مسألته موسى ﷺ بإعادة الحياة إليهم وقد أهلكوا وردهم إلى الدنيا بقوله:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[٢].

ويقرب من ذلك ما في سورة النساء.

وقد استعمل ﷺ من الأدب في كلامه حيث قال: ﴿تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ﴾ لم يذكر أن ذلك من سوء اختيار هؤلاء الضالين لينزهه تعالى لفظاً كما كان ينزهه قلباً فيكون على حد قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾[٣]، لأن المقام كان يصرفه عن التعرض إلا لكونه تعالى ولياً على الإطلاق ينتهي إليه كل التدبير لا غير.

ولم يورد في الذكر أيضاً عمدة ما في نفسه من المسألة وهو أن يحييهم الله سبحانه بعد الإهلاك لأن الموقف على ما كان فيه من هول وخطر كان يصرفه عن الاسترسال، وإنما أشار إليه إشارة بقوله: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ...﴾.

ومن دعائه ﷺ ما دعا به حين رجع إلى قومه من الميقات فوجدهم قد

---

(١) الاعراف: ١٦٥.

(٢) البقرة: ٥٦.

(٣) البقرة: ٢٦.

عبدوا العجل من بعده، وقد كان الله سبحانه أخبره بذلك قال تعالى :

﴿وَأَلْقَى الأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلاَ تُشْمِتْ بِيَ الأعْدَاءَ وَلاَ تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[١].

فعند ذلك رقّ له ودعا له ولنفسه ليمتازا بذلك من القوم الظالمين: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾[٢].

ولم يكن يريد التميز منهم وأن يدخلهما الله في رحمته إلا لما كان يعلم أن الغضب الإلهي سينال القوم بظلمهم كما ذكره الله بقوله بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا﴾[٣]، ويعرف بما تقدم وجوه من الأدب في كلامه.

ومن دعائه عليه السلام ـ وهو في معنى الدعاء على قومه إذ قالوا له حين أمرهم بدخول الأرض المقدسة: ﴿قَالُواْ يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَداً مَّا دَامُواْ فِيهَا فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾[٤]، ما حكاه الله تعالى بقوله:

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِي وَأَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾[٥].

وقد أخذ عليه السلام بالأدب الجميل حيث كنى عن الإمساك عن أمرهم وتبليغهم أمر ربهم ثانياً بعد ما جبهوا أمره الأوّل بأقبح الرد وأشنع القول بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لاَ

---

(١) الأعراف: ١٠٥.

(٢) الأعراف: ١١٥.

(٣) الأعراف: ١٢٥.

(٤) المائدة: ٢٤.

(٥) المائدة: ٢٥.

أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ ، أي لا يطيعني فيما أمرته إلا نفسي وأخي، أي إنهم ردوا علي بما لا مطمع فيهم بعده، فها أنا أكف عن أمرهم بأمرك وإرشادهم إلى ما فيه صلاح جماعتهم.

و إنما نسب ملك نفسه وأخيه إلى نفسه لأن مراده من الملك بقرينة المقام ملك الطاعة ولو كان هو الملك التكويني لم ينسبه إلى نفسه إلا مع بيان أن حقيقته لله سبحانه، وإنما له من الملك ما ملكه الله إياه، ولما عرض لربه من نفسه الإمساك واليأس عن إجابتهم إليه أحال الحكم في ذلك فقال: ﴿فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾.[1]

---

(١) الميزان ٦: ٣٩٧ ـ ٤٠٦.



قصّة

موسى والخضر عليهما السلام



وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَذَا نَصَباً ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصاً ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً ﴿٧٠﴾ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً ﴿٧٣﴾ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَاماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً ﴿٧٦﴾ فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَنْ يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ

عَلَيْهِ أَجراً ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِك سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَردتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً ﴿٨٢﴾

قصّة موسى والخضر ﷺ في القرآن

أوحى الله سبحانه إلى موسى أن هناك عبداً من عباده عنده من العلم ما ليس عند موسى وأخبره أنه إن انطلق إلى مجمع البحرين وجده هناك، وهو بالمكان الذي يحيى فيه الحوت الميت أو يفتقد فيه الحوت.

فعزم موسى أن يلقى العالم ويتعلم منه بعض ما عنده إن أمكن وأخبر فتاه عما عزم عليه فخرجا قاصدين مجمع البحرين وقد حملا معهما حوتاً ميتاً وذهباً حتى بلغا مجمع البحرين وقد تعبا وكانت هناك صخرة على شاطىء البحر فأويا إليها ليستريحا هنيئة وقد نسيا حوتهما وهما في شغل منه.

وإذا بالحوت اضطرب ووقع في البحر حيا، أو وقع فيه وهو ميت، وغار فيه والفتى يشاهده ويتعجب من أمره غير أنه نسي أن يذكره لموسى حتى تركا الموضع وانطلقا حتى جاوزا مجمع البحرين وقد نصبا فقال له موسى: آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا.

فذكر الفتى ما شاهده من أمر الحوت وقال لموسى: إنا إذ أوينا إلى الصخرة حيى الحوت ووقع في البحر يسبح فيه حتى غار وكنت أريد أن أذكر لك أمره لكن الشيطان أنسانيه أو إني نسيت الحوت عند الصخرة فوقع في البحر وغار فيه.

قال موسى: ذلك ما كنا نبغي ونطلب فلنرجع إلى هناك فارتدا على آثارهما قصصا فوجدا عبداً من عباد الله آتاه الله رحمة من عنده وعلمه علماً من لدنه

فعرض عليه موسى وسأله أن يتبعه فيعلمه شيئاً ذا رشد مما علمه الله.

قال العالم: إنك لن تستطيع معي صبراً على ما تشاهده من أعمالي التي لا علم لك بتأويلها، وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟ فوعده موسى أن يصبر ولا يعصيه في أمر إن شاء الله فقال له العالم بانياً على ما طلبه منه ووعده به: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً.

فانطلق موسى والعالم حتى ركبا سفينة وفيها ناس من الركاب وموسى خالي الذهن عما في قصد العالم فخرق العالم السفينة خرقا لا يؤمن معه الغرق فأدهش ذلك موسى وأنساه ما وعده فقال للعالم: أخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمراً قال له العالم: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً؟ فاعتذر إليه موسى بأنه نسي ما وعده من الصبر قائلا: لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسراً.

فانطلقا فلقيا غلاماً فقتله العالم فلم يملك موسى نفسه دون أن تغير وأنكر عليه ذلك قائلاً: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكراً.

قال له العالم ثانياً: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا؟ فلم يكن عند موسى ما يعتذر به ويمتنع به عن مفارقته ونفسه غير راضية بها فاستدعى منه مصاحبة مؤجلة بسؤال آخر إن أتى به كان له فراقه واستمهله قائلا: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذرا وقبله العالم.

فانطلقا حتى أتيا قرية وقد بلغ بهما الجوع فاستطعما أهلها فلم يضيفهما أحد منهم وإذا بجدار فيها يريد أن ينقض ويتحذر منه الناس فأقامه العالم.

قال له موسى: لو شئت لاتخذت على عملك منهم أجرا فتوسلنا به إلى سد الجوع فنحن في حاجة إليهالقوم لا يضيفوننا.

فقال له العالم: هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ثم قال: أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ويتعيشون بها وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا فخرقتها لتكون معيبة لا يرغب فيها.

وأما الغلام فكان كافراً وكان أبواه مؤمنين، ولو أنه عاش لأرهقهما بكفره وطغيانه فشملتهما الرحمة الإلهية فأمرني أن أقتله ليبدلهما ولداً خيراً منه زكاة وأقرب رحماً فقتلته.

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فشملتهما الرحمة الالهية لصلاح أبيهما فأمرني أن أقيمه فيستقيم حتى يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما ولو انقض لظهر أمر الكنز و انتهبه الناس.

قال: وما فعلت الذي فعلت عن أمري بل عن أمر من الله، وتأويلها ما أنبأتك به ثم فارق موسى.

شخصية الخضر عليه السلام

لم يرد ذكره في القرآن إلا ما في قصة رحلة موسى إلى مجمع البحرين، ولا ذكر شيء من جوامع أوصافه إلا ما في قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[1].

والذي يتحصل من الروايات النبوية أو الواردة من طرق أئمة أهل البيت في قصّته، ففي رواية محمد بن عمارة عن الصادق عليه السلام: أن الخضر كان نبياً مرسلاً

(١) الكهف: ٦٥.

بعثه الله تبارك وتعالى إلى قومه فدعاهم إلى توحيده والإقرار بأنبيائه ورسله وكتبه، وكان آيته أنه لا يجلس على خشبة يابسة ولا أرض بيضاء إلا أزهرت خضراء وإنما سمي خضراً لذلك، وكان اسمه تاليا بن مالك بن عابر بن أرفخشد بن سام بن نوح...

ويؤيد ما ذكر من وجه تسميته ما في الدر المنثور، عن عدة من أرباب الجوامع عن ابن عباس وأبي هريرة عن النبي ﷺ قال: إنما سمي الخضر خضراً لأنه صلى على فروة بيضاء فاهتزت خضراء.[1]

وفي بعض الأخبار كما فيما رواه العياشي[2]، عن بريد عن أحدهما عليهما السلام: الخضر وذو القرنين كانا عالمين، ولم يكونا نبيين، لكن الآيات النازلة في قصته مع موسى لا تخلو عن ظهور في كونه نبياً كيف؟ وفيها نزول الحكم عليه.

ويظهر من أخبار متفرقة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام أنه حي لم يمت بعد وليس بعزيز على الله سبحانه أن يعمر بعض عباده عمراً طويلاً إلى أمد بعيد ولا أن هناك برهاناً عقلياً يدل على استحالة ذلك.

وقد ورد في سبب ذلك في بعض الروايات[3] من طرق العامة أنه ابن آدم لصلبه ونسيء له في أجله حتى يكذب الدجال، وفي بعضها[4] أن آدم عليه السلام دعا له بالبقاء إلى يوم القيامة.

وفي عدة روايات من طرق الفريقين[5] أنه شرب من عين الحياة التي هي

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٣٤.

(٢) تفسير العيّاشي ٢: ٣٠٣.

(٣) الدر المنثور ٤: ٢٣٤.

(٤) الدر المنثور ٤: ٢٣٤.

(٥) تفسير البرهان ٢: ٤٨ ح ٦، الدر المنثور ٤: ٢٣٩.

في الظلمات حين دخلها ذو القرنين في طلبها وكان الخضر في مقدمته فرزقه الخضر ولم يرزقه ذو القرنين، وهذه وأمثالها آحاد غير قطعية من الأخبار لا سبيل إلى تصحيحها بكتاب أو سنة قطعية أو عقل.

وقد كثرت القصص والحكايات وكذا الروايات في الخضر بما لا يعول عليها ذو لب كرواية خصيف: أربعة من الأنبياء أحياء اثنان في السماء: عيسى وإدريس، واثنان في الأرض الخضر وإلياس ؛ فأما الخضر فإنه في البحر وأما صاحبه فإنه في البر.[1]

ورواية العقيلي عن كعب قال: الخضر على منبر بين البحر الأعلى والبحر الأسفل، وقد أمرت دواب البحر أن تسمع له وتطيع، وتعرض عليه الأرواح غدوة وعشية.[2]

ورواية كعب الأحبار: أن الخضر بن عاميل ركب في نفر من أصحابه حتى بلغ بحر الهند وهو بحر الصين فقال لأصحابه: يا أصحابي ادلوني فدلوه في البحر أياما وليالي ثم صعد فقالوا: يا خضر ما رأيت؟ فلقد أكرمك الله وحفظ لك نفسك في لجة هذا البحر فقال استقبلني ملك من الملائكة فقال لي: أيها الآدمي الخطاء إلى أين؟ ومن أين؟ فقلت: إني أردت أن أنظر عمق هذا البحر. فقال لي: كيف؟ وقد أهوى رجل من زمان داود عليه السلام لم يبلغ ثلث قعره حتى الساعة وذلك منذ ثلاثمائة سنة[3]، إلى غير ذلك من الروايات المشتملة على نوادر القصص.

(١) الدر المنثور ٤: ٢٣٩.
(٢) الدر المنثور ٤: ٢٣٩.
(٣) الدر المنثور ٤: ٢٣٩.

قصّة موسى والخضر عليهما السلام في الروايات

في تفسير البرهان، عن ابن بابويه بإسناده عن جعفر بن محمد بن عمارة، عن أبيه، عن جعفر بن محمد عليهما السلام في حديث: أن موسى لما كلمه الله تكليماً، وأنزل عليه التوراة، وكتب له في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء، وجعل آية في يده وعصاه، وفي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم وفلق البحر وغرق الله فرعون وجنوده عملت البشرية فيه حتى قال في نفسه: ما أرى الله عز وجل خلق خلقا أعلم مني فأوحى الله إلى جبرئيل: أدرك عبدي قبل أن يهلك، وقل له: أن عند ملتقى البحرين رجلاً عابداً فاتبعه وتعلم منه.

فهبط جبرئيل على موسى بما أمره به ربّه عزّ وجل فعلم موسى أن ذلك لما حدثته به نفسه فمضى هو وفتاه يوشع بن نون حتى انتهيا إلى ملتقى البحرين فوجدا هناك الخضر يعبد الله عز وجل كما قال الله في كتابه: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[١]...[٢]

قال المؤلّف عليه السلام: والحديث طويل يذكر فيه صحبته للخضر وما جرى بينهما مما ذكره الله في كتابه في القصة.

---

(١) الكهف: ٦٥.

(٢) تفسير البرهان ٢: ٤٧٢.

وروى القصة العياشي في تفسيره[١]، بطريقين، والقمّي في تفسيره[٢]، بطريقين مسنداً ومرسلاً، ورواه في الدر المنثور[٣]، بطرق كثيرة من أرباب الجوامع كالبخاري ومسلم والنسائي والترمذي وغيرهم عن ابن عباس عن أُبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: والأحاديث متّفقة في معنى ما نقلناه من صدر حديث محمد بن عمارة، وفي أن الحوت الذي حملاه حي عند الصخرة واتخذ سبيله في البحر سرباً لكنها تختلف في أمور كثيرة أضافتها إلى ما في القرآن من أصل القصة.

منها ما يتحصل من رواية ابن بابويه والقمي: أن مجمع البحرين من أرض الشامات وفلسطين بقرينة ذكرهما أن القرية التي ورداها هي الناصرة التي تنسب إليها النصارى، وفي بعضها أن الأرض كانت آذربيجان.

وهو يوافق ما في الدر المنثور عن السدي: أن البحرين هما الكر والرس حيث يصبان في البحر وأن القرية كانت تسمى باجروان وكان أهلها لئاماً.

وروي عن أُبي: أنه إفريقية، وعن القرظي أنه طنجة، وعن قتادة أنه ملتقى بحر الروم وفارس.[٤]

ومنها ما في بعض الروايات[٥] أن الحوت كان مشوياً وفي أكثرها[٦] أنه كان مملوحاً.

---

(١) تفسير العيّاشي ٢: ٣٣٠ و ٣٣٢.
(٢) تفسير القمّي ٢: ٣٧ و ٣٨.
(٣) الدر المنثور ٤: ٢٢٩.
(٤) الدر المنثور ٤: ٢٣٥.
(٥) منهج الصادقين ٥: ٣٦٦.
(٦) نور الثقلين ٣: ٢٧٠ ح ١٢٨.

ومنها ما في مرسلة القمي[١]، وروايات[٢] الشيخين والنسائي والترمذي وغيرهم: أنه كانت عند الصخرة عين الحياة حتى في رواية مسلم وغيره أن الماء كان ماء الحياة من شرب منه خلد ولا يقاربه شيء ميت إلا حي فلما نزلا ومس الحوت الماء حي...

وفي غيرها أن فتى موسى توضأ من الماء فقطرت منه قطرة على الحوت فحيى، وفي غيرها أنه شرب منه ولم يكن له ذلك فأخذه الخضر وطابقه في سفينة وتركها في البحر فهو بين أمواجها حتى تقوم الساعة وفي بعضها أنه كانت عند الصخرة عين الحياة التي كان يشرب منها الخضر وبقية الروايات خالية عن ذكرها.

ومنها ما في رواية الصحاح الأربع وغيرها: أن الحوت سقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً فأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق...

وفي بعض هذه الروايات أن موسى بعد ما رجع أبصر أثر الحوت فأخذ أثر الحوت يمشيان على الماء حتى انتهيا إلى جزيرة من جزائر العرب.

وفي حديث الطبري عن ابن عباس في القصة: فرجع يعني موسى حتى أتى الصخرة فوجد الحوت فجعل الحوت يضرب في البحر ويتبعه موسى يقدم عصاه يفرج بها عنه الماء ويتبع الحوت وجعل الحوت لا يمس شيئا من البحر إلا يبس حتى يكون صخرة...[٣] وبعضها خال عن ذلك.

---

(١) تفسير القمّي ٢: ٣٧.
(٢) الدر المنثور ٤: ٢٣١.
(٣) تاريخ الطبري ١: ٣٧٠.

ومنها ما في أكثرها أن موسى لقي الخضر عند الصخرة، وفي بعضها أنه ذهب من سرب الحوت أو على الماء حتى وجده في جزيرة من جزائر البحر، وفي بعضها وجده على سطح الماء جالساً أو متكئاً.

ومنها اختلافها في أن الفتى هل صحبهما أو تركاه وذهبا.

ومنها اختلافها في كيفية خرق السفينة وفي كيفية قتل الغلام وفي كيفية إقامة الجدار وفي الكنز الذي تحته لكن أكثر الروايات أنه كان لوحا من ذهب مكتوباً فيه مواعظ، وفي الأب الصالح فظاهر أكثرها أنه أبوهما الأقرب، وفي بعضها أنه أبوهما العاشر وفي بعضها السابع، وفي بعضها بينهما وبينه سبعون أبا وفي بعضها كان بينهما وبينه سبعمائة سنة، إلى غير ذلك من جهات الاختلاف.

وفي تفسير القمي، عن محمد بن علي بن بلال، عن يونس في كتاب كتبوه إلى الرضا عليه السلام: يسألونه عن العالم الذي أتاه موسى أيهما كان أعلم؟ وهل يجوز أن يكون على موسى حجة في وقته؟ فكتب في الجواب: أتى موسى العالم فأصابه في جزيرة من جزائر البحر إما جالساً وإما متكئاً فسلم عليه موسى فأنكر السلام إذ كان الأرض ليس بها سلام. قال: من أنت؟ قال: أنا موسى بن عمران. قال: أنت موسى بن عمران الذي كلمه الله تكليما؟ قال: نعم. قال: فما حاجتك؟ قال: جئت لتعلمني مما علمت رشداً. قال: إني وكلت بأمر لا تطيقه، وكلت بأمر لا أطيقه...[1]

قال المؤلّف رحمه الله : وهذا المعنى مروي في أخبار أخر من طرق الفريقين.

وفي الدر المنثور، أخرج الحاكم وصححه عن أبي أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: لما لقي موسى الخضر جاء طير فألقى منقاره في الماء فقال الخضر لموسى: تدري ما

(١) تفسير القمّي ٢: ٣٨.

يقول هذا الطائر؟ قال: وما يقول؟ قال: يقول: ما علمك وعلم موسى في علم الله إلّا كما أخذ منقاري من الماء.(١)

قال المؤلّف ﷺ: وقصة هذا الطائر وارد في أغلب روايات القصة.

وفي تفسير العياشي، عن هشام بن سالم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان موسى أعلم من الخضر.(٢)

و فيه، عن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان وصي موسى يوشع بن نون، وهو فتاه الذي ذكره في كتابه.(٣)

وفيه، عن عبد الله بن ميمون القداح، عن أبي عبد الله عن أبيه عليهما السلام قال: بينما موسى قاعد في ملأ من بني إسرائيل إذ قال له رجل: ما أرى أحدا أعلم بالله منك قال موسى: ما أرى فأوحى الله إليه بلى عبدي الخضر فسأل السبيل إليه وكان له الحوت آية إن افتقده، وكان من شأنه ما قص الله.(٤)

قال المؤلّف ﷺ: وينبغي أن يحمل اختلاف الروايات في علمهما على اختلاف نوع العلم.

وفيه، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام: في قوله: ﴿فَخَشِينَا﴾ خشي إن أدرك الغلام أن يدعو أبويه إلى الكفر فيجيبانه من فرط حبهما له.(٥)

وفيه، عن عثمان عن رجل، عن أبي عبد الله عليه السلام: في قول الله: ﴿فَأَرَدْنَا أَن

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢٣٤.

(٢) تفسير العيّاشي ٢: ٣٣٠ح ٤٢.

(٣) تفسير العيّاشي ٢: ٣٣٠ح ٤٣.

(٤) تفسير العيّاشي ٢: ٣٣٤ح ٤٨.

(٥) تفسير العيّاشي ٢: ٣٣٦ح ٥٦.

يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ قال: إنه ولدت لهما جارية فولدت غلاماً فكان نبياً.(١)

قال المؤلّف رحمه الله: وفي أكثر الروايات أنها ولد منها سبعون نبياً والمراد ثبوت الواسطة.

وفيه، عن إسحاق بن عمار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن الله ليصلح بصلاح الرجل المؤمن ولده وولد ولده ويحفظه في دويرته ودويرات حوله فلا يزالون في حفظ الله لكرامته على الله. ثم ذكر الغلامين فقال: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾، ألم تر أن الله شكر صلاح أبويهما لهما؟(٢)

وفيه، عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر بن محمد، عن آبائه عليهم السلام أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: إن الله ليخلف العبد الصالح بعد موته في أهله وماله وإن كان أهله أهل سوء ثم قرأ هذه الآية إلى آخرها ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾.(٣)

وفي الدر المنثور، أخرج ابن مردويه، عن جابر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن الله يصلح بصلاح الرجل الصالح ولده وولد ولده وأهل دويرات حوله فما يزالون في حفظ الله ما دام فيهم.(٤)

قال المؤلّف رحمه الله: والروايات في هذا المعنى كثيرة مستفيضة.

وفي الكافي، بإسناده، عن صفوان الجمال قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن

(١) تفسير العيّاشي ٢: ٣٣٦ح ٥٩.
(٢) تفسير العيّاشي ٢: ٣٣٧ح ٦٣.
(٣) تفسير العيّاشي ٢: ٣٣٧ح ٦٣.
(٤) الدر المنثور ٤: ٢٣٥.

قول الله عزّ وجل: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، فقال: أما إنه ما كان ذهباً ولا فضة، وإنما كان أربع كلمات: لا إله إلا الله، من أيقن بالموت لم يضحك، ومن أيقن بالحساب لم يفرح قلبه، ومن أيقن بالقدر لم يخش إلا الله.[١]

قال المؤلّف ﷺ : وقد تكاثرت الروايات من طرق الشيعة وأهل السنة أن الكنز الذي كان تحت الجدار كان لوحا مكتوباً فيه الكلمات، وفي أكثرها أنه كان لوحاً من ذهب، ولا ينافيه قوله في هذه الرواية: «ما كان ذهباً ولا فضة»، لأن المراد به نفي الدينار والدرهم كما هو المتبادر.

والروايات مختلفة في تعيين الكلمات التي كانت مكتوبة على اللوح لكن أكثرها متفقة في كلمة التوحيد و مسألتي الموت والقدر.

وقد جمع في بعضها بين الشهادتين كما رواه في الدر المنثور، عن البيهقي في شعب الإيمان عن علي بن أبي طالب: في قول الله عز وجل: ﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا﴾، قال: كان لوحاً من ذهب مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله، عجباً لمن يذكر أن الموت حق كيف يفرح؟ وعجباً لمن يذكر أن النار حق كيف يضحك؟ وعجباً لمن يذكر أن القدر حق كيف يحزن؟ وعجباً لمن يرى الدنيا وتصرفها بأهلها حالاً بعد حال كيف يطمئن إليها؟[٢]

---

(١) الكافي ٢: ٥٨ ح ٦.

(٢) الميزان ١٣: ٤٨٥ ـ ٤٩٥.

أدب موسى ﷺ بين يدي معلمه

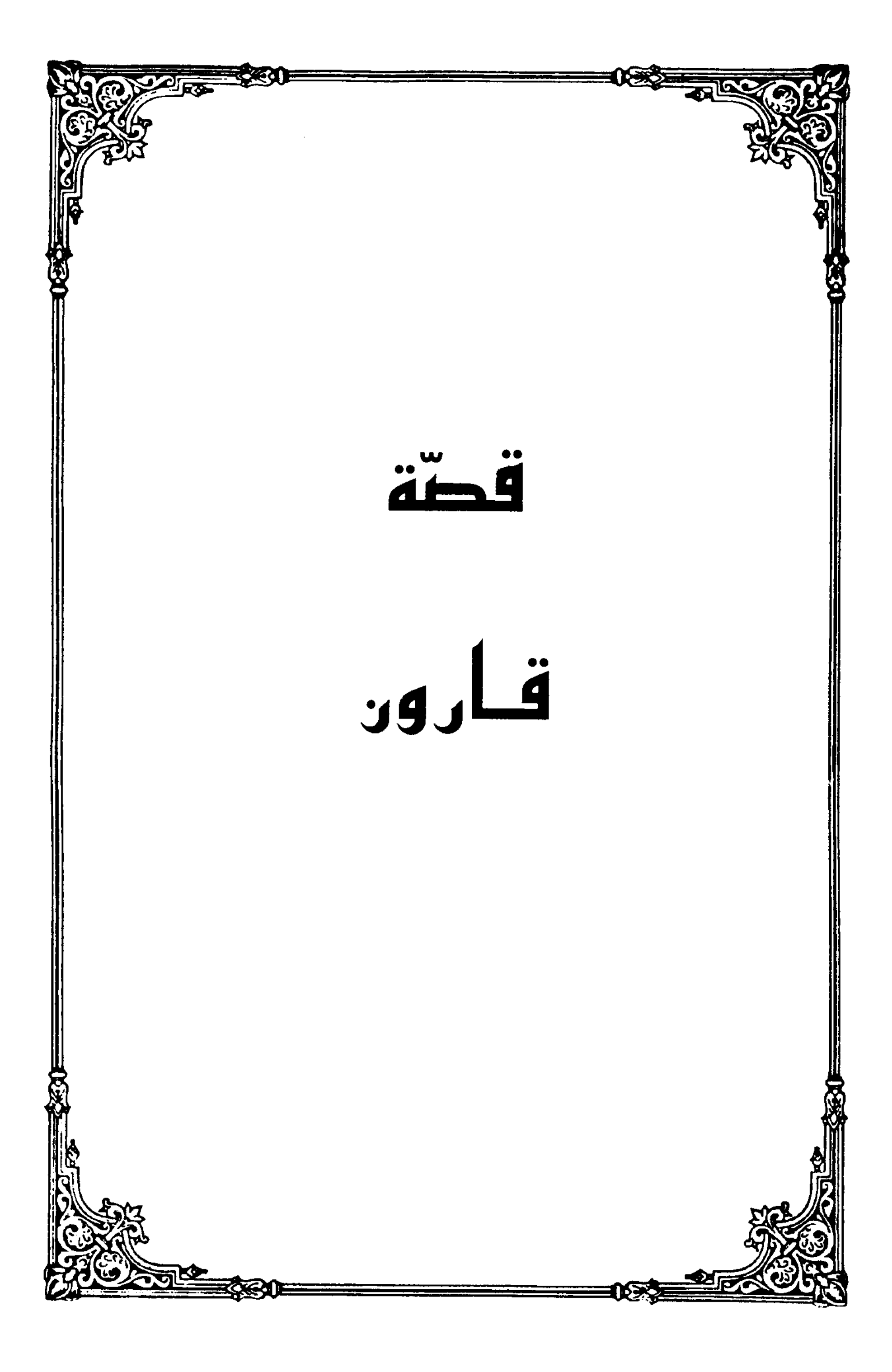
هناك مطلب عجيب في هذه القصّة يمكن الاستفادة منه، فقد أتى موسى ﷺ من الخلق والأدب البارع الحري بالمتعلم المستفيد قبال الخضر ـ على ما تحكيه هذه الآيات ـ بأمر عجيب وهو كليم الله موسى بن عمران الرسول النبي أحد أولي العزم صاحب التوراة.

فكلامه موضوع على التواضع من أوله إلى آخره، وقد تأدب معه أولاً فلم يورد طلبه منه التعليم في صورة الأمر بل في صورة الاستفهام هضماً لنفسه، وسمي مصاحبته اتباعا منه له، ثم لم يورد التعليم في صورة الاشتراط بل قال: على أن تعلمن إلخ، ثم عد نفسه متعلماً، ثم أعظم قدر علمه إذ جعله منتسباً إلى مبدأ غير معلوم لم يعينه باسم أو نعت فقال: ﴿عُلِّمْتَ﴾ ولم يقل: تعلم، ثم مدحه بقوله: ﴿رُشْداً﴾ ثم جعل ما يتعلمه بعض علمه فقال: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾ ولم يقل: ما علمت ثم رفع قدره إذ جعل ما يشير عليه به أمراً يأمره وعد نفسه لو خالفه فيما يأمر عاصيا ثم لم يسترسل معه بالتصريح بالوعد بل كنى عنه بمثل قوله: ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّـهُ صَابِراً وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْراً﴾.

وقد تأدّب الخضر معه إذ لم يصرّح بالرد أولاً بل أشار إليه بنفي استطاعته على الصبر ثم لما وعده موسى بالصبر إن شاء الله لم يأمره بالاتباع بل خلى بينه

وبين ما يريد فقال: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي﴾: ثم لم ينهه عن السؤال نهياً مطلقاً في صورة المولوية المحضة بل علّقه على اتباعه فقال: ﴿فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ حتى يفيد أنه لا يقترح عليه بالنهي بل هو أمر يقتضيه الاتباع.[1]

(١) الميزان ١٣: ٤٧٦ ـ ٤٧٧.



قصّة

قــارون



إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾



بحث روائي

بخصوص قصّة قارون

في الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة في المصنف وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه وابن مردويه عن ابن عباس: أن قارون كان من قوم موسى، قال: كان ابن عمه وكان يبتغي العلم حتى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده.

فقال له موسى عليه السلام: إن الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى فقال: إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلى بغي من بغايا بني إسرائيل فنرسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدي على موسى أنه فجر بك. قالت: نعم.

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال: اجمع بني إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال: نعم، فجمعهم فقالوا له: بم أمرك ربك؟ قال: أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم. قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: نعم.

قالوا: فإنك قد زنيت، قال: أنا؟ فأرسلوا إلى المرأة فجاءت فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام: أنشدتك بالله إلا ما صدقت. قالت: أما إذا نشدتني فإنهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسي وأنا أشهد أنك

بريء وأنك رسول الله.

فخر موسى عليه السلام ساجداً يبكي فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال: خذيهم فأخذتهم إلى أعقابهم فـجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذيهم، فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى، فقال: خذيهم فغيبتهم فأوحى الله: يا مـوسى سألك عـبادي وتضرعوا إليك فلم تجبهم فوعزتي لو أنهم دعوني لأجبتهم.

قال ابن عباس: وذلك قوله تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ﴾ خسف به إلى الأرض السفلى.(١)

قال المؤلّف رحمه الله: وروي فيه، أيضاً عن عبد الرزاق وابن أبي حاتم، عن ابن نوفل الهاشمي القصة: لكن فيها أن المرأة أحضرت إلى مجلس قارون لتشهد عند الملأ من بني إسرائيل على موسى عليه السلام بالفجور وتشكوه إلى قارون فجاءت إليـه واعترفت عند الملأ بالحق فبلغ ذلك موسى عليه السلام فشكاه إلى ربّه فسلطه الله عليه.

وروى القمي في تفسيره: في القصة أن موسى عليه السلام جاء إلى قارون وبلغه حكم الزكاة فاستهزأ بهأخرجه من داره فشكاه إلى ربه فسلطه الله عليه فخسف به وبداره الأرض، والرواية موقوفة مشتملة على أمور منكرة ولذلك تركنا نقلها كما أن روايتي ابن عباس وابن نوفل أيضاً موقوفتان.(٢)

على أن رواية ابن عباس تقصص بغيه على موسى عليه السلام والذي تقصه الآيات بغيه على بني إسرائيل،تشير إلى أن العلم الذي عنده هو ما حصله بالتعلم وظاهر الآية كما مر أنه العلم بطرق تحصيل الثروة ونحوها.

---

(١) الدر المنثور ٥: ١٣٦.

(٢) تفسير القمّي ٢: ١٤٥.

قصّة قارون في التوراة

وقد سيقت القصة في التوراة الحاضرة على نـحو آخـر فـفي الإصـحاح السادس عشر من سفر العدد: وأخذ قورح بن بصهار بن نهات بن لاوي وداثان وأبيرام ابنا ألياب وأون بن فالت بنور أوبين يقاومون موسى مع أناس مـن بـني إسرائيل مائتين وخمسين رؤساء الجماعة مدعوين للاجتماع ذوي اسم.

فاجتمعوا على موسى وهارون وقالوا لهما كفاكما، إن كل الجماعة بأسرها مقدسة وفي وسطها الرب فما بالكما ترتفعان على جماعة الرب؟ فلما سمع موسى سقط على وجهه ثم كلم قورح وجميع قومه قائلاً: غداً يعلن الرب من هو له؟ ومن المقدس؟ حتى يقربه إليه فالذي يختاره يقربه إليه. افعلوا هذا: خذوا لكم محابر قورح وكل جماعته واجعلوا فيها ناراضعوا عليها بخورا أمام الرب غدا فالرجل الذي يختاره الرب هو المقدس. كفاكم يا بني لاوي. ثم سيقت القصة وذكر فيها حضورهم غدا ومجيؤهم بالمجامر وفيها النار والبخور واجتماعهم عـلى بـاب خيمة الاجتماع ثم قيل: انشـقت الأرض التـي تـحتهم وفـتحت الأرض فـاها وابتلعتهم وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال فنزلوا هم وكل ما كان لهم أحياء إلى الهاوية فانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة، وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم، لأنهم قالوا: لعل الأرض تبتلعنا، وخرجت نار من عند الرب وأكلت المائتين والخمسين رجلاً الذين قربوا البخور.

وفي المجمع: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى﴾، وهو ابن خالته: عن عطاء عن ابن عباس وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.(١)

وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ...﴾، قال: كان يحمل مفاتيح خزائنه العصبة أولوا القوة.(٢)

وفي المعاني، بإسناده عن موسى بن إسماعيل بن موسى بن جعفر عليه السلام، عن أبيه، عن جده، عن آبائه، عن علي عليه السلام: في قول الله عزّ وجل: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، قال: لا تنس صحتك وقوتك وفراغك وشبابك ونشاطك أن تطلب بها الآخرة.(٣)

وفي تفسير القمي: في قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾، قال: في الثياب المصبغات يجرها بالأرض.(٤)

وفي المجمع، وروى زاذان، عن أمير المؤمنين عليه السلام: أنه كان يمشي في الأسواق وهو وال يرشد الضال ويعين الضعيف ويمر بالبياع والبقال فيفتح عليه القرآن ويقرأ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً﴾، ويقول: نزلت هذه الآية في أهل العدل والتواضع من الولاة وأهل القدرة من سائر الناس.(٥)

وفيه، روى سلام الأعرج، عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: الرجل ليعجبه شراك

---

(١) مجمع البيان ٧: ٢٦٦.

(٢) تفسير القمّي ٢: ١٤٤.

(٣) معاني الأخبار: ٣٢٥.

(٤) تفسير القمّي ٢: ١٤٤.

(٥) مجمع البيان ٧: ٢٦٩.

نعله فيدخل في هذه الآية ﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ...﴾.[١]

قال المؤلّف ﷺ: وعن السيد ابن طاووس في سعد السعود، أنه رواه عن الطبرسي هكذا: إن الرجل ليعجبه أن يكون شراك نعله أجود من شراك نعل صاحبه فيدخل تحتها.[٢]

وفي الدر المنثور[٣]، أخرج المحاملي والديلمي، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: في الآية قال: التجبر في الأرض والأخذ بغير الحق.[٤]

---

(١) مجمع البيان ٧: ٢٦٩.

(٢) سعد السعود: ٨٨.

(٣) الدر المنثور ٥: ١٣٩.

(٤) الميزان ١٦: ١٢٢ ـ ١٢٦.





قصّة

بلعم بن باعوراء



وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

سورة الأعراف

قصّة بلعم بن باعوراء في القرآن

هذه الآيات الكريمة تمثل قصة أُخرى من قصص بني إسرائيل وهي نبأ بلعم بن باعوراء أمر الله نبيه ﷺ أن يتلوه عليهم يتبين به أن مجرد الاتصال بالأسباب الظاهرية العادية لا يكفي في فلاح الإنسان وتحتم السعادة له ما لم يشأ الله ذلك، وأن الله لا يشاء ذلك لمن أخلد إلى الأرض واتبع هواه فإن مصيره إلى النار ثم يذكر آية ذلك فيهم وهي أنهم لا يستعملون قلوبهم وأبصارهم وآذانهم فيما ينفعهم، والآية الجامعة أنهم غافلون.

قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا...﴾.

معنى إيتاء الآيات على ما يعطيه السياق التلبس من الآيات الأنفسية والكرامات الخاصة الباطنية بما يتنور به طريق معرفة الله له، وينكشف له ما لا يبقى له معه ريب في الحق.

والانسلاخ خروج الشيء وانتزاعه من جلده، وهو كناية استعارية عن أن الآيات كانت لزمتها لزوم الجلد فخرج منها الخبث في ذاته.

والإتباع كالتبع والإتباع التعقيب واقتفاء الأثر يقال: تبع وأتبع واتبع، والكل بمعنى واحد، والغي والغواية هي الضلال كأنه خروج من الطريق للقصور عن حفظ المقصد الذي يوصل إليه الطريق ففيه نسيان المقصد والغاية، فالمتحير في أمره وهو في الطريق غوي، والخارج عن الطريق وهو ذاكر لمقصده ضال،

وهو الأنسب لمورد الآية فإن صاحب النبأ بعد ما انسلخ عن آيات الله وأتبعه الشيطان غاب عنه سبيل الرشد فلم يتمكن من إنجاء نفسه عن ورطة الهلاك، وربما استعمل كل من الغواية والضلالة في معنى واحد.

وهو الخروج عن الطريق الموصل إلى الغاية.

وقد اختلف المفسرون في تعيين من هو صاحب النبأ في هذه الآية على أقوال مختلفة سنشير إلى جلها أو كلها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

و الآية ـ كما ترى ـ أبهمت اسمه واقتصرت على الإشارة إلى إجمال قصته لكنها مع ذلك ظاهرة في أنه نبأ واقع لا مجرد تمثيل فلا وقع لقول من قال: إنها مجرد تمثيل من غير نبأ واقع.

والمعنى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ﴾، أي على بني إسرائيل أو على الناس خبراً عن أمر عظيم وهو ﴿نَبَأَ﴾ الرجل ﴿الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا﴾، وكشفنا لباطنه عن علائم وآثار إلهية عظام يتنور له بها حق الأمر ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا﴾ ورفضها بعد لزومها ﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ فلم يقو على إنجاء نفسه من الهلاك.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ...﴾.

الإخلاد اللزوم على الدوام، والإخلاد إلى الأرض اللصوق بها وهو كناية عن الميل إلى التمتع بالملاذ الدنيوية والتزامها، واللهث من الكلب أن يدلع لسانه من العطش.

فقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ﴾، أي لو شئنا لرفعناه بتلك الآيات وقربناه إلينا لأن في القرب إلى الله ارتفاعاً عن حضيض هذه الدنيا التي هي بما لها من اشتغال

الإنسان بنفسها عن الله وآياته أسفل سافلين، ورفعه بتلك الآيات بما أنها أسباب إلهية ظاهرية تفيد اهتداء من تلبس بها لكنها لا تحتم السعادة للإنسان لأن تمام تأثيرها في ذلك منوط بمشيئة الله، والله سبحانه لا يشاء ذلك لمن أعـرض عـنه وأقبل إلى غيرها.

وهي الحياة الأرضية اللاهية عن الله ودار كرامته فإن الإعـراض عـن الله سبحانه وتكذيب آياته ظلم، وقد حق القول مـنه سـبحانه أنـه لا يـهدي القـوم الظالمين، وأن الذين كفروا وكذبوا بآياته أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

ولذلك عقب تعالى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ بقوله: ﴿وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ﴾، فالتقدير: لكنا لم نشأ ذلك لأنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه وكان ذلك مورداً لإضلالنا لا لهدايتنا كما قال تعالى: ﴿وَيُضِلُّ اللّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللّهُ مَا يَشَاء﴾[1].

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ .

أي إنه ذو هذه السجية لا يتركها سواء زجرته ومنعته أو تركته و ﴿تَحْمِلْ﴾ من الحملة لا من الحمل، ﴿ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا﴾ فالتكذيب منهم سجية وهيئة نفسانية خبيثة لازمة فلا تزال آياتنا تتكرر على حواسهم ويـتكرر التكذيب بها منهم .

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ...﴾ وهو مصدر أي اقصص قصصاً أو اسم مصدر أي اقصص القصة ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فينقادوا للحق وينتزعوا عن الباطل.[2]

---

(١) إبراهيم : ٢٧ .

(٢) الميزان ٨: ٤٣٣ ـ ٤٣٥ .

قصّة بلعم بن باعوراء في الروايات

في تفسير القمي : في قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ...﴾ : قال: حدثني أبي، عن الحسين بن خالد، عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: أنه أعطي بلعم بن باعوراء الاسم الأعظم، وكان يدعو به فيستجيب له فمال إلى فرعون، فلما مر فرعون في طلب موسى وأصحابه قال فرعون لبلعم: ادع الله على موسى وأصحابه ليحبسه علينا فركب حمارته ليمرّ في طلب موسى فامتنعت عليه حمارته فأقبل يضربها فأنطقها الله عزّ وجل، فقالت: ويلك على ماذا تضربني؟ أتريد أن أجيء معك لتدعو على نبي الله وقوم مؤمنين؟ ولم يزل يضربها حتى قتلها فانسلخ الاسم من لسانه، وهو قوله: ﴿فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَـكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾، وهو مثل ضربه الله.[1]

قال المؤلّف رحمه الله : قوله عليه السلام: «وهو مثل ضربه الله»، الظاهر أنه يشير إلى نبأ بلعم.

وفي الدر المنثور، أخرج الفرياني وعبد الرزاق وعبد بن حميد والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والطبراني وابن مردويه عن عبد الله بن مسعود في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا ...﴾،

---

(١) تفسير القمّي ١: ٢٤٨.

قال: هو رجل من بني إسرائيل يقال له: بلعم بن أبر.[١]

وفيه، أخرج عبد بن حميد وابن جرير وأبو الشيخ وابن مردويه من طرق، عن ابن عباس قال: هو بلعم بن باعوراء وفي لفظ: بلعام بن عامر الذي أوتي الاسم كان في بني إسرائيل.[٢]

قال المؤلّف ﷺ: وقد روي كون اسمه بلعم وكونه من بني إسرائيل عن غير ابن عباس، وروي عنه غير ذلك[٣].[٤]

---

(١) الدر المنثور ٣: ١٤٥.

(٢) الدر المنثور ٣: ١٤٥.

(٣) الدر المنثور ٣: ١٤٥.

(٤) الميزان ٨: ٤٤٠.





قصّة

إسماعيل صادق الوعد عليه السلام



وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْـوَعْدِ وَكَـانَ رَسُـولاً نَّبِيّاً ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴿٥٥﴾

سورة مريم



قصّة إسماعيل صادق الوعد

في القرآن والروايات

قصة إسماعيل في القرآن

لم ترد قصة إسماعيل بن حزقيل النبي في القرآن إلا في هاتين الآيتين على أحد التفسيرين وقد أثنى الله سبحانه عليه بجميل الثناء فعده صادق الوعد وآمراً بالمعروف ومرضيّاً عند ربه، وذكر أنه كان رسولاً نبياً.

قصة إسماعيل في الروايات

و أما الحديث ففي علل الشرائع، بإسناده عن ابن أبي عمير ومحمد بن سنان، عمّن ذكره، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن إسماعيل الذي قال الله عزّ وجل في كتابه: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً﴾ لم يكن إسماعيل بن إبراهيم، بل كان نبياً من الأنبياء بعثه الله عزّ وجل إلى قومه فأخذوه وسلخوا فروة رأسه ووجهه فأتاه ملك فقال إن الله جل جلاله بعثني إليك فمرني بما شئت فقال: لي أسوة بما يصنع بالأنبياء عليهم السلام.[1]

---

(١) علل الشرائع: ٧٧ح ٢.

قال المؤلّف ﵀ : وروى هذا المعنى أيضاً بإسناده عن أبي بصير عنه ﵇ وفي آخره: يكون لي أسوة بالحسين ﵇.(١)

وفي العيون، بإسناده إلى سليمان الجعفري عن أبي الحسن الرضا ﵇ قال: أتدري لم سمي إسماعيل صادق الوعد؟

قال: قلت: لا أدري .

قال: وعد رجلاً فجلس له حولاً ينتظره.(٢)

قال المؤلّف ﵀ : وروى هذا المعنى في الكافي(٣)، عن ابن أبي عمير، عن منصور بن حازم، عن أبي عبد الله ﵇، ورواه أيضاً في المجمع(٤)، مرسلاً عنه ﵇.

وفي تفسير القمي: في قوله ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾، قال: وعد وعداً فانتظر صاحبه سنة، وهو إسماعيل بن حزقيل.(٥)

قال المؤلّف ﵀ : وعده ﵇ وهو أنْ يثبت في مكانه في انتظار صاحبه كان مطلقاً لم يقيده بساعة أو يوم ونحوه فألزمه مقام الصدق أن يفي به بإطلاقه ويصبر نفسه في المكان الذي وعد صاحبه أن يقيم فيه حتى يرجع إليه.

وصفة الوفاء كسائر الصفات النفسانية من الحب والإرادة والعزم والإيمان والثقة والتسليم ذات مراتب مختلفة باختلاف العلم واليقين فكما أن من الإيمان ما يجتمع مع أي خطيئة وإثم وهو أنزل مراتبه ولا يزال ينمو و يصفو حتى يخلص

(١) علل الشرائع : ٧٨ح ٣.
(٢) عيون أخبار الرضا ﵇ ٢: ٧٧ح ٩.
(٣) الكافي ٢: ١٠٥ح ٧.
(٤) مجمع البيان ٣: ٥١٨ .
(٥) تفسير القمّي ٢: ٥١ .

من كل شرك خفي فلا يتعلق القلب بشيء غير الله ولو بالتفات إلى من دونه وهو أعلى مراتبه كذلك الوفاء بالوعد ذو مراتب فمن مراتبه في المقال مثلا إقامة ساعة أو ساعتين حتى تعرض حاجة أخرى توجب الانصراف إليها وهو الذي يصدق عليه الوفاء عرفا، وأعلى منه مرتبة الإقامة بالمكان حتى يواس من رجوع الصديق إليه عادة بمجيء الليل ونحوه فيقيد به إطلاق الوعد، وأعلى منه مرتبة الأخذ بإطلاق القول الإقامة حتى يرجع وإن طال الزمان فالنفوس القوية التي تراقب قولها وفعلها لا تلقي من القول إلا ما في وسعها أن تصدقه بالفعل ثم إذا لفظت لم يصرفها عن إتمام الكلمة وإنفاذ العزيمة أي صارف.

وفي الرواية: أن النبي ﷺ وعد بعض أصحابه بمكة أن ينتظره عند الكعبة حتى يرجع إليه فمضى الرجل لشأنه ونسي الأمر فبقي ﷺ ثلاثة أيام هناك ينتظره فاطلع بعض الناس عليه فأخبر الرجل بذلك فجاء واعتذر إليه وهذا مقام الصديقين لا يقولون إلا ما يفعلون.[1]

---

(١) الميزان ١٤: ٨٥ و٨٦.



قصّة

لقمان الحكيم



وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلى أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

سورة لقمان

كلام في قصّة لقمان ونبذ من حكمه

١ ـ قصّة لقمان في القرآن

لم يرد اسم لقمان في كلامه تعالى إلا في سورة لقمان، ولم يذكر من قصصه إلا ما في قوله عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾، وقد وردت في قصته وحكمه روايات كثيرة مختلفة ونحن نورد بعض ما كان منها أقرب إلى الاعتبار.

ففي الكافي، عن بعض أصحابنا رفعه إلى هشام بن الحكم قال: قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: يا هشام إن الله قال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ قال: الفهم والعقل.[١]

وفي المجمع، روى نافع، عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: حقاً أقول لم يكن لقمان نبياً ولكن كان عبداً كثير التفكر حسن اليقين أحب الله فأحبه ومن عليه بالحكمة.

كان نائماً نصف النهار إذ جاءه نداء: يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس بالحق؟ فأجاب الصوت إن خيرني ربّي قبلت العافية ولم أقبل البلاء وإن هو عزم علي فسمعاً وطاعة فإني أعلم أنه إن فعل بي ذلك

---

(١) الكافي ١: ١٦.

أعانني وعصمني.

فقالت الملائكة بصوت لا يراهم: لِمَ يا لقمان؟

قال: لأن الحكم أشد المنازل وآكدها يغشاه الظلم من كل مكان إن وفى فبالحري أن ينجو، وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً وفي الآخرة شريفاً خير من أن يكون في الدنيا شريفاً وفي الآخرة ذليلا ومن تخير الدنيا على الآخرة تفته الدنيا ولا يصيب الآخرة.

فعجبت الملائكة من حسن منطقه فنام نومة فأعطي الحكمة فانتبه يتكلم بها ثم كان يوازر داود بحكمته فقال له داود: طوبى لك يا لقمان أعطيت الحكمة وصرفت عنك البلوى.[١]

وفي الدر المنثور ، أخرج ابن مردويه ، عن أبي هريرة، قال : قال رسول الله ﷺ : أتدرون ما كان لقمان؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: كان حبشياً.[٢]

٢ ـ قصّة لقمان في الروايات

وفي تفسير القمي، بإسناده عن حماد قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن لقمان وحكمته التي ذكرها الله عزّ وجل، فقال: أما والله ما أوتي لقمان الحكمة بحسب ولا مال ولا أهل ولا بسط في جسم ولا جمال. ولكنه كان رجلاً قوياً في أمر الله

(١) مجمع البيان ٨: ٣١٥.

(٢) الدر المنثور ٥: ١٦٠.

متورعاً في الله ساكتاً مستكيناً عميق النظر طويل الفكر حديد النظر مستغن بالعبر لم ينم نهاراً قط ولم يره أحد من الناس على بول ولا غائط ولا اغتسال لشدة تستره وعموق نظره وتحفظه في أمره، ولم يضحك من شيء قط مخافة الإثم ولم يغضب قط، ولم يمازح إنساناً قط، ولم يفرح بشيء أتاه من أمر الدنيا ولا حزن منها على شيء قط وقد نكح من النساء وولد له من الأولاد الكثير وقدم أكثرهم أفراطا فما بكى على موت أحد منهم.

ولم يمر برجلين يختصمان أو يقتتلان إلا أصلح بينهما ولم يمض عنهما حتى تحابا، ولم يسمع قولاً قط من أحد استحسنه إلا سأل عن تفسيره وعمّن أخذه، وكان يكثر مجالسة الفقهاء والحكماء، وكان يغشى القضاة والملوك والسلاطين فيرثي للقضاة مما ابتلوا به، ويرحم الملوك والسلاطين لغرتهم بالله وطمأنينتهم في ذلك، ويعتبر ويتعلم ما يغلب به نفسه ويجاهد به هواه ويحترز به من الشيطان يداوي قلبه بالفكر ويداوي نفسه بالعبر، وكان لا يظعن إلا فيما يعنيه فبذلك أوتي الحكمة ومنح العصمة.

وإن الله تبارك وتعالى أمر طوائف من الملائكة حين انتصف النهار وهدأت العيون بالقائلة فنادوا لقمان حيث يسمع ولا يراهم فقالوا: يا لقمان هل لك أن يجعلك الله خليفة في الأرض تحكم بين الناس؟

فقال لقمان: إن أمرني الله بذلك فالسمع والطاعة لأنه إن فعل ذلك أعانني عليه وعلمني وعصمني وإن هو خيرني قبلت العافية.

فقالت الملائكة: يا لقمان لم؟

قال: لأن الحكم بين الناس بأشد المنازل وأكثر فتناً وبلاء يخذل ولا يعان ويغشاه الظلم من كل مكان وصاحبه فيه بين أمرين إن أصاب فيه الحق فبالحريّ

أن يسلم وإن أخطأ أخطأ طريق الجنة، ومن يكن في الدنيا ذليلاً ضعيفاً كان أهون عليه في المعاد من أن يكون حكماً سرياً شريفاً، ومن اختار الدنيا على الآخرة يخسرهما كلتيهما تزول هذه ولا تدرك تلك.

قال: فتعجب الملائكة من حكمته واستحسن الرحمن منطقه، فلما أمسى وأخذ مضجعه من الليل أنزل الله عليه الحكمة فغشاه بها من قرنه إلى قدمه وهو نائم وغطاه بالحكمة غطاء فاستيقظ وهو أحكم الناس في زمانه، وخرج على الناس ينطق بالحكمة ويبثها فيها.

قال: فلما أوتي الحكم بالخلافة ولم يقبلها أمر الله عزّ وجل الملائكة فنادت داود بالخلافة فقبلها ولم يشترط فيها بشرط لقمان فأعطاه الله عزّ وجل الخلافة في الأرض وابتلي بها غير مرة كل ذلك يهوي في الخطأ يقيله الله ويغفر له، وكان لقمان يكثر زيارة داود عليه السلام ويعظه بمواعظه وحكمته وفضل علمه، وكان داود يقول له: طوبى لك يا لقمان أوتيت الحكمة وصرفت عنك البليّة وأعطي داود الخلافة وابتلي بالحكم والفتنة.

ثم قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، قال: فوعظ لقمان ابنه بآثار حتى تفطر وانشقّ.

وكان فيما وعظه به يا حمّاد أن قال: يا بني إنك منذ سقطت إلى الدنيا استدبرتها واستقبلت الآخرة فدار أنت إليها تسير أقرب إليك من دار أنت عنها متباعد.

يا بني جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك ولا تجادلهم فيمنعوك، وخذ من الدنيا بلاغاً ولا ترفضها فتكون عيالاً على الناس، ولا تدخل فيها دخولاً يضر

بآخرتك، وصم صوماً يقطع شهوتك ولا تصم صياماً يمنعك من الصلاة فإن الصلاة أحب إلى الله من الصيام.

يا بني: إن الدنيا بحر عميق قد هلك فيها عالم كثير فاجعل سفينتك فيها الإيمان واجعل شراعها التوكل، واجعل زادك فيها تقوى الله فإن نجوت فبرحمة الله وإن هلكت فبذنوبك.

يا بني: إن تأدبت صغيراً انتفعت به كبيراً ومن عنى بالأدب اهتم به، ومن اهتم به تكلف علمه ومن تكلف علمه اشتد له طلبه ومن اشتد له طلبه أدرك منفعته فاتخذه عادة فإنك تخلف في سلفك و ينتفع به من خلفك ويرتجيك فيه راغب ويخشى صولتك راهب، وإياك والكسل عنه بالطلب لغيره فإن غلبت على الدنيا فلا تغلبن على الآخرة وإذا فاتك طلب العلم في مظانه فقد غلبت على الآخرة واجعل في أيامك ولياليك وساعاتك نصيباً في طلب العلم فإنك لن تجد له تضييعاً أشد من تركه ولا تمارين فيه لجوجاً ولا تجادلن فقيهاً ولا تعادين سلطاناً، ولا تماشين ظلوماً ولا تصادقنه ولا تؤاخين فاسقاً ولا تصاحبن متهما واخزن علمك كما تخزن ورقك.

يا بني: خف الله عزّ وجل خوفاً لو أتيت القيامة ببر الثقلين خفت أن يعذبك وارج الله رجاء لو وافيت القيامة بإثم الثقلين رجوت أن يغفر الله لك.

فقال له ابنه: يا أبت كيف أطيق هذا وإنما لي قلب واحد؟

فقال له لقمان: يا بني، لو استخرج قلب المؤمن يوجد فيه نوران نور للخوف ونور للرجاء لو وزنا لما رجح أحدهما على الآخر بمثقال ذرة فمن يؤمن بالله يصدق ما قال الله عزّ وجل ومن يصدق ما قال الله يفعل ما أمر الله، ومن لم يفعل ما أمر الله لم يصدق ما قال الله فإن هذه الأخلاق يشهد بعضها لبعض.

فمن يؤمن بالله إيماناً صادقاً يعمل لله خالصاً ناصحاً ومن يعمل لله خالصاً ناصحاً فقد آمن بالله صادقاً ومن أطاع الله خافه، ومن خافه فقد أحبه، ومن أحبه فقد اتبع أمره ومن اتبع أمره استوجب جنته ومرضاته، ومن لم يتبع رضوان الله فقد هان عليه سخطه نعوذ بالله من سخط الله.

يا بني: لا تركن إلى الدنيا ولا تشغل قلبك بها فما خلق الله خلقا هو أهون عليه منها أ لا ترى أنه لم يجعل نعيمها ثواب المطيعين ولم يجعل بلاءها عقوبة للعاصين.(١)

وفي قرب الإسناد: هارون عن ابن صدقة عن جعفر عن أبيه عليه السلام: قيل للقمان: ما الذي أجمعت عليه من حكمتك؟ قال: لا أتكلف ما قد كفيته ولا أضيع ما وليته.(٢)

وفي البحار، عن قصص الأنبياء بإسناده عن جابر، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان فيما وعظ به لقمان ابنه أن قال: يا بني، إن تك في شك من الموت فارفع عن نفسك النوم ولن تستطيع ذلك وإن كنت في شك من البعث فارفع عن نفسك الانتباه ولن تستطيع ذلك فإنك إذا فكرت في هذا علمت أن نفسك بيد غيرك وإنما النوم بمنزلة الموت وإنما اليقظة بعد النوم بمنزلة البعث بعد الموت.

وقال: قال لقمان لابنه: يا بني، لا تقترب فيكون أبعد لك ولا تبعد فتهان، كل دابة تحب مثلها وابن آدم لا يحب مثله. لا تنشر برّك إلا عند باغيه، وكما ليس بين الكبش والذئب خلة، كذلك ليس بين البار والفاجر خلة، من يقترب من الزفت

---

(١) تفسير القمّي ٢: ١٦٢ ـ ١٦٤.

(٢) قرب الاسناد: ٣٥.

تعلق به بعضه كذلك من يشارك الفاجر يتعلم من طرفه، من يحب المراء يشتم، ومن يدخل مدخل السوء يتهم، ومن يقارن قرين السوء لا يسلم، ومن لا يملك لسانه يندم.

وقال: يا بني، صاحب مائة ولا تعاد واحداً.

يا بني، إنما هو خلاقك وخلقك فخلاقك دينك وخلقك بينك وبين الناس فلا تبغضن إليهم وتعلم محاسن الأخلاق.

يا بني، كن عبداً للأخيار ولا تكن ولداً للأشرار.

يا بني، أد الأمانة تسلم دنياك وآخرتك وكن أميناً فإن الله لا يحب الخائنين.

يا بني، لا تر الناس أنك تخشى الله وقلبك فاجر.(١)

وفي الكافي، بإسناده عن يحيى بن عقبة الأزدي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان فيما وعظ به لقمان لابنه: يا بني، إن الناس قد جمعوا قبلك لأولادهم فلم يبق ما جمعوا ولم يبق من جمعوا له، وإنما أنت عبد مستأجر قد أمرت بعمل ووعدت عليه أجراً فأوف عملك واستوف أجرك، ولا تكن في هذه الدنيا بمنزلة شاة وقعت في زرع أخضر فأكلت حتى سمنت فكان حتفها عند سمنها، ولكن اجعل الدنيا بمنزلة قنطرة على نهر جزت عليها فتركتها ولم ترجع إليها آخر الدهر أخربها ولا تعمرها فإنك لم تؤمر بعمارتها.

واعلم أنك ستسأل غداً إذا وقفت بين يدي الله عزّ وجل عن أربع: شبابك فيما أبليته، وعمرك فيما أفنيته، ومالك مما اكتسبته وفيما أنفقته، فتأهب لذلك

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤١٧ ح ١١.

وأعد له جواباً ولا تأس على ما فاتك من الدنيا فإن قليل الدنيا لا يـدوم بـقاؤه وكثيرها لا يؤمن بلاؤه فخذ حذرك، وجد في أمرك، واكشف الغطاء عن وجهك، وتعرض لمعروف ربك، وجدد التوبة في قلبك، وأكمش في فراقك قبل أن يقصد قصدك، ويقضى قضاؤك، ويحال بينك وبين ما تريد.[١]

وفي البحار، عن القصص بإسناده عن حماد عن الصادق عليه السلام قـال: قـال لقمان: يا بني إياك والضجر وسوء الخلق وقلة الصبر فلا يستقيم على هذه الخصال صاحب، وألزم نفسك التؤدة في أمورك وصبّر على مـؤونات الإخـوان نـفسك، وحسن مع جميع الناس خلقك.

يا بني إن عدمك ما تصل به قرابتك وتتفضل به على إخوانك فلا يعدمنك حسن الخلق وبسط البشر فإن من أحسن خلقه أحبه الأخيار وجـانبه الفـجار، واقنع بقسم الله ليصفو عيشك فإن أردت أن تجمع عز الدنيا فاقطع طمعك مما في أيدي الناس فإنما بلغ الأنبياء والصديقون ما بلغوا بقطع طمعهم.[٢]

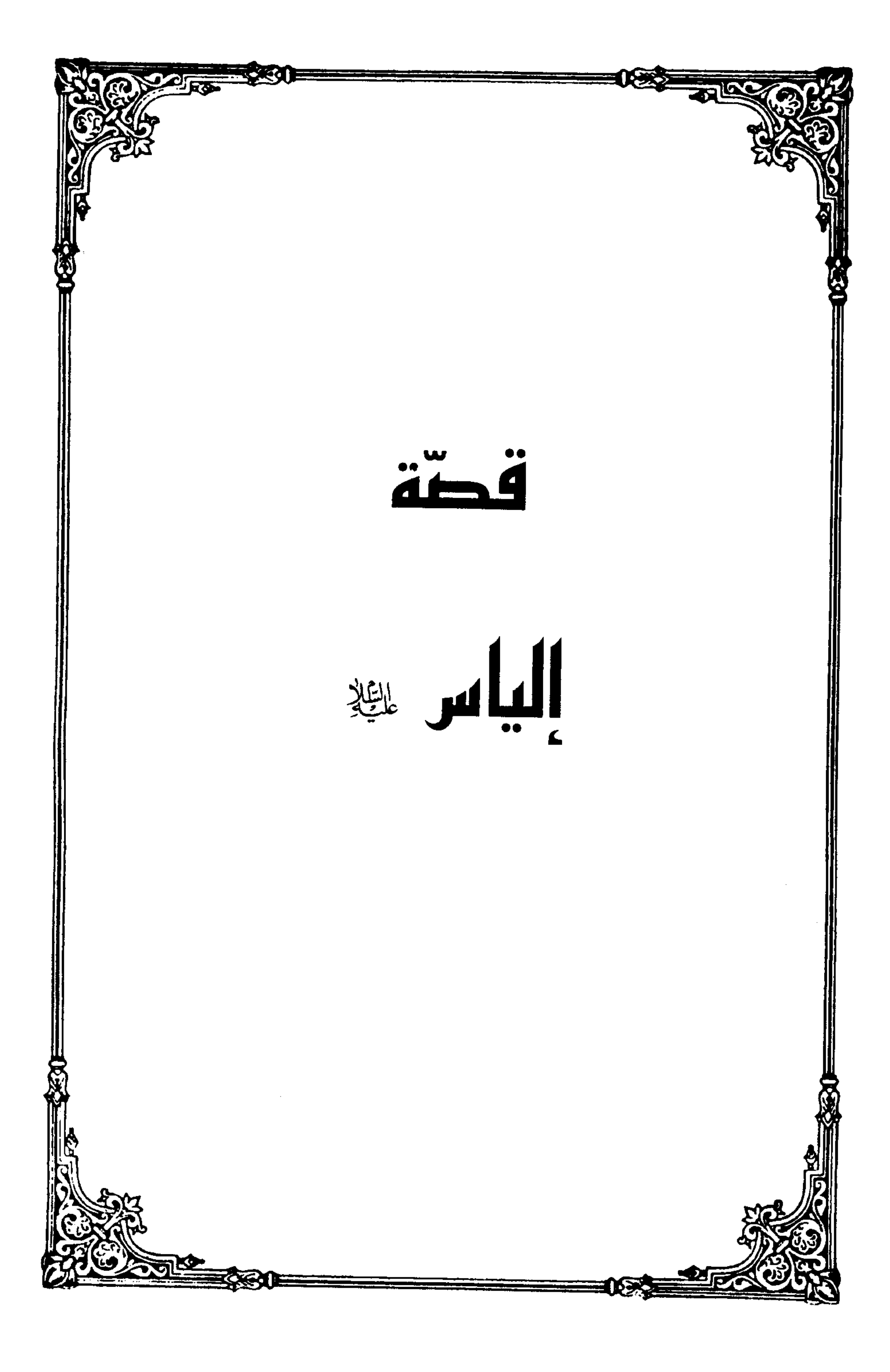
قال المؤلّف رحمه الله : والأخبار في مواعظه كثيرة اكتفينا منها بما أوردناه إيثاراً للاختصار.[٣]

---

(١) الكافي ٤: ٢ح ٢٠.

(٢) بحار الأنوار ١٣: ٤١٩ح ١٤.

(٣) الميزان ١٦: ٣٣٠ ـ ٣٣٨.



قصّة

إلياس عليه السلام

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلاً وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ وَاللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

سورة الصافات

قصّة إلياس عليه السلام في القرآن والروايات

١ ـ قصّة إلياس عليه السلام في القرآن

لم يذكر اسمه عليه السلام في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع وفي سورة الأنعام عند ذكر هداية الأنبياء حيث قال: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

ولم يذكر تعالى من قصته في هذه السورة إلا أنه كان يدعو إلى عبادة الله سبحانه قوماً كانوا يعبدون بعلاً فآمن به وأخلص الإيمان قوم منهم وكذبه آخرون وهم جل القوم وإنهم لمحضرون.

وقد أثنى الله سبحانه عليه في سورة الأنعام بما أثنى به على الأنبياء عامة وأثنى عليه في هذه السورة بأنه من عباده المؤمنين المحسنين وحيّاه بالسلام بناء على القراءة المشهورة ﴿سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ﴾.

٢ ـ قصّته عليه السلام في الروايات

ورد فيه عليه السلام أخبار مختلفة متهافتة كغالب الأخبار الواردة في قصص

(١) الأنعام: ٨٥.

الأنبياء، الحاكية للعجائب كالذي روي عن ابن مسعود: أن إلياس هو إدريس.[١]

وما عن ابن عباس، عن النبي ﷺ: أن الخضر هو إلياس.[٢]

وما عن وهب وكعب الأحبار وغيرهما: أن إلياس حي لا يموت إلى النفخة الأولى.[٣]

وما عن وهب: أن إلياس سأل الله أن يريحه من قومه فأرسل الله إليه دابة كهيئة الفرس في لون النار فوثب إليه فانطلق به فكساه الله الريش والنور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فصار في الملائكة.[٤]

وما عن كعب الأحبار: أن إلياس صاحب الجبال والبر وأنه الذي سماه الله بذي النون.

وما عن الحسن: أن إلياس موكل بالفيافي والخضر موكل بالجبال.

وما عن أنس: أن إلياس لاقى النبي ﷺ في بعض أسفاره فقعدا يتحدثان ثم نزل عليهما مائدة من السماء فأكلا وأطعماني ثم ودعه وودعني ثم رأيته مر على السحاب نحو السماء إلى غير ذلك.[٥]

وفي بعض أخبار الشيعة أنه عليه السلام حي مخلد[٦]، لكنها ضعاف وظاهر آيات القصة لا يساعد عليه.

---

(١) الدر المنثور ٥: ٢٨٥.

(٢) الدر المنثور ٥: ٢٨٦.

(٣) الدر المنثور ٥: ٢٨٦.

(٤) الدر المنثور ٥: ٢٨٦.

(٥) الدر المنثور ٥: ٢٨٦.

(٦) نقلاً عن قصص الأنبياء.

وفي البحار، في قصة إلياس عليه السلام عن قصص الأنبياء، بالإسناد عن الصدوق بإسناده إلى وهب بن منبه. ورواه الثعلبي في العرائس، عن ابن إسحاق وعـلماء الأخبار أبسط منه والحديث طويل جداً، وملخصه:

أنه بعد انشعاب ملك بني إسرائيل وتقسمه بينهم سار سبط منهم إلى بعلبك وكان لهم ملك منهم يعبد صنما اسمه بعل و يحمل الناس على عبادته.

وكانت له امرأة فاجرة قد تزوجت قبله بسبعة من الملوك وولدت تسعين ولداً سوى أبناء الأبناء، وكان الملك يستخلفها إذ غاب فتقضي بين الناس، وكان له كاتب مؤمن حكيم قد خلص من يدها ثلاثمائة مؤمن تريد قتلهم، وكان في جوار قصر الملك رجل مؤمن له بستان وكان الملك يحترم جواره ويكرمه.

ففي بعض ما غاب الملك قتلت المرأة الجار المؤمن وغصبت بستانه فلما رجع وعلم به عاتبها فاعتذرت إليه وأرضته فآلى الله تعالى على نفسه أن يـنتقم منهما إن لم يتوبا فأرسل إليهم إلياس عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وأخبرهما بما آلى الله فاشتد غضبهم عليه وهموا بتعذيبه وقتله فهرب منهم إلى أصعب جبل هـناك فلبث فيه سبع سنين يعيش بنبات الأرض وثمار الشجر.

فأمرض الله ابناً للملك يحبه حباً شديداً فاستشفع ببعل فلم ينفعه فقيل له: إنه غضبان عليك إن لم تقتل إلياس فأرسل إليه فئة من قومه ليخدعوه ويقبضوا عليه فأرسل الله إليهم ناراً فأحرقتهم ثم أرسل إليه فئة أخرى من ذوي البأس مع كاتبه المؤمن فذهب معه إلياس صوناً له من غضب الملك لكن الله سبحانه أمات ابـنه فشغله حزنه عن إلياس فرجع سالماً.

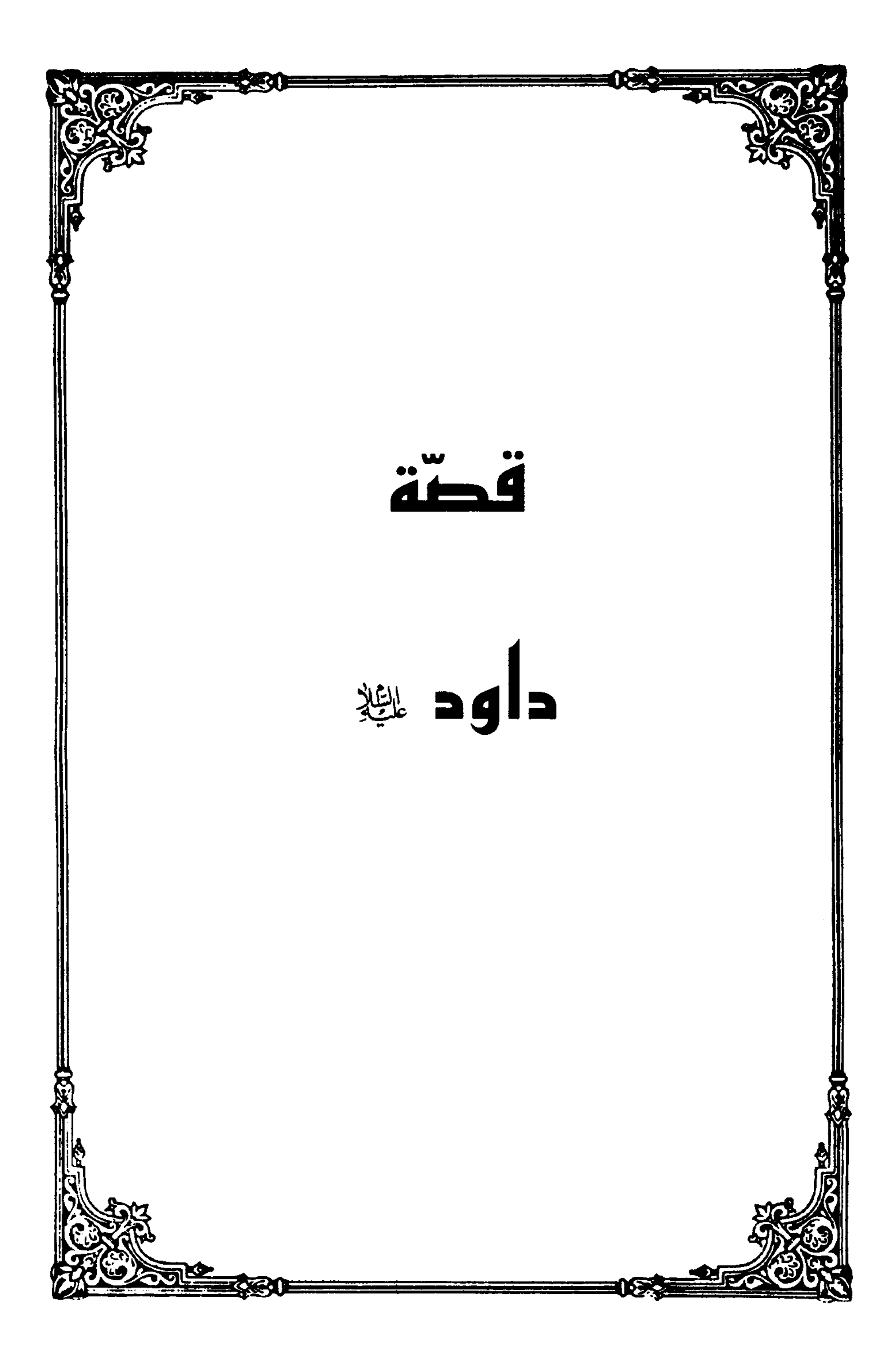
ثم لما طال الأمر نزل إلياس من الجبل واستخفى عند أم يونس بن متى في بيتها ويونس طفل رضيع، ثم خرج بعد ستة أشهر إلى الجبل ثانياً واتفق أن مات

بعده يونس ثم أحياه الله بدعاء إلياس بعد ما خرجت أمه في طلبه فوجدته فتضرعت إليه. ثم إنه سأل الله أن ينتقم له من بني إسرائيل ويمسك عنهم الأمطار فأجيب وسلط الله عليهم القحط فأجهدوا سنين فندموا فجاءوه فتابوا وأسلموا فدعا الله فأرسل عليهم المطر فسقاهم وأحيا بلادهم. فشكوا إليه هدم الجدران وعدم البذر من الحبوب فأوحى إليه أن يأمرهم أن يبذروا الملح فأنبت لهم الحمص وأن يبذروا الرمل فأنبت لهم منه الدخن. ثم لما كشف الله عنهم الضر نقضوا العهد وعادوا إلى أخبث ما كانوا عليه فأمل ذلك إلياس فدعا الله أن يريحه منهم فأرسل الله إليه فرساً من نار فوثب عليه إلياس فرفعه الله إلى السماء وكساه الريش والنور فكان مع الملائكة. ثم سلط الله على الملك وامرأته عدواً فقصدهما وظهر عليهما فقتلهما وألقى جيفتهما في بستان ذلك الرجل المؤمن الذي قتلاه وغصبوا بستانه.[١]

وأنت بالتأمّل فيما تقصه الرواية لا ترتاب في ضعفها.[٢]

(١) بحار الأنوار ١٦: ٣٩٢.

(٢) الميزان ١٧: ٢٤١ ـ ٢٤٤.



قصّة

داود عليه السلام

اصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ الْخُلَطَاء لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨) كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ (٢٩)

كلام في قصّة داود عليه السلام

١ ـ قصّته في القرآن

لم يقع من قصته في القرآن إلا إشارات فقد ذكر سبحانه أنه كان في جيش طالوت الملك حين حارب جالوت فقتل داود فأتاه الله الملك بعد طالوت والحكمة وعلمه مما يشاء[١]، وجعله خليفة له يحكم بين الناس وآتاه فصل الخطاب صلى الله عليه وآله وسلم[٢]، وقد أيد الله ملكه وسخر معه الجبال والطير يسبحن معه[٣]، وألان له الحديد يعمل وينسج منه الدروع[٤].

٢ ـ جميل الثناء عليه في القرآن

عده سبحانه من الأنبياء وأثنى عليه بما أثنى عليهم وخصه بقوله: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً﴾[٥]، وآتاه فضلاً وعلماً[٦]، وآتاه الحكمة وفصل

---

(١) البقرة: ٢٥١.

(٢) ص: ٢٠ ـ ٢٦.

(٣) الأنبياء: ٧٩، ص: ١٩.

(٤) الأنبياء: ٨٠، سبأ: ١١.

(٥) النساء: ١٦٣، الأنعام: ٨٤ ـ ٨٧.

(٦) سبأ: ١٠، النمل: ١٥.

الخطاب وجعله خليفة في الأرض[١]، ووصفه بأنه أواب وإن له عنده لزلفى وحسن مآب[٢].

٣ ـ قصّة المتخاصمَين

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ * إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ * قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنْ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعاً وَأَنَابَ * فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾.

التدبّر في آيات الكتاب المتعرضة لقصة دخول المتخاصمين على داود عليه السلام لا يعطي أزيد من كونه امتحاناً منه تعالى له عليه السلام في ظرف التمثل ليربّيه تربية إلهية ويعلمه رسم القضاء العدل فلا يجور في الحكم ولا يعدل عن العدل.

وأما ما تضمنته غالب الروايات من قصة أوريا وامرأته فهو مما يجل عنه الأنبياء ويتنزه عنه ساحتهم وقد تقدّم في بيان الآيات والبحث الروائي محصّل الكلام في ذلك.[٣]

---

(١) ص: ٢٠ ـ ٢٦.

(٢) ص: ١٩ و ٢٥.

(٣) الميزان ١٧: ٣٠٥.

٤ ـ قصّة داود في الروايات

روي في الدر المنثور، بطريق عن أنس وعن مجاهد والسدي وبعدة طرق عن ابن عباس قصة دخول الخصم على داود ﷺ على اختلاف ما في الروايات.(١)

وروى مثلها القمي في تفسيره(٢)، ورواها في العرائس، وغيره وقد لخصها في مجمع البيان، كما يأتي: أن داود كان كثير الصلاة فقال: يا رب فضلت علي إبراهيم فاتخذته خليلاً وفضلت عليَّ موسى فكلمته تكليماً فقال: يا داود إنا ابتليناهم بما لم نبتلك بمثله فإن شئت ابتليتك فقال: نعم يا رب فابتلني. فبينا هو في محرابه ذات يوم إذ وقعت حمامة فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهواها وهمّ بتزويجها فبعث بأوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقديمه أمام التابوت الذي فيه السكينة ففعل ذلك وقتل. فلما انقضت عدتها تزوجها وبنى بها فولد له منها سليمان فبينا هو ذات يوم في محرابه إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما فقالا: لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض إلى قوله وقليل ما هم، فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك فتنبه داود على أنهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبكتاه على خطيئته فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه.

ثم قال في المجمع ـ ونعم ما قال ـ: إنه مما لا شبهة في فساده فإن ذلك مما يقدح في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله الذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لا تقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع

---

(١) تفسير الدر المنثور ٥: ٣٠٠ و ٣٠١.

(٢) تفسير القمّي ٢: ٢٣٠.

إليه والقبول منه.[١]

قال المؤلّف ﷺ : والقصة مأخوذة من التوراة غير أن التي فيها أشنع وأفظع فعدلت بعض التعديل على ما سيلوح لك.

٥ ـ قصّة داود ﷺ في التوراة

ففي التوراة ما ملخصه :

وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك فرأى من على السطح امرأة تستحم وكانت المرأة جميلة المنظر جداً.

فأرسل داود وسأل عن المرأة فقيل: إنها بتشبع امرأة أوريا الحتي فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت عليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود أنها حبلى.

وكان أوريا في جيش لداود يحاربون بني عمون فكتب داود إلى يوآب أمير جيشه يأمره بإرسال أوريا إليه ولما أتاه وأقام عنده أياماً كتب مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا، وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت ففعل به ذلك فقتل وأخبر داود بذلك.

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات ندبت بعلها ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابنا وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب.

فأرسل الرب ناثان النبي إلى داود فجاء إليه وقال له كان رجلان في مدينة

---

(١) مجمع البيان ٨: ٤٧٢.

واحدة واحد منهما غني والآخر فقير، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً، وأما الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها ورباها فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه ومن بقره ليهيىء للضيف الذي جاء إليه فأخذ نعجة الرجل الفقير وهيأ لضيفه، فحمي غضب داود على الرجل جداً وقال لناثان: حي هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك وترد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هـذا الأمر ولأنه لم يشفق.

فقال ناثان لداود: أنت هو الرجل يعاتبك الرب ويقول: سأقيم عليك الشر من بيتك وآخذ نساءك أمام عينيك وأعطيهن لقريبك فيضطجع معهن قدام جميع إسرائيل وقدام الشمس جزاء لما فعلت بأوريا وامرأته.

فقال داود لناثان: قد أخطأت إلى الرب .

فقال ناثان لداود: الرب أيضاً قد نقل عنك خطيئتك . لا تموت غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك من المرأة يموت، فأمرض الله الصبي سبعة أيام ثم قبضه ثم ولدت امرأة أوريا بعده لداود ابنه سليمان.[1]

٦ ـ قصّة داود عليه السلام في نظر الإمام الرضا والإمام الصادق عليهما السلام

وفي العيون، في باب مجلس الرضا عـند المأمـون مـع أصـحاب المـلل والمقالات: قال الرضا عليه السلام لابن جهم: وأما داود فما يقول من قبلكم فيه؟

قال: يقولون: إن داود كان يصلي في محرابه إذ تصور له إبليس على صورة

(١) التوراة، ب ١١، ص ٤٩٠.

طير أحسن ما يكون من الطيور فقطع داود صلاته وقام يأخذ الطير إلى الدار فخرج في أثره فطار الطير إلى السطح فصعد في طلبه فسقط الطير في دار أوريا بن حيان.

فاطلع داود في أثر الطير فإذا بامرأة أوريا تغتسل، فلما نظر إليها هواها وكان قد أخرج أوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدم أوريا أمام التابوت فقدم فظفر أوريا بالمشركين فصعب ذلك على داود فكتب إليه ثانية أن قدمه أمام التابوت فقدم فقتل أوريا وتزوج داود بامرأته.

قال: فضرب الرضا عليه السلام يده على جبهته وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون لقد نسبتم نبياً من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتى خرج في أثر الطير ثم بالفاحشة ثم بالقتل.

فقال: يا ابن رسول الله ما كانت خطيئته؟ فقال: ويحك إن داود عليه السلام إنما ظن أنه ما خلق الله خلقا هو أعلم منه فبعث الله عزّ وجل إليه الملكين فتسورا المحراب فقالا: خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة، فقال: أكفلنيها وعزني في الخطاب، فعجل داود على المدعى عليه، فقال: لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ولم يسأل المدعي البينة على ذلك، ولم يقبل على المدعى عليه فيقول له: ما تقول؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتم إليه ألا تسمع الله عزّ وجل يقول: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ...﴾.

فقال: يا ابن رسول الله ما قصته مع أوريا؟

قال الرضا عليه السلام: إن المرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتزوج بعده أبداً، فأول من أباح الله عزّ وجلّ له أن يتزوج بامرأة قتل بعلها داود عليه السلام

فتزوج بامرأة أوريا لما قتل وانقضت عدتها فذلك الذي شق على الناس من قتل أوريا.[١]

وفي أمالي الصدوق[٢]، بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام: أنه قال لعلقمة: إن رضا الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط، ألم ينسبوا داود عليه السلام إلى أنه تبع الطير حتى نظر إلى امرأة أوريا فهواها، وأنه قدم زوجها أمام التابوت حتى قتل ثم تزوج بها ... الحديث.[٣]

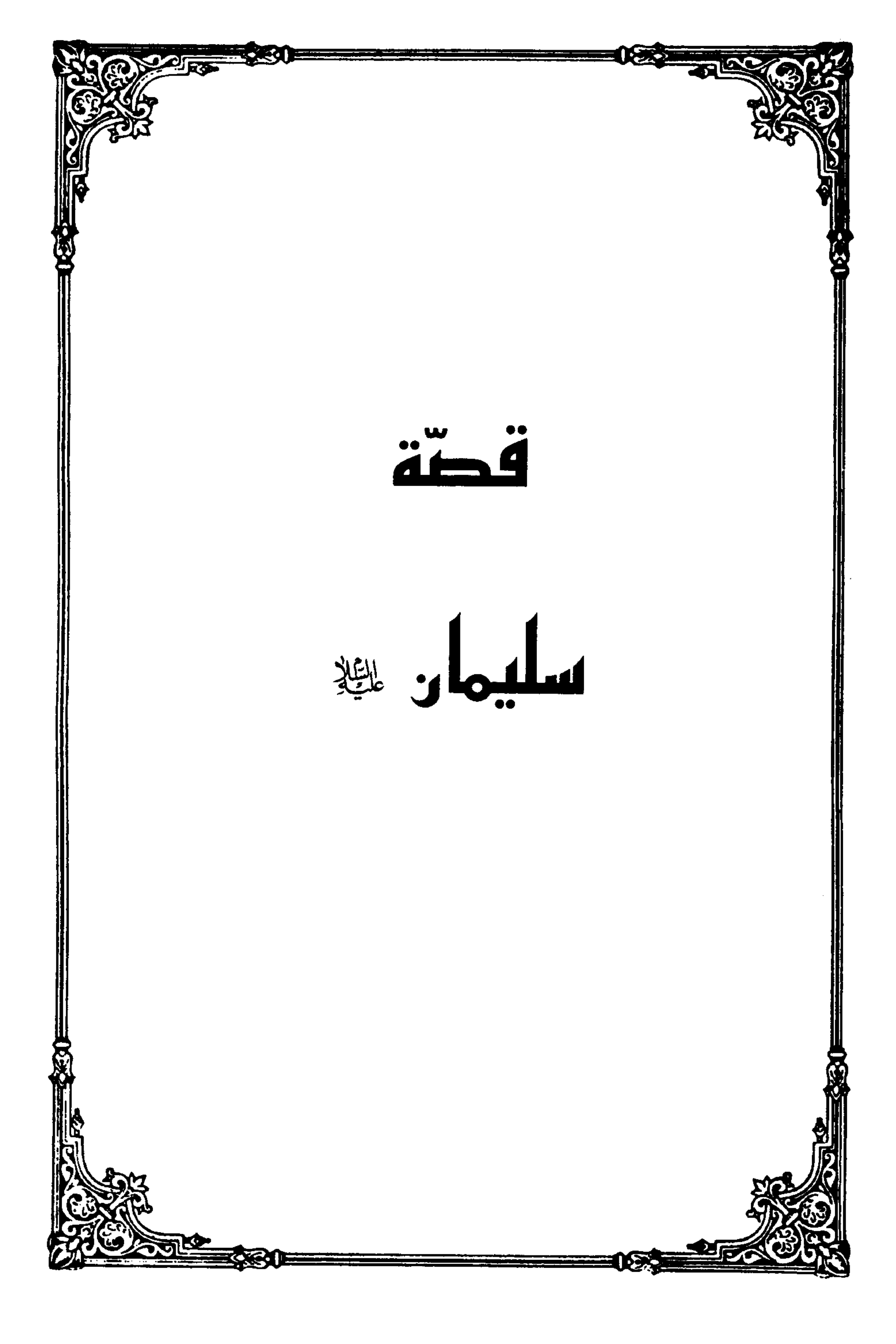
---

(١) عيون أخبار الرضا عليه السلام ١ : ١٩٣ .

(٢) أمالي الصدوق : ١٦٤ .

(٣) الميزان ١٧ : ٣٠٠ ـ ٣٠٤ .





قصّة

سليمان عليه السلام



وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا المَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ

وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْراً حَتَّى تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

كلام في قصّة سليمان عليه السلام

١ ـ ما ورد من قصصه في القرآن

لم يرد من قصصه عليه السلام في القرآن الكريم إلا نبذة يسيرة غير أن التدبّر فيها يهدي إلى عامة قصصه ومظاهر شخصيته الشريفة.

منها: وراثته لأبيه داود قال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ﴾[1]، وقال: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾[2].

ومنها: إيتاؤه الملك العظيم وتسخير الجن والطير والريح له وتعليمه منطق الطير وقد تكرر ذكر هذه النعم في كلامه تعالى كما في سورة البقرة الآية ١٠٢، والأنبياء الآية ٨١، والنمل الآية ١٦ ـ ١٨، وسبأ الآية ١٢ ـ ١٣، وص الآية ٣٥ ـ ٣٩.

ومنها: الإشارة إلى قصة إلقاء جسد على كرسيه كما في سورة ص الآية ٣٣.

ومنها: الإشارة إلى عرض الصافنات الجياد عليه كما في سورة ص الآية ٣١ ـ ٣٣.

ومنها: الإشارة إلى تفهيمه الحكم في الغنم التي نفشت في الحرث كما في

(١) ص: ٣٠.
(٢) النمل: ١٦.

سورة الأنبياء الآية ٧٨ ـ ٧٩.

ومنها: الإشارة إلى حديث النملة كما في سورة النمل الآية ١٨ ـ ١٩.

ومنها: قصة الهدهد وما يتبعها من قصته ﷺ مع ملكة سبأ كما في سورة النمل الآية ٢٠ ـ ٤٤.

ومنها: الإشارة إلى كيفية موته ﷺ كما في سورة سبأ الآية ١٤.

٢ ـ الثناء عليه في القرآن

ورد اسمه ﷺ في بضعة عشر موضعاً من كلامه تعالى وقد أكثر الثناء عليه فسمّاه عبداً أوّاباً، قال تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[1]، ووصفه بالعلم والحكم قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً﴾[2]، وقال: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً﴾[3]، وقال: ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ﴾[4]، وعدّه من النبيين المهديين قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ﴾[5]، وقال: ﴿وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾[6].

---

(١) ص: ٣٠.

(٢) الأنبياء: ٧٩.

(٣) النمل: ١٥.

(٤) النمل:: ١٦.

(٥) النساء: ١٦٣.

(٦) الأنعام: ٨٤.

٣ ـ ذكره ﷺ في العهد العتيق

وقعت قصته في كتاب الملوك الأول وقد أطيل فيه في حشمته وجلالة أمره وسعة ملكه ووفور ثروته وبلوغ حكمته غير أنه لم يذكر فيه شيء من قصصه المشار إليها في القرآن إلا ما ذكر أن ملكة سبأ لما سمعت خبر سليمان وبناءه وبيت الرب بأورشليم وما أوتيه من الحكمة أتت إليه ومعها هدايا كثيرة فلاقته وسألته عن مسائل تمتحنه بها فأجاب عنها ثم رجعت.[١]

وقد أساء العهد العتيق القول فيه ﷺ فذكر[٢] أنه ﷺ انحرف في آخر عمره عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام فسجد لأوثان كانت تعبدها بعض أزواجه.

وذكر أن والدته كانت زوج أوريا الحتي فعشقها داود ﷺ ففجر بها فحبلت منه فاحتال في قتل زوجها أوريا حتى قتل في بعض الحروب فضمها إلى أزواجه فحبلت منه ثانياً وولدت له سليمان.

والقرآن الكريم ينزه ساحته ﷺ عن أول الرميتين بما ينزه به ساحة جميع الأنبياء بالنص على هدايتهم وعصمتهم وقال فيه خاصة: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾[٣].

وعن الثانية بما يحكيه من دعائه ﷺ لما سمع قول النملة: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ﴾[٤]، فقد بينا في تفسيره أن فيه دلالة على أن والدته كانت من أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

---

(١) التوراة، الاصحاح العاشر من الملوك الأوّل: ٥٤٣.

(٢) التوراة، الاصحاح الحادي عشر والثاني عشر من كتاب صموئيل الثاني.

(٣) البقرة: ١٠٢.

(٤) النمل: ١٩.

٤ ـ الروايات الواردة في قصصه عليه السلام

الأخبار المروية في قصصه وخاصة في قصة الهدهد وما يتبعها من أخباره مع ملكة سبأ يتضمن أكثرها أموراً غريبة قلما يوجد نظائرها في الأساطير الخرافية يأباها العقل السليم ويكذبها التاريخ القطعي وأكثرها مبالغة ما روي عن أمثال كعب ووهب.

وقد بلغوا من المبالغة أن ما رووا أنه عليه السلام ملك جميع الأرض، وكان ملكه سبعمائة سنة، وأن جميع الإنس والجن والوحش والطير كانوا جنوده، وأنه كان يوضع في مجلسه حول عرشه ستمائة ألف كرسي يجلس عليها ألوف من النبيين ومئات الألوف من أمراء الإنس والجن.

وأن ملكة سبأ كانت أمها من الجن، وكانت قدمها كحافر الحمارة وكانت تستر قدميها عن أعين النظار حتى كشفت عن ساقيها حينما أرادت دخول الصرح فبان أمرها، وقد بلغ مِن شوكتها أنه كان تحت يدها أربعمائة ملك كل ملك على كورة تحت يد كل ملك أربعمائة ألف مقاتل ولها ثلاثمائة وزير يدبرون ملكها ولها اثنا عشر ألف قائد تحت يد كل قائد اثنا عشر ألف مقاتل إلى غير ذلك من أعاجيب الأخبار التي لا يسعنا إلا أن نعدها من الإسرائيليات ونصفح عنها.[١]

---

(١) الميزان ١٥: ٥٢٣ ـ ٥٢٦.

أدب داود وسليمان عليهما السلام في الدعاء والثناء

ومن ذلك ما حكاه الله من ثناء داود وسليمان عليهما السلام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وجه الأدب في حمدهما وشكرهما ونسبة ما عندهما من فضيلة العلم إلى الله سبحانه ظاهر، فلم يقولا مثل ما حكى عن غيرهما كقول قارون لقومه إذ وعظوه أن لا يستكبر في الأرض بماله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي﴾[2]، وكما حكى الله عن قوم آخرين: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُون﴾[3].

ولا ضير في الحمد على تفضيل الله إياهما على كثير من المؤمنين فإنه من ذكر خصوص النعمة وبيان الواقع، وليس ذلك من التكبر على عباد الله حتى يلحق به ذم، وقد ذكر الله عن طائفة من المؤمنين سؤال التفضيل و مدحهم على علو طبعهم وسمو همتهم حيث قال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا -إلى أن قال: - وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً﴾[4].

---

(١) النمل: ١٥.

(٢) القصص: ٧٨.

(٣) المؤمن: ٨٣.

(٤) الفرقان: ٧٤.

ومن ذلك ما حكاه عن سليمان عليه السلام في قصة النملة بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾[1].

ذكرته النملة بما قالته ما له من الملك العظيم الذي شيدت أركانه بتسخير الريح تجري بأمره، والجن يعملون له ما يشاء والعلم بمنطق الطير وغيره غير أن هذا الملك لم يقع في ذكره عليه السلام في صورة أجلى أمنية يبلغها الإنسان كما فينا ولم ينسه عبوديته ومسكنته بل إنما وقع في نفسه في صورة نعمة أنعمها عليه ربه فذكر ربه ونعمته أنعمها عليه وعلى والديه بما خصهم به، وهو من مثله عليه السلام والحال هذا الحال أفضل الأدب مع ربه.

وقد ذكر نعمة ربه، وهي وإن كانت كثيرة في حقه غير أن مورد نظره عليه السلام والمقام ذاك المقام ـ هو الملك العظيم والسلطة القاهرة، ولذلك ذكر العمل الصالح وسأل ربه أن يوزعه ليعمل صالحاً لأن العمل الصالح والسيرة الحسنة هو المطلوب ممن استوى على عرش الملك. فلذلك كلّه سأل ربّه أوّلاً أن يوزعه على شكر نعمته، وثانياً أن يعمل صالحاً، ولم يرض بسؤال العمل الصالح دون أن قيده بقوله: ﴿تَرْضَاهُ﴾ فإنه عبد لا شغل له بغير ربه ولا يريد الصالح من العمل إلا لأن ربه يرضاه، ثم تمم مسألة التوفيق لصلاح العمل بمسألة صلاح الذات فقال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾.[2]

---

(١) النمل: ١٩.

(٢) الميزان ٦: ٤٠٧ ـ ٤٠٨.



قصّة

اليسع وذي الكفل عليهما السلام



وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾

سورة ص



١ ـ اليسع وذو الكفل عليهما السلام في القرآن

ذكر سبحانه اسمهما في كلامه وعدهما من الأنبياء وأثنى عليهما وعدهما من الأخيار[1]، وعدّ ذا الكفل من الصابرين[2] ولهما ذكر في الأخبار.

٢ ـ اليسع وذو الكفل عليهما السلام في الروايات

ففي البحار، عن الاحتجاج والتوحيد والعيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفلي عن الرضا عليه السلام فيما احتج به على جاثليق النصارى أن قال عليه السلام: إن اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى عليه السلام مشى على الماء وأحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص فلم يتخذه أمته ربّاً، الخبر.[3]

وعن قصص الأنبياء: الصدوق، عن الدقاق، عن الأسدي، عن سهل، عن عبد العظيم الحسني قال: كتبت إلى أبي جعفر الثاني أسأله عن ذي الكفل ما اسمه؟ وهل كان من المرسلين؟ فكتب عليه السلام بعث الله جل ذكره مائة ألف نبي وأربعة وعشرين ألف نبي. مرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً، وإن ذا الكفل منهم،

---

(١) ص: ٤٨.

(٢) الأنبياء: ٨٥.

(٣) بحار الأنوار ١٠: ٣٠٣ ح ١.

وكان بعد سليمان بن داود، وكان يقضي بين الناس كما كان يقضي داود، ولم يغضب إلّا لله عزّ وجل وكان اسمه عويدياهو الذي ذكره الله جلت عظمته في كتابه حيث قال: ﴿وَاذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ الْأَخْيَارِ﴾[١].

وفي قصص الأنبياء، للثعلبي: أن إلياس أتى إلى بيت امرأة من بني إسرائيل لها ابن يسمى اليسع بن خطوب، وكان به ضر فآوته وأخفت أمره فدعا له فعوفي من الضر الذي كان به، واتبع اليسع إلياس فآمن به وصدقه ولزمه فكان يذهب حيثما يذهب، ثم ذكر قصة رفع إلياس، وأن اليسع ناداه عند ذلك : يا إلياس ما تأمرني به؟ فقذف إليه كساءه من الجو الأعلى فكان ذلك علامة على استخلافه إياه على بني إسرائيل.

قال: ونبأ الله تعالى بفضل اليسع عليه السلام وبعثه نبياً ورسولاً إلى بني إسرائيل، وأوحى الله تعالى إليه وأيده بمثل ما أيد به عبده إلياس فآمنت به بنو إسرائيل وكانوا يعظمونه وينتهون إلى رأيه وأمره، وحكم الله تعالى فيهم قائم إلى أن فارقهم اليسع.[٢]

قال المؤلّف رحمه الله : وهناك روايات متفرقة أُخر في قصصهما عليهما السلام تركنا إيرادها لضعفها وعدم الاعتماد عليها.[٣]

---

(١) بحار الأنوار ١٣: ٤٠٥ ح ٢.
(٢) قصص الأنبياء : ٢٢٩.
(٣) الميزان ٧: ٣٦٣، وج ١٧ : ١٣٧.



قصّة

يونس عليه السلام



وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾
فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾
فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾
فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾
وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾

كلام في قصّة يونس عليه السلام

١ ـ القرآن وقصّة يونس عليه السلام

لم يتعرض القرآن الكريم إلا لطرف من قصته وقصة قومه فقد تعرض في سورة الصافات لإرساله ثم إباقه وركوبه الفلك والتقام الحوت له ثم نجاته وإرساله إلى القوم وإيمانهم قال تعالى:

﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ * فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾.

وفي سورة الأنبياء: لتسبيحه في بطن الحوت وتنجيته قال تعالى:

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

وفي سورة القلم: لندائه مكظوماً وخروجه من بطنه واجتبائه قال تعالى:

﴿فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ الْحُوتِ إِذْ نَادَى وَهُوَ مَكْظُومٌ * لَوْلَا

---

(١) الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨.

أَن تَدَارَكَهُ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِ لَنُبِذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ * فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾[١].

وفي سورة يونس: لإيمان قومه وكشف العذاب عنهم قال تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[٢].

وخلاصة ما يستفاد من الآيات بضم بعضها إلى بعض واعتبار القرائن الحافة بها أن يونس عليه السلام كان من الرسل أرسله الله تعالى إلى قومه وهم جمع كثير يزيدون على مائة ألف فدعاهم فلم يجيبوه إلا بالتكذيب والرد حتى جاءهم عذاب أوعدهم به يونس ثم خرج من بينهم.

فلما أشرف عليهم العذاب وشاهدوه مشاهدة عيان أجمعوا على الإيمان والتوبة إلى الله سبحانه فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا.

ثم إن يونس عليه السلام استخبر عن حالهم فوجد العذاب انكشف عنهم ـ وكأنه لم يعلم بإيمانهم وتوبتهم ـ فلم يعد إليهم وذهب لوجهه على ما به من الغضب والسخط عليهم فكان ظاهر حاله حال من يأبق من ربه مغاضباً عليه ظاناً أن لا يقدر عليه وركب البحر في فلك مشحون.

فعرض لهم حوت عظيم لم يجدوا بداً من أن يلقوا إليه واحداً منهم يبتلعه وينجو الفلك بذلك فساهموا وقارعوا فيما بينهم فأصابت يونس عليه السلام فألقوه في البحر فابتلعه الحوت ونجت السفينة.

---

(١) القلم: ٤٨ ـ ٥٠.

(٢) يونس: ٩٨.

ثم إن الله سبحانه حفظه حياً سوياً في بطنه أياماً وليالي ويونس عليه السلام يعلم أنها بلية ابتلاه الله بها مؤاخذة بما فعل وهو ينادي في بطنه أن ﴿لَا إِلَـٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

فاستجاب الله له فأمر الحوت أن يلفظه فنبذه بالعراء وهو سقيم فأنبت الله سبحانه عليه شجرة من يقطين يستظل بأوراقها ثم لما استقامت حاله أرسله إلى قومه فلبوا دعوته وآمنوا به فمتعهم الله إلى حين.

والأخبار الواردة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام على كثرتها وبعض الأخبار من طرق أهل السنة مشتركة المتون في قصة يونس عليه السلام على النحو الذي يستفاد من الآيات وإن اختلفت في بعض الخصوصيات الخارجة عن ذلك.[١]

٢ ـ ثناؤه تعالى عليه

أثنى الله سبحانه عليه بأنه من المؤمنين[٢]، وأنه اجتباه وقد عرفت أن اجتباءه إخلاصه العبد لنفسه خاصة، وأنه جعله من الصالحين[٣]، وعده في سورة الأنعام فيمن عده من الأنبياء وذكر أنه فضلهم على العالمين وأنه هداهم إلى صراط مستقيم[٤].[٥]

(١) الميزان ١٧: ٢٥٢ ـ ٢٥٤.
(٢) الأنبياء: ٨٨.
(٣) القلم: ٥٠.
(٤) الأنعام: ٨٧.
(٥) الميزان ١٧: ٢٥٧.

٣ ـ قصّته عند أهل الكتاب

هو ﷺ مذكور باسم يوناه بن إمتاي في مواضع من العهد القديم وكذا في مواضع من العهد الجديد أشير في بعضها إلى قصة لبثه في بطن الحوت لكن لم تذكر قصته الكاملة في شيء منهما.

ونقل الآلوسي في روح المعاني، في قصته عند أهل الكتاب ويؤيده ما في بعض كتبهم من إجمال القصة:

أن الله أمره بالذهاب إلى دعوة أهل نينوى، وكانت إذ ذاك عظيمة جداً لا تقطع إلا في نحو ثلاثة أيام، وكانوا قد عظم شرهم وكثر فسادهم، فاستعظم الأمر وهرب إلى ترسيس فجاء يافا فوجد سفينة يريد أهلها الذهاب بها إلى ترسيس فاستأجر وأعطى الأجرة وركب السفينة فهاجت ريح عظيمة وكثرت الأمواج وأشرفت السفينة على الغرق.

ففزع الملاحون ورموا في البحر بعض الأمتعة لتخف السفينة وعند ذلك نزل يونس إلى بطن السفينة ونام حتى علا نفسه فتقدم إليه الرئيس فقال له: ما بالك نائما؟ قم وادع إلهك لعله يخلصنا مما نحن فيه ولا يهلكنا.

وقال بعضهم لبعض: تعالوا نتقارع لنعرف من أصابنا هذا الشر بسببه فتقارعوا فوقعت القرعة على يونس فقالوا له: أخبرنا ماذا عملت ، ومن أين جئت؟ وإلى أين تمضي؟ ومن أي كورة أنت؟ ومن أي شعب أنت؟ فقال لهم: أنا عبد الرب إله السماء خالق البر والبحر وأخبرهم خبره فخافوا خوفاً عظيماً وقالوا له: لم صنعت ما صنعت؟ يلومونه على ذلك.

ثم قالوا له: ما نصنع الآن بك؟ ليسكن البحر عنا؟ فقال: ألقوني في البحر

يسكن فإنه من أجلي صار هذا الموج العظيم فجهد الرجال أن يردوه إلى البر فلم يستطيعوا فأخذوا يونس وألقوه في البحر لنجاة جميع من في السفينة فسكن البحر وأمر الله حوتاً عظيماً فابتلعه فبقي في بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليال وصلى في بطنه إلى ربّه واستغاث به فأمر سبحانه الحوت فألقاه إلى اليبس ثم قال له: قم وامض إلى نينوى وناد في أهلها كما أمرتك من قبل.

فمضى عليه السلام ونادى وقال: يخسف نينوى بعد ثلاثة أيام فآمنت رجال نينوى بالله ونادوا بالصيام ولبسوا المسوح جميعاً ووصل الخبر إلى الملك فقام عن كرسيه ونزع حلته ولبس مسحاً وجلس على الرماد ونودي أن لا يذق أحد من الناس والبهائم طعاماً ولا شراباً وجاروا إلى الله تعالى ورجعوا عن الشر والظلم فرحمهم الله ولم ينزل بهم العذاب.

فحزن يونس وقال: إلهي من هذا هربت، فإني علمت أنك الرحيم الرؤوف الصبور التواب.

يا ربِّ خذ نفسي فالموت خير لي من الحياة فقال: يا يونس حزنت من هذا جدا؟ فقال: نعم يا رب.

و خرج يونس وجلس مقابل المدينة وصنع له هناك مظلة وجلس تحتها إلى أن يرى ما يكون في المدينة؟ فأمر الله يقطينا فصعد على رأسه ليكون ظلاً له من كربه ففرح باليقطين فرحاً عظيماً وأمر الله تعالى دودة فضربت اليقطين فجفّ ثم هبت ريح سموم وأشرقت الشمس على رأس يونس فعظم الأمر عليه واستطاب الموت.

فقال الرب: يا يونس، أحزنت جداً على اليقطين؟ فقال: نعم يا رب حزنت جدا فقال تعالى: حزنت عليهأنت لم تتعب فيه ولم تربه بل صار من ليلته وهلك

من ليلته فأنا لا أشفق على نينوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس قوم لا يعلمون يمينهم ولا شمالهم وبهائمهم كثيرة.(١)

وجهات اختلاف القصة مع ما يستفاد من القرآن الكريم ظاهرة كالفرار من الرسالة وعدم رضاه برفع العذاب عنهم مع علمه بإيمانهم وتوبتهم.

فإن قلت: نظير ذلك وارد في القرآن الكريم كنسبة الإباق إليه في سورة الصافات وكذا مغاضبته وظنه أن الله لن يقدر عليه على ما في سورة الأنبياء.

قلت: بين النسبتين فرق فكتبهم المقدسة أعني العهدين لا تأبى عن نسبة المعاصي حتى الكبائر الموبقة إلى الأنبياء عليهم السلام فلا موجب لتوجيه ما نسب من المعاصي إليه بما يخرج به عن كونه معصية بخلاف القرآن الكريم فإنه ينزه ساحتهم عن لوث المعاصي حتى الصغائر فما ورد فيه مما يوهم ذلك يحمل على أحسن الوجوه بهذه القرينة الموجبة ولذا حملنا قوله: ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ وقوله: ﴿مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، على حكاية الحال وإيهام فعله.(٢)

---

(١) تفسير روح المعاني ٢٣: ١٤٨.
(٢) الميزان ١٧: ٢٥٤ ـ ٢٥٦.

الأدب في دعاء يونس ﷺ

ومن ذلك ما حكاه الله عن يونس ﷺ وقد دعا به وهو في بطن الحوت الذي التقمه قال تعالى:

﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1].

كان ﷺ ـ على ما يقصه القرآن ـ قد سأل ربه أن ينزل على قومه العذاب فأجابه إلى ذلك فأخبرهم به، فلما أشرف عليهم العذاب بالنزول تابوا إلى ربهم فرفع عنهم العذاب، ولما شاهد يونس ذلك ترك قومه، وذهب لوجهه حتى ركب السفينة فاعترضها حوت فساهمهم في أن يدفعوا الحوت بإلقاء رجل منهم إليه ليلتقمه وينصرف عن الباقين، فخرجت القرعة باسمه فألقي في البحر فالتقمه الحوت فكان يسبح الله في بطنه إلى أن أمره الله أن يلقيه إلى ساحل البحر، ولم يكن ذلك إلا تأديباً إلهياً يؤدب به أنبياءه على حسب ما يقتضيه مختلف أحوالهم، وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[2]، فكان حاله في تركه العود إلى قومه وذهابه لوجهه يمثل حال عبد أنكر على ربه بعض عمله فغضب عليه فأبق منه وترك خدمته وما هو وظيفة عبوديته فلم يرتض الله له ذلك فأدبه فابتلاه وقبض عليه في سجن لا يقدر فيه أن

---

(١) الأنبياء: ٨٧.

(٢) الصافات: ١٤٤.

يتوسع قدر أنملة في ظلمات بعضها فوق بعض فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

ولم يكن ذلك كله إلا لأن يتمثل له على خلاف ما كان يمثله حاله أن الله سبحانه قادر على أن يقبض عليه ويحبسه حيث شاء، وأن يصنع به ما شاء فلا مهرب من الله سبحانه إلا إليه، ولذلك لقنه الحال الذي تمثل له و هو في سجنه من بطن الحوت أن يقر لله بأنه هو المعبود الذي لا معبود غيره، ولا مهرب عن عبوديته فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ﴾ ولم يناده تعالى بالربوبية، وهذا أوحد دعاء من أدعية الأنبياء عليهم السلام لم يصدر باسم الرب.

ثم ذكر ما جرى عليه الحال من تركه قومه إثر عدم إهلاكه تعالى إياهم بما أنزل عليهم من العذاب فأثبت الظلم لنفسه ونزه الله سبحانه عن كل ما فيه شائبة الظلم والنقص فقال: ﴿سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

ولم يذكر مسألته ـ وهي الرجوع إلى مقامه العبودي السابق ـ عدا لنفسه دون لياقة الاستعطاءاستحقاق العطاء استغراقا في الحياء والخجل، والدليل على مسألته قوله تعالى بعد الآية السابقة: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾[1].

والدليل على أن مسألته كانت هي الرجوع إلى سابق مقامه قوله تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاء وَهُوَ سَقِيمٌ * وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ * وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾[2].[3]

---

(١) الأنبياء: ٨٨.

(٢) الصافات: ١٨٤.

(٣) الميزان ٦: ٤٠٨ ـ ٤١٠.



قصّة

زكريا ويحيى عليهما السلام



كهيعص ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ وَلِيّاً ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴿١١﴾ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيّاً ﴿١٢﴾ وَحَنَاناً مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيّاً ﴿١٣﴾ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً عَصِيّاً ﴿١٤﴾ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴿١٥﴾

سورة مريم



قصّة زكريّا في القرآن

١ ـ وصفه عليه السلام في القرآن

وصفه الله سبحانه في كلامه بالنبوة والوحي، ووصفه في أول سورة مريم بالعبودية، وذكره في سورة الأنعام في عداد الأنبياء وعدة من الصالحين ثم من المجتبين ـ وهم المخلصون ـ والمهديين.

٢ ـ تاريخ حياته عليه السلام

لم يذكر من أخباره في القرآن إلا دعاؤه لطلب الولد واستجابته وإعطاؤه يحيى عليه السلام، وذلك بعد ما رأى من أمر مريم في عبادتها وكرامتها عند الله ما رأى.

فذكر سبحانه أن زكريا تكفل مريم لفقدها أباها عمران ثم لما نشأت اعتزلت عن الناس واشتغلت بالعبادة في محراب لها في المسجد، وكان يدخل عليها زكريا يتفقدها ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

هنالك دعا زكريا ربه وسأله أن يهب له من امرأته ذرية طيبة وكان هو شيخاً فانياً وامرأته عاقراً فاستجيب له ونادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب إن الله يبشرك بغلام اسمه يحيى فسأل ربه آية لتطمئن نفسه أن النداء من جانبه

سبحانه فقيل له: إن آيتك أن يعتقل لسانك فلا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً وكان كذلك وخرج على قومه من المحراب وأشار إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً وأصلح الله له زوجه فولدت له يحيى عليه السلام.[1]

ولم يذكر في القرآن مآل أمره عليه السلام وكيفية ارتحاله لكن وردت أخبار متكاثرة من طرق العامة والخاصة، أن قومه قتلوه وذلك أن أعداءه قصدوه بالقتل فهرب منهم والتجأ إلى شجرة فانفرجت له فدخل جوفها ثم التأمت فدلهم الشيطان عليه وأمرهم أن ينشروا الشجرة بالمنشار ففعلوا وقطعوه نصفين فقتل عليه السلام عند ذلك.

وقد ورد في بعض الأخبار[2] أن السبب في قتله أنهم اتهموه في أمر مريم وحبلها بالمسيح وقالوا: هو وحده كان المتردد إليها الداخل عليها، وقيل غير ذلك.[3]

(١) آل عمران: ٣٧ ـ ٤١، مريم: ٢ ـ ١١، الأنبياء: ٨٩ ـ ٩٠.
(٢) بحار الأنوار ١٤: ١٧٩.
(٣) الميزان ١٤: ٣٤ ـ ٣٦.

أدب زكريّا عليه السلام في الدعاء

ومن ذلك ما حكاه عن زكريا عليه السلام: حيث قال: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا * إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاء خَفِيًّا * قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيّاً * وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً * يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾[1].

إنما حثّه على هذا الدعاء ورغبه في أن يستوهب ولداً من ربّه ما شاهده من أمر مريم ابنة عمران في زهدها وعبادتها، وما أكرمها الله سبحانه بـه مـن أدب العبودية، وخصها به من كرامة الرزق من عنده على ما يقصّه الله تعالى في سورة آل عمران: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ * هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[2].

فغشيه شوق شديد إلى ولد طيب صالح يرثه ويعبد ربه عبادة مرضية كما ورثت مريم عمران وبلغت جهدها في عبادة ربها ونالت منه الكرامة غير أنه وجد نفسه وقد نال منه الشيب، وانهدت منه القوى، وكذلك امرأته وقد كانت عاقرة في سني ولادتها فأدركته من حسرة الحرمان من نعمة الولد الطيب الرضي ما الله أعلم به، لكن لم يملك نفسه مما هاج فيه من الغيرة الإلهية والاعتزاز بربه دون أن رجع إلى ربّه وذكر له ما يثور به الرحمة والحنان من حاله أنه لم يزل عالقاً على باب العبودية والمسألة منذ حداثة سنّه حتى وهن عظمه واشتعل رأسه شيباً، ولم يكن

---

(١) مريم: ٢ ـ ٦.

(٢) آل عمران: ٣٧ ـ ٣٨.

بدعائه شقياً، وقد وجده سبحانه سميع الدعاء فليسمع دعاءه وليهب له وارثاً رضياً. والدليل على ما ذكرنا أنه إنما سأل ما سأل بما ملك نفسه من هيجان الوجد والحزن ما حكاه الله تعالى عنه بعد ما أوحي إليه بالاستجابة بقوله: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيّاً * قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئاً﴾[1]، فإنه ظاهر في أنه عليه السلام لما سمع الاستجابة صحا عن حاله وأخذ يتعجب من غرابة المسألة والإجابة حتى سأل ربّه عن ذلك في صورة الاستبعاد وسأل لنفسه عليه آية فأجيب إليها أيضاً.

وكيف كان فالذي استعمله عليه السلام في دعائه من الأدب هو ما ساقه إليه حال الوجد والحزن الذي ملكه، ولذلك قدم على دعائه بيان ما بلغ به الحال في سبيل ربه فقد صرف دهره في سلوك سبيل الإنابة والمسألة حتى وقف موقفاً يرق له قلب كل ناظر رحيم ثم سأل الولد وعلله بأن ربه سميع الدعاء.

فهذا معنى ما ذكره مقدمة لمسألته لا أنه كان يمتن بطول عبوديته على ربّه ـ حاشا مقام النبوة ـ فمعنى قوله: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾ اني أسألك ما أسألك لا لأن لطول عبوديتي ـ وهو دعاؤه المديد ـ قدراً عندك أو فيه منة عليك، بل لأني أسألك وقد وجدتك سميعاً لدعاء عبادك ومجيباً لدعوة السائلين المضطرين، وقد اضطرني خوف الموالي من ورائي، والحثّ الشديد لذرية طيبة يعبدك أن أسألك. وقد تقدّم أن من الأدب الذي استعمله في دعائه أن ألحق تخوف الموالي قوله: ﴿وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً﴾، الرضي وإن كان طبعه يدل بهيئته على ثبوت الرضا لموصوفه، والرضا يشمل بإطلاقه رضى الله ورضى زكريا ورضى يحيى لكن قوله: ﴿ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾، يدل على أن المراد بكونه رضياً كونه مرضياً عند زكريا لأن الذرية إنما تكون طيبة لصاحبها لا غير.

(١) مريم: ٨ ـ ٩.

قصّة يحيى عليه السلام في القرآن

١ ـ ثناء القرآن على يحيى عليه السلام

ذكره الله في بضعة مواضع من كلامه وأثنى عليه ثناء جميلاً فوصفه بأنه كان مصدقاً بكلمة من الله وهو تصديقه بنبوة المسيح، وأنه كان سيداً يسود قومه، وأنه كان حصوراً لا يأتي النساء، وكان نبياً ومن الصالحين[١]، ومن المجتبين وهم المخلصون ـ ومن المهديين[٢]، وأن الله هو سماه بيحيى ولم يجعل له من قبل سميا، وأمره بأخذ الكتاب بقوة وآتاه الحكم صبياً، وسلم عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً[٣]، ومدح بيت زكريا بقوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾[٤]، وهم يحيى وأبوه وأمّه.

٢ ـ تاريخ حياته

ولد عليه السلام لأبويه على خرق العادة فقد كان أبوه شيخاً فانياً وأُمّه عاقراً

(١) آل عمران: ٣٩.
(٢) الأنعام: ٨٥ ـ ٨٧.
(٣) مريم: ٢ ـ ١٥.
(٤) الأنبياء: ٩٠.

فرزقهما الله يحيى وهما آيسان من الولد، وأخذ بالرشد والعبادة والزهد في صغره وآتاه الله الحكم صبياً، وقد تجرد للتنسك والزهد والانقطاع فلم يتزوج قط ولا ألهاه شيء من ملاذ الدنيا.

وكان معاصراً لعيسى بن مريم عليهما السلام وصدق نبوته، وكان سيداً في قومه تحن إليه القلوب وتميل إليه النفوس ويجتمع إليه الناس فيعظهم ويدعوهم إلى التوبة ويأمرهم بالتقوى حتى استشهد عليه السلام.

ولم يرد في القرآن مقتله عليه السلام، والذي ورد في الأخبار أنه كان السبب في قتله أن امرأة بغياً افتتن بها ملك بني إسرائيل وكان يأتيها فنهاه يحيى ووبخه على ذلك ـ وكان مكرماً عند الملك يطيع أمره ويسمع قوله ـ فأضمرت المرأة عداوته وطلبت من الملك رأس يحيى وألحت عليه فأمر به فذبح وأهدي إليها رأسه.

وفي بعض الأخبار أن التي طلبت منه رأس يحيى كانت ابنة أخي الملك وكان يريد أن يتزوج بها فنهاه يحيى عن ذلك فزينتها أمها بما يأخذ بمجامع قلب الملك وأرسلتها إليه ولقنتها إذا منح الملك عليها بسؤال حاجة أن تسأله رأس يحيى ففعلت فذبح عليه السلام ووضع رأسه في طست من ذهب وأهدي إليها.[1]

وفي الروايات نوادر كثيرة من زهده وتنسكه وبكائه من خشية الله ومواعظه وحكمه.

---

(١) بحار الأنوار ١٤: ١٧٠ ـ ١٨٥، الدر المنثور ٤: ٢٦٣ ـ ٢٦٤.

قصّة زكريّا ويحيى عليهما السلام في الإنجيل

جاء في الانجيل[1]: كان في أيام هيردوس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا وامرأته من بنات هارون واسمها إليصابات وكان كلاهما بارين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم. ولم يكن لهما ولد إذ كانت إليصابات عاقرا وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما.

فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله. حسب عادة الكهنوت، أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر. وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجا وقت البخور. فظهر له ملاك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك إليصابات ستلد ابنا وتسميه يوحنا. ويكون لك فرج وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته. لأنه يكون عظيماً أمام الرب وخمرا ومسكرا لا يشرب ومن بطن أمه يمتلىء من الروح القدس. ويرد كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة إلى فكر الأبرار لكي يهيىء للرب شعباً مستعداً.

فقال زكريا للملاك: كيف أعلم هذا لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها، فأجاب الملاك وقال: أنا جبريل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك

---

(١) انجيل لوقا، الاصحاح الأوّل، ص ٥.

وأبشرك بهذا وها أنت تكون صامتاً ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته.

وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل، فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا في الهيكل فكان يومىء إليهم وبقي صامتاً ولما كملت أيام خدمته مضى إلى بيته.

وبعد تلك الأيام حبلت إليصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة: هكذا قد فعل بي الرب في الأيام التي فيها نظر إلي لينزع عاري بين الناس.

إلى أن قال: وأما إليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابناً وسمع جيرانها وأقرباؤها أن الرب عظم رحمته لها ففرحوا معها. وفي اليوم جاءوا ليختنوا الصبي وسموه باسم أبيه زكريا فأجابت أمه وقالت: لا بل يسمى يوحنا.

فقالوا لها: ليس أحد في عشيرتك يسمى بهذا الاسم. ثم أومئوا إلى أبيه ما ذا يريد أن يسمى. فطلب لوحاً وكتب قائلاً: اسمه يوحنا فتعجب الجميع.

وفي الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله. فوقع خوف على كل جيرانهم وتحدث بهذه الأمور جميعها في كل جبال اليهودية. فأودعها جميع السامعين في قلوبهم قائلين أترى ما ذا يكون هذا الصبي وكانت يد الرب معه. وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ... إلخ.

وفيه[1]: وفي السنة الخامسة عشرة من سلطنة طيباريوس قيصر إذ كان بيلاطس النبطي والياً على اليهودية، وهيرودس رئيس ربع على الجليل، وفيلبس أخوه رئيس ربع على إيطورية وكورة تراخوتينس، وليسانيوس رئيس ربع على

(١) انجيل لوقا، الاصحاح الثالث، ١.

الأبلية في أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا في البرية.

فجاء إلى جميع الكورة المحيطة بالأردن يكرز بمعمودية التوبة لمغفرة الخطايا. كما هو مكتوب في سفر أقوال أشعيا النبي القائل صوت خارج في البرية أعدوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة، كل واد يمتلىء وكل جبل وأكمة ينخفض وتصير المعوجات مستقيمة والشعاب طرقاً سهلة ويبصر كل بشر خلاص الله.

وكان يقول للجموع الذين خرجوا ليعمدوا منه: يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتي فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تبتدءوا تقولون في أنفسكم لنا إبراهيم أبا لأني أقول لكم إن الله قادر على أن يقيم من هذه الحجارة أولاداً لإبراهيم والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر فكل شجرة لا تصنع ثمراً جيداً تقطع و تلقى في النار. وسأله الجموع قائلين: فماذا نفعل ؟ فأجاب وقال لهم: من له ثوبان فليعط من ليس له ومن له طعام فليفعل هكذا.

وجاء عشارون أيضاً ليعمدوا فقالوا له: يا معلم ما ذا نفعل؟ فقال لهم: لا تستوفوا أكثر مما فرض لكم. وسأله جنديون أيضا قائلين: وماذا نفعل نحن ؟ فقال لهم: لا تظلموا أحداً ولا تشوا بأحد واكتفوا بعلائفكم.

وإذ كان الشعب ينتظر والجميع يفكرون في قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح أجاب يوحنا الجميع قائلاً: أنا أعمدكم بماء ولكن يأتي من هو أقوى مني الذي لست أهلاً أن أحل سيور حذائه هو سيعمدكم بروح القدس ونار الذي رفشه في يده وسينقي بيدره ويجمع القمح إلى مخزنه وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ وبأشياء أخر كثيرة كان يعظ الشعب ويبشرهم.

أما هيردوس رئيس الربع فإذا توبخ منه لسبب هيروديا امرأة فيلبس أخيه

ولسبب جميع الشرور التي كان هيرودس يفعلها زاد هذا أيضاً على الجميع أنه حبس يوحنا في السجن. ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً.

و فيه[1]: أن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه في السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه إذ كان قد تزوج بها. لأن يوحنا كان يقول لهيرودس لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك. فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر. لأن هيرودس كان يهاب يوحنا عالماً أنه رجل بار وقديس وكان يحفظه. وإذ سمعه فعل كثيرا وسمعه بسرور. وإذ كان يوم موافق لما صنع هيرودس في مولده عشاء لعظمائه وقواد الألوف وجوه الجليل. دخلت ابنة هيروديا ورقصت، فسرت هيرودس والمتكئين معه. فقال الملك للصبية مهما أردت اطلبي مني فأعطيك. وأقسم لها أن مهما طلبت مني لأعطينك حتى نصف مملكتي. فخرجت وقالت لأمها ما ذا أطلب. فقالت رأس يوحنا المعمدان. فدخلت للوقت بسرعة إلى الملك وطلبت قائلة أريد أن تعطيني حالا رأس يوحنا المعمدان على طبق. فحزن الملك جدا ولأجل الإقسام والمتكئين لم يرد أن يردها. فللوقت أرسل الملك سيافاً وأمر أن يؤتى برأسه فمضى وقطع رأسه في السجن وأتى برأسه على طبق وأعطاه للصبية والصبية أعطته لأمها. ولما سمع تلاميذه جاءوا ورفعوا جثته ووضعوها في قبر.

و ليحيى ﷺ أخبار أخر متفرقة في الأناجيل لا تتعدى حدود ما أوردناه وللمتدبر الناقد أن يطبق ما نقلناه من الأناجيل على ما تقدم حتى يحصل على موارد الاختلاف.[2]

---

(١) انجيل مرقس، الاصحاح السادس، ١٧ ـ ١٩.

(٢) الميزان ١٤: ٣٦ ـ ٤١.



قصّة

عيسى وأمّه مريم عليهما السلام



إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلآئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقاً بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّداً وَحَصُوراً وَنَبِيّاً مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزاً وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيراً وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴿٤١﴾ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ الْمَلآئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ

كَذَلِكِ اللّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِىءُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُواْ اللّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللّهِ آمَنَّا بِاللّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلاَ تَكُن مِّن الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾

قصّة عيسى وأمّه عليهما السلام في القرآن

كانت أم المسيح مريم بنت عمران حملت بها أمها فنذرت أن تجعل ما في بطنها إذا وضعته محرراً يخدم المسجد وهي تزعم أن ما في بطنها ذكور فلما وضعتها وبان لها أنها أنثى حزنت وتحسرت ثم سمتها مريم أي الخادمة وقد كان توفي أبوها عمران قبل ولادتها فأتت بها المسجد تسلمها للكهنة وفيهم زكريا فتشاجروا في كفالتها ثم اصطلحوا على القرعة وساهموا فخرج لزكريا فكفلها حتى إذا أدركت ضرب لها من دونهم حجاباً فكانت تعبد الله سبحانه فيها لا يدخل عليها إلا زكريا وكلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً، قال: يا مريم أنى لك هذا؟ قالت: هو من عند الله، والله يرزق من يشاء بغير حساب، وقد كانت عليها السلام صديقة، وكانت معصومة بعصمة الله، طاهرة مصطفاة محدثة حدثها الملائكة: بأن الله اصطفاها وطهرها وكانت من القانتين ومن آيات الله للعالمين.[1]

ثم إن الله تعالى أرسل إليها الروح وهي محتجبة فتمثل لها بشراً سوياً، وذكر لها أنه رسول من ربها ليهب لها بإذن الله ولدا من غير أب، وبشرها بما سيظهر من ولدها من المعجزات الباهرة، وأخبرها أن الله سيؤيده بروح القدس، ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولاً إلى بني إسرائيل ذا الآيات البينات،

---

(١) آل عمران: ٣٥ ـ ٤٤، مريم: ١٦، الأنبياء: ٩١، التحريم: ١٢.

وأنبأها بشأنه و قصته ثم نفخ الروح فيها فحملت بها حمل المرأة بولدها.[١]

ثم انتبذت مريم به مكاناً قصياً فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً، فناداها من تحتها أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سرياً، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطباً جنياً فكلي واشربي وقري عيناً فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوماً فلن أكلم اليوم إنسياً فأتت به قومها تحمله[٢]، وكان حمله ووضعه وكلامه وسائر شؤون وجوده من سنخ ما عند سائر الأفراد من الإنسان.

فلما رآها قومها ـ والحال هذه ـ ثاروا عليها بالطعنة واللوم بما يشهد به حال امرأة حملت ووضعت من غير بعل، وقالوا يا مريم لقد جئت شيئا فرياً يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبياً؟ قال: إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقياً، والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً[٣]، فكان هذا الكلام منه عليه السلام كبراعة الاستهلال بالنسبة إلى ما سينهض على البغي والظلم وإحياء شريعة موسى عليه السلام وتقويمه، وتجديد ما اندرس من معارفه، وبيان ما اختلفوا فيه من آياته. ثم نشأ عيسى عليه السلام وشبّ وكان هو وأمه على العادة الجارية في الحياة البشرية يأكلان ويشربان وفيهما ما في سائر الناس من عوارض الوجود إلى آخر ما عاشا.

---

(١) آل عمران: ٣٥ ـ ٤٤.

(٢) مريم: ٢٠ ـ ٢٧.

(٣) مريم: ٢٧ ـ ٣٣.

ثم إن عيسى عليه السلام أوتي الرسالة إلى بني إسرائيل فانبعث يدعوهم إلى دين التوحيد، ويقول: إني قد جئتكم بآية من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص أحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم، إن الله هو ربي وربكم فاعبدوه.

وكان يدعوهم إلى شريعته الجديدة وهو تصديق شريعة موسى عليه السلام إلا أنه نسخ بعض ما حرم في التوراة تشديداً على اليهود، وكان يقول: قد جئتكم بالحكمة ولأبين لكم بعض الذي تختلفون فيه، وكان يقول: يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد.

وأنجز عليه السلام ما ذكره لهم من المعجزات كخلق الطير وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار عن المغيبات بإذن الله.

ولم يزل يدعوهم إلى توحيد الله وشريعته الجديدة حتى أيس من إيمانهم لما شاهد من عتو القوم وعنادهم واستكبار الكهنة والأحبار عن ذلك فانتخب من الشرذمة التي آمنت به الحواريين أنصاراً له إلى الله.

ثم إن اليهود ثاروا عليه يريدون قتله فتوفاه الله ورفعه إليه، وشبه لليهود: فمن زاعم أنهم قتلوه، ومن زاعم أنهم صلبوه، ولكن شبه لهم[1]، فهذه جمل ما قصه القرآن في عيسى بن مريم وأمه.

---

(١) آل عمران: ٤٥ ـ ٥٨، الزخرف: ٦٣ ـ ٦٥، الصف: ٦ و ١٤، المائدة: ١١٠ و ١١١، النساء: ١٥٧ و ١٥٨.

منزلة عيسى ﷺ عند الله وموقفه في نفسه

كان ﷺ عبداً لله وكان نبياً[١]، وكان رسولاً إلى بني إسرائيل[٢]، وكان واحداً من الخمسة أولي العزم صاحب شرع وكتاب وهو الإنجيل[٣]، وكان سمّاه الله بالمسيح عيسى[٤]، وكان كلمة لله وروحاً منه[٥]، وكان إماماً[٦]، وكان من شهداء الأعمال[٧]، وكان مبشراً برسول الله ﷺ[٨]، وكان وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين[٩]، وكان من المصطفين[١٠]، وكان من المجتبين، وكان من الصالحين[١١]، وكان مباركاً أينما كان، وكان زكياً، وكان آية للناس ورحمة من الله وبراً بوالدته وكان مسلماً عليه[١٢]، وكان ممن علمه الله الكتاب

---

(١) مريم : ٣٠.

(٢) آل عمران : ٤٩ .

(٣) الأحزاب : ٧، الشورى : ١٣، المائدة : ٤٦ .

(٤) آل عمران : ٤٥ .

(٥) النساء : ١٧١ .

(٦) الأحزاب : ٧.

(٧) النساء : ١٥٩، المائدة : ١١٧ .

(٨) الصف : ٦ .

(٩) آل عمران : ٤٥ .

(١٠) آل عمران : ٣٣ .

(١١) الأنعام : ٨٥ ـ ٨٧.

(١٢) مريم : ١٩ ـ ٣٣.

والحكمة[١]، فهذه اثنتان وعشرون خصلة من مقامات الولاية هي جمل ما وصف الله به هذا النبي المكرم ورفع بها قدره، وهي على قسمين: اكتسابية كالعبودية والقرب والصلاح، واختصاصية، وقد شرحنا كلا منها في الموضع المناسب له من هذا الكتاب بما نطيق فهمه فليرجع فيها إلى مظانها منه.

---

(١) آل عمران: ٤٨.

ما الذي قاله عيسى ﷺ ؟

وما الذي قيل فيه؟ ذكر القرآن أن عيسى كان عبداً رسولاً، وأنه لم يدع لنفسه ما نسبوه إليه، ولا تكلم معهم إلا بالرسالة، كما قال تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾[1].

وهذا الكلام العجيب الذي يشتمل من العبودية على عصارتها، ويتضمن من بارع الأدب على مجامعة يفصح عما كان يراه عيسى المسيح ﷺ من موقفه نفسه تلقاء ربوبية ربه، وتجاه الناس وأعمالهم فذكر أنه كان يرى نفسه بالنسبة إلى ربه عبدا لا شأن له إلا الامتثال لا يرد إلا عن أمر، ولا يصدر إلا عن أمر، ولم يؤمر إلا بالدعوة إلى عبادة الله وحده ولم يقل لهم إلا ما أمر به: أن اعبدوا الله ربي وربكم.

ولم يكن له من الناس إلا تحمل الشهادة على أعمالهم فحسب، وأما ما يفعله الله فيهم وبهم يوم يرجعون إليه فلا شأن له في ذلك، غفر أو عذب.

---

(١) المائدة: ١١٦ ـ ١١٩.

فإن قلت: فما معنى ما تقدم في الكلام على الشفاعة أن عيسى عليه السلام من الشفعاء يوم القيامة يشفع فيشفع؟.

قلت: القرآن صريح أو كالصريح في ذلك، قال تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]، وقد قال تعالى فيه: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ﴾[3].

وقد تقدم إشباع الكلام في معنى الشفاعة، وهذا غير التفدية التي يقول بها النصارى، وهي إبطال الجزاء بالفدية والعوض فإنها تبطل السلطنة المطلقة الإلهية، والآية إنما تنفي ذلك، وأما الشفاعة فالآية غير متعرضة لأمرها لا إثباتاً ولا نفياً فإنها لو كانت بصدد إثباتها ـ على منافاته للمقام ـ لكان حق الكلام أن يقال: وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، ولو كانت بصدد نفيها لم يكن لذكر الشهادة على الناس وجه، وهذا إجمال ما سيأتي في تفسير الآيات تفصيله إن شاء الله تعالى.

وأما ما قاله الناس في عيسى عليه السلام فإنهم وإن تشتتوا في مذاهبهم بعده، واختلفوا في مسالكهم بما ربما جاوز السبعين من حيث كليات ما اختلفوا فيه، وجزئيات المذاهب والآراء كثيرة جداً. لكن القرآن إنما يهتم بما قالوا به في أمر عيسى نفسه وأمه لمساسه بأساس التوحيد الذي هو الغرض الوحيد فيما يدعو إليه القرآن الكريم والدين الفطري القويم، وأما بعض الجزئيات كمسألة التحريف ومسألة التفدية فلم يهتم به ذاك الاهتمام.

---

(١) الزخرف: ٨٦.

(٢) النساء: ١٥٩.

(٣) المائدة: ١١٠.

والذي حكاه القرآن الكريم عنهم أو نسبه إليهم ما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[١]، وما في معناه، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾[٢]، وما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[٣]، وما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ﴾[٤]، وما في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ﴾[٥].

وهذه الآيات وإن اشتملت بظاهرها على كلمات مختلفة ذوات مضامين ومعان متفاوتة، ولذلك ربما حملت على اختلاف المذاهب في ذلك كمذهب الملكانية القائلين بالبنوة الحقيقية، والنسطورية القائلين بأن النزول والبنوة من قبيل إشراق النور على جسم شفاف كالبلور، واليعقوبية القائلين بأنه من الانقلاب، وقد انقلب الإله سبحانه لحماً ودماً.

لكن الظاهر أن القرآن لا يهتم بخصوصيات مذاهبهم المختلفة، وإنما يهتم بكلمة واحدة مشتركة بينهم جميعا وهو البنوة، وأن المسيح من سنخ الإله سبحانه، وما يتفرع عليه من حديث التثليث وإن اختلفوا في تفسيرها اختلافاً كثيراً، وتعرقوا في المشاجرة والنزاع، والدليل على ذلك وحدة الاحتجاج الوارد عليهم في القرآن لساناً.

بيان ذلك : أن التوراة والأناجيل الحاضرة جميعاً تصرح بتوحيد الإله تعالى، من جانب والإنجيل يصرح بالبنوة من جانب آخر، وصرح بأن الابن هو

---

(١) التوبة : ٣٠.
(٢) الأنبياء : ٢٦.
(٣) المائدة : ٧٢.
(٤) المائدة : ٧٣.
(٥) النساء : ١٧١.

الأب لا غير.

ولم يحملوا البنوة الموجودة فيه على التشريف والتبريك مع ما في موارد منه من التصريح بذلك كقوله: «وأنا أقول لكم أحبوا أعداءكم، وباركوا على لاعنيكم وأحسنوا إلى من أبغضكم، وصلوا على من يطردكم ويعسفكم كيما تكونوا بني أبيكم الذي في السماوات لأنه المشرق شمسه على الأخيار والأشرار والممطر على الصديقين والظالمين، وإذا أحببتم من يحبكم فأي أجر لكم؟ أليس العشارون يفعلون كذلك؟ وإن سلمتم على إخوتكم فقط فأي فضل لكم؟ أليس كذلك يفعل الوثنيون كونوا كاملين مثل أبيكم السماوي فهو كامل»(١).

وقوله أيضاً: «فليضيء نوركم قدام الناس ليروا أعمالكم الحسنة ويمجدوا أباكم الذي في السماوات».(٢)

وقوله أيضاً: «لا تصنعوا جميع مراحمكم قدام الناس كي يروكم فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السماوات».

وقوله أيضاً في الصلاة: «وهكذا تصلون أنتم يا أبانا الذي في السماوات يتقدس اسمك ...».

وقوله أيضاً: «فإن غفرتم للناس خطاياهم غفر لكم أبوكم السمائي خطاياكم»(٣).

وقوله: «وكونوا رحماء مثل أبيكم الرحيم»(٤).

---

(١) آخر الإصحاح الخامس من إنجيل متى.

(٢) إنجيل متى، الإصحاح الخامس..

(٣) الإصحاح السادس من إنجيل متى.

(٤) إنجيل لوقا، الإصحاح السادس.

وقوله لمريم المجدلية: «امضي إلى إخوتي وقولي لهم: إني صاعد إلى أبي الذي هو أبوكم وإلهي الذي هو إلهكم»[١].

فهذه وأمثالها من فقرات الأناجيل تطلق لفظ الأب على الله تعالى وتقدس بالنسبة إلى عيسى وغيره جميعا كما ترى بعناية التشريف ونحوه.

و إن كان ما في بعض الموارد منها يعطي أن هذه البنوة والأبوة نوع من الاستكمال المؤدي إلى الاتحاد كقوله: «تكلم اليسوع بهذا ورفع عينيه إلى السماء فقال: يا أبة قد حضرت الساعة فمجد ابنك ليمجدك ابنك» ، ثم ذكر دعاءه لرسله من تلامذته ثم قال: «ولست أسأل في هؤلاء فقط، بل وفي الذين يؤمنون بي بقولهم ليكونوا بأجمعهم واحداً كما أنك يا أبة ثابت في وأنا أيضا فيك ليكونوا أيضا فينا واحداً ليؤمن العالم أنك أرسلتني وأنا أعطيتهم المجد الذي أعطيتني ليكونوا واحداً كما نحن واحد أنا فيهم وأنت في ويكونوا كاملين لواحد لكي يعلم العالم أنك أرسلتني وأنني أحببتهم كما أحببتني»[٢].

لكن وقع فيها أقاويل يتأبى ظواهرها عن تأويلها إلى التشريف ونحوه كقوله: «قال له توما: يا سيّد ما نعلم أين تذهب؟ وكيف نقدر أن نعرف الطريق؟ قال له يسوع: أنا هو الطريق والحق والحياة لا يأتي أحد إلى أبي إلا بي لو كنتم تعرفونني لعرفتم أبي أيضا ومن الآن تعرفونه وقد رأيتموه أيضاً، قال له فيلبس: يا سيد أرنا الأب وحسبنا، قال له يسوع: أنا معكم كل هذا الزمان ولم تعرفني يا فيلبس؟ من رآني فقد رأى الأب فكيف تقول أنت: أرنا الأب؟ أما تؤمن أني في أبي وأبي في وهذا الكلام الذي أقوله لكم ليس هو من ذاتي وحدي بل أبي الحال

(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح العشرون.

(٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح السابع عشر.

في هو يفعل هذه الأفعال آمنوا بي، أنا في أبي وأبي فيَّ»[١].

وقوله: «لكني خرجت من الله وجئت ولم آت من عندي بل هو أرسلني»[٢].

وقوله: «أنا وأبي واحد نحن»[٣].

وقوله لتلامذته: «اذهبوا وتلمذوا كل الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن وروح القدس»[٤].

وقوله: «في البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله، والله كان الكلمة منذ البدء كان هذا عند الله كل به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان به كانت الحياة، والحياة كانت نور الناس»[٥].

فهذه الكلمات وما يماثلها مما وقع في الإنجيل هي التي دعت النصارى إلى القول بالتثليث في الوحدة.

والمراد به حفظ «أن المسيح ابن الله» مع التحفظ على التوحيد الذي نص عليه المسيح في تعليمه كما في قوله: «إن أول كل الوصايا: اسمع يا إسرائيل الرب إلهك إله واحد هو»[٦].

ومحصل ما قالوا به وإن كان لا يرجع إلى محصل معقول: أن الذات جوهر واحد له أقانيم ثلاث، والمراد بالأقنوم هو الصفة التي هي ظهور الشيء وبروزه

---

(١) إنجيل يوحنا، الإصحاح الرابع عشر.
(٢) إنجيل يوحنا، الإصحاح الثامن.
(٣) إنجيل يوحنا، الإصحاح العاشر.
(٤) إنجيل متى، الإصحاح الثامن والعشرون.
(٥) إنجيل يوحنا، الإصحاح الأول.
(٦) إنجيل مرقس، الإصحاح الثاني عشر.

وتجليه لغيره وليست الصفة غير الموصوف: والأقانيم الثلاث هي: أقنوم الوجود وأقنوم العلم، وهو الكلمة، وأقنوم الحياة وهو الروح.

وهذه الأقانيم الثلاث هي: الأب والابن والروح القدس: والأول أقنوم الوجود، والثاني أقنوم العلمالكلمة، والثالث أقنوم الحياة، فالابن وهو الكلمة وأقنوم العلم نزل من عند أبيه وهو أقنوم الوجود بمصاحبة روح القدس وهو أقنوم الحياة التي بها يستنير الأشياء.

ثم اختلفوا في تفسير هذا الإجمال اختلافاً عظيماً أوجب تشتتهم وانشعابهم شعباً ومذاهب كثيرة تجاوز السبعين، وسيأتيك نبؤها على قدر ما يلائم حال هذا الكتاب.

إذا تأملت ما قدمناه عرفت: أن ما يحكيه القرآن عنهم، أو ينسبه إليهم بقوله: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ...﴾[١]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ...﴾[٢]، وقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ...﴾[٣]، وقوله: ﴿وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ...﴾[٤]، كل ذلك يرجع إلى معنى واحد وهو تثليث الوحدة هو المشترك بين جميع المذاهب المستحدثة في النصرانية، وهو الذي قدمناه في معنى تثليث الوحدة.

و إنما اقتصر فيه على هذا المعنى المشترك لأن الذي يرد على أقوالهم في خصوص المسيح ﷺ على كثرتها وتشتتها مما يحتج به القرآن أمر واحد يرد على وتيرة واحدة كما سيتّضح .

---

(١) التوبة: ٣٠.

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) المائدة: ٧٣.

(٤) النساء: ١٧١ .

احتجاج القرآن على مذهب التثليث

يرد القرآن في الاحتجاج، ويرد قول المثلثة من طريقين:

أحدهما: الطريق العام، وهو بيان استحالة الابن عليه تعالى في نفسه أي سواء كان عيسى هو الابن أو غيره.

الثاني: الطريق الخاص وهو بيان أن عيسى بن مريم ليس ابناً إلهاً، بل عبد مخلوق.

أما الطريق الأوّل فتوضيحه أن حقيقة البنوة والتولد هو أن يجزىء واحد من هذه الموجودات الحية المادية كالإنسان والحيوان بل النبات أيضاً شيئاً من مادة نفسه ثم يجعله بالتربية التدريجية فردا آخر من نوعه مماثلا لنفسه يترتب عليه من الخواص والآثار ما كان يترتب على المجزأ منه كالحيوان يفصل من نفسه النطفة، و النبات يفصل من نفسه اللقاح ثم يأخذ في تربيته تدريجاً حتى يصيره حيواناً أو نباتاً آخر مماثلاً لنفسه، ومن المعلوم أن الله سبحانه يمتنع عليه ذلك: أما أولاً فلاستلزامه الجسمية المادية، والله سبحانه منزه من المادة ولوازمها الافتقارية كالحركة والزمان والمكان وغير ذلك، وأما ثانياً فلأن الله سبحانه لإطلاق ألوهيته وربوبيته له القيومية المطلقة على ما سواه فكل شيء سواه مفتقر الوجود إليه قائم الوجود به فكيف يمكن فرض شيء غيره يماثله في النوعية يستقل عنه بنفسه، ويكون له من الذات والأوصاف والأحكام ما له من غير افتقار إليه، وأما ثالثاً فلأن جواز الإيلاد والاستيلاد عليه تعالى يستلزم جواز الفعل

التدريجي عليه تعالى، وهو يستلزم دخوله تحت ناموس المادة والحـركة وهـو خلف بل ما يقع بإرادته ومشيته تعالى إنما يقع من غير مهلة وتدريج.

و هذا البيان هو الذي يفيده قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1]، وعلى ما قربناه فقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ بـرهان، وقوله: ﴿لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ برهان آخر وقوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى ...﴾ برهان ثالث.

ويمكن أن يجعل قوله: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ من قبيل إضافة الصفة إلى فاعلها، ويستفاد منه أن خلقه تعالى على غير مثال سـابق فـلا يـمكن مـنه الإيلاد لأنه خلق على مثال نفسه لأن مفروضهم العينية فيكون هذه الفقرة وحدها برهاناً آخر.

ولو فرض قولهم: ﴿اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً﴾ كلاماً ملقى لا على وجه الحقيقة، بل على وجه التوسع في معنى الابن والولد بأن يراد به انفصال شيء عن شيء يماثله في الحقيقة من غير تجز مادي أو تدريج زماني وهذا هو الذي يرومه النصارى بقولهم: المسيح ابن الله بعد تنقيحه ليتخلص بذلك عن إشكال الجسمية والمادية والتدريج بقي إشكال المماثلة.

توضيحه: أن إثبات الابن والأب إثبات للـعدد بـالضرورة، وهـو إثـبات للكثرة الحقيقية وإن فرضت الوحدة النوعية بين الأب والابن كالأب والابن من الإنسان هما واحد في الحقيقة الإنسانية، وكثير من حيث إنهما فردان من الانسان، وعلى هذا فلو فرض وحدة الإله كان كل ما سواه ومن جـملتها الابـن غـيراً له

(١) البقرة: ١١٧.

مملوكاً مفتقراً إليه فلا يكون الابن المفروض إلهاً مثله، ولو فرض ابن مماثل له غير مفتقر إليه، بل مستقل مثله بطل التوحيد في الإله عز اسمه.

وهذا البيان هو المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُواْ ثَلَاثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً﴾(١).

وأما الطريق الثاني وهو بيان أن شخص عيسى بن مريم عليهما السلام ليس ابناً لله مشاركاً له في الحقيقة الإلهية فلما كان فيه من البشرية ولوازمها.

وتوضيحه: أن المسيح عليه السلام حملت به مريم، وربته جنيناً في رحمها، ثم وضعته وضع المرأة ولدها، ثم ربته كما يتربى الولد في حضانة أمه، ثم أخذ في النشوء وقطع مراحل الحياة والارتقاء في مدارج العمر من الصبا والشباب والكهولة، وفي جميع ذلك كان حاله حال إنسان طبيعي في حياته، يعرضه من العوارض والحالات ما يعرض الانسان: من جوع وشبع، وسرور ومساءة، ولذة وألم، وأكل وشرب، ونوم ويقظة، وتعب وراحة، وغير ذلك.

فهذا ما شوهد من حال المسيح عليه السلام حين مكثه بين الناس، ولا يرتاب ذو عقل أن من كان هذا شأنه فهو إنسان كسائر الأناسي من نوعه وإذا كان كذلك فهو مخلوق مصنوع كسائر أفراد نوعه، وأما صدور الخوارق تحقق المعجزات بيده كإحياء الأموات وخلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص، وكذا تحقق الخوارق من الآيات في وجوده كتكونه من غير أب فإنما هي أمور خارقة للعادة المألوفة والسنة الجارية في الطبيعة فإنها نادرة الوجود لا مستحيلته فهذا آدم تذكر الكتب السماوية أنه خلق من تراب ولا أب له، وهؤلاء أنبياء الله كصالح وإبراهيم

---

(١) النساء: ١٧١.

وموسى عليه السلام جرت بأيديهم آيات معجزة كثيرة مذكورة في مسفورات الوحي من غير أن تقتضي فيهم ألوهية، ولا خروجا عن طور الإنسانية.

وهذه الطريقة هي المسلوكة في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ـ إلى أن قال: ـ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(١)، وقد خص أكل الطعام من بين جميع الأفعال بالذكر لكونه من أحسنها دلالة على المادية واستلزاماً للحاجة والفاقة المنافية للألوهية، فمن المعلوم أن من يجوع ويظمأ بطبعه ثم يشبع بأكلة أو يرتوي بشربة ليس عنده غير الحاجة والفاقة التي لا يرفعها إلا غيره، وما معنى ألوهية من هذا شأنه؟ فإن الذي قد أحاطت به الحاجة واحتاج في رفعها إلى الخارج من نفسه فهو ناقص في نفسه مدبر بغيره، وليس بإله غني بذاته، بل هو مخلوق مدبر بربوبية من ينتهي إليه تدبيره.

و إلى هذا يمكن أن يرجع قوله تعالى: ﴿لقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢).

وكذا قوله تعالى في ذيل الآية المنقولة سابقاً خطاباً للنصارى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللّهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً وَاللّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾(٣).

---

(١) المائدة: ٧٣ ـ ٧٥.

(٢) المائدة: ١٧.

(٣) المائدة: ٧٦.

فإن الملاك في هذا النوع من الاحتجاجات هو أن الذي شوهد من أمر المسيح أنه كان يعيش على الناموس الجاري في حياة الإنسان متصفا بجميع صفاته وأفعاله وأحواله النوعية كالأكل والشرب وسائر الاحتياجات الإنسانية، والخواص البشرية ولم يكن هذا التلبس والاتصاف بحسب ظاهر الحس أو تسويل الخيال فحسب بل كان على الحقيقة وكان المسيح ﷺ إنساناً ذا هذه الأوصاف والأحوال والأفعال، والأناجيل مشحونة بتسميته نفسه إنسانا وابن الإنسان، مملوءة بالقصص الناطقة بأكله وشربه ونومه ومشيه ومسافرته وتعبه وتكلمه ونحو ذلك بحيث لا يقبل شيء منها صرفاً ولا تأويلاً، ومع تسليم هذه الأمور يجري على المسيح ما يجري على غيره فهو لا يملك من غيره شيئاً كغيره، ويمكن أن يهلك كغيره. وكذا حديث عبادته ودعائه بحيث لا يرتاب في أن ما كان يأتيه من عبادة فإنما للتقرب من الله والخضوع لقدس ساحته لا لتعليم الناس أو لأغراض أخر تشابه ذلك.

وإلى حديث العبادة والاحتجاج به يومىء قوله تعالى:

﴿لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً﴾[1].

فعبادة المسيح أوّل دليل على أنه ليس بإله، وأن الألوهية لغيره لا نصيب له فيها، فأي معنى لنصب الشيء نفسه في مقام العبودية والمملوكية لنفسه؟ وكون الشيء قائماً بنفسه من عين الجهة التي بها يقوم نفسه والأمر ظاهر وكذا عبادة الملائكة كاشفة عن أنها ليست ببنات الله سبحانه ولا أن روح القدس إله بعدما كانوا بأجمعهم عابدين لله طائعين له كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً

(١) النساء: ١١٢.

سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[١].

على أن الأناجيل مشحونة بأن الروح طائع لله ورسله مؤتمر للأمر محكوم بالحكم ولا معنى لأمر الشيء نفسه ولا لطاعته لذاته، ولا لانقياده وائتماره لمخلوق نفسه.

و نظير عبادة المسيح لله سبحانه في الدلالة على المغايرة دعوته الناس إلى عبادة الله كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾[٢]، وسبيل الآية واحتجاجها ظاهر.

والأناجيل أيضاً مشحونة في دعوته إلى الله سبحانه، وهي وإن لم تشتمل على هذا اللفظ الجامع ﴿اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ لكنها مشتملة على الدعوة إلى عبادة الله، وعلى اعترافه بأنه ربه الذي بيده زمام أمره، وعلى اعترافه بأنه رب الناس، ولا تتضمن دعوته إلى عبادة نفسه صريحاً ولا مرة مع ما فيها من قوله: «أنا وأبي واحد نحن»[٣]، فمن الواجب أن يحمل على تقدير صحته على أن المراد: أن إطاعتي إطاعة الله كما قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾[٤].

---

(١) الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٨.

(٢) المائدة: ٧٢.

(٣) إنجيل يوحنا، الإصحاح العاشر.

(٤) النساء: ٨٠.

المسيح من الشفعاء عند الله وليس بفاد

زعمت النصارى: أن المسيح فداهم بدمه الكريم، ولذلك لقبوه بالفادي، قالوا: إن آدم لما عصى الله بالأكل من الشجرة المنهية في الجنة أخطأ بذلك ولزمته الخطيئة، وكذلك لزمت ذريته من بعده ما توالدوا وتناسلوا،جزاء الخطيئة العقاب في الآخرة والهلاك الأبدي الذي لا مخلص منه، وقد كان الله سبحانه رحيماً عادلاً.

فبدا إذ ذاك إشكال عويص لا انحلال له، وهو أنه لو عاقب آدم وذريته بخطيئتهم كان ذلك منافياً لرحمته التي لها خلقهم، ولو غفر لهم كان ذلك منافيا لعدله فإن مقتضى العدل أن يعاقب المجرم الخاطيء بجرمه وخطيئته كما أن مقتضاه أن يثاب المحسن المطيع بإحسانه وإساءته.

ولم تزل هذه العويصة على حالها حتى حلها ببركة المسيح، وذلك بأن حل المسيح وهو ابن الله، وهو الله نفسه رحم واحدة من ذرية آدم وهو مريم البتول وتولد منها كما يتولد إنسان فكان بذلك إنساناً كاملاً لأنه ابن انسان، وإلها كاملا لأنه ابن الله، وابن الله هو الله تعالى معصوماً عن جميع الذنوب والخطايا.

وبعد أن عاش بين الناس برهة يسيرة من الزمان يعاشرهم ويخالطهم، ويأكل ويشرب معهم، ويكلمهم ويستأنس بهم، ويمشي فيهم تسخر لأعدائه ليقتلوه شر قتلة، وهي قتلة الصلب التي لعن صاحبها في الكتاب الإلهي فاحتمل

اللعن والصلب بما فيه من الزجر والأذى والعذاب ففدى الناس بنفسه ليخلصوا بذلك من عقاب الآخرة وهلاك السرمد وهو كفارة لخطايا المؤمنين به بل لخطايا كل العالم هذا ما قالوه.

وقد جعلت النصارى هذه الكلمة أعني مسألة الصلب والفداء أساس دعوتهم فلا يبدءون إلا بها، ولا يختمون إلا عليها كما أن القرآن يجعل أساس الدعوة الإسلامية هو التوحيد كما قال الله مخاطباً لرسوله ﷺ:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَاْ وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1]، مع أن المسيح على ما يصرح به الأناجيل ـ وقد تقدّم نقله ـ كان يجعل أول الوصايا هو التوحيد ومحبة الله سبحانه.

وقد ناقشهم غيرهم من المسلمين وسائر الباحثين فيما يشتمل عليه قولهم هذا من وجوه الفساد والبطلان، و ألفت فيها كتب ورسائل وملئت بها صحف وطوامير ببيان منافاتها لضرورة العقل، ومناقضتها لكتب العهدين.

والذي يهمنا ويوافق الغرض الموضوع له هذا الكتاب بيان جهات منافاته لأصول تعليم القرآن وختمه ببيان الفرق بين ما يثبته القرآن من الشفاعة وما يثبتونه من الفداء.

على أن القرآن يذكر صراحة أنه إنما يخاطب الناس ويكلمهم ببيان ما يقرب من أفق عقولهم، ويمكن بياناته من فقههم وفهمهم، وهو الأمر الذي به يميز الإنسان الحق من الباطل فينقاد لهذا ويأبى ذاك، ويفرق بين الخير والشر والنافع والضار فيأخذ بهذا ويترك ذاك. والذي ذكرناه من اعتبار القرآن في بياناته حكم

---

(١) يوسف: ١٠٨.

العقل السليم مما لا غبار عليه عند من راجع الكتاب العزيز.

فأما ما ذكروه ففيه أولاً: أنهم ذكروا معصية آدم ﷺ بالأكل من الشجرة المنهية، والقرآن يدفع ذلك من جهتين: الأُولى: أن النهي هناك كان نهياً إرشادياً يقصد به صلاح المنهي ووجه الرشد في أمره لا إعمال المولوية والأمر الذي هو من هذا القبيل لا يترتب على امتثاله ولا تركه ثواب ولا عقاب مولوي كأوامر المشير ونواهيه لمن يستشيره، وأوامر الطبيب ونواهيه للمريض، بل إنما يترتب على امتثال التكليف الإرشادي الرشد المنظور لمصلحة المكلف، وعلى مخالفته الوقوع في مفسدة المخالفة وضرر الفعل بما أنه فعل، وبالجملة لم يلحق بآدم ﷺ إلا أنه أخرج من الجنة وفاته راحة القرب وسرور الرضا، وأما العقاب الأخروي فلا لأنه لم يعص معصية مولوية حتى يستتبع عقاباً، راجع تفسير الآيات (٣٥ ـ ٣٩) من سورة البقرة.

والثانية: أنه ﷺ كان نبياً والقرآن ينزه ساحة الأنبياء ﷺ ويبرىء نفوسهم الشريفة عن اقتراف المعاصي والفسق عن أمر الله سبحانه، والبرهان العقلي أيضا يؤيد ذلك.[1]

وثانياً: قولهم: إن الخطيئة لزمت آدم فإن القرآن يدفعه بقوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[2]، وقوله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[3].

---

(١) راجع تفسير الميزان، البحث المتعلّق بعصمة الأنبياء في تفسير الآية ٢١٣ من سورة البقرة.

(٢) طه: ١٢٢.

(٣) البقرة: ٣٧.

والاعتبار العقلي يؤيد ذلك، بل يبينه فإن الخطيئة وتبعة الذنب إنما هو أمر محذور مخوف منه يعتبره العقل أو المولى لازماً للمخالفة والتمرد ليستحكم بذلك أمر التكليف فلولا العقاب والثواب لم يستقم أمر المولوية ولم يمتثل أمر ولا نهي وكما أن من شؤون المولوية بسط العقاب على المجرمين في جرائمهم كالثواب على المطيعين في طاعاتهم كذلك من شؤون المولوية إطلاق التصرف في دائرة مولويته فللمولى أن يغمض عن خطيئة المخطئين ومعصية العاصين بالعفو والمغفرة فإنه نوع تصرف وحكومة كما أن له أن يؤاخذ بها وهي نوع حكومة، وحسن العفو والمغفرة عن الموالي وأولي القوة والسطوة في الجملة مما لا ريب فيه، والعقلاء من الإنسان يستعملونه إلى هذا الحين فكون كل خطيئة صادرة من الإنسان لازمة للإنسان مما لا وجه له البتة وإلا لم يكن لأصل العفو والمغفرة تحقق لأن المغفرة والعفو إنما يكون لإمحاء الخطيئة وإبطال أثر الذنب، ومع فرض أن الخطيئة لازمة غير منفكة لا يبقى موضوع للعفو والمغفرة، مع أن الوحي الإلهي مملو بحديث العفو والمغفرة، وكتب العهدين كذلك.

حتى أن هذا الكلام المنقول منهم لا يخلو عنه، وبالجملة دعوى كون ذنب من الذنوب أو خطيئة من الخطايا لازمة غير قابلة في نفسه للمغفرة والإمحاء حتى بالتوبة والإنابة والرجوع والندم مما لا يقبله عقل سليم ولا طبع مستقيم.

وثالثاً: أن قولهم: إن خطيئة آدم كما لزمته كذلك لزمت ذريته إلى يوم القيامة يستلزم أن يشمل تبعة الذنب الصادر من واحد غيره أيضاً ممن لم يذنب في المعاصي المولوية.

وبعبارة أخرى أن يصدر فعل عن واحد ويعم عصيانه وتبعته غير فاعله كما يشمل فاعله، وهذا غير أن يأتي قوم بالمعصية ويرضى به آخرون من أخلافهم

فتحسب المعصية على الجميع وبالجملة هو تحمل الوزر من غير صدور الذنب والقرآن يرد ذلك كما في قوله: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى * وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾[1]، والعقل يساعده عليه لقبح مؤاخذة من لم يذنب بذنب لم يصدر عنه.

ورابعاً: أن كلامهم مبني على كون تبعة جميع الخطايا والذنوب هو الهلاك الأبدي من غير فرق بينها، ولازمه أن لا يختلف الخطايا والذنوب من حيث الصغر والكبر، بل يكون جميعها كبائر موبقات، والذي يراه القرآن الكريم في تعليمه أن الخطايا والمعاصي مختلفة فمنها كبائر، ومنها صغائر، ومنها ما تناله المغفرة، ومنها ما لا تناله إلا بالتوبة كالشرك، قال تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[3]، فجعل تعالى من المحرمات المنهي عنها وهي الخطايا والذنوب ما هي كبائر، وما هي سيئات أي صغائر بقرينة المقابلة، وجعل تعالى من الذنوب ما لا يقبل المغفرة، ومنها ما يقبلها فالذنوب على أي حال مختلفة، وليس كل ذنب بموجب للخلود في النار والهلاك الأبدي. على أن العقل يأبى عن نضد جميع الذنوب ونظمها في سلك واحد فاللطم غير القتل والنظر المريب غير الزنا، وهكذا، والعقلاء من الإنسان في جميع الأدوار لم يضعوا كل ذنب وخطأ موضع غيره، ويرون للمعاصي المختلفة تبعات ومؤاخذات مختلفة فكيف يصح إجراء الجميع مجرى واحداً مع هذا الاختلاف الفاحش بينها،إذا فرض اختلافها لم يصح إلا جعل العقاب الخالد والهلاك الأبدي لبعضها كالشرك بالله، كما يقول القرآن الكريم.

---

(١) النجم: ٣٨ ـ ٣٩.

(٢) النساء: ٣١.

(٣) النساء: ٤٨.

ومن المعلوم أن مخالفة نهي ما في الأكل من الشجرة ليس يحل محل الكفر بالله العظيم وما يشابه ذلك فلا وجه لجعل عقابه وتبعته هو العذاب المؤبد .

وخامساً: ما ذكروه من وقوع الإشكال، وحدوث التزاحم بين صفة الرحمة وصفة العدل ثم الاحتيال إلى رفعه بنزول المسيح وصعوده بالوجه الذي ذكروه.

والمتأمل في هذا الكلام وما يستتبعه من اللوازم يجد أنهم يرون أن الله تعالى وتقدس موجود خالق ينسب وينتهي إليه هذا العالم المخلوق بجميع أجزائه غير أنه إنما يفعل بإرادة وعلم في نفسه، وإرادته في تحققها تتوقف إلى ترجيح علمي كما أن الإنسان إنما يريد شيئاً إذا رجحه بعلمه، فهناك مصالح ومفاسد يطبق الله أفعاله عليها فيفعلها، وربما أخطأ في التطبيق فندم على الفعل، وربما فكر في أمر ولم يهتد إلى طريق صلاحه، وربما جهل أمراً، وبالجملة هو تعالى في أوصافه وأفعاله كالإنسان إنما يفعل ما يفعل بالتفكر والتروي ويروم فيه تطبيق فعله على المصلحة فهو محكوم بحكم المصالح ومقهور بعملها فيه من الخارج، ويمكن له الاهتداء إلى الصلاح ويمكن له الضلال والاشتباه والغفلة فربما يعلم وربما يجهل، وربما يغلب وربما يغلب عليه فقدرته محدودة كعلمه، وإذا جاز عليه هذا الذي ذكر جاز عليه سائر ما يطرأ الفاعل المتفكر المريد في فعله من سرور وحزن وحمد وندم وابتهاج وانفعال وغير ذلك، والذي هذا شأنه يكون موجوداً مادياً جسمانياً واقعاً تحت ناموس الحركة والتغير والاستكمال، والذي هو كذلك ممكن مخلوق، بل إنسان مصنوع، وليس بالواجب تعالى، الخالق لكل شيء.

وأنت بالرجوع إلى كتب العهدين تجد صدق جميع ما نسبناه إليهم في الواجب تعالى من جسميته واتصافه بجميع أوصاف الجسمانيات وخاصّة الإنسان.

والقرآن في جميع هذه المعاني المذكورة ينزه الله تعالى عن هذه الأوهام الخرافية، كما يقول تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾[1]، والبراهين العقلية القاطعة قائمة على أنه تعالى ذات مستجمع لجميع صفات الكمال فله الوجود من غير شائبة عدم، والقدرة المطلقة من غير عجز، والعلم المطلق من غير طرو جهل، والحياة المطلقة من غير إمكان موت وفناء، وإذا كان كذلك لم يجز عليه تغير حال في وجوده أو علمه أو قدرته أو حياته.

وإذا كان كذلك لم يكن جسماً ولا جسمانياً لأن الأجسام والجسمانيات محاط التغيرات والتحولات، ومحال الإمكانات والافتقارات والاحتياجات، وإذا لم يكن جسماً ولا جسمانياً لم يطرأ عليه الحالات المختلفة والطواري المتنوعة: من غفلة وسهو وغلط وندم وتحير وتأثر وانفعال وهوان وصغر ومغلوبية ونحوها، وقد استوفينا البحث البرهاني المتعلق بهذه المعاني في هذا الكتاب في موارد يناسبها، يجدها المراجع إذا راجع.

وعلى الناقد المتبصر والمتأمل المتدبر أن يقايس بين القولين: ما يقول به القرآن الكريم في إله العالم فيثبت له كل صفة كمال، وينزهه عن كل صفة نقص، وبالآخرة يعده أكبر وأعظم من أن يحكم فيه أفهامنا بما صحبته من عالم الحد والتقدير، وبين ما يثبته العهدان في الباري تعالى بما لا يوجد إلا في أساطير يونان، وخرافات هند القديم والصين، وأمور كان الإنسان الأولي يتوهمها فيتأثر مما قدمه إليه وهمه.

وسادساً: قولهم إن الله أرسل ابنه المسيح وأمره أن يحل رحماً من الأرحام

---

(١) الصافات: ١٥٩.

ليتولد إنساناً وهو إله، وهذا هو القول غير المعقول الذي انتهض لبيان بطلانه القرآن الكريم على ما أوضحناه في البيان السابق فلا نعيد.

ومن المعلوم أن العقل أيضاً لا يساعد عليه فإنك إذا تأملت فيما يجب من الصفات أن يقال باتصاف الواجب تعالى بها كالثبات السرمدي، وعدم التغير، وعدم تحدد الوجود، والإحاطة بكل شيء، والتنزه عن الزمان والمكان وما يتبعهما، وتأملت في تكون إنسان من حين كونه نطفة فجنينا في رحم سواء اعتبرت في معناه تفسير الملكانيين لهذه الكلمة أو تفسير النسطوريين، أو تفسير اليعقوبيين أو غيرهم إذ لا نسبة بين ما له الجسمية وجميع أوصاف الجسمية وآثارها وبين ما ليس فيه جسمية ولا شيء مما يتصف به من زمان أو مكان أو حركة أو غير ذلك فكيف يمكن تعقل الاتحاد بينهما بوجه؟!

وعدم انطباق القول المذكور على القضايا الضرورية العقلية هو السر فيما يذكره بولس وغيره من رؤسائهم القديسين من تقبيح الفلسفة والإزراء بالأحكام العقلية.

يقول بولس: «قد كتب لأهلكن حكمة الحكماء ولأخالفن فهم الفقهاء أين الحكيم أين الكاتب أين مستفحص هذا الدهر بتعمق؟ أوليس قد حمق الله حكمة هذا العالم ـ إلى أن قال: ـ وإذ اليهود يسألون آية واليونانيون يطلبون حكمة نكرز نحن بالمسيح مصلوب»[1]، ونظائر هذه الكلمات كثيرة في كلامه وكلام غيره وليست إلّا لسياسة النشر والإذاعة والتبليغ والعظة، يوقن بذلك من أرعى نظره في هذه الرسائل والكتب وتعمق في طريق تكليمها الناس وإلقاء بياناتها إليهم.

---

(١) رسالة بولس، الإصحاح الأوّل.

وممّا مر يظهر ما في قولهم: إنه تعالى معصوم من الذنوب والخطايا فإن الإله الذي صوروه غير مصون عن الخطأ أصلاً بمعنى الغلط في الإدراك والغلط في الفعل من غير أن ينتهي إلى مخالفة من يجب موافقته.

وأما الذنب والمعصية بمعنى التمرد فيما يجب فيه الطاعة والانقياد فهو غير متصور في حقه تعالى فالعصمة أيضاً غير متصورة في حقه سبحانه.

وسابعاً: قولهم: إنه بعد أن صار إنساناً عاشر الناس معاشرة الإنسان للإنسان حق تسخر لأعدائه فيه تجويز اتصاف الواجب بحقيقة من حقائق الممكنات حتى يكون إلهاً وإنساناً في عرض واحد، فكان من الجائز أن يصير الواجب شيئاً من مخلوقاته أي يتصف بحقيقة كل نوع من هذه الأنواع الخارجية، فتارة يكون إنساناً من الأناسي، وتارة فرساً، وتارة طائراً، وتارة حشرة، وتارة غير ذلك، وتارة يكون أزيد من نوع واحد من الأنواع كالإنسان والفرس والحشرة معاً.

و هكذا يجوز أن يصدر عنه أي فعل فرض من أفعال الموجودات لجواز أن يصير هو ذلك النوع فيفعل فعله المختص به، وكذا يجوز أن يصدر عنه أفعال متقابلة معاً كالعدل والظلم، وأن يتصف بصفات متقابلة كالعلم و الجهل، والقدرة والعجز، والحياة والموت والغنى والفقر، تعالى الملك الحق، وهذا غير المحذور المتقدم في الأمر السادس.

وثامناً: قولهم: إنه تحمل الصلب واللعن أيضا لأن المصلوب ملعون، ما ذا يريدون بقولهم: إنه تحمل اللعن؟ وما ذا يراد بهذا اللعن؟ أ هو هذا اللعن الذي يعرفه العرف واللغة وهو الإبعاد من الرحمة والكرامة أو غير ذلك؟ فإن كان هو الذي نعرفه، وتعرفه اللغة فما معنى إبعاده تعالى نفسه من الرحمة أو إبعاد غيره إياه

من الرحمة؟ فهل الرحمة إلا الفيض الوجودي وموهبة النعمة والاختصاص بمزايا الوجود فيرجع هذا الإبعاد واللعن بحسب المعنى إلى الفقر في المال أو الجاه أو نحو ذلك في الدنيا أو الآخرة أو كلتيهما، وحينئذ فما معنى لحوق اللعن بالله تعالى وتقدس بأي وجه تصوروه؟ مع أنه الغني بالذات الذي هو يسد باب الفقر عن كل شيء.

والتعليم القرآني على خلاف هذا التعليم العجيب بتمام معنى الكلمة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1]، والقرآن يسميه تعالى بأسماء ويصفه بصفات يستحيل معها عروض أي فقر وفاقة وحاجة ونقيصة وفقد وعدم وسوء وقبح وذل وهوان إلى ساحة قدسه وكبريائه.

فإن قيل: إن اتصافه بالهوان، وحمله اللعن بواسطة اتحاده بالإنسان، وإلا فهو تعالى في نفسه وحيال ذاته أجل من أن يعرضه ذلك.

قيل لهم: هل يوجب هذا الاتحاد حمله اللعن واتصافه بهذه الأمور الشاقة حقيقة ومن غير مجاز أو لا؟ فإن كان الأول لزم المحذور الذي ذكرناه، وإن كان الثاني عاد الإشكال، أعني أن تولد المسيح لم يوجب انحلال إشكال تزاحم الرحمة والعدل، فإن تحمل غيره تعالى للمصائب وأقسام العذاب واللعن لا يتم أمر الفدية أي صيرورة الله فدية عن أفراد الإنسان، وهو ظاهر.

وتاسعاً: قولهم: إن ذلك كفارة لخطايا المؤمنين بعيسى بل لخطايا كل العالم، يدل ذلك على أنهم لم يحصلوا حقيقة معنى الذنوب والخطايا وكيفية استتباعها للعقاب الأخروي وكيف يتحقق هذا العقاب، ولم يعرفوا حقيقة الارتباط بين هذه

---

(١) فاطر: ١٥.

الذنوب والخطايا وبين التشريع، وما هو موقف التشريع من ذلك؟ على ما يتكفله البيان القرآني وتعليمه.

فقد بينا في المباحث السابقة في هذا الكتاب ومن جملتها ما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا﴾[1]، وفي ذيل قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[2]، أن الأحكام والقوانين التي يقع فيها المخالفة والتمرد ثم الذنب والخطيئة إنما هي أمور وضعية اعتبارية أريد بوضعها واعتبارها أن يحفظ مصالح المجتمع الإنساني بالعمل بها والرقوب لها، وأن العقاب المترتب على المعصية والمخالفة إنما هو تبعة سوء اعتبروه ووضعوه ليكون ذلك صارفاً للإنسان المكلف عن اقتراف المعصية والتمرد عن الطاعة، هذا ما عند العقلاء البانين للمجتمع الإنساني.

لكن التعليم القرآني يعطي في هذا المعنى ما هو أرقى من ذلك وأرق ويؤيده البحث العقلي على ما مر، وهو أن الإنسان بانقياده للشرع المنصوب له من جانب الله وعدم انقياده له تتهيأ في نفسه حقائق من الصفات الباطنة الحميدة الفاضلة أو الرذيلة الخسيسة الخبيثة، وهذه هي التي تهيىء للإنسان نعمة أخروية أو نقمة أخروية اللتين ممثلهما الجنة والنار وحقيقتهما القرب والبعد من الله فالحسنات أو الخطايا تتكي وتنتهي إلى أمور حقيقية لها نظام حقيقي غير اعتباري.

ومن البين أيضاً أن التشريع الإلهي إنما هو تتمة للتكميل الإلهي في الخلقة، وإنهاء الهداية التكوينية إلى غايتها وهدفها من الخلقة، وبعبارة أخرى، شأنه تعالى

---

(١) البقرة: ٢٦.

(٢) البقرة: ٢١٣.

إيصال كل نوع إلى كمال وجوده وهدف ذاته ومن كمال وجود الإنسان النظام النوعي الصالح في الدنيا، والحياة الناعمة السعيدة في الآخرة، والطريق إلى ذلك الدين الذي يتكفل قوانين صالحة لإصلاح الاجتماع وجهات من التقرب باسم العبادات يعمل بها الإنسان فينتظم بذلك معاشه ويتهيأ في نفسه ويصلح في ذاته وعمله للكرامة الإلهية في الدار الآخرة، كل ذلك من جهة النور المجعول في قلبه والطهارة الحاصلة في نفسه هذا حق الأمر.

فللإنسان قرب وبعد من الله سبحانه هما الملاكان في سعادته وشقاوته الدائمتين ولصلاح اجتماعه المدني في الدنيا، والدين هو العامل الوحيد في إيجاد هذا القرب والبعد، وجميع ذلك أمور حقيقية غير مبتنية على اللغو والجزاف.

وإذا فرضنا أن اقتراف معصية واحدة كالأكل من الشجرة المنهية من آدم أوجب له الهلاك الدائم ولا له فحسب بل ولجميع ذريته ثم لم يكن هناك ما يعالج به الداء ويفرج به الهم إلا فداء المسيح فما فائدة تشريع الدين قبل المسيح؟ وما فائدة تشريعه معه؟ وما فائدة تشريعه بعده؟!

وذلك أنه لما فرض أن الهلاك الدائم والعقاب الأخروي محتوم من جهة صدور المعصية لا ينفع في صرفه عن الإنسان لا عمل ولا توبة إلا بنحو الفداء لم يكن معنى لتشريع الشرائع وإنزال الكتب وإرسال الرسل من عند الله سبحانه، ولم يزل الوعد والوعيد والإنذار والتبشير خالية عن وجه الصحة فما ذا كاد يصلحه هذا السعي بعد وجوب العذاب وحتم الفساد.

وإذا فرض هناك من تكمل بالعمل بالشرائع السابقة وكم من الأنبياء والربانيين من الأمم السالفة كذلك كالنبي المكرم إبراهيم وموسى عليهما السلام وغيرهما وقد قضوا وماتوا قبل إدراك زمان الفداء، فماذا ترى؟ أترى أنهم ختموا الحياة

على الشقاء أو السعادة؟ وما الذي استقبلهم به الموت وعالم الآخرة؟ استقبلهم بالعقاب والهلاك أم بالثواب والحياة السعيدة؟

مع أن المسيح يصرح بأنه إنما أرسل لتخليص المذنبين والمخطئين وأما الصلحاء والأخيار فلا حاجة لهم إلى ذلك؟ وبالجملة فلا يبقى لتشريع الشرائع الإلهية وجعل النواميس الدينية قبل فداء المسيح غرض صحيح يصونه عن العبث واللغوية، ولا لهذا الفعل العجيب من الله تعالى وتقدس ـ محمل حق إلا أن يقال، إنه تعالى كان يعلم أن لو لم يرفع محذور خطيئة آدم لم ينفعه شيء من هذه التشريعات قط، وإنما شرع هذه الشرائع على سبيل الاحتياط برجاء أن سيوفق يوماً لرفع المحذور ويجني ثمرة تشريعه بعد ذلك، ويبلغ غايته ويظفر بأمنيته إذ ذاك فشرع ما شرع بكتمان الأمر عن الأنبياء والناس، وإخفاء أن ها هنا محذوراً لو لم يرتفع خابت مساعي الأنبياء والمؤمنين كافة، وذهبت الشرائع سدى، وإظهار أن التشريع والدعوة على الجد والحقيقة.

فغر الناس وغر نفسه: أما غرور الناس فبإظهار أن العمل بالشرائع يضمن مغفرتهم وسعادتهم، وأما غرور نفسه فلأن التشريع بعد رفع المحذور بالفداء يعود لغواً لا أثر له في سعادة الناس كما أنه من غير رفع المحذور كان لا أثر له فهذا حال تشريع الدين قبل وصول أوان الفداء وتحققه!

و أما في زمان الفداء وبعده فالأمر في صيرورة التشريع والدعوة الدينية والهداية الإلهية لغواً أوضح وأبين، فما هي الفائدة في الإيمان بالمعارف الحقة والإتيان بالأعمال الصالحة بعد ارتفاع محذور الخطيئة، واستيجاب نزول المغفرة والرحمة على الناس مؤمنهم وكافرهم، برهم وفاجرهم، من غير فرق بين أتقى الأتقياء وأشقى الأشقياء في أنهما يشتركان في الهلاك المؤبد مع بقاء الخطيئة،

وفي الرحمة اللازمة مع ارتفاعها بالفداءالمفروض أنه لا ينفع أي عمل صالح في رفعها لولا الفداء.

فإن قيل: إن الفداء إنما ينفع في حق من آمن بالمسيح فللدعوة ثمرة كما يصرح به المسيح في بشارته.

قيل: مضافاً إلى أنه مناقض لما تقدمت الإشارة إليه من كلام يـوحنا فـي رسالته، أنه هدم لجميع الأصول الماضية إذ لا يبقى من الناس ـ آدم فمن دونه ـ في حظيرة النجاة والخلاص إلا شرذمة منهم وهم المؤمنون بالمسيح والروح بل واحدة من طوائفهم المختلفة في الأصول وأما غيرهم فهم بـاقون عـلى الهـلاك الدائم، فليت شعري إلى ما يؤول أمر الأنبياء المكرمين قبل المسيح وأمر المؤمنين من أممهم؟ وبماذا يتصف الدعوة التي جاءوا بها من كتاب وحكم، أبـالصدق أم بالكذب؟ والأناجيل تصدق التوراة ودعوتها، وليس فيها دعوة إلى قـصة الروح والفداء! وهل هي تصدق ما هو صادق أو تصدق الكاذب.

فإن قيل: إن الكتب السماوية السابقة فيما نعلم تبشر بالمسيح، وهذه منهم دعوة إجمالية إلى المسيح وإن لم تفصل القول في كيفية نزوله وفدائه فلم يزل الله يبشر أنبياءه بظهور المسيح ليؤمنوا به ويطيبوا نفساً بما سيصنعه.

قيل: أولاً: إن القول به قبل موسى تخرص على الغيب، على أن البشارة لو كانت فإنما هي بشارة بالخلاص وليست بدعوة إلى الإيمان والتدين به.

وثانياً: إن ذلك لا يدفع محذور لغوية الدعوة في فروع الدين من الأخلاق والأفعال حتى من المسيح نفسه، والأناجيل مملوءة بذلك.

وثالثاً: إن محذور الخطيئة وانتقاض الغرض الإلهي باق على حاله فإن الله

تعالى إنما خلقهم ليرحم جميعهم ويبسط النعمة والسعادة على كافتهم وقد آل أمره إلى عقابهم والغضب عليهم وإهلاكهم للأبد إلا شرذمة منهم.

فهذه نبذة من وجوه فساده عند العقل، ويؤيده ويجري عليه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[١]، فبين أن كل شيء مهدي إلى غايته وما يبتغيه بوجوده، والهداية تعم التكوينية والتشريعية فالسنة الإلهية جارية على بسط الهداية، ومنها هداية الإنسان هداية دينية.

ثم قال تعالى وهو أول هداية دينية ألقاها إلى آدم ومن معه حين إهباطهم من الجنة: ﴿قُلْنَا اهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرواْ وَكَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[٢]، وما يشتمل عليه بمنزلة التلخيص لتفاصيل الشرائع إلى يوم القيامة ففيه تشريع ووعد ووعيد عليه من غير تردد وارتياب، وقد قال تعالى: ﴿الْحَقَّ أَقُولُ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[٤]، فبين أنه لا يتردد فيما جزم به من الأمر ولا ينقض ما أنفذه من الأمر فما يقضيه، هو الذي يمضيه، وإنما يفعل ما قاله، فلا ينحرف فعله عن المجرى الذي أراد عليه لا من جهة نفسه بأن يريد شيئاً ثم يتردد في فعله، أو يريده ثم يبدو له فلا يفعله ولا جهة غيره بأن يريد شيئاً ويقطع به ويعزم عليه ثم يمنعه مانع من العقل أو يبدو إشكال يعترض عليه في طريق الفعل فكل ذلك من قهر القاهر، وغلبة المانع

---

(١) طه: ٥٠.
(٢) البقرة: ٣٩.
(٣) ص: ٨٤.
(٤) ق: ٢٩.

الخارجي قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾[٢]، وقال تعالى حكاية عن موسى: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[٤].

تدلّ هذه الآيات وما يشابهها على أنه تعالى إنما خلق الخلق ولم يغفل عن أمره، ولم يجهل شيئاً مما سيظهر منه ولم يندم على ما فعله، ثم شرع لهم الشرائع تشريعاً جدياً فاصلاً من غير هزل ولا خوف ولا رجاء، ثم إنه يجزي كل ذي عمل بعمله، إن خيراً فخير وإن شراً فشر من غير أن يغلبه تعالى غالب، أو يحكم عليه حاكم من شريك أو فدية أو خلة أو شفاعة من دون إذنه فكل ذلك ينافي ملكه المطلق لما سواه من خلقه.

وعاشراً: ما ذكروه من حديث الفداء وحقيقة الفداء أن يلزم الإنسان أو ما يتعلق به من نفس أو مال أثر سيىء من قتل أو فناء فيعوض بغيره أي شيء كان ليصان بذلك من لحوق ذلك الأثر به كما يفدي الإنسان الأسير بنفس أو مال وكما تفدي الجرائم والجنايات بالأموال ويسمى البدل فدية وفداء، فالتفدية نوع معاملة ينتزع بها حق صاحب الحق وسلطنته عن المفدي عنه إلى الفداء فيستنقذ به المفدي عنه من أن يلحق به الشر.

ومن هنا يظهر أن الفداء غير معقول في ما يتعلق بالله سبحانه فإن السلطنة

---

(١) يوسف: ٢١.
(٢) الطلاق: ٣.
(٣) طه: ٥٢.
(٤) المؤمن: ١٧.

الإلهية ـ على خلاف السلطنة الوضعية الاعتبارية الإنسانية ـ سلطنة حقيقية واقعية غير جائزة التبديل مستحيلة الصرف.

فالأشياء بأعيانها وآثارها موجودة قائمة بالله سبحانه وكيف يتصور تغيير الواقع عما هو عليه فليس إلا أمرا لا يمكن تعقله فضلاً عن أن يمكن وقوعه وهذا بخلاف الملك والسلطنة والحق وأمثالها الدائرة بيننا معاشر أبناء الاجتماع فإنها وأمثالها أمور وضعية اعتبارية زمامها بأيدينا، نحن المجتمعين نبطلها مرة، ونبدلها أخرى على حسب تغير مصالحنا في الحياة والمعاش.

وقد نفى الله سبحانه الفدية بالخصوص في قوله: ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾[1]، وقد تقدم فيما مر أن من هذا القبيل قول المسيح فيما يحكيه الله تعالى عنه:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ـ إلى أن قال: ـ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[2].

فإن قوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ ...﴾ في معنى أنه لم يكن لي شأن فيهم إلا ما أنت وظفته علي وعينته وهو تبليغ الرسالة والشهادة على الأعمال ما دمت فيهم، وأما هلاكهم ونجاتهم وعذابهم ومغفرتهم فإنما ذلك إليك من غير أن يرتبط بي شيء من

---

(١) الحديد: ١٥.

(٢) المائدة: ١١٦ ـ ١١٨.

ذلك أو يكون لي شأن فيه فأملك لهم شيئاً منك أخرجهم به من عذابك أو تسلطك عليهم، وفي ذلك نفي الفداء إذ لو كان هناك فداء لم يصح تبريه من أعمالهم وإرجاع العذاب والمغفرة معاً إلى الله سبحانه بنفي ارتباطهما به أصلاً.

وفي معنى هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾[1]، وكذا قوله تعالى: ﴿يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾[3]، فإن العدل في الآية الأولى، والبيع في الآية الثانية، والعصمة من الله في الآية الثالثة مما ينطبق عليه الفداء فنفيها نفي الفداء.

نعم، أثبت القرآن الشريف في مورد المسيح الشفاعة بدل ما يثبتونه من الفداء والفرق بينهما أن الشفاعة كما تقدم البحث عنها في قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لَّا تَجْزِي﴾[4]، نوع من ظهور قرب الشفيع ومكانته لدى المشفوع عنده من غير أن يملك الشفيع منه شيئاً أو يسلب عنه ملك أو سلطنة، أو يبطل حكمه الذي خالفه المجرم أو يبطل قانون المجازاة بل إنما هو نوع دعاء واستدعاء من الشفيع لتصرف المشفوع عنده وهو الرب ما يجوز له من التصرف في ملكه، وهذا التصرف الجائز مع وجود الحق هو العفو الجائز للمولى مع كونه ذا حق أن يعذبه لمكان المعصية وقانون العقوبة.

---

(١) البقرة: ٤٨.

(٢) البقرة: ٢٥٤.

(٣) المؤمن: ٣٣.

(٤) البقرة: ٤٨.

فالشفيع يحضه ويستدعي منه أن يعمل بالعفو والمغفرة في مورد استحقاق العذاب للمعصية من غير أن يسلب من المولى ملك أو سلطان بخلاف الفداء فإنه كما مر معاملة يتبدل به سلطنة من شيء إلى شيء آخر هو الفداء ويخرج المفدي عنه عن سلطان القابل الآخذ للفداء.

و يدل على هذا الذي ذكرناه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]، فإنه صريح في وقوع الشفاعة من المستثنى، والمسيح عليه السلام ممن كانوا يدعونهم من دون الله، وقد نص القرآن بأن الله علمه الكتاب والحكمة، وبأنه من الشهداء يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[2]، وقال تعالى حكاية عنه: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾[3]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾[4]، فالآيات كما ترى تدلّ على كون المسيح عليه السلام من الشفعاء، وقد تقدم تفصيل القول في هذا المعنى في تفسير قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُواْ يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ﴾[5].

---

(١) الزخرف: ٨٦.

(٢) آل عمران: ٤٨.

(٣) المائدة: ١١٧.

(٤) النساء: ١٥٩.

(٥) البقرة: ٤٨.

من أين نشأت هذه الآراء؟

القرآن ينفي أن يكون المسيح ﷺ هو الملقي لهـذه الآراء والعـقائد إليـهم والمروج لها فيما بينهم بل إنهم تعبدوا لرؤسائهم في الدين وسلموا الأمر إليهم وهم نقلوا إليهم عقائد الماضين من الوثنيين كما قال تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ إِلَهاً وَاحِداً لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

وهؤلاء الكافرون الذين يشير تعالى إليهم بقوله: ﴿يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ﴾، ليسوا هم عرب الجاهلية في وثنيتهم حيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، فإن قولهم بأن لله ابناً أقدم تاريخاً من تماسهم مع العرب واختلاطهم بهم وخاصة قول اليهود بذلك مع أن ظاهر قوله: ﴿مِن قَبْلُ﴾، أنهم سابقون فيه على اليهود والنصارى، على أن اتخاذ الأصنام في الجاهلية مما نقل إليهم من غيرهم ولم يكونوا بمبتكرين في ذلك.[2]

وقد ذكر القرآن الكريم العديد من أسماء هذه الأصنام، ومنها وداً و سواعاً

---

(١) التوبة: ٣٠ ـ ٣١.

(٢) الملل والنحل ٢: ٢٣٣.

ويغوث ويعوق ونسراً، ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً﴾(١).

على أن الوثنية من الروم واليونان ومصر وسورية والهند كانوا أقرب إلى أهل الكتاب القاطنين بفلسطين وحواليه، وانتقال العقائد والمزاعم الدينية إليهم منهم أسهل، والأسباب بذلك أوفق.

فليس المراد بالذين كفروا الذين ضاهاهم أهل الكتاب في القول بالبنوة إلا قدماء وثنية الهند والصين ووثنية الغرب من الروم ويونان وشمال إفريقيا كما أن التاريخ يحكي عنهم نظائر هذه المزاعم الموجودة في أهل الكتاب من اليهود والنصارى من البنوة والأبوة والتثليث وحديث الصلب والفداء وغير ذلك، وهذا من الحقائق التاريخية التي ينبه عليها القرآن الشريف.

ونظير الآيات السابقة في الدلالة على هذه الحقيقة قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ﴾(٢)، فإن الآية تبين أن غلوهم في الدين بغير الحق إنما طرأ عليهم بالتقليد واتباع أهواء قوم ضالين من قبلهم.

وليس المراد بهؤلاء القوم أحبارهم ورهبانهم، فإن الكلام مطلق غير مقيد ولم يقل: قوم منكم، وأضلّوا كثيراً منكم، وليس المراد بهم عرب الجاهلية كما تقدم، على أنه وصف هؤلاء القوم بأنهم أضلّوا كثيراً أي كانوا أئمة ضلال مقلدين

---

(١) نوح : ٢٣ .

(٢) المائدة : ٧٧ .

متبعين بصيغة المفعول فيهما ولم يكن العرب يومئذ إلا شرذمة مضطهدين أميين ليس عندهم من العلم والحضارة والتقدم ما يتبعهم به وفيه غيرهم من الأمم كفارس والروم والهند وغيرهم.

فليس المراد بهؤلاء القوم المذكورين إلا وثنية الصين والهند والغرب كما تقدّم.

ما هو الكتاب الذي ينتسب إليه أهل الكتاب وكيف هو؟

الرواية وإن عدت المجوس من أهل الكتاب، ولازم ذلك أن يكـون لهـم كتاب خاص أو ينتموا إلى واحد من الكتب التي يذكرها القرآن ككـتاب نـوح، وصحف إبراهيم، وتوراة موسى، وإنجيل عيسى، وزبور داود، لكن القرآن لا يذكر شأنهم، ولا يذكر كتاباً لهم، والذي عندهم من «أوستا» لا ذكر مـنه فـيه، وليس عندهم من سائر الكتب اسم.

وإنما يطلق القرآن «أهل الكتاب» فيما يطلق، ويريد بهم اليهود والنصارى لكان الكتاب الذي أنزله الله عليهم.

والذي عند اليهود من الكتب المقدسة خمسة وثلاثون كتاباً، مـنها تـوراة موسى مشتملة على خمسة أسفار، ومنها كتب المؤرخين اثنا عشر كتاباً، ومـنها كتاب أيوب، ومنها زبور داود، ومنها ثلاثة كتب لسليمان، ومنها كـتب النـبوات سبعة عشر كتاباً.

ولم يذكر القرآن من بينها إلا توراة موسى وزبور داود عليهما السلام.

والذي عند النصارى من مقدسات الكتب، الأناجيل الأربعة: وهي إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، ومنها كتاب أعـمال الرسـل، ومنها عدة من الرسائل.

ومنها رؤيا يوحنا.

ولم يذكر القرآن شيئاً من هذه الكتب المقدسة المختصة بالنصارى إلا أنه ذكر أن هناك كتاباً سماوياً أنزله الله على عيسى بن مريم يسمى بالإنجيل، وهو إنجيل واحد ليس بالأناجيل، والنصارى وإن كانوا لا يعرفونه ولا يعترفون به إلا أن في كلمات رؤسائهم لقيطات تتضمن الاعتراف بأنه كان للمسيح كتاب اسمه إنجيل.

والقرآن مع ذلك لا يخلو من إشعار بأن بعضاً من التوراة الحقة موجود فيما عند اليهود، وكذا بعض من الإنجيل الحق موجود في أيدي النصارى، قال تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾[2]، والدلالة ظاهرة.

(١) المائدة: ٤٣.
(٢) المائدة: ١٤.

بحث تاريخي

قصّة التوراة الحاضرة

بنو إسرائيل هم الأسباط من آل يعقوب كانوا يعيشون أولاً عيشة القبائل البدويين ثم أشخصهم الفراعنة إلى مصر وكانوا يعامل معهم معاملة الأسراء المملوكين حتى نجاهم الله بموسى من فرعون وعمله.

وكانوا في زمن موسى يسيرون مسير الحياة بالإمام وهو موسى وبعده يوشع عليه السلام ثم كانوا برهة من الزمان يدبر أمرهم القضاة مثل إيهود وجدعون وغيرهما.

وبعد ذلك يشرع فيهم عصر الملك وأول الملوك فيهم شاءول وهو الذي يسميه القرآن الشريف بطالوت ثم داود ثم سليمان.

ثم انقسمت المملكة وانشعبت القدرة ومع ذلك ملك فيهم ملوك كثيرون كرحبعام وأبيام ويربعام ويهوشافاط ويهورام وغيرهم بضعة وثلاثون ملكاً.

ولم تزل تضعف القدرة بعد الانقسام حتى تغلبت عليهم ملوك بابل وتصرفوا في أورشليم وهو بيت المقدس، وذلك في حدود ستمائة قبل المسيح، وملك بابل يومئذ بخت نصر بنو كدنصر ثم تمردت اليهود عن طاعته فأرسل إليهم عساكره فحاصروهم ثم فتحوا البلدة، ونهبوا خزائن الملك، وخزائن

الهيكل المسجد الأقصى وجمعوا من أغنيائهم وأقويائهم وصناعهم ما يقرب من عشرة آلاف نفساً وساروا بهم إلى بابل، وما أبقوا في المحل إلا الضعفاء والصعاليك، ونصب بخت نصر «صدقيا» وهو آخر ملوك بني إسرائيل ملكاً عليهم، وعليه الطاعة لبخت نصر.

وكان الأمر على ذلك قريبا من عشر سنين حتى وجد صدقيا بعض القوة والشدة، واتصل بعض الاتصال بواحد من فراعنة مصر فاستكبر وتمرد عن طاعة بخت نصر.

فأغضب ذلك بخت نصر غضبا شديدا فساق إليهم الجيوش وحاصر بلادهم فتحصنوا عنه بالحصون،تمادى بهم التحصن قريباً من سنة ونصف حتى ظهر فيهم القحط والوباء.

وأصر بخت نصر على المحاصرة حتى فتح الحصون، وذلك في سنة خمسمائة وست وثمانين قبل المسيح، وقتل نفوسهم، وخرب ديارهم وخربوا بيت الله، وأفنوا كل آية وعلامة دينية، وبدلوا هيكلهم تلّاً من تراب، وفقدت عند ذلك التوراة والتابوت الذي كانت تجعل فيه.

وبقي الأمر على هذا الحال خمسين سنة تقريبا وهم قاطنون ببابل وليس من كتابهم عين ولا أثر، ولا من مسجدهم وديارهم إلا تلال ورياع.

ثم لما جلس كورش من ملوك فارس على سرير الملك، وكان من أمره مع البابليين ما كان، وفتح بابل دخله أطلق أسراء بابل من بني إسرائيل، وكان عزرا المعروف من المقربين عنده فأمره عليهم، وأجاز له أن يكتب لهم كتابهم التوراة، ويبني لهم الهيكل، ويعيدهم إلى سيرتهم الأولى وكان رجوع عزرا بهم إلى بيت المقدس سنة أربعمائة وسبعة وخمسين قبل المسيح، وبعد ذلك جمع عزرا كتب

العهد العتيق وصححها، وهي التوراة الدائرة اليوم.

وأنت ترى بعد التدبّر في القصة أن سنة التوراة الدائرة اليوم مقطوعة غير متصلة بموسى عليه السلام إلا بواحد وهو عزرا، لا نعرفه أولاً ولا نعرف كيفية اطلاعه وتعمقه ثانياً، ولا نعرف مقدار أمانته ثالثاً، ولا نعرف من أين أخذ ما جمعه من أسفار التوراة رابعاً، ولا ندري بالاستناد إلى أي مستند صحح الأغلاط الواقعة أو الدائرة خامساً.

وقد أعقبت هذه الحادثة المشؤومة أثراً مشؤوماً آخر وهو إنكار عدة من باحثي المؤرخين من الغربيين وجود موسى وما يتبعه، وقولهم: إنه شخص خيالي كما قيل نظيره في المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام، لكن ذلك لا يسع لمسلم فإن القرآن الشريف يصرح بوجوده عليه السلام وينص عليه.

قصّة المسيح والإنجيل

اليهود مهتمون بتاريخ قوميتهم، وضبط الحوادث الظاهرة في الأعصار التي مرت بهم، ومع ذلك فإنك لو تتبعت كتبهم ومسفوراتهم لم تعثر فيها على ذكر المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام: لا على كيفية ولادته، ولا على ظهوره ودعوته ولا على سيرته والآيات التي أظهرها الله على يديه، ولا على خاتمة حياته من موت أو قتل أو صلب أو غير ذلك، فما هو السبب في ذلك؟ وما هو الذي أوجب خفاء أمره عليهم أو إخفاءهم أمره.

والقرآن يذكر عنهم أنهم قذفوا مريم ورموها بالبهتان في ولادة عيسى، وأنهم ادعوا قتل عيسى، قال تعالى:

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً * وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾[1].

فهل كانت دعواهم تلك مستندة إلى حديث دائر بينهم كانوا يذكرونه بين قصصهم القومية من غير أن يكون مودعاً في كتاب؟ وعند كل أمة أحاديث دائرة من واقعيات وأساطير لا اعتبار بها ما لم تنته إلى مآخذ صحيحة قويمة.

أو أنهم سمعوا من النصارى الذكر المكرر من المسيح وولادته وظهوره ودعوته أخذوا ذلك من أفواههمباهتوا مريم وادعوا قتل المسيح؟ لا طريق إلى استبانة شيء من ذلك غير أن القرآن ـ كما يظهر بالتدبر في الآية السابقة ـ لا ينسب إليهم صريحاً إلا دعوى القتل دون الصلب، ويذكر أنهم على ريب من الأمر، وأن هناك اختلافاً!

الأناجيل الأربعة

وأما حقيقة ما عند النصارى من قصة المسيح وأمر الإنجيل والبشارة فهي أن قصته عليه السلام وما يتعلق بها تنتهي عندهم إلى الكتب المقدسة عندهم وهي الأناجيل الأربعة التي هي أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا، وكتاب أعمال الرسل للوقا، وعدة رسائل لبولس وبطرس ويعقوب ويوحنا ويهوذا، واعتبار الجميع ينتهي إلى اعتبار الأناجيل فلنشتغل بها:

---

(١) النساء: ١٥٦ ـ ١٥٧.

أما إنجيل متى: فهو أقدم الأناجيل في تصنيفه وانتشاره ذكر بعضهم أنه صنف سنة ٣٨ ميلادية، وذكر آخرون أنه كتب ما بين سنة ٥٠ إلى سنة ٦٠، فهو مؤلف بعد المسيح.

والمحققون من قدمائهم ومتأخريهم على أنه كان أصله مكتوباً بالعبرانية ثم ترجم إلى اليونانية وغيرها أما النسخة الأصلية العبرانية فمفقودة، وأما الترجمة فلا يدرى حالها، ولا يعرف مترجمها.

وأما إنجيل مرقس: فمرقس هذا كان تلميذا لبطرس، ولم يكن من الحواريين وربما ذكروا أنه إنما كتب إنجيله بإشارة بطرس وأمره، وكان لا يرى إلهية المسيح، ولذلك ذكر بعضهم أنه إنما كتب إنجيله للعشائر وأهل القرى فعرف المسيح تعريف رسول إلهي مبلغ لشرائع الله، وكيف كان فقد كتب إنجيله سنة ٦١ ميلادية.

وأما إنجيل لوقا: فلوقا هذا لم يكن حوارياً ولا رأى المسيح وإنما تلقن النصرانية من بولس، وبولس كان يهودياً متعصباً على النصرانية يؤذي المؤمنين بالمسيح ويقلب الأمور عليهم، ثم اتفق مفاجأة أن ادعى أنه صرع وفي حال الصرع لمسه المسيح ولامه وزجره عن الإساءة إلى متبعيه وأنه آمن بالمسيح وأرسله المسيح ليبشر بإنجيله.

وبولس هذا هو الذي شيد أركان النصرانية الحاضرة على ما هي عليها فبنى التعليم على أن الإيمان بالمسيح كاف في النجاة من دون عمل، وأباح لهم أكل الميتة ولحم الخنزير ونهى عن الختنة وكثيراً مما في التوراة مع أن الإنجيل لم يأت إلا مصدقاً لما بين يديه من التوراة، ولم يحلل إلا أشياء معدودة، وبالجملة إنما جاء عيسى ليقوم شريعة التوراة ويرد إليها المنحرفين والفاسقين لا ليبطل العمل

ويقصر السعادة على الإيمان الخالي.

وقد كتب لوقا إنجيله بعد إنجيل مرقس. وذلك بعد موت بطرس وبولس، وقد صرح جمع بأن إنجيله ليس كتابا إلهامياً كسائر الأناجيل كما يدل عليه ما وقع في مبتدأ إنجيله.

وأما إنجيل يوحنا: فقد ذكر كثير من النصارى أن يوحنا هذا هو يوحنا بن زبدي الصياد أحد التلاميذ الاثنى عشر الحواريين الذي كان يحبه المسيح حباً شديداً.

وذكروا أن «شيرينطوس» و «أبيسون» وجماعتهما لما كانوا يرون أن المسيح ليس إلا إنساناً مخلوقاً لا يسبق وجوده وجود أمه اجتمعت أساقفة آسيا وغيرهم في سنة ٩٦ ميلادية عند يوحنا والتمسوا منه أن يكتب ما لم يكتبه الآخرون في أناجيلهم، ويبين بنوع خصوصي لاهوت المسيح فلم يسعه أن ينكر إجابة طلبهم.

وقد اختلفت كلماتهم في السنة التي ألف فيها هذا الإنجيل فمن قائل إنها سنة ٦٥ وقائل إنها سنة ٩٦ وقائل إنها سنة ٩٨.

وقال جمع منهم إنه ليس تأليف يوحنا التلميذ : فبعضهم على أنه تأليف طالب من طلبة المدرسة الإسكندرية، وبعضهم على أن هذا الإنجيل كله وكذا رسائل يوحنا ليست من تصنيفه، بل إنما صنفه بعضهم في ابتداء القرن الثاني، ونسبه إلى يوحنا ليعتبره الناس، وبعضهم على أن إنجيل يوحنا كان في الأصل عشرين باباً فألحقت كنيسة «أفاس» الباب الحادي والعشرين بعد موت يوحنا، فهذه حال هذه الأناجيل الأربعة، وإذا أخذنا بالقدر المتيقن من هذه الطرق انتهت إلى سبعة رجال هم: متى، مرقس، لوقا، يوحنا، بطرس، بولس، يهوذا، ينتهي

ركونهم كله إلى هذه الأناجيل الأربعة وينتهي الأربعة إلى واحد هو أقدمها وأسبقها وهو إنجيل متى، وقد مر أنه ترجمة مفقود الأصل لا يدرى من الذي ترجمه؟ وكيف كان أصله وعلى ماذا كان يبني تعليمه، أبرسالة المسيح أم بألوهيته.

وهذا الإنجيل الموجود يترجم أنه ظهر في بني إسرائيل رجل يدعى عيسى بن يوسف النجار وأقام الدعوة إلى الله، وكان يدعي أنه ابن الله مولود من غير أب بشري وأن أباه أرسله ليفدي به الناس عن ذنوبهم بالصلب والقتل، وأنه أحيا الميت، وأبرأ الأكمه والأبرص، وشفى المجانين بإخراج الجن من أبدانهم، وأنه كان له اثنا عشر تلميذاً: أحدهم متى صاحب الإنجيل بارك لهم وأرسلهم للدعوة وتبليغ الدين المسيحي....

فهذا ملخص ما تنتهي إليه الدعوة المسيحية على انبساطها على شرق الأرض وغربها، وهو لا يزيد على خبر واحد مجهول الاسم والرسم، مبهم العين والوصف.

وهذا الوهن العجيب في مبدأ القصة هو الذي أوجب لبعض أحرار الباحثين من أروبا أن ادعى أن المسيح عيسى بن مريم شخص خيالي صوره بعض النزعات الدينية على حكومات الوقت أولها وتأيد ذلك بموضوع خرافي آخر يشبهه كل الشبه في جميع شؤون القصة، وهو موضوع «كرشنا» الذي تدعي وثنية الهند القديمة أنه ابن الله نزل عن لاهوته، وفدى الناس بنفسه صلبا ليخلصهم من الأوزار والخطايا كما يدعى في عيسى المسيح «حذو النعل بالنعل» كما سيجيء ذكره.

وأوجب لآخرين من منتقدي الباحثين أن يذهبوا إلى أن هناك شخصين مسميين بالمسيح: المسيح غير المصلوب، والمسيح المصلوب، وبينهما من الزمان

ما يزيد على خمسة قرون.

وأن التاريخ الميلادي الذي سنتنا هذه سنة ألف وتسعمائة وستة وخمسين منه لا ينطبق على واحد منهما بل المسيح الأول غير المصلوب يتقدم عليه بما يزيد على مائتين وخمسين سنة وقد عاش نحوا من ستين سنة، و المسيح الثاني المصلوب يتأخر عنه بما يزيد على مائتين وتسعين سنة وقد عاش نحو من ثلاث وثلاثين سنة.

على أن عدم انطباق التاريخ الميلادي على ميلاد المسيح في الجملة مما لم يسع للنصارى إنكاره وهو سكتة تاريخية.

على أن هاهنا أموراً مريبة موهمة أخرى فقد ذكروا أنه كتب في القرنين الأولين من الميلاد أناجيل كثيرة أخرى ربما أنهوها إلى نيف ومائة من الأناجيل، والأناجيل الأربعة منها ثم حرمت الكنيسة جميع تلك الأناجيل إلا الأناجيل الأربعة التي عرفت قانونية لموافقة متونها تعليم الكنيسة.

ومن جملة الأناجيل المتروكة إنجيل برنابا الذي ظهرت نسخة منه منذ سنين فترجمت إلى العربية والفارسية وهو يوافق في عامة قصصه ما قصه القرآن في المسيح عيسى بن مريم.

ومن العجيب أن المواد التاريخية المأثورة عن غير اليهود أيضا ساكتة عن تفاصيل ما ينسبه الإنجيل إلى الدعوة المسيحية من حديث البنوة والفداء وغيرهما ذكر المؤرخ الأمريكي الشهير هندريك ويلم وان لون في تأليفه في تاريخ البشر كتاباً كتبه الطبيب إسكولابيوس كولتلوس الرومي سنة ٦٢ الميلادية إلى ابن أخيه جلاديوسأنسا وكان جنديا في عسكر الروم بفلسطين يذكر فيه أنه عاد مريضاً برومية يسمى بولس فأعجبه كلامه وقد كان بولس كلمه بالدعوة المسيحية وذكر له

طرفاً من أخبار المسيح ودعوته.

ثم يذكر أنه ترك بولس ولم يره حتى سمع بعد حين أنه قتل في طريق أوستى ثم يسأل ابن أخيه أن يبحث عن أخبار هذا النبي الإسرائيلي الذي كان يذكره بولس وعن أخبار بولس نفسه ويكتب إليه ما بلغه من ذلك.

فكتب إليه جلاديوسأنسا بعد ستة أسابيع من معسكر الروم بأورشليم أني سألت عدة من شيوخ البلد ومعمريهم عن عيسى المسيح فوجدتهم لا يحسنون مجاوبتي فيما أسألهم هذا والسنة سنة ٦٢ ميلادية وهم شيوخ.

حتى لقيت بياع زيتون فسألته هل يعرفه فأنعم لي في الجواب ثم دلني على رجل اسمه يوسف وذكر أنه كان من أتباعه ومحبيه وأنه خبير بقصصه بصير بأخباره يستطيع أن يجيبك فيما تسأله عنه.

فلقيت يوسف اليوم بعد ما تفحصت أياماً فوجدته شيخاً هرماً وقد كان قديماً يصطاد السمك في بعض البحيرات من هذه الناحية.

كان الرجل على كبر سنه صحيح المشاعر جيد الحافظة وقص لي جميع الأخبار والقضايا الحادثة في ذلك الأوان أوان الاغتشاش والفتنة.

ذكر أن فونتيوس فيلاطوس كان حاكما على سامرا ويهودية في عهد القيصر تيبريوس.

فاتفق أن وقع أيام حكومته فتنة في أورشليم فسافر فونتيوس فيلاطوس إليه لإخماد ما فيه من نار الفتنة وكانت الفتنة هي ما شاع يومئذ أن ابن نجار من أهل الناصرة يدعو الناس ويستنهضهم على الحكومة.

فلما تحققوا أمره تبين أن ابن النجار المتهم شاب عاقل متين لم يرتكب ما

يوجب عليه سياسة غير أن رؤساء المذهب من اليهود كانوا يخالفونه ويباغضونه بأشد ما يكون وقد قالوا لفيلاطوس إن هذا الشاب الناصري يقول لو أن يونانياً أو رومياً أو فلسطينياً عامل الناس وعاشرهم بالعدالة والشفقة كان عند الله كمن صرف عمره في مطالعة كتاب الله وتلاوة آياته.

وكان هذه التعرضات والاقتراحات لم تؤثر في فيلاطوس أثرها لكنه لما سمع ازدحام الناس قبال المعبد وهم يريدون أن يقبضوا على عيسى وأصحابه ويقطعوهم إربا إربا رأى أن الأصلح أن يقبض هو على هذا الشاب النجار ويسجنه حتى لا يقتل بأيدي الناس في غوغائهم.

وكان فيلاطوس لم يتضح له سبب ما ينقمه الناس من عيسى كل الاتضاح وكلما كلم الناس في أمره سألهم واستوضحهم علت أصواتهم وتنادوا هو كافر هو ملحد هو خائن فلم ينته الأمر إلى طائل.

حتى استقر رأي فيلاطوس أن يكلم عيسى بنفسه فأشخصه وكلمه وسأله عما يقصده بما يبلغه من الدين فأجابه عيسى أنه لا يهتم بأمر الحكومة والسياسة ولا له في ذلك غرض وأنه يهتم بالحياة الروحانية أكثر مما يهتم بأمر الحياة الجسمانية وأنه يعتقد أن الإنسان يجب أن يحسن إلى الناس ويعبد الله الفرد الواحد وحده الذي هو في حكم الأب لجميع أرباب الحياة من المخلوقات.

وكان فيلاطوس ذا خبرة في مذاهب الرواقيين وسائر فلاسفة يونان فكأنه لم ير في ما كلمه به عيسى موضع غمضة ولا محل مؤاخذة ولذلك عزم ثانياً أن يخلص هذا النبي السليم المتين من شر اليهود وسوف في حكم قتله وإنجازه.

لكن اليهود لم يرضوا بذلك ولم يتركوه على حاله بل أشاعوا عليه أنه فتن بأكاذيب عيسى وأقاويله وأن فيلاطوس يريد الخيانة على قيصر وأخذوا

يستشهدون عليه ويسجلون الطوامير على ذلك يريدون به عزله من الحكومة وقد كان برز قبل ذلك فتن وانقلابات في فلسطين والقوى المؤمنة القيصرية قليلة العدة لا تقوى على إسكات الناس فيها كل القوة.

وكان على الحكام وسائر المأمورين من ناحية قيصر أن لا يعاملوا الناس بما يجلب شكواهم وعدم رضايتهم.

فلهذه الأسباب لم ير فيلاطوس بدا من أن يفدي هذا الشاب المسجون للأمن العام ويجيب الناس فيما سألوه من قتله.

وأما عيسى فإنه لم يجزع من الموت بل استقبله على شهامة من نفسه وقد عفا قبل موته عمن تسبب إلى قتله من اليهود ثم قضى به على الصليب والناس يسخرون منه ويشتمونه ويسبونه.

قال جلاد يوسأنسا: هذا ما قص لي يوسف من قصة عيسى ودموعه تجري على خديه وحين ودعني للمفارقة قدمت إليه شيئا من المسكوك الذهبي لكنه أبى أن يأخذه وقال لي يوجد هاهنا من هو أفقر مني فأعطه إياه.

وسألته عن بولس رفيقك المعهود فما كان يعرفه معرفة تامة والقدر الذي تبين من أمره أنه كان رجلا خياما ثم ترك شغله واشتغل بالتبليغ لهذا المذهب الجديد مذهب الرب الرؤوف الرحيم الإله الذي بينه وبين يهوه إله يهود الذي لا نزال نسمعه من علماء اليهود من الفرق ما هو أبعد مما بين السماء والأرض.

و الظاهر أن بولس سافر أولاً إلى آسيا الصغرى ثم إلى اليونان وأنه كان يقول للعبيد والأرقاء إنهم جميعاً أبناء لأب يحبهم ويرأف بهم وأن السعادة ليست تخص بعض الناس دون بعض بل تعم جميع الناس من فقير وغني بشرط أن يعاشروا على المؤاخاة ويعيشوا على الطهارة والصداقة .

هذه عامة فقرات هذا الكتاب مما يرتبط بما نحن فيه من البحث.

وبالتأمل في جمل مضامين هذا الكتاب يتحصل للمتأمل أن ظهور الدعوة المسيحية كيف كان في بني إسرائيل بعيد عيسى عليه السلام وأنه لم يكن إلا ظهور دعوة نبوية بالرسالة من عند الله لا ظهور دعوة إلهية بظهور اللاهوت ونزولها إليهم وتخليصهم بالفداء ثم إن عدة من تلامذة عيسى أو المنتسبين إليه كبولس وتلامذة تلامذتهم سافروا بعد وقعة الصلب إلى مختلف أقطار الأرض من الهند وإفريقية ورومية وغيرها وبسطوا الدعوة المسيحية لكنهم لم يلبثوا دون أن اختلفوا في مسائل أصلية من التعليم كلاهوت المسيح وكفاية الإيمان بالمسيح عن العمل بشريعة موسى وكون دين الإنجيل دينا أصيلاً ناسخاً لدين موسى أو كونه تابعا لشريعة التوراة مكملا إياها فافترقوا عند ذلك فرقا.

والذي يجب الإمعان فيه أن الأمم التي بسطت الدعوة المسيحية وظهرت فيها أول ظهورها كالروم والهند وغيرهما كانوا قبلها منتحلين بالوثنية الصابئة أو البرهمنية أو البوذائية وفيها أصول من مذاق التصوف من جهةالفلسفة البرهمنية من جهة وفيها جميعا شطر وافر من ظهور اللاهوت في مظهر الناسوت على أن القول بتثليث الوحدة ونزول اللاهوت في لباس الناسوت وتحملها الصلب والعذاب فداء كان دائراً بين القدماء من وثنية الهند والصين ومصر وكلدان والآشور والفرس، وكذا قدماء وثنية الغرب كالرومان والإسكندناويين غيرهم على ما يوجد في الكتب المؤلفة في الأديان والمذاهب القديمة.

ذكر «دوان» في كتابه «خرافات التوراة وما يماثلها في الأديان الأخرى» إذا رجعنا البصر إلى الهند نرى أن أعظم وأشهر عبادتهم اللاهوتية هو التثليث، ويسمون هذا التعليم بلغتهم «تريمورتى» وهي عبارة مركبة من كلمتين بلغتهم

السنسكريتية «ترى» ومعناها الثلاثة و «مورتى» ومعناها هيئات أو أقانيم، وهي «برهما»، و «فشنو»، و «سيفا» ثلاثة أقانيم متحدة لا ينفك عن الوحدة فهي إله واحد بزعمهم.

ثم ذكر: أن برهما عندهم هو الأب وفشنو هو الابن وسيفا هو روح القدس.

ثم ذكر أنهم يدعون سيفا «كرشنا» الرب المخلص والروح العظيم الذي ولد منه «فشنو» الإله الذي ظهر بالناسوت على الأرض ليخلص الناس فهو أحد الأقانيم الثلاثة التي هي الإله الواحد.

وذكر أيضاً: أنهم يرمزون للأقنوم الثالث بصورة حمامة كما يقوله النصارى.

وقال مستر «فابر» في كتابه «أصل الوثنية» كما نجد عند الهنود ثالوثاً مؤلفاً من «برهما» و «فشنو» و «سيفا» نجد عند البوذيين ثالوثاً فإنهم يقولون: إن «بوذ» إله له ثلاثة أقانيم، وكذلك بوذيو جينست يقولون: إن «جيفا» مثلث الأقانيم.

قال: والصينيون يعبدون بوذه ويسمونه «فو» ويقولون إنه ثلاثة أقانيم كما تقول الهنود.

وقال دوان في كتابه المتقدّم ذكره: وكان قسيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم: إن الأول خلق الثاني والثاني خلق الثالث، وبذلك تم الثالوث المقدس.

وسأل توليسو ملك مصر الكاهن تنيشوكي أن يخبره: هل كان قبله أحد أعظم منه؟ وهل يكون بعده أحد أعظم منه؟ فأجابه الكاهن: نعم يوجد من هو أعظم وهو الله قبل كل شيء ثم الكلمة ومعهما روح القدس، ولهذه الثلاثة طبيعة واحدة، وهم واحد بالذات وعنهم صدرت القوة الأبدية، فاذهب يا فاني يا صاحب الحياة القصيرة.

و قال بونويك في كتابه «عقائد قدماء المصريين» أغرب كلمة عم انتشارها في ديانة المصريين هي قولهم بلاهوت الكلمة، وأن كل شيء حصل بواسطتها، وأنها منبثقة من الله، وأنها هي الله.

وهذا عين العبارة التي يبتدىء بها إنجيل يوحنا.

و قال «هيجين» في كتاب «الإنكلوساكسون»: كان الفرس يدعون متروسا الكلمة والوسيط ومخلص الفرس.

ونقل عن كتاب سكان أوروبة الأولين: أنه كان الوثنيون القدماء يقولون: إن الإله مثلث الأقانيم.

ونقل عن اليونان والرومان والفنلنديين والإسكندناويين قضية الثالوث السابق الذكر، وكذا القول بالكلمة عن الكلدانيين والآشوريين والفينيقيين.

و قال دوان في كتابه «خرافات التوراة وما يقابلها من الديانات الأخرى»[1] ما ترجمته بالتلخيص:

«إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جدا عند الهنود الوثنيين وغيرهم» وذكر شواهد على ذلك: منها قوله: يعتقد الهنود أن كرشنا المولود البكر ـ الذي هو نفس الآلهة فشنو الذي لا ابتداء له ولا انتهاء على رأيهم ـ تحرك حنواكي يخلص الأرض من ثقل حملها فأتاها وخلص الإنسان بتقديم ذبيحة عنه.

وذكر أن «مستر مور» قد صور كرشنا مصلوباً كما هو مصور في كتب الهنود مثقوب اليدين والرجلين، وعلى قميصه صورة قلب الإنسان معلقاً، ووجدت له

(١) ص ١٨١ ـ ١٨٢.

صورة مصلوباً وعلى رأسه إكليل من الذهب،النصارى تقول: إن يسوع صلب وعلى رأسه إكليل من الشوك.

وقال «هوك» في ص ٣٢٦ من المجلد الأول من رحلته: ويعتقد الهنود الوثنيون بتجسد بعض الآلهة، وتقديم ذبيحة فداء للناس من الخطيئة.

وقال «موريفورليمس» في ص ٢٦ من كتابه الهنود: ويعتقد الهنود الوثنيون بالخطيئة الأصلية، ومما يدل على ذلك ما جاء في مناجاتهم وتوسلاتهم التي يتوسلون بها بعد «الكياتري» وهو، إني مذنب ومرتكب الخطيئة، و طبيعتي شريرة، وحملتني أمي بالإثم فخلصني يا ذا العين الحندقوقية يا مخلص الخاطئين من الآثام والذنوب.

وقال القس «جورجكوكس» في كتابه الديانات القديمة في سياق الكلام عن الهنود: ويصفون كرشنا بالبطل الوديع المملوء لاهوتا لأنه قدم شخصه ذبيحة.

ونقل «هيجين» عن «اندارادا الكروزوبوس» وهو أول أوروبي دخل بلاد النيبال والتبت: أنه قال في الإله «اندرا» الذي يعبدونه: أنه سفك دمه بالصلب وثقب المسامير لكي يخلص البشر من ذنوبهم، وأن صورة الصلب موجودة في كتبهم.

وفي كتاب «جورجيوس» الراهب صورة الإله «اندرا» هذا مصلوباً، وهو بشكل صليب أضلاعه متساوية العرض متفاوتة الطول فالرأسي أقصرها ـ وفيه صورة وجهه ـ والسفلي أطولها، ولو لا صورة الوجه لما خطر لمن يرى الصورة أنها تمثل شخصا، هذا.

وأما ما يروى عن البوذيين في بوذا فهو أكثر انطباقاً على ما يرويه النصارى عن المسيح من جميع الوجوه حتى أنهم يسمونه المسيح، والمولود

الوحيد، ومخلص العالم، ويقولون إنه إنسان كامل وإله كامل تجسد بالناسوت، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر ويخلصهم من ذنوبهم فلا يعاقبوا عليها، ويجعلهم وارثين لملكوت السماوات، بين ذلك كثير من علماء الغرب: منهم «بيل» في كتابه، و«هوك» في رحلته، و«موالر» في كتابه تاريخ الآداب السنسكريتية، وغيرهم.

فهذه نبذة أو أنموذجة من عقيدة تلبس اللاهوت بالناسوت، وحديث الصلب والفداء في الديانات القديمة التي كانت الأمم متمسكين بها منكبين عليها يوم شرعت الديانة النصرانية تنبسط على الأرض، وأخذت الدعوة المسيحية تأخذ بمجامع القلوب في المناطق التي جال الدعاة المسيحيون فيها، فهل هذا إلا أن الدعاة المسيحيين أخذوا أصول المسيحية وأفرغوها في قالب الوثنية واستمالوا بذلك قلوب الناس في تقبل دعوتهم وهضم تعليمهم؟

ويؤيد ذلك ما ترى في كلمات بولس وغيره من الطعن في حكمة الحكماء وفلسفتهم والإزراء بطرق الاستدلالات العقلية، وأن الإله الرب يرجح بلاهة الأبله على عقل العاقل.

وليس ذلك إلا لأنهم قابلوا بتعليمهم مكاتب التعقل والاستدلال فرده أهله بأنه لا طريق إلى قبوله بل إلى تعقله الصحيح من جهة الاستدلال فوضعوا الأساس على المكاشفة والامتلاء بالروح المقدس فشاكلوا بذلك ما يصر به جهلة المتصوفة أن طريقتهم طور وراء طور العقل.

ثم إن الدعاة منهم ترهبوا وجالوا في البلاد على ما يحكيه كتاب أعمال الرسل والتواريخ وبسطوا الدعوة المسيحية واستقبلتهم في ذلك العامة في شتات البلاد، كان من سر موفقيتهم وخاصة في إمبراطورية الروم هي الضغطة الروحية

التي عمت البلاد من فشو الظلم والتعدي، وشمول أحكام الاسترقاق والاستعباد، والبون البعيد في حياة الطبقة الحاكمة والمحكومة والآمرة والمأمورة والفصل الشاسع بين عيشة الأغنياء وأهل الإتراف الفقراء والمساكين والأرقاء.

وقد كانت الدعاة تدعو إلى المؤاخاة والمحابة والتساوي والمعاشرة الجميلة بين الناس، ورفض الدنيا وعيشتها الكدرة الفانية، والإقبال على الحياة الصافية السعيدة التي في ملكوت السماء، ولهذا بعينه ما كان يعني بحالهم الطبقة الحاكمة من الملوك والقياصرة كل العناية، ولا يقصدونهم بالأذى والسياسة والطرد.

فلم يزالوا يزيدون عددا من غير تظاهر وتنافس وينمون قوة وشدة حتى حصل لهم جم غفير في إمبراطورية الروم وإفريقية والهند وغيرها من البلاد، ولم يزالوا كلما بنوا كنيسة وفتحوا بابها على وجوه الناس هدموا بذلك واحدا من بيوت الأوثان وأغلقوا بابه.

وكانوا لا يعتنون بمزاحمة رؤساء الوثنية في هدم أساسهم، ولا بملوك الوقت وحكامه في التعالي عن خضوعهم وفي مخالفة أحكامهم ودساتيرهم، وربما كان ذلك يؤديهم إلى الهلاك والقتل والحبس والعذاب فكان لا تزال تقتل طائفة وتسجن أخرى وتشرد ثالثة.

وكان الأمر على هذه الصفة إلى أوان ملك القيصر «كنستانتين» فآمن بالملة المسيحية وأعلن بها فأخذ التنصر بالرسمية وبنيت الكنائس في الروم وما يتبع إمبراطوريته من الممالك، وذلك في النصف الأخير من القرن الرابع الميلادي.

تمركزت النصرانية يومئذ في كنيسة الروم وأخذت تبعث القسيسين إلى أكناف الأرض من البلاد التابعة يبنون الكنائس والديرات ومدارس يدرسون

بها التعليم الإنجيلي.

والذي يجب إلفات النظر إليه أنهم وضعوا البحث على أصول مسلمة إنجيلية فأخذوا التعاليم الإنجيلية كمسألة الأب والابن والروح، ومسألة الصلب والفداء وغير ذلك أصولاً مسلمة وبنوا البحث والتنقير عليها.

وهذا أول ما ورد على أبحاثهم الدينية من الوهن والوهاء فإن استحكام البناء المبني وإن بلغ ما بلغ استقامته لا يغني عن وهن الأساس المبني عليه شيئاً، وما بنوا عليه من مسألة تثليث الوحدة والصلب والفداء أمر غير معقول.

وقد اعترف عدة من باحثيهم في التثليث بأنه أمر غير معقول لكنهم اعتذروا عنه بأنه من المسائل الدينية التي يجب أن تقبل تعبداً فكم في الأديان من مسألة تعبدية تحيلها العقول.

وهو من الظنون الفاسدة المتفرعة على أصلهم الفاسد، وكيف يتصور وقوع مسألة مستحيلة في دين حق؟ ونحن إنما نقبل الدين ونميز كونه دين حق بالعقل وكيف يمكن عند العقل أن تشتمل العقيدة الحقة على أمر يبطله العقل ويحيله؟ وهل هذا إلا تناقض صريح؟.

نعم، يمكن أن يشتمل الدين على ممكن يخرق العادة الجارية، والسنة الطبيعية القائمة، وأما المحال الذاتي فلا البتة.

وهذا الطريق المذكور من البحث هو الذي أوجب وقوع الخلاف والمشاجرة بين الباحثين المتفكرين منهم في أوائل انتشار صيت النصرانية وانكباب المحصلين على الأبحاث المذهبية في مدارس الروم والإسكندرية وغيرهما.

فكانت الكنيسة تزيد كل يوم في مراقبتها لوحدة الكلمة وتهييء مجمعاً

مشكلاً عند ظهور كل قول حديث وبدعة جديدة من البطارقة والأساقفة لإقناعهم بالمذهب العام وتكفيرهم ونفيهم وطردهم وقتلهم إذا لم يقنعوا.

وأول مجمع عقدوه مجمع نيقيه لما قال أريوس: إن أقنوم الابن غير مساو لأقنوم الأب، وإن القديم هو الله والمسيح مخلوق.

اجتمعت البطارقة والمطارفة والأساقفة في قسطنطينية بمحضر من القيصر كنستانتين وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، واتفقوا على هذه الكلمة «نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء، وصانع ما يرى وما لا يرى، وبالابن الواحد يسوع المسيح ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، وليس بمصنوع، إله حق من إله حق، من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت العوالم وكل شيء، الذي من أجلنا ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسد من روح القدس، وولد من مريم البتول، وصلب أيام فيلاطوس، ودفن ثم قام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، و جلس عن يمين أبيه، وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد، روح الحق الذي يخرج من أبيه، وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا، وبجماعة واحدة قدسية مسيحية ـ جاثليقية، وبقيام أبداننا والحياة أبد الآبدين».

هذا هو المجمع الأول وكم من مجمع بعد ذلك عقدوه للتبري عن المذاهب المستحدثة كمذهب النسطورية واليعقوبية والأليانية والليليارسية والمقدانوسية والسباليوسية والنوئتوسية والبولسية وغيرها.

ومع هذا كانت الكنيسة تقوم بالواجب من مراقبتها ولا تتوانى ولا تهن في دعوتها وتزيد كل يوم في قوتها وسيطرتها حتى وفقت لجلب سائر دول أوروبا إلى التنصر كفرنسا والإنجليز والنمسا والبروس وإسبانيا والبرتغال وبلجيكا

وهولندا وغيرهم إلا روسيا أواخر القرن الخامس الميلادي سنة ٤٩٦.

ولم تزل تتقدم وترتقي الكنيسة من جانب ومن جانب آخر كانت تهاجم الأمم الشمالية والعشائر البدوية على الروم والحروب والفتن تضعف سلطنة القياصرة وآل الأمر إلى أن أجمعت أهل الروم والأمم المتغلبة على إلقاء زمام أمور المملكة إلى الكنيسة كما كانت زمام أمور الدين بيدها فاجتمعت السلطنة الروحانية والجسمانية لرئيس الكنيسة اليوم وهو البابا جريجوار وكان ذلك سنة ٥٩٠ الميلادية.

وصارت كنيسة الروم لها الرئاسة المطلقة للعالم المسيحي غير أن الروم لما كانت انشعبت إمبراطوريته إلى الروم الغربي الذي عاصمته روما والروم الشرقي الذي عاصمته القسطنطينية كانت قياصرة الروم الشرقي يعدون أنفسهم رؤساء دينيين لمملكتهم من غير أن يتبعوا كنيسة روما وهذا مبدأ انشعاب المسيحية إلى الكاثوليك أتباع كنيسة روما والأورثوذكس وهم غيرهم.

وكان الأمر على ذلك حتى إذا فتحت القسطنطينية بيد آل عثمان وقتل القيصر بالياولوكوس وهو آخر قياصرة الروم الشرقي وقسيس الكنيسة اليوم قتل في كنيسة أياصوفيا.

وادعى وراثة هذا المنصب الديني أعني رئاسة الكنيسة قياصرة روسيا لقرابة سببية كانت بينهم وبين قياصرة الروم وكانت الروس تنصرت في القرن العاشر الميلادي فصارت ملوك روسيا قسيسي كنيسة أرضهم غير تابعة لكنيسة روما وكان ذلك سنة ١٤٥٤ الميلادية.

وبقي الأمر على هذا الحال نحوا من خمسة قرون حتى قتل تزار نيكولا وهو آخر قياصرة روسيا قتل هو وجميع أهل بيته سنة ١٩١٨ الميلادية بيد

الشيوعيين فعادت كنيسة روما تقريبا إلى حالها قبل الانشعاب.

لكن الكنيسة في أثر ما كانت تحاول رؤساؤها السلطة على جميع جهات حياة الناس في القرون الوسطى التي كانت الكنيسة فيها في أوج ارتقائها وارتفاعها ثار عليها جماهير من المتدينين تخلصا من القيود التي كانت تحملها عليهم الكنيسة.

فخرجت طائفة عن تبعية أحكام رؤساء الكنيسة والباباوات وطاعتهم مع البقاء على طاعة التعليم الإنجيلي على ما يفهمه مجامعهم ويقرره اتفاق علمائهم وقسيسيهم وهؤلاء هم الأورثوذكس.

و طائفة خرجت عن متابعة كنيسة روما أصلا فليسوا بتابعين في التعليم الإنجيلي لكنيسة روما ولا معتنين للأوامر الصادرة منها وهؤلاء هم البروتستانت.

فانشعب العالم المسيحي اليوم إلى ثلاث فرق الكاثوليك وهي التابعة لكنيسة روما وتعليمها والأورثوذكس وهي التابعة لتعليم الكنيسة دون نفسها وقد حدثت شعبتهم بحدوث الانشعاب في الكنيسة وخاصة بعد انتقال كنيسة قسطنطينية إلى موسكو بروسيا كما تقدم، والبروتستانت وهي الخارجة عن تبعية الكنيسة وتعليمها جميعاً وقد استقلت طريقتهم وتظاهرت في القرن الخامس عشر الميلادي.

هذا إجمال ما جرى عليه أمر الدعوة المسيحية في زمان يقرب من عشرين قرناً والبصير بالغرض الموضوع له هذا الكتاب يعلم أن القصد من ذكر جمل تاريخهم:

أولاً: أن يكون الباحث على بصيرة من التحولات التاريخية في مذهبهم والمعاني التي يمكن أن تنتقل إلى عقائدهم الدينية بنحو التوارث أو السراية أو

الانفعال بالامتزاج أو الألف والعادة من عقائد الوثنية والأفكار الموروثة منهم أو المأخوذة عنهم.

وثانياً: أن اقتدار الكنيسة وخاصة كنيسة روما بلغ بالتدريج في القرون الوسطى الميلادية إلى نهاية أوجه حتى كانت لهم سيطرة الدين والدنيا وانقادت لهم كراسي الملك بأوربا فكان لهم عزل من شاءوا ونصب من شاءوا.

يروى أن البابا مرة أمر إمبراطور ألمانيا أن يقف ثلاثة أيام حافياً على باب قصره في فصل الشتاء لزلة صدرت منه يريد أن يغفرها له.

ورفس البابا مرة تاج الملك برجله حيث جاءه جاثياً يطلب المغفرة.

وقد كانوا وصفوا المسلمين لأتباعهم وصفا لم يدعهم إلا أن يروا دين الإسلام دين الوثنية يستفاد ذلك من الشعارات والأشعار التي نظموها في استنهاض النصارى وتهييجهم على المسلمين في الحروب الصليبية التي نشبت بينهم وبين المسلمين سنين متطاولة.

فإنهم كانوا يرون أن المسلمين يعبدون الأصنام وأن لهم آلهة ثلاثة أسماؤها على الترتيب ماهوم ويسمى بافوميد وماهومند وهو أول الآلهة وهو محمد وبعده ايلين وهو الثاني وبعده ترفاجان وهو الثالث وربما يظهر من بعض كلماتهم أن للمسلمين إلهين آخرين وهما مارتوان وجوبين ولكنهما بعد الثلاثة المتقدمة رتبة وكانوا يقولون إن محمدا بنى دعوته على دعوى الألوهية وربما قالوا إنه كان اتخذ لنفسه صنما من ذهب.

وفي أشعار ريشار التي قالها لاستنهاض الإفرنج على المسلمين قوموا وقلبوا ماهومند وترفاجان وألقوهما في النار تقربا من إلهكم.

وفي أشعار رولان في وصف ماهوم إله المسلمين أنه مصنوع تاماً من

الذهب والفضة ولو رأيته أيقنت أنه لا يمكن لصانع أن يصور في خياله أجمل منه ثم يصنعه عظيمة جثته جيدة صنعته وفي سيمائه آثار الجلالة ظاهرة ماهوم مصنوع من الذهب والفضة يكاد سنا برقه يذهب بالبصر وقد أقعد على فيل هو من أحسن المصنوعات وأجودها بطنه خال وربما أحس الناظر من بطنه ضوءا هو مرصعة بالأحجار الثمينة المتلألئة يرى باطنه من ظاهره ولا يوجد له في جودة الصنعة نظير.

ولما كانت آلهة المسلمين يوحون إليهم في مواقع الشدة وقد انهزم المسلمون في بعض حروبهم بعث قائد القوم واحداً في طلب إلههم الذي كان بمكة يعني محمداً ﷺ يروي بعض من شاهد الواقعة أن الإله يعني محمدا جاءهم وقد أحاط به جم غفير من أتباعه وهم يضربون الطبول والعيدان والمزامير والبوقات المعمولة من فضة ويتغنون ويرقصون حتى أتوا به إلى المعسكر بسرور وترح ومرح وقد كان خليفته منتظرا لقدومه فلما رآه قام على ساقه واشتغل بعبادته بخضوع وخشوع.

ويذكر «ريشار» أيضاً في وصف وحي الإله ماهوم الذي سمعت وصفه فيقول: «إن السحرة سخروا واحداً من الجن وجعلوه في بطن ذلك الصنم، وكان ذلك الجني يرعد ويعربد أولاً ثم يأخذ في تكليم المسلمين وهم ينصتون له».

وأمثال هذه الطرف توجد كثيراً في بطن ذلك الصنم وكان ذلك الجني يرعد ويعربد أولاً ثم يأخذ في كتبهم المؤلفة في سني الحروب الصليبية أو المتعرضة لشؤونها وإن كان ربما أبهتت القارىء وأدهشته تعجباً وحيرة، وكاد أن لا يصدق صحة النقل حين يحدث له أمور لم يشاهدها مسلم في يقظة ولا رآها في نومة أو نعسة.

وثالثاً: أن يتحقق الباحث المتدبر كيفية طرق التطور على الدعوة المسيحية في مسيرها خلال القرون الماضية حتى اليوم، فإن العقائد الوثنية وردت فيها بخفي دبيبها أولا بالغلو في حق المسيح عليه السلام ثم تمكنت فأفرغت الدعوة في قالب التثليث: الأب والابن والروح، والقول بالصلب والفداء، واستلزم ذلك القول برفض العمل والاكتفاء بالاعتقاد.

وكان ذلك أولا في صورة الدين وكان يعقد أزمتهم بالكنيسة بإتيان أشياء من صوم وصلاة وتعميد لكن لم يزل الإلحاد ينمو جسمه ويقوى روحه ويبرز الانشعابات حتى ظهرت البروتستانت، وقامت القوانين الرسمية مقام الهرج والمرج في السياسات مدونة على أساس الحرية في ما وراء القانون الأحكام العملية المضمونة الإجراء فلم يزل التعليم الديني يضعف أثراً ويخيب سعياً حتى انثلمت تدريجاً أركان الأخلاق والفضائل الإنسانية عقيب شيوع المادية التي استتبعتها الحرية التامة.

وظهرت الشيوعية والاشتراك بالبناء على فلسفة ماترياليسم ديالكتيك ورفض القول باللاهوت والأخلاق الفاضلة الثابتة والأعمال الدينية فانهدمت الإنسانية المعنوية، وورثتها الحيوانية المادية مؤلفة من سبعية وبهيمية، وانتهضت الدنيا تسير إليها سيراً حثيثاً.

وأما النهضات الدينية التي عمت الدنيا أخيراً فليست إلا ملاعب سياسية يلعب بها رجال السياسة للتوسل بها إلى غاياتهم وأمانيهم فالسياسة الفنية اليوم تدق كل باب وتدب كل جحر وثقب.

ذكر الدكتور «جوزفشيتلر» أستاذ العلوم الدينية في كلية لوتران في شيكاغو:

«أن النهضة الدينية الجديدة في إمريكا ليست إلا تطبيق الدين على المجموعة من شؤون الحياة في المدنية الحديثة، وتثبيت أن المدنية الحاضرة لا تضاد الدين.

وأن فيه خطر أن يعتقد عامة الناس أنهم متدينون بالدين الحق بما في أيديهم من نتائج المدنية الحاضرة حتى يستغنوا عن الالتحاق إلى النهضة الحقيقية الدينية لو ظهرت يوما بينهم فلا يلتفتوا إليها»[١].

وذكر الدكتور جرجفلوروفسكي أكبر مدافع أرثوذكس روسيا بإمريكا أن التعليمات الدينية بإمريكا ليست إلا سلوة كاذبة للقلوب لأنها لو كانت نهضة حية حقيقية دينية لكان من الواجب أن تتكيء على تعليمات عميقة واقعية. فانظر من أين خرج وفد الدين وفي أين نزل.

بدأت الدعوة باسم إحياء الدين العقيدة والأخلاق الملكات الحسنة والشريعة الأعمال واختتمت بإلغاء الجميع ووضع التمتع الحيواني موضعها.

وليس ذلك كله إلا تطور الانحراف الأولى الواقع من بولس المدعو بالقديس، بولس الحواري وأعضاده فلو أنهم سموا هذه المدنية الحاضرة التي تعترف الدنيا بأنها تهدد الإنسانية بالفناء «مدنية بولسية» كان أحق بالتصديق من قولهم: إن المسيح هو قائد الحضارة والمدنية الحاضرة وحامل لوائها.[٢]

---

(١) نقلاً عن مجلة (لايف) الامريكية العدد ٦، ١٩٥٦ م.

(٢) الميزان ٣: ٤٤١ ـ ٥٠٩.

وجوه لطيفة من أدب الدعاء عند عيسى عليه السلام

ومن ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المسيح حين سأل المائدة بقوله:

﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ السَّمَاء تَكُونُ لَنَا عِيداً لأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾[1].

القصة المذكورة في كلامه تعالى في سؤال الحواريين عيسى عليه السلام نزول مائدة من السماء عليهم تدل بسياقه أن هذه المسألة كانت من الأسئلة الشاقة على عيسى عليه السلام لأن ما حكي عنهم من قولهم له: «يا عيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء» كان أولاً مشتملاً بظاهره على الاستفهام عن قدرة الله سبحانه، ولا يوافق ذلك أدب العبودية وإن كان حاق مرادهم السؤال عن المصلحة دون أصل القدرة فإن حزازة اللفظ على حالها.

وكان ثانياً متضمناً لاقتراح آية جديدة مع أن آياته عليه السلام الباهرة كانت قد أحاطت بهم من كل جهة فكانت نفسه الشريفة آية، وتكلمه في المهد آية، وإحياؤه الموتى وخلقه الطير وإبراؤه الأكمه والأبرص وإخباره عن المغيبات وعلمه بالتوراة والإنجيل والكتاب والحكمة آيات إلهية لا تدع لشاك شكاً ولا لمرتاب ريباً فاختيارهم آية لأنفسهم وسؤالهم إياه كان بظاهره كالعبث بآيات الله واللعب بجانبه، ولذلك وبخهم بقوله: ﴿وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

---

(١) المائدة: ١١٤.

لكنهم أصروا على ذلك ووجهوا مسألتهم بقولهم: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾، وألجئوه إلى السؤال فسأل.

أصلح عليه السلام بأدبه الموهوب من جانب الله سبحانه ما اقترحوه من السؤال بما يصلح به أن يقدم إلى حضرة العزة والكبرياء فعنونه أولاً بعنوان أن يكون عيداً لهم يختصون هو وأمته به فإنها آية اقتراحية عديمة النظير بين آيات الأنبياء عليهم السلام حيث كانت آياتهم إنما تنزل لإتمام الحجة أو لحاجة الأمة إلى نزولها، وهذه الآية لم تكن على شيء من هاتين الصفتين.

ثم أجمل ثانياً ما فصله الحواريون من فوائد نزولها من اطمئنان قلوبهم بها وعلمهم بصدقه عليه السلام وشهادتهم عليها، في قوله: ﴿وَآيَةً مِّنكَ﴾.

ثم ذكر ثالثاً ما ذكروه من عرض الأكل وأخره وإن كانوا قدموه في قولهم: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا...﴾ وألبسه لباساً آخر أوفق بأدب الحضور فقال: ﴿وَارْزُقْنَا﴾ ثم ذيله بقوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ليكون تأييداً للسؤال بوجه، وثناء له تعالى من وجه آخر.

وقد صدر مسألته بندائه تعالى: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ فزاد على ما يوجد في سائر أدعية الأنبياء عليهم السلام من قولهم «رب» أو «ربنا» لأن الموقف صعب كما تقدم بيانه.

ومنه مشافهته عليه السلام ربّه المحكية بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ

فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[١].

تأدّب عليه السلام في كلامه أولاً بأن صدره بتنزيهه تعالى عمّا لا يليق بقدس ساحته كما جرى عليه كلامه تعالى قال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ﴾[٢].

وثانياً بأن أخذ نفسه أدون وأخفض من أن يتوهم في حقه أن يقول مثل هذا القول حتى يحتاج إلى أن ينفيه، ولذلك لم يقل من أول مقالته إلى آخرها: «ما قلت» أو «ما فعلت» وإنما نفى ذلك مرة بعد مرة على طريق الكناية وتحت الستر فقال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ فنفاه بنفي سببه، أي لم يكن لي حق في ذلك حتى يسعني أن أتفوه بمثل ذاك القول العظيم، ثم قال: «إن كنت قلته فقد علمته... إلخ» فنفاه بنفي لازمه أي إن كنت قلته كان لازم ذلك أن تعلمه لأن علمك أحاط بي وبجميع الغيوب.

ثم قال: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فنفاه بإيراد ما يناقضه مورده على طريق الحصر بما وإلا أي إني قلت لهم قولا ولكنه هو الذي أمرتني به وهو أن اعبدوا الله ربي وربكم، وكيف يمكن أن أقول لهم مع ذلك أن اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟

ثم قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ وهو نفي منه عليه السلام لذلك كالمتمم لقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ...﴾ وذلك لأن معناه: ما قلت لهم شيئا مما ينسب إلي والذي قلت لهم إنما قلته عن أمر منك، وهو ﴿أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ ولم يتوجه إلى أمر فيما سوى ذلك، ولا

---

(١) المائدة: ١١٦ ـ ١١٩.

(٢) الأنبياء: ٢٦.

مساس بهم إلا الشهادة والرقوب لأعمالهم ما دمت، فلما توفيتني انقطعت عنهم، وكنت أنت الرقيب عليهم بشهادتك الدائم العام قبل أن توفيتني وبعده وعليهم وعلى كل شيء غيرهم.

وإذ قد بلغ الكلام هذا المبلغ توجه له عليه السلام أن ينفي ذلك القول عن نفسه بوجه آخر متمم للوجوه التي ذكرها، وبه يحصل تمام النفي فقال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ...﴾، يقول ـ على ما يؤيده السياق ـ وإذا كان الأمر على ما ذكرت فأنا بمعزل منهم وهم بمعزل مني فأنت وعبادك هؤلاء إن تعذبهم فإنهم عبادك، وللسيد الرب أن يعذب عبيده بمخالفتهم وإشراكهم به وهم مستحقون للعذاب، وإن تغفر لهم فلا عتب عليك لأنك عزيز غير مغلوب وحكيم لا يفعل الفعل السفهي اللغو، وإنما يفعل ما هو الأصلح.

وبما بينا يظهر وجوه لطيفة من أدب العبودية في كلامه عليه السلام ولم يورد جملة في كلامه إلا وقد مزجها بأحسن الثناء بأبلغ بيان وأصدق لسان.[١]

---

(١) الميزان ٦: ٤١٤ ـ ٤١٦.





قصّة

أصحاب الرّس

وَعَاداً وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُوناً بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيراً ﴿٣٨﴾

سورة الفرقان



قال في مجمع البيان: «الرسّ» البئر التي لم تطو، ذكروا أنهم كانوا قوماً بعد ثمود نازلين على بئر أرسل الله إليهم رسولاً فكذبوا به فأهلكهم الله[1]، وقيل[2]: هو اسم نهر كانوا على شاطئه وفي روايات الشيعة ما يؤيد ذلك.[3]

روايات بخصوص أصحاب الرس

في العيون، بإسناده عن أبي الصلت الهروي، عن الرضا، عن أمير المؤمنين عليه السلام: حديث طويل يذكر فيه قصة أصحاب الرس، ملخصه: أنهم كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبرة يقال لها «شاه درخت» كان يافث بن نوح غرسها بعد الطوفان على شفير عين يقال لها: «روشن آب» وكان لهم اثنتا عشرة قرية معمورة على شاطىء نهر يقال له الرس يسمين بأسماء: آبان، آذر، دي، بهمن، إسفندار، فروردين، أرديبهشت، خرداد، مرداد، تير، مهر، شهريور، ومنها اشتق العجم أسماء شهورهم.

وقد غرسوا في كل قرية منها من طلع تلك الصنوبرة حبة. أجروا عليها نهراً من العين التي عند الصنوبرة، وحرموا شرب مائها على أنفسهم وأنعامهم ومن

(١) تفسير الطبري ١٩: ١١.

(٢) تفسير البرهان ٣: ١٦٦ ح ١.

(٣) مجمع البيان ٧: ١٦٩ و ١٧٠.

شرب منه قتلوه ويقولون: إنه حياة الآلهة فلا ينبغي لأحد أن ينقص حياتها. وقد جعلوا في كل شهر من السنة يوماً في كل قرية عيداً يخرجون فيه إلى الصنوبرة التي خارج القرية يقربون إليها القرابين ويذبحون الذبائح ثم يحرقونها في نار أضرموها فيسجدون للشجرة عند ارتفاع دخانها وسطوعه في السماء ويبكون ويتضرعون والشيطان يكلمهم من الشجرة.

وهذا دأبهم في القرى حتى إذا كان يوم عيد قريتهم العظمى التي كان يسكنها ملكهم واسمها إسفندار اجتمع إليها أهل القرى جميعاً وعيدوا اثني عشر يوماً، وجاءوا بأكثر ما يستطيعونه من القرابين والعبادات للشجرة وكلمهم إبليس وهو يعدهم ويمنيهم أكثر مما كان من الشياطين في سائر الأعياد من سائر الشجر.

ولما طال منهم الكفر بالله وعبادة الشجرة بعث الله إليهم رسولاً من بني إسرائيل من ولد يهودا فدعاهم إلى عبادة الله وترك الشرك برهة فلم يؤمنوا فدعا على الشجرة فيبست، فلما رأوا ذلك ساءهم فقال بعضهم: إن هذا الرجل سحر آلهتنا، وقال آخرون: إن آلهتنا غضبت علينا بذلك لما رأت هذا الرجل يدعونا إلى الكفر بها فتركناه وشأنه من غير أن نغضب عليه لآلهتنا. فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئرا عميقا وألقوه فيها وشدوا رأسها فلم يزالوا عليها يسمعون أنينه حتى مات فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكهم عن آخرهم.

وفي نهج البلاغة، قال عليه السلام: أين أصحاب مدائن الرس الذين قتلوا النبيين وأطفئوا سنن المرسلين وأحيوا سنن الجبارين.(١)

وفي الكافي، بإسناده عن محمد بن أبي حمزة وهشام وحفص، عن أبي

(١) نهج البلاغة، صبحي الصالح: ٢٦٠، رقم ١٨٢.

عبد الله عليه السلام: أنه دخل عليه نسوة فسألته امرأة منهن عن السحق فقال: حدها حد الزاني، فقالت المرأة: ما ذكره الله عزّ وجل في القرآن، فقال: بلى، فقالت: وأين هو؟ قال: هن الرسّ.[١]

وفي الدر المنثور، أخرج ابن أبي الدنيا في ذم الملاهي والبيهقي وابن عساكر، عن جعفر بن محمد بن علي: أن امرأتين سألتاه: هل تجد غشيان المرأة المرأة محرماً في كتاب الله؟ قال: نعم هن اللواتي كن على عهد تبع،هن صواحب الرس، وكل نهر وبئر رس. قال: يقطع لهن جلباب من نار، ودرع من نار، ونطاق من نار، وتاج من نار، وخفان من نار، ومن فوق ذلك ثوب غليظ جاف جاسف منتن من نار.

قال جعفر: علموا هذا نساءكم.[٢]

قال المؤلّف رحمه الله : وروى القمّي[٣] عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن جميل، عن أبي عبد الله عليه السلام ما في معناه.[٤]

---

(١) الكافي ٧: ٢٠٢ ح ١.

(٢) الدر المنثور ٥: ٧١.

(٣) تفسير القمّي ٢: ١١٢.

(٤) الميزان ١٥: ٣٠١ـ٣٠٣.





قصّة

أصحاب الأخدود

قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْـدُودِ ﴿٤﴾ النَّـارِ ذَاتِ الْـوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُـمْ عَـلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَـهُ مُـلْكُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

سورة البروج

قصّة أصحاب الأُخدود والروايات الواردة فيها

والأُخدود الشق العظيم في الأرض، وأصحاب الأخدود هم الجبابرة الذين خدّوا أخدوداً وأضرموا فيها النار وأمروا المؤمنين بدخولها فأحرقوهم عن آخرهم نقماً منهم لإيمانهم.(١)

وفي تفسير القمي : في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾، قال: كان سببه أن الذي هيج الحبشة على غزوة اليمن ذو نواس وهو آخر من ملك من حمير تهود واجتمعت معه حمير على اليهودية وسمى نفسه يوسف و أقام على ذلك حينا من الدهر. ثم أخبر أن بنجران بقايا قوم على دين النصرانية وكانوا على دين عيسى وحكم الإنجيل، ورأس ذلك الدين عبد الله بن بريامن فحمله أهل دينه على أن يسير إليهم ويحملهم على اليهودية ويدخلهم فيها فسار حتى قدم نجران فجمع من كان بها على دين النصرانية ثم عرض عليهم دين اليهودية والدخول فيها فأبوا عليه فجادلهم وعرض عليهم وحرص الحرص كله فأبوا عليه وامتنعوا من اليهودية والدخول فيها واختاروا القتل. فاتخذ لهم أخدوداً وجمع فيه الحطب وأشعل فيه النار فمنهم من أحرق بالنار ومنهم من قتل بالسيف ومثل بهم كل مثلة فبلغ عدد من قتل وأحرق بالنار عشرين ألفاً وأفلت منهم رجل يدعى دوش ذو

---

(١) الميزان ٢٠ : ٤١٦.

ثعلبان على فرس له ركضة، واتبعوه حتى أعجزهم في الرمل، ورجع ذو نواس إلى صنيعه في جنوده فقال الله: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ ـ إلى قوله: ـ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾.[1]

وفي المجمع، وروى سعيد بن جبير قال: لما انهزم أهل إسفندهان قال عمر بن الخطاب: ما هم يهود ولا نصارى ولا لهم كتاب وكانوا مجوساً، فقال علي بن أبي طالب: بلى قد كان لهم كتاب رفع. وذلك أن ملكاً لهم سكر فوقع على ابنته ـ أو قال: على أخته ـ فلما أفاق قال لها: كيف المخرج مما وقعت فيه؟ قالت: تجمع أهل مملكتك وتخبرهم أنك ترى نكاح البنات وتأمرهم أن يحلوه فجمعهم فأخبرهم فأبوا أن يتابعوه فخدّ لهم أخدوداً في الأرض، وأوقد فيه النيران وعرضهم عليها فمن أبى قبول ذلك قذفه في النار، ومن أجاب خلى سبيله.[2]

قال المؤلّف ﵀ : وروي هذا المعنى في الدر المنثور[3]، عن عبد بن حميد عنه ﵇.

وعن تفسير العياشي، بإسناده عن جابر عن أبي جعفر ﵇ قال: أرسل علي ﵇ إلى أسقف نجران يسأله عن أصحاب الأخدود فأخبره بشيء فقال ﵇: ليس كما ذكرت ولكن سأخبرك عنهم: إن الله بعث رجلاً حبشياً نبياً وهم حبشية فكذبوه فقاتلهم فقتلوا أصحابه فأسروه وأسروا أصحابه ثم بنوا له حيراً ثم ملئوه ناراً ثم جمعوا الناس فقالوا: من كان على ديننا وأمرنا فليعتزل، ومن كان على

---

(١) تفسير القمّي ٢: ٤١٣.
(٢) مجمع البيان ١٠: ٤٦٥.
(٣) الدر المنثور ٦: ٣٣٣.

دين هؤلاء فليرم نفسه في النار فجعل أصحابه يتهافتون في النار فجاءت امـرأة معها صبي لها ابن عمره شهر، فلما هجمت هابت ورقت على ابنها فنادى الصبي: لا تهابي وارميني ونفسك في النار فإن هذا والله في الله قليل، فرمت بنفسها في النار وصبيها، وكان ممن تكلم في المهد.[١]

قال المؤلّف ﷺ : وروي هذا المعنى في الدر المنثور، عن ابن مردويه، عن عبدالله بن نجي عنه ﷺ.[٢]

وروي أيضاً عن ابن أبي حاتم من طريق عبدالله بن نجي عنه ﷺ، قـال: كان نبي أصحاب الأخدود حبشياً.[٣]

و روي أيضاً عن ابن أبي حاتم وابن المنذر من طريق الحسن عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾، قال: هم الحبشة.[٤]

ولا يبعد أن يستفاد أن حديث أصحاب الأخدود وقـائع مـتعددة وقـعت بالحبشة واليمن والعجم والإشارة في الآية إلى جميعها وهناك روايـات تـقص القصة مع السكوت عن محل وقوعها.[٥]

---

(١) مجمع البيان ١٠: ٤٦٥، نقلاً عن تفسير العيّاشي.
(٢) الدر المنثور ٦: ٣٣٣.
(٣) الدر المنثور ٦: ٣٣٢.
(٤) الدر المنثور ٦: ٣٣٢.
(٥) الميزان ٢٠: ٤١٦ ـ ٤٢٦.



قصّة

أصحاب الكهف



أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّىءْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّىءْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً ﴿١٦﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُّرْشِداً ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَاماً فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن

يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَداً ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَداً ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً ﴿٢٦﴾

سورة الكهف

قصّة أصحاب الكهف في القرآن والتاريخ

قصّة أصحاب الكهف في القرآن

وقد قال تعالى مخاطباً لنبيه ﷺ: ﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِـرَاءً ظَـاهِراً وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَداً﴾، كانت أصحاب الكهف والرقيم فتية نشأوا في مجتمع مشرك لا يرى إلا عبادة الأوثان فتسرب في المجتمع دين التوحيد فآمن بالله قوم منهم فأنكروا عليهم ذلك وقابلوهم بالتشديد والتضييق والفتنة والعذاب، وأجبروهم على عبادة الأوثان ورفض دين التوحيد فمن عاد إلى ملتهم تركوه ومن أصر على المخالفة قتلوه شرّ قتلة.

وكانت الفتية ممن آمن بالله إيماناً على بصيرة فزادهم الله هدى على هداهم وأفاض عليهم المعرفة والحكمة وكشف بما آتاهم من النور عما يهمهم من الأمر وربط على قلوبهم فلم يخشوا إلا الله ولا أوحشهم ما يستقبلهم من الحوادث والمكاره فعلموا أنهم لو أداموا المكث في مجتمعهم الجاهل المتحكم لم يسعهم دون أن يسيروا بسيرتهم فلا يتفوهوا بكلمة الحق ولا يتشرعوا بشريعة الحق وعلموا أن سبيلهم أن يقوموا على التوحيد ورفض الشرك ثم اعتزال القوم، وعلموا أن لو اعتزلوهم ودخلوا الكهف أنجاهم الله مما هم فيه من البلاء.

فقاموا وقالوا ردّاً على القوم في اقتراحهم وتحكّمهم:

﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً * هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾.

ثم قالوا: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾ .

ثم دخلوا الكهف واستقروا على فجوة منه وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد فدعوا ربهم بما تفرسوا من قبل أنه سيفعل بهم ذلك فقالوا: ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً﴾، فضرب الله على آذانهم في الكهف سنين ولبثوا في كهفهم ، وكلبهم معهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال وهم في فجوة منه وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ويقلبهم الله ذات اليمين وذات الشمال وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً.

ثم إن الله بعثهم بعد هذا الدهر الطويل وهو ثلاثمائة وتسع سنين من يوم دخلوا الكهف ليريهم كيف نجاهم من قومهم فاستيقظوا جميعا ووجدوا أن الشمس تغير موقعها وفيهم شيء من لوثة نومهم الثقيل قال قائل منهم: كم لبثتم؟ قال قوم منهم: لبثنا يوماً أو بعض يوم لما وجدوا من تغير موقع الشعاع وترددوا هل مرت عليهم ليلة أو لا؟ وقال آخرون منهم: بل ربكم أعلم بما لبثتم ثم قال: فابعثوا بورقكم هذه إلى المدينة فلينظر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه فإنكم جياع وليتلطف الذاهب منكم إلى المدينة في مسيره إليها وشرائه الطعام ولا يشعرنّ بكم أحداً إنهم إن علموا بمكانكم يرجموكم أو يعيدوكم في ملتهم ولن تفلحوا إذا أبداً.

وهذا أوان أن يعثر الله سبحانه الناس عليهم فإن القوم الذين اعتزلوهم وفارقوهم يوم دخلوا الكهف قد انقرضوا وذهب الله بهم وبملكهم وملتهم وجاء بقوم آخرين الغلبة فيهم لأهل التوحيد والسلطان وقد اختلفوا أعني أهل التوحيد وغيرهم في أمر المعاد فأراد الله سبحانه أن يظهر لهم آية في ذلك فأعثرهم على أصحاب الكهف.

فخرج المبعوث من الفتية وأتى المدينة وهو يظن أنها التي فارقها البارحة لكنه وجد المدينة قد تغيرت بما لا يعهد مثله في يوم ولا في عمر والناس غير الناس والأوضاع والأحوال غير ما كان يشاهده بالأمس فلم يزل على حيرة من الأمر حتى أراد أن يشتري طعاماً بما عنده من الورق وهي يومئذ من الورق الرائجة قبل ثلاثة قرون فأخذت المشاجرة فيها ولم تلبث دون أن كشفت عن أمر عجيب وهو أن الفتى ممن كانوا يعيشون هناك قبل ذلك بثلاثة قرون، وهو أحد الفتية كانوا في مجتمع مشرك ظالم فهجروا الوطن واعتزلوا الناس صوناً لإيمانهم و دخلوا الكهف فأنامهم الله هذا الدهر الطويل ثم بعثهم، وها هم الآن في الكهف في انتظار هذا الذي بعثوه إلى المدينة ليشتري لهم طعاماً يتغذون به.

فشاع الخبر في المدينة لساعته واجتمع جم غفير من أهلها فساروا إلى الكهف ومعهم الفتى المبعوث من أصحاب الكهف فشاهدوا ما فيه تصديق الفتى فيما أخبرهم من نبأ رفقته وظهرت لهم الآية الإلهية في أمر المعاد.

و لم يلبث أصحاب الكهف بعد بعثهم كثيراً دون أن توفاهم الله سبحانه وعند ذلك اختلف المجتمعون على باب الكهف من أهل المدينة ثانياً فقال المشركون منهم: ابنوا عليهم بنياناً ربهم أعلم بهم، قال الذين غلبوا على أمرهم وهم الموحدون لنتخذن عليهم مسجداً.

القصّة عند غير المسلمين

معظم أهل الرواية والتاريخ على أن القصة وقعت في الفترة بين النبي ﷺ وبين المسيح عليه السلام ولذلك لم يرد ذكرها في كتب العهدين ولم يعتوره اليهود وإن اشتملت عدة من الروايات على أن قريشاً تلقت القصّة من اليهود، وإنما اهتم بها النصارى واعتوروها قديماً وحديثاً، وما نقل عنهم في القصة قريب مما أورده ابن إسحاق في العرائس، عن ابن عباس غير أنهم يختلف رواياتهم عن روايات المسلمين في أمور:

أحدها: أن المصادر السريانية تذكر عدد أصحاب الكهف ثمانية في حين يذكره المسلمون وكذا المصادر اليونانية والغربية سبعة.

ثانيها: أن قصتهم خالية من ذكر كلب أصحاب الكهف.

ثالثها: أنهم ذكروا أن مدة لبث أصحاب الكهف فيه مائتا سنة أو أقل والمسلمون يذكر معظمهم أنه ثلاثمائة وتسع سنين على ما هو ظاهر القرآن الكريم والسبب في تحديدهم ذلك أنهم ذكروا أن الطاغية الذي كان يجبر الناس على عبادة الأصنام وقد هرب منه الفتية هو دقيوس الملك (٤٤٩ ـ ٤٥١) وقد استيقظ أهل الكهف على ما ذكروا سنة ٤٣٥م أو سنة ٤٣٧ أو سنة ٤٣٩ م فلا يبقى للبثهم في الكهف إلّا مائتا سنة أو أقل وأول من ذكره من مؤرخيهم على ما يذكر هو «جيمس» الساروغي السرياني الذي ولد سنة ٤٥١ م ومات سنة ٥٢١ م.

أين كهف أصحاب الكهف؟

عثر في مختلف بقاع الأرض على عدة من الكهوف والغيران وعلى

جدرانها تماثيل رجال ثلاثة أو خمسة أو سبعة ومعهم كلب وفي بعضها بين أيديهم قربان يقربونه، ويتمثل عند الإنسان المطلع عليها قصص أصحاب الكهف ويقرب من الظن أن هذه النقوش والتماثيل إشارة إلى قصة الفتية وأنها انتشرت وذاعت بعد وقوعها في الأقطار فأخذت ذكرى يتذكر بها الرهبان والمتجردون للعبادة في هذه الكهوف.

وأما الكهف الذي التجأ إليه واستخفى فيه أهل الكهف فجرى عليهم ما جرى فالناس فيه في اختلاف وقد ادعي ذلك في عدة مواضع.

أحدها: كهف إفسوس، وإفسوس هذا مدينة خربة أثرية واقعة في تركيا على مسافة ٧٣ كيلو متراً من بلدة إزمير، والكهف على مساحة كيلو متر واحد أو أقل من إفسوس بقرب قرية «اياصولوك» بسفح جبل «ينايرداغ».

وهو كهف وسيع فيه ـ على ما يقال ـ مئات من القبور مبنية من الطوب وهو في سفح الجبل وبابه متجه نحو الجهة الشمالية الشرقية وليس عنده أثر من مسجد أو صومعة أو كنيسة، وهذا الكهف هو الأعرف عند النصارى، وقد ورد ذكره في عدة من روايات المسلمين.

وهذا الكهف ـ على الرغم من شهرته البالغة ـ لا ينطبق عليه ما ورد في الكتاب العزيز من المشخصات.

أما أولاً: فقد قال تعالى: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾، وهو صريح في أن الشمس يقع شعاعها عند الطلوع على جهة اليمين من الكهف وعند الغروب على الجانب الشمالي منه، ويلزمه أن يواجه باب الكهف جهة الجنوب، وباب الكهف الذي في إفسوس متجه نحو الشمال الشرقي.

وهذا الأمر أعني كون باب كهف إفسوس متجهاً نحو الشمال وما ورد من مشخص إصابة الشمس منه طلوعاً وغروباً هو الذي دعا المفسرين إلى أن يعتبروا يمين الكهف ويساره بالنسبة إلى الداخل فيه لا الخارج منه مع أنه المعروف المعمول.

قال البيضاوي في تفسيره[1] : إن باب الكهف في مقابلة بنات النعش، وأقرب المشارق والمغارب إلى محاذاته مشرق رأس السرطان ومغربه والشمس إذا كان مدارها مداره تطلع مائلة عنه مقابلة لجانبه الأيمن وهو الذي يلي المغرب، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر فيقع شعاعها على جانبه ويحلل عفونته ويعدل هواءه ولا يقع عليهم فيؤذي أجسادهم ويبلي ثيابهم.

على أن مقابلة الباب للشمال الشرقي لا للقطب الشمالي وبنات النعش كما ذكروه تستلزم عدم انطباق الوصف حتى على الاعتبار الذي اعتبروه فإن شعاع الشمس حينئذ يقع على الجانب الغربي الذي يلي الباب عند طلوعها وأما عند الغروب فالباب وما حوله مغمور تحت الظل وقد زال الشعاع بعيد زوال الشمس وانبسط الظل.

اللهم إلا أن يدعى أن المراد بقوله: ﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ﴾ عدم وقوع الشعاع أو وقوعه خلفهم لا على يسارهم هذا.

و أما ثانياً: فلأن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾ أي في مرتفع منه ولا فجوة في كهف إفسوس ـ على ما يقال ـ وهذا مبني على كون الفجوة بمعنى المرتفع وهو غير مسلم وقد تقدم أنها بمعنى الساحة.

---

(١) تفسير البيضاوي ٢: ٦.

و أما ثالثاً: فلأن قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾ ، ظاهر في أنهم بنوا على الكهف مسجداً، ولا أثر عند كهف إفسوس من مسجد أو صومعة أو نحوهما وأقرب ما هناك كنيسة على مسافة ثلاث كيلو مترات تقريباً ولا جهة تربطها بالكهف أصلاً.

على أنه ليس هناك شيء من رقيم أو كتابة أو أمر آخر يشهد ولو ببعض الشهادة على كون بعض هاتيك القبور وهي مئات هي قبور أصحاب الكهف أو أنهم لبثوا هناك صفة من الدهر راقدين ثم بعثهم الله ثم توفاهم.

الكهف الثاني: كهف رجيب وهذا الكهف واقع على مسافة ثمانية كيلو مترات من مدينة عمان عاصمة الأردن بالقرب من قرية تسمى رجيب والكهف في جبل محفوراً على الصخرة في السفح الجنوبي منه، وأطرافه من الجانبين الشرقي والغربي مفتوحة يقع عليه شعاع الشمس منها، وباب الكهف يقابل جهة الجنوب وفي داخل الكهف صفة صغيرة تقرب من ثلاثة أمتار في مترين ونصف على جانب من سطح الكهف المعادل لثلاثة في ثلاثة تقريباً وفي الغار عدة قبور على هيئة النواويس البيزنطية كأنها ثمانية أو سبعة.

وعلى الجدران نقوش وخطوط باليوناني القديم والثمودي منمحية لا تقرأ وأيضا صورة كلب مصبوغة بالحمرة وزخارف وتزويقات أخرى.

وفوق الغار آثار صومعة بيزنطية تدل النقود والآثار الأخرى المكتشفة فيها على كونها مبنية في زمان الملك جوستينوس الأول (٤١٨ ـ ٤٢٧) وآثار أخرى على أن الصومعة بدلت ثانياً بعد استيلاء المسلمين على الأرض مسجداً إسلامياً مشتملاً على المحراب والمأذنة والميضاة، وفي الساحة المقابلة لباب الكهف آثار مسجد آخر بناه المسلمون في صدر الإسلام ثم عمروها وشيدوها مرة بعد مرة،

وهو مبني على أنقاض كنيسة بيزنطية كما أن المسجد الذي فوق الكهف كذلك.

وكان هذا الكهف ـ على الرغم من اهتمام الناس بشأنه وعنايتهم بأمره كما يكشف عنه الآثار ـ متروكاً منسياً وبمرور الزمان خربة وردماً متهدماً حتى اهتمت دائرة الآثار الأردنية أخيراً بالحفر والتنقيب فيه فاكتشفته فظهر ثانياً بعد خفائه قروناً، وقامت عدة من الأمارات والشواهد الأثرية على كونه هو كهف أصحاب الكهف المذكورين في القرآن.

وقد ورد كون كهف أصحاب الكهف بعمان في بعض روايات المسلمين كما أشرنا إليه فيما تقدم وذكره الياقوت في معجم البلدان وأن الرقيم اسم قرية بالقرب من عمان كان فيها قصر ليزيد بن عبد الملك وقصر آخر في قرية أخرى قريبة منها تسمى الموقر وإليهما يشير الشاعر بقوله:

يزرن على تنانيه يزيدا بأكناف الموقر والرقيم

وبلدة عمان أيضا مبنية في موضع مدينة «فيلادلفيا» التي كانت من أشهر مدن عصرها وأجملها قبل ظهور الدعوة الإسلامية وكانت هي وما والاها تحت استيلاء الروم منذ أوائل القرن الثاني الميلادي حتى فتح المسلمون الأرض المقدسة.

والحق أن مشخصات كهف أهل الكهف أوضح انطباقاً على هذا الكهف من غيره.

والكهف الثالث: كهف بجبل قاسيون بالقرب من الصالحية بدمشق الشام ينسب إلى أصحاب الكهف.

والكهف الرابع: كهف بالبتراء من بلاد فلسطين ينسبونه إلى أصحاب الكهف.

والكهف الخامس: كهف اكتشف ـ على ما قيل ـ في شبه جزيرة إسكاندنافية من الأوربة الشمالية عثروا فيه على سبع جثث غير بالية على هيئة الرومانيين يظن أنهم الفتية أصحاب الكهف.

وربما يذكر بعض كهوف أخر منسوب إلى أصحاب الكهف كما يـذكر أن بالقرب من بلدة نخجوان من بلاد قفقاز كهفا يعتقد أهل تلك النواحي أنـه كـهف أصحاب الكهف وكان الناس يقصدونه ويزورونه.

ولا شاهد يشهد على كون شيء من هذه الكهوف هو الكهف المذكور في القرآن الكريم.

على أن المصادر التاريخية تكذب الأخيرين إذ القصة على أي حال قصة رومانية، وسلطتهم حتى في أيام مجدهم وسؤددهم لم تبلغ هذه النواحي نواحي أوربا الشمالية والقفقاز.[1]

---

(١) الميزان ١٣: ٤٠٥ ـ ٤١٣.

قصّة أصحاب الكهف في الروايات

في تفسير القمي : في قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ...﴾، قال: يقول: قد آتيناك من الآيات ما هو أعجب منه، وهم فتية كانوا في الفترة بين عيسى بن مريم ومحمد ﷺ، وأما الرقيم فهما لوحان من نحاس مرقوم أي مكتوب فيهما أمر الفتية وأمر إسلامهم وما أراد منهم دقيانوس الملك وكيف كان أمرهم وحالهم.[1]

وفيه، حدثنا أبي، عن ابن أبي عمير، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان سبب نزول سورة الكهف أن قريشاً بعثوا ثلاثة نفر إلى نجران: النضر بن الحارث بن كلدة وعقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل السهمي ليتعلموا من اليهود مسائل يسألونها رسول الله ﷺ.

فخرجوا إلى نجران إلى علماء اليهود فسألوهم فقالوا: اسألوه عن ثلاث مسائل فإن أجابكم فيها على ما عندنا فهو صادق ثم اسألوه عن مسألة واحدة فإن ادعى علمها فهو كاذب.

قالوا: وما هذه المسائل؟

قالوا: سلوه عن فتية كانوا في الزمن الأول فخرجوا وغابوا وناموا، كم بقوا في نومهم حتى انتبهوا؟ وكم كان عددهم؟ وأي شيء كان معهم من غيرهم؟ وما

---

(١) تفسير القمّي ٢ : ٣١.

كان قصتهم؟ وسلوه عن موسى حين أمره الله أن يتبع العالم ويتعلم منه من هو؟ وكيف تبعه؟ وما كان قصته معه؟ وسلوه عن طائف طاف مغرب الشمس ومطلعها حتى بلغ سد يأجوج ومأجوج من هو؟ وكيف كان قصته؟ ثم أملوا عليهم أخبار هذه المسائل الثلاث وقالوا لهم: إن أجابكم بما قد أملينا عليكم فهو صادق، وإن أخبركم بخلاف ذلك فلا تصدقوه.

قالوا: فما المسألة الرابعة؟ قالوا: سلوه متى تقوم الساعة! فإن ادعى علمها فهو كاذب فإن قيام الساعة لا يعلمه إلا الله تبارك و تعالى.

فرجعوا إلى مكة واجتمعوا إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك يزعم أن خبر السماء يأتيه ونحن نسأله عن مسائل فإن أجابنا عنها علمنا أنه صادق وإن لم يخبرنا علمنا أنه كاذب، فقال أبو طالب: سلوه عما بدا لكم فسألوه عن الثلاث المسائل فقال رسول الله ﷺ غدا أخبركم ولم يستثن، فاحتبس الوحي عنه أربعين يوماً حتى اغتم النبي ﷺ وشك أصحابه الذين كانوا آمنوا به، وفرحت قريش واستهزءوا وآذوا، وحزن أبو طالب.

فلما كان بعد أربعين يوماً نزل عليه سورة الكهف فقال رسول الله ﷺ: يا جبرئيل لقد أبطأت فقال: إنا لا نقدر أن ننزل إلا بإذن الله فأنزل الله تعالى: أم حسبت يا محمد أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجباً، ثم قص قصتهم فقال: إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيىء لنا من أمرنا رشداً.

قال: فقال الصادق عليه السلام: إن أصحاب الكهف والرقيم كانوا في زمن ملك جبار عات، وكان يدعو أهل مملكته إلى عبادة الأصنام فمن لم يجبه قتله، وكان هؤلاء قوما مؤمنين يعبدون الله عز وجل، ووكل الملك بباب المدينة ولم يدع أحدا

يخرج حتى يسجد للأصنام فخرجوا هؤلاء بعلة الصيد وذلك أنهم مروا براع في طريقهم فدعوه إلى أمرهم فلم يجبهم وكان مع الراعي كلب فأجابهم الكلب وخرج معهم.

قال ﷺ: فخرج أصحاب الكهف من المدينة بعلة الصيد هرباً من دين ذلك الملك فلما أمسوا دخلوا إلى ذلك الكهف والكلب معهم فألقى الله عليهم النعاس كما قال الله: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَداً﴾، فناموا حتى أهلك الله ذلك الملك وأهل المدينة وذهب ذلك الزمان وجاء زمان آخر وقوم آخرون.

ثم انتبهوا فقال بعضهم لبعض: كم نمنا هاهنا؟ فنظروا إلى الشمس قد ارتفعت فقالوا: نمنا يوماً أو بعض يوم ثم قالوا لواحد منهم: خذ هذه الورق وأدخل المدينة متنكراً لا يعرفونك فاشتر لنا طعاماً فإنهم إن علموا بنا وعرفونا قتلونا أو ردونا في دينهم.

فجاء ذلك الرجل فرأى مدينة بخلاف التي عهدها ورأى قوماً بخلاف أولئك لم يعرفهم ولم يعرفوا لغته ولم يعرف لغتهم فقالوا له: من أنت، ومن أين جئت؟

فأخبرهم فخرج ملك تلك المدينة مع أصحابه والرجل معهم حتى وقفوا على باب الكهف وأقبلوا يتطلعون فيه فقال بعضهم: هؤلاء ثلاثة رابعهم كلبهم، وقال بعضهم: خمسة سادسهم كلبهم، وقال بعضهم: سبعة وثامنهم كلبهم. وحجبهم الله بحجاب من الرعب فلم يكن يقدم بالدخول عليهم غير صاحبهم فإنه لما دخل عليهم وجدهم خائفين أن يكونوا أصحاب دقيانوس شعروا بهم فأخبرهم صاحبهم أنهم كانوا نائمين هذا الزمن الطويل، وأنهم آية للناس فبكوا وسألوا الله أن يعيدهم إلى مضاجعهم نائمين كما كانوا.

ثم قال الملك: ينبغي أن نبني هاهنا مسجداً نزوره فإن هؤلاء قوم مؤمنون. فلهم في كل سنة تقلبان ينامون ستة أشهر على جنوبهم اليمنى وستة أشهر على جنوبهم اليسرى والكلب معهم باسط ذراعيه بفناء الكهف وذلك قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ...﴾.[1]

قال المؤلّف ﷺ : والرواية من أوضح روايات القصة متنا وأسلمها من التشوش وهي مع ذلك تتضمن أن الذين اختلفوا في عددهم فقالوا: ثلاثة أو خمسة أو سبعة هم أهل المدينة الذين اجتمعوا على باب الكهف بعد انتباه الفتية وهو خلاف ظاهر الآية، وتتضمن أن أصحاب الكهف لم يموتوا ثانياً، بل عادوا إلى نومتهم وكذلك كلبهم باسطاً ذراعيه بالوصيد وأن لهم في كل سنة تقلبين من اليمين إلى اليسار وبالعكس وأنهم بعد على هيئتهم. ولا كهف معهوداً على وجه الأرض وفيه قوم نيام على هذه الصفة.

على أن في ذيل هذه الرواية ـ وقد تركنا نقله هاهنا لاحتمال أن يكون من كلام القمي أو رواية أخرى ـ أن قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعاً﴾ من كلام أهل الكتاب، وأن قوله بعده: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ ردّ له، وقد عرفت في البيان المتقدم أن السياق يدفعه والنظم البليغ لا يقبله.

وقد تكاثرت الروايات في بيان القصة من طرق الفريقين[2] لكنها متهافتة مختلفة لا يكاد يوجد منها خبران متوافقا المضمون من جميع الجهات.

فمن الاختلاف ما في بعض الروايات كالرواية المتقدمة أن سؤالهم كان عن أربعة نبأ أصحاب الكهف ونبأ موسى والعالم ونبأ ذي القرنين وعن الساعة متى

---

(١) تفسير القمّي ٢: ٣١.

(٢) تفسير القمّي ٢: ٣١، الدر المنثور ٤: ٢١٠، مجمع البيان ٦: ٤١٥، روح المعاني ٥: ٢١٠.

تقوم؟ وفي بعضها أن السؤال كان عن خبر أصحاب الكهف وذي القرنين وعن الروح وقد ذكروا أن آية صدق النبي ﷺ أن لا يجيب آخر الأسئلة فأجاب عن نبأ أصحاب الكهف ونبأ ذي القرنين، ونزل ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ...﴾ فلم يجب عنها، وقد عرفت في بيان آية الروح أن الكلام مسوق سوق الجواب وليس بتجاف.

ومن ذلك ما في أكثر الروايات أنهم جماعة واحدة سمعوا أصحاب الكهف والرقيم، وفي بعضها أن أصحاب الرقيم غير أصحاب الكهف، وأن الله سبحانه أشار في كلامه إليهما معا لكنه قص قصة أصحاب الكهف وأعرض عن قصة أصحاب الرقيم، وذكروا لهم قصة وهي أن قوماً وهم ثلاثة خرجوا يرتادون لأهلهم فأخذتهم السماء فأووا إلى كهف وانحطت صخرة من أعلى الجبل وسدت بابه.

فقال بعضهم لبعض: ليذكر كل منا شيئاً من عمله الصالح وليدع الله به لعله يفرج عنا فذكر واحد منهم عمله لوجه الله ودعا الله به فتنحت الصخرة قدر ما دخل عليهم الضوء ثم الثاني فتنحت حتى تعارفوا ثم الثالث ففرج الله عنهم فخرجوا. رواه النعمان بن بشير مرفوعاً عن النبي ﷺ.

والمستأنس بأسلوب الذكر الحكيم يأبى أن يظن به أن يشير في دعوته إلى قصتين ثم يفصل القول في إحداهما وينسى الأخرى من أصلها.

ومن ذلك ما تذكره الروايات أن الملك الذي هرب منه الفتية هو دقيانوس ديوكليس ٢٨٥ ـ ٣٠٥ م ملك الروم، وفي بعضها كان يدعي الألوهية، وفي بعض أنه كان دقيوس دسيوس ٢٤٩ ـ ٢٥٤ م ملك الروم، وبينهما عشرات من السنين وكان الملك يدعو إلى عبادة الأصنام ويقتل أهل التوحيد.

وفي بعض الروايات كان مجوسياً يدعو إلى دين المجوس، ولم يذكر التاريخ شيوع المجوسية هذا الشيوع في بلاد الروم، وفي بعض الروايات أنهم كانوا قبل عيسى عليه السلام.

ومن ذلك أن بعض الروايات تذكر أن الرقيم اسم البلد الذي خرجوا منه وفي بعضها اسم الوادي، وفي بعضها اسم الجبل الذي فيه الكهف، وفي بعضها اسم كلبهم، وفي بعضها هو لوح من حجر، وفي بعضها من رصاص، وفي بعضها من نحاس وفي بعضها من ذهب رقم فيه أسماؤهم وأسماء آبائهم وقصتهم ووضع على باب الكهف وفي بعضها داخله، وفي بعضها كان معلقا على باب المدينة، وفي بعضها في بعض خزائن الملوك وفي بعضها هما لوحان.

ومن ذلك ما في بعض الروايات أن الفتية كانوا من أولاد الملوك، وفي بعضها من أولاد الأشراف، وفي بعضها من أولاد العلماء، وفي بعضها أنهم سبعة سابعهم كان راعي غنم لحق بهم هو وكلبه في الطريق.

وفي حديث وهب بن منبه أنهم كانوا حماميين يعملون في بعض حمامات المدينة وساق لهم قصة دعوة الملك إلى عبادة الأصنام وفي بعضها أنهم كانوا من وزراء الملك يستشيرهم في أموره.(١)

ومن ذلك ما في بعض الروايات أنهم أظهروا المخالفة وعلم بها الملك قبل الخروج وفي بعضها أنه لم يعلم إلا بعد خروجهم وفي بعضها أنهم تواطئوا على الخروج فخرجوا وفي بعضها أنهم خرجوا على غير معرفة من بعضهم لـ[illegible] بعض وعلى غير ميعاد ثم تعارفوا واتفقوا في الصحراء وفي بعضها أن راعي غنم لحق بهم وهو سابعهم وفي بعضها أنه لم يتبعهم وتبعهم كلبه وسار معهم.

---

(١) الدر المنثور ٤: ٣١٥، الكامل في التاريخ ٢: ٣٥٥.

ومن ذلك ما في بعض الروايات أنهم لما هربوا واطلع الملك على أمرهم افتقدهم ولم يحصل منهم على أثر، وفي بعضها أنه فحص عنهم فوجدهم نياماً في كهفهم فأمر أن يبنى على باب الكهف بنيان ليحتبسوا فيموتوا جوعاً وعطشاً جزاء لعصيانهم فبقوا على هذه الحال حتى إذا أراد الله أن ينبههم بعث راعي غنم فخرب البنيان ليتخذ حظيرة لغنمه وعند ذلك بعثهم الله أيقاظاً وكان من أمرهم ما قصّه الله.

ومن ذلك ما في بعض الروايات أنه لما ظهر أمرهم أتاهم الملك ومعه الناس فدخل عليهم الكهف فكلمهم فبينا هو يكلمهم ويكلمونه إذ ودعوه وسلموا عليه وقضوا نحبهم، وفي بعضها أنهم ماتوا أو ناموا قبل أن يدخل الملك عليهم وسد باب الكهف وغاب عن أبصارهم فلم يهتدوا للدخول فبنوا هناك مسجدا يصلون فيه.

ومن ذلك ما في بعض الروايات أنهم قبضت أرواحهم، وفي بعضها أن الله أرقدهم ثانياً فهم نيام إلى يوم القيامة، ويقلبهم كل عام مرتين من اليمين إلى الشمال وبالعكس.

ومن ذلك اختلاف الروايات في مدة لبثهم ففي أكثرها أن الثلاثمائة وتسع سنين المذكورة في الآية قول الله تعالى، وفي بعضها أنه محكي قول أهل الكتاب، وقوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا﴾ ردّ له، وفي بعضها أن الثلاثمائة قوله سبحانه وزيادة التسع قول أهل الكتاب.

إلى غير ذلك من وجوه الاختلاف بين الروايات، وقد جمعت أكثرها من طرق أهل السنة في الدر المنثور[١]، ومن طرق الشيعة في البحار[٢]، وتفسيري

(١) الدر المنثور ٤: ٢١١ ـ ٢١٨.
(٢) بحار الأنوار ١٤: ٤٠٧ ـ ٤٣٧.

البرهان[١]، ونور الثقلين[٢]، من أراد الاطلاع عليها فليراجعها، والذي يـمكن أن تعد الروايات متفقة أو كالمتفقة عليه أنهم كانوا قوماً موحدين هربوا من ملك جبار كان يجبر الناس على الشرك فأووا إلى الكهف فناموا إلى آخر ما قصه الله تعالى.

وفي تفسير العياشي، عن سليمان بن جعفر الهمداني قال: قال لي جعفر بن محمد عليهما السلام : يا سليمان من الفتى؟ فقلت له : جعلت فداك الفتى عندنا الشاب . قال لي: أما علمت أن أصحاب الكهف كانوا كلهم كهولاً فسمّاهم الله فتية بإيمانهم، يا سليمان من آمن بالله واتقى فهو الفتى.[٣]

قال المؤلّف رحمه الله : وروي ما في معناه في الكافي، عن القمّي مرفوعاً عـن الصادق عليه السلام.[٤]

وقد روي عن ابن عباس[٥] أنهم كانوا شباناً.

وفي الدر المنثور[٦]، أخرج ابن أبي حاتم، عن أبي جعفر قال: كان أصحاب الكهف صيارفة.

قال المؤلّف رحمه الله : وروى القمي أيضاً بإسناده عن سدير الصيرفي، عن أبي جعفر عليه السلام قال: كان أصحاب الكهف صيارفة.[٧]

لكن في تفسير العياشي، عن درست عن أبي عبد الله عليه السلام: أنه ذكر أصحاب

---

(١) تفسير البرهان ٢: ٤٥٦ ـ ٤٦٥ .

(٢) نور الثقلين ٣: ٢٤٣ ـ ٢٥٦ .

(٣) تفسير العيّاشي ٢: ٣٢٣ .

(٤) نور الثقلين ٣: ٢٤٥ ، نقلاً عن الكافي .

(٥) الدر المنثور ٤: ٢١٢ ـ ٢١٦ .

(٦) الدر المنثور ٤: ٢١٢ ـ ٢١٦ .

(٧) بحار الأنوار ١٤: ٤٢٩، نقلاً عن الكافي .

الكهف فقال: كانوا صيارفة كلام ولم يكونوا صيارفة دراهم.

وفي تفسير العياشي، عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن أصحاب الكهف أسروا الإيمان وأظهروا الكفر فآجرهم الله مرتين.[١]

قال المؤلّف رحمه الله : وروي في الكافي[٢]، ما في معناه عن هشام بن سالم عنه عليه السلام .

وروى ما في معناه العياشي[٣] عن الكاهلي عنه عليه السلام . وعن درست في خبرين عنه عليه السلام وفي أحد الخبرين: أنهم كانوا ليشدون الزنانير ويشهدون الأعياد.

ولا برد عليه أن ظاهر قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿**إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً ...**﴾ أنهم كانوا لا يرون التقية كما احتمله المفسرون[٤] في تفسير قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿**أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً ...**﴾ .

وذلك لأنك عرفت أن خروجهم من المدينة كان هجرة من دار الشرك التي كانت تحرمهم إظهار كلمة الحق والتدين بدين التوحيد غير أن تواطيهم على الخروج وهم ستة من المعاريف وأهل الشرف وإعراضهم عن الأهل والمال والوطن لم يكن لذلك عنوان إلا المخالفة لدين الوثنية فقد كانوا على خطر عظيم لو ظهر عليهم القوم ولم ينته أمرهم إلا إلى أحد أمرين الرجم أو الدخول في ملة القوم.

---

(١) تفسير العيّاشي ٢: ٣٢١.

(٢) الكافي ١: ٤٤٨ ح ٢٨.

(٣) تفسير العيّاشي ٢: ٣٢٣.

(٤) مجمع البيان ٦: ٤٥٧.

وبذلك يظهر أن قيامهم أول مرة وقولهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً﴾ لم يكن بتظاهر منهم على المخالفة وتجاهر على ذم ملة القوم ورمي طريقتهم فما كانت الأوضاع العامة تجيز لهم ذلك، وإنما كان ذلك منهم قياماً لله وتصميماً على الثبات على كلمة التوحيد ولو سلم دلالة قوله: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ على التظاهر ورفض التقية فقد كان في آخر أيام مكثهم بين القوم وكانوا قبل ذلك سائرين على التقية لا محالة، فقد بان أن سياق شيء من الآيتين لا ينافي كون الفتية سائرين على التقية ما داموا بين القوم وفي المدينة.

وفي تفسير العياشي[1]، أيضاً عن أبي بكر الحضرمي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خرج أصحاب الكهف على غير معرفة ولا ميعاد فلما صاروا في الصحراء أخذ بعضهم على بعض العهود والمواثيق فأخذ هذا على هذا، وهذا على هذا، ثم قالوا: أظهروا أمركم فأظهروه فإذا هم على أمر واحد.

قال المؤلّف رحمه الله: وفي معناه ما عن ابن عباس في الخبر الآتي:

في الدر المنثور، أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر وابن أبي حاتم، عن ابن عباس قال: غزونا مع معاوية غزوة المضيق نحو الروم فمررنا بالكهف الذي فيه أصحاب الكهف الذي ذكر الله في القرآن فقال معاوية: لو كشف لنا عن هؤلاء فنظرنا إليهم فقال له ابن عباس: ليس ذلك لك قد منع الله ذلك عمن هو خير منك فقال: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ فقال معاوية: لا أنتهي حتى أعلم علمهم.

فبعث رجالاً فقال: اذهبوا فادخلوا الكهف فانظروا فذهبوا، فلما دخلوا

---

(١) تفسير العيّاشي ٢: ٣٢٢.

الكهف بعث الله عليهم ريحاً فأخرجتهم فبلغ ذلك ابن عباس فأنشأ يحدث عنهم.

فقال: إنهم كانوا في مملكة ملك من الجبابرة فجعلوا يعبدون حتى عبدوا الأوثان وهؤلاء الفتية في المدينة فلما رأوا ذلك خرجوا من تلك المدينة فجمعهم الله على غير ميعاد فجعل بعضهم يقول لبعض: أين تريدون؟ أين تذهبون؟ فجعل بعضهم يخفي على بعض لأنه لا يدري هذا على ما خرج هذا ولا يدري هذا فأخذوا العهود والمواثيق أن يخبر بعضهم بعضاً فإن اجتمعوا على شيء وإلا كتم بعضهم بعضاً فاجتمعوا على كلمة واحدة فقالوا: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ـ إلى قوله: ـ مِرْفَقاً﴾.

قال: فقعدوا فجاء أهلهم يطلبونهم لا يدرون أين ذهبوا؟ فرفع أمرهم إلى الملك فقال: ليكونن لهؤلاء القوم بعد اليوم شأن، ناس خرجوا لا يدرى أين ذهبوا في غير خيانة ولا شيء يعرف؟ فدعا بلوح من رصاص فكتب فيه أسماءهم ثم طرح في خزانته فذلك قول الله: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾، والرقيم هو اللوح الذي كتبوا.

فانطلقوا حتى دخلوا الكهف فضرب الله على آذانهم فناموا فلو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم، ولولا أنهم يقلبون لأكلتهم الأرض، وذلك قول الله: ﴿وَتَرَى الشَّمْسَ ...﴾.

قال: ثم إن ذلك الملك ذهب وجاء ملك آخر فعبد الله وترك تلك الأوثان وعدل في الناس فبعثهم الله لما يريد فقال قائل منهم: كم لبثتم؟ فقال بعضهم: يوما وقال بعضهم: يومين وقال بعضهم: أكثر من ذلك فقال كبيرهم: لا تختلفوا فإنه لم يختلف قوم قط إلا هلكوا فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة.

فرأى شارة أنكرها ورأى بنياناً أنكره ثم دنا إلى خباز فرمى إليه بدرهم

وكانت دراهمهم كخفاف الربع يعني ولد الناقة فأنكر الخباز الدرهم فقال: من أين لك هذا الدرهم؟ لقد وجدت كنزاً لتدلني عليه أو لأرفعنك إلى الأمير، فقال: أتخوفني بالأمير؟ وأتى الدهقان الأمير، قال: من أبوك؟ قال: فلان، فلم يعرفه، قال: فمن الملك؟ قال: فلان فلم يعرفه فاجتمع عليهم الناس فرفع إلى عالمهم فسأله فأخبره فقال: عليَّ باللوح فجيء به فسمى أصحابه فلاناً وفلاناً وهم مكتوبون في اللوح فقال للناس: إن الله قد دلّكم على إخوانكم.

وانطلقوا وركبوا حتى أتوا إلى الكهف، فلما دنوا من الكهف قال الفتى: مكانكم أنتم حتى أدخل أنا على أصحابي، ولا تهجموا فيفزعون منكم وهم لا يعلمون أن الله قد أقبل بكم وتاب عليكم فقالوا: لتخرجن علينا؟ قال: نعم إن شاء الله.

فدخل فلم يدروا أين ذهب؟ وعمي عليهم فطلبوا وحرضوا فلم يقدروا على الدخول عليهم فقالوا: لنتخذن عليهم مسجداً فاتخذوا عليهم مسجداً يصلون عليهم ويستغفرون لهم.[1]

قال المؤلّف ﷺ : والرواية مشهورة أوردها المفسرون في تفاسيرهم وتلقوها بالقبول وهي بعد غير خالية عن أشياء منها أن ظاهرها أنهم بعد على هيئة النيام لا يمكن الاطلاع عليهم بصرف إلهي، والكهف الذي في المضيق وهو كهف إفسوس المعروف اليوم ليس على هذا النعت.

والآية التي تمسك بها ابن عباس إنما تمثل حالهم وهم رقود قبل البعث لا بعده.

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢١٣.

وقد وردت عن ابن عباس رواية أخرى تخالف هذه الرواية وهي ما في الدر المنثور[١]، عن عبد الرزاق وابن أبي حاتم، عن عكرمة وقد ذكرت فيها القصة وفي آخرها: فركب الملك وركب معه الناس حتى انتهى إلى الكهف فقال الفتى: دعوني أدخل إلى أصحابي فلما أبصروه وأبصرهم ضرب على آذانهم فلما استبطئوه دخل الملك ودخل الناس معه فإذا أجساد لا يبلى منها شيء غير أنها لا أرواح فيها فقال الملك: هذه آية بعثها الله لكم.

فغزا ابن عباس مع حبيب بن مسلمة فمروا بالكهف فإذا فيه عظام فقال رجل: هذه عظام أهل الكهف، فقال ابن عباس: ذهبت عظامهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة...

وتزيد هذه الرواية إشكالاً أن قوله: «ذهبت عظامهم...» يؤدي إلى وقوع القصة في أوائل التاريخ الميلادي أو قبله فتخالف حينئذ عامة الروايات إلا ما تقول إنهم كانوا قبل المسيح.

ومنها ما في قوله: «فقال بعضهم: يوماً وقال بعضهم: يومين ...»، والذي وقع في القرآن: ﴿قَالُوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾، وهو المعقول الموافق للاعتبار من قوم ناموا ثم انتبهوا وتكلموا في مدة لبثهم أخذاً بشواهد الحال، وأما احتمال اليومين وأزيد فمما لا سبيل إليه ولا شاهد يشهد عليه عادة على أن اختلافهم في تشخيص مدة اللبث لم يكن من الاختلاف المذموم الذي هو اختلاف في العمل في شيء حتى يؤدي إلى الهلاك فينهى عنه وإنما هو اختلاف في النظر ولا مناص.

ومنها ما في آخرها أنه دخل فلم يدروا أين ذهب؟ وعمي عليهم...إلخ،

(١) الدر المنثور ٤: ٢١٤.

كان المراد به ما في بعض الروايات أن باب الكهف غاب عن أنظارهم بأن مسحه الله وعفاه، ولا يلائم ذلك ما في صدر الرواية أنه كان ظاهرا معروفاً في تلك الديار فهل مسحه الله لذلك الملك وأصحابه ثم أظهره للناس؟

وما في صدر الرواية من قول ابن عباس إن الرقيم لوح من رصاص مكتوب فيه أسماؤهم، روى ما في معناه العياشي في تفسيره[1]، عن أحمد بن علي، عن أبي عبد الله عليه السلام.

وقد روي في روايات أُخرى عن ابن عباس إنكاره كما في الدر المنثور[2]، عن سعيد بن منصور وعبد الرزاق والفريابي وابن المنذر وابن أبي حاتم والزجاجي في أماليه وابن مردويه، عن ابن عباس قال: لا أدري ما الرقيم وسألت كعباً فقال: اسم القرية التي خرجوا منها.

وفيه، أيضا عن عبد الرزاق، عن ابن عباس قال: كل القرآن أعلمه إلا أربعاً: غسلين، وحنانا، وأواه، ورقيم.[3]

وفي تفسير القمي: في رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام: في قوله تعالى: ﴿لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً﴾، يعني جوراً على الله إن قلنا له شريك.[4]

وفي تفسير العياشي، عن محمد بن سنان، عن البطيخي، عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾، قال: إن

---

(١) تفسير العيّاشي ٢: ٣٢١.
(٢) الدر المنثور ٤: ٢١٢.
(٣) الدر المنثور ٤: ٢١٢.
(٤) تفسير القمّي ٢: ٣٤.

ذلك لم يعن به النبي ﷺ إنما عني به المؤمنون بعضهم لبعض لكنه حالهم التي هم عليها.[١]

وفي تفسير روح المعاني، أسماؤهم على ما صح عن ابن عباس: مكسلمينا، ويمليخا، ومرطولس، وثبيونس، ودردونس، وكفاشيطيطوس، ومنطنواسيس وهو الراعي، والكلب اسمه قطمير.

قال: وروي عن علي كرم الله وجهه: إن أسماءهم: يمليخا، ومكسلينيا، ومسلينيا، وهؤلاء أصحاب يمين الملك، ومرنوش، ودبرنوش، وشاذنوش، وهؤلاء أصحاب يساره، وكان يستشير الستة والسابع الراعي ولم يذكر في هذه الرواية اسمه وذكر فيها أن اسم كلبهم قطمير.

قال: وفي صحة نسبة هذه الرواية لعلي كرم الله وجه مقال.

وذكر العلامة السيوطي في حواشي البيضاوي، أن الطبراني روى ذلك عن ابن عباس في معجمه الأوسط، بإسناد صحيح، والذي في الدر المنثور، رواية الطبراني في الأوسط بإسناد صحيح ما قدمناه عن ابن عباس.

قال: وقد سموا في بعض الروايات بغير هذه الأسماء، وذكر الحافظ ابن حجر في شرح البخاري، أن في النطق بأسمائهم اختلافاً كثيراً ولا يقع الوثوق من ضبطها، وفي البحر، أن أسماء أصحاب الكهف أعجمية لا تنضبط بشكل ولا نقط والسند في معرفتها ضعيف.[٢]

الرواية التي نسبها إلى علي عليه السلام هي التي رواها الثعلبي في العرائس، والديلمي في كتابه مرفوعة وفيها أعاجيب.

---

(١) تفسير العيّاشي ٢: ٣٢٤.

(٢) روح المعاني ١٥: ٢٤٦.

وفي الدر المنثور، أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: أصحاب الكهف أعوان المهدي.[١]

وفي البرهان، عن ابن الفارسي قال الصادق عليه السلام: يخرج للقائم عليه السلام من ظهر الكعبة سبعة وعشرون رجلاً من قوم موسى الذين كانوا يهدون بالحق وبه يعدلون وسبعة من أهل الكهف ويوشع بن نون، وأبو دجانة الأنصاري، والمقداد بن الأسود ومالك الأشتر فيكونون بين يديه أنصاراً وحكاماً.[٢]

وفي تفسير العياشي، عن عبد الله بن ميمون، عن أبي عبد الله عليه السلام، عن أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام قال: إذا حلف رجل بالله فله ثنياها إلى أربعين يوماً وذلك أن قوماً من اليهود سألوا النبي ﷺ عن شيء فقال: ائتوني غدا ولم يستثن حتى أخبركم فاحتبس عنه جبرئيل أربعين يوماً ثم أتاه وقال: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً * إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

قال المؤلّف رحمه الله: «الثنيا» ـ بالضم فالسكون ـ مقصوراً اسم الاستثناء.

وفي هذا المعنى روايات أخر عن الصادقين عليهما السلام والظاهر من بعضها أن المراد بالحلف بت الكلام وتأكيده كما يلوح إليه استشهاده عليه السلام في هذه الرواية بقول النبي ﷺ، وأما البحث في تقييد اليمين به بعد انعقاده ووقوع الحنث معه وعدمه فموكول إلى الفقه.

وردت قصة الكهف مفصلة كاملة في عدة روايات عن الصحابة والتابعين وأئمة أهل البيت عليهم السلام كرواية القمي ورواية ابن عباس ورواية عكرمة ورواية مجاهد وقد أوردها في الدر المنثور، ورواية ابن إسحاق في العرائس، وقد

---

(١) الدر المنثور ٤: ٢١٥.

(٢) تفسير البرهان ٢: ٤٦٠.

أوردها في البرهان، ورواية وهب بن منبه وقد أوردها في الدر المنثور، وفي الكامل، من غير نسبة ورواية النعمان بن بشير في أصحاب الرقيم وقد أوردها في الدر المنثور. وهذه الروايات ـ وقد أوردنا في البحث الروائي السابق بعضها وأشرنا إلى بعضها الآخر ـ من الاختلاف في متونها بحيث لا تكاد تتفق في جهة بارزة من جهات القصة، وأما الروايات الواردة في بعض جهات القصة كالمتعرضة لزمان قيامهم والملك الذي قاموا في عهده ونسبهم وسمتهم وأسمائهم ووجه تسميتهم بأصحاب الرقيم إلى غير ذلك من جزئيات القصة فالاختلاف فيها أشد والحصول فيها على ما تطمئن إليه النفس أصعب.

والسبب العمدة في اختلاف هذه الأحاديث مضافا إلى ما تطرق إلى أمثال هذه الروايات من الوضع والدس أمران: أحدهما: أن القصة مما اعتنت به أهل الكتاب كما يستفاد من رواياتها أن قريشا تلقتها عنهم وسألوا النبي ﷺ عنها بل يستفاد من التماثيل وقد ذكرها أهل التاريخ عن النصارى ومن الصور الموجودة في كهوف شتى في بقاع الأرض المختلفة من آسيا وأوربا وإفريقيا أن القصة اكتسبت بعد شهرة عالمية، ومن شأن القصص التي كذلك أن تتجلى لكل قوم في صورة تلائم ما عندهم من الآراء والعقائد وتختلف رواياتها.

ثم إن المسلمين بالغوا في أخذ الرواية وضبطها وتوسعوا فيه وأخذوا ما عند غيرهم كما أخذوا ما عند أنفسهم وخاصة وقد اختلط بهم قوم من علماء أهل الكتاب دخلوا في الإسلام كوهب بن منبه وكعب الأحبار وأخذ عنهم الصحابة والتابعون كثيراً من أخبار السابقين ثم أخذ الخلف عن السلف وعاملوا مع رواياتهم معاملة الأخبار الموقوفة عن النبي ﷺ فكانت بلوى.

وثانيهما: أن دأب كلامه تعالى فيما يورده من القصص أن يقتصر على مختارات من نكاتها المهمة المؤثرة في إيفاء الغرض من غير أن يبسط القول بذكر

متنها بالاستيفاء والتعرض لجميع جهاتها والأوضاع والأحوال المقارنة لها فما كتاب الله بكتاب تاريخ وإنما هو كتاب هدى.

وهذا من أوضح ما يعثر عليه المتدبر في القصص المذكورة في كلامه تعالى كالذي ورد فيه من قصة أصحاب الكهف والرقيم فقد أورد أولاً شطراً من محاورتهم يشير إلى معنى قيامهم لله وثباتهم على كلمة الحق واعتزالهم الناس إثر ذلك ودخولهم الكهف ورقودهم فيه وكلبهم معهم دهراً طويلاً ثم يذكر بعثهم من الرقدة ومحاورة ثانية لهم هي المؤدية إلى انكشاف حالهم وظهور أمرهم للناس.

ثم يذكر إعثار الناس عليهم بما يشير إلى توفيهم ثانياً بعد حصول الغرض الإلهي وما صنع بعد ذلك من اتخاذ مسجد عليهم هذا هو الذي جرى عليه كلامه تعالى.

وقد أضرب عن ذكر أسمائهم وأنسابهم ومواليدهم وكيفية نشأتهم وما اتخذوه لأنفسهم من المشاغل وموقعهم من مجتمعهم وزمان قيامهم واعتزالهم واسم الملك الذي هربوا منه والمدينة التي خرجوا منها والقوم الذين كانوا فيهم واسم الكلب الذي لازمهم وهل كان كلب صيد لهم أو كلب غنم للراعي؟ وما لونه؟ ـ وقد أمعن فيه الروايات ـ إلى غير ذلك من الأمور التي لا يتوقف غرض الهداية على العلم بشيء منها كما يتوقف عليه غرض البحث التاريخي.

ثم إن المفسرين من السلف لما أخذوا في البحث عن آيات القصص راموا بيان اتصال الآيات بضم المتروك من أطراف القصص إلى المختار المأخوذ منها لتصاغ بذلك قصة كاملة الأجزاء مستوفاة الأطراف فأدى اختلاف أنظارهم إلى اختلاف يشابه اختلاف النقل فآل الأمر إلى ما نشاهده.[1]

---

(١) الميزان ١٣ : ٣٨٦ ـ ٤٠٤.





قصّة

أصحاب الفيل



أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

سورة الفيل



قصّة أصحاب الفيل وهلاكهم في القرآن

فيها إشارة إلى قصة أصحاب الفيل إذ قصدوا مكة لتخريب الكعبة المعظمة فأهلكهم الله بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول، وهي من آيات الله الجلية التي لا سترة عليها، وقد أرخوا بها وذكرها الجاهليون في أشعارهم، والسورة مكية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ .

المراد بالرؤية العلم الظاهر ظهور الحس، والاستفهام إنكاري، والمعنى: ألم تعلم كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، وقد كانت الواقعة عام ولد فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ .

المراد بكيدهم سوء قصدهم بمكة وإرادتهم تخريب البيت الحرام، والتضليل والإضلال واحد، وجعل كيدهم في تضليل جعل سعيهم ضالاً لا يهتدى إلى الغاية المقصودة منه فقد ساروا لتخريب الكعبة وانتهى بهم إلى هلاك أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ﴾ .

الأبابيل ـ كما قيل ـ جماعات في تفرقة زمرة زمرة، والمعنى: وأرسل الله على أصحاب الفيل جماعات متفرقة من الطير والآية والتي تتلوها عطف تفسير على قوله: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ .

أي ترمي أبابيل الطير أصحاب الفيل بحجارة من سجيل، وقد تقدم معنى «السجيل» في تفسير قصص قوم لوط.

قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ .

العصف ورق الزرع والعصف المأكول ورق الزرع الذي أكل حبه أو قشر الحب الذي أكل لبه والمراد أنهم عادوا بعد وقوع السجيل عليهم أجساداً بلا أرواح أو أن الحجر بحرارته أحرق أجوافهم.

وقيل[١]: المراد ورق الزرع الذي وقع فيها الأكال وهو أن يأكله الدود فيفسده وفسرت الآية ببعض وجوه أخر لا يناسب الأدب القرآني.

---

(١) روح المعاني ٣٠: ٢٢٧.

قصّة أصحاب الفيل في الروايات

في المجمع: أجمعت الرواة على أن ملك اليمن الذي قصد هدم الكعبة هو أبرهة بن الصباح الأشرم وقيل: إن كنيته أبو يكسوم ونقل عن الواقدي أنه جد النجاشي الذي كان على عهد رسول الله ﷺ.

ثم ساق الكلام في قصة استيلائه على ملك اليمن إلى أن قال:

ثم إنه بنى كعبة باليمن وجعل فيها قباباً من ذهب فأمر أهل مملكته بالحج إليها يضاهي بذلك البيت الحرام، وإن رجلاً من بني كنانة خرج حتى قدم اليمن فنظر إليها ثم قعد فيها يعني لحاجة الإنسان فدخلها أبرهة فوجد تلك العذرة فيها فقال: من اجترأ علي بهذا؟ ونصرانيتي لأهدمن ذلك البيت حتى لا يحجه حاج أبداً ودعا بالفيل وأذن قومه بالخروج ومن اتبعه من أهل اليمن، وكان أكثر من اتبعه منهم عك والأشعرون وخثعم.

قال: ثم خرج يسير حتى إذا كان ببعض طريقه بعث رجلاً من بني سليم ليدعو الناس إلى حج بيته الذي بناه فتلقاه أيضاً رجل من الحمس من بني كنانة فقتله فازداد بذلك حنقاً وحثّ السير والانطلاق.

وطلب من أهل الطائف دليلاً فبعثوا معه رجلاً من هذيل يقال له نفيل،

فخرج بهم يهديهم حتى إذا كانوا بالمغمس نزلوه وهو من مكة على ستة أميال فبعثوا مقدماتهم إلى مكة فخرجت قريش عباديد في رؤوس الجبال وقالوا: لا طاقة لنا بقتال هؤلاء، ولم يبق بمكة غير عبد المطلب بن هاشم أقام على سقايته، وغير شيبة بن عثمان بن عبد الدار أقام على حجابة البيت، فجعل عبد المطلب يأخذ بعضادتي الباب ثم يقول:

لا هم أن المرء يمنع رحله فامنع جلالك[1].

لا يغلبوا بصليبهم ومحالهم عدوا محالك.

لا يدخلوا البلد الحرام إذا فأمر ما بدا لك.

ثم إن مقدمات أبرهة أصابت نعماً لقريش فأصابت فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم فلما بلغه ذلك خرج حتى أتى القوم، وكان حاجب أبرهة رجلاً من الأشعرين وكان له بعبد المطلب معرفة فاستأذن له على الملك وقال له: أيها الملك جاءك سيد قريش الذي يطعم إنسها في الحي ووحشها في الجبل فقال له: ائذن له. وكان عبد المطلب رجلاً جسيماً جميلاً، فلما رآه أبو يكسوم أعظمه أن يجلسه تحته وكره أن يجلسه معه على سريره فنزل من سريره فجلس على الأرض وأجلس عبد المطلب معه ثم قال: ما حاجتك؟ قال: حاجتي مائتا بعير لي أصابتها مقدمتك، فقال أبو يكسوم: والله لقد رأيتك فأعجبتني ثم تكلمت فزهدت فيك، فقال: ولم أيها الملك؟ قال: لأني جئت إلى بيت عزكم ومنعتكم من العرب وفضلكم في الناس

(١) في مجمع البيان: حلالك.

وشرفكم عليهم ودينكم الذي تعبدون فجئت لأكسره وأصيبت لك مائتا بعير فسألتك عن حاجتك فكلمتني في إبلك ولم تطلب إليّ في بيتكم.

فقال له عبد المطلب: أيها الملك أنا أكلمك في مالي ولهذا البيت ربٌّ هو يمنعه لست أنا منه في شيء فراع ذلك أبو يكسوم وأمر برد إبل عبد المطلب عليه ثم رجع وأمست ليلتهم تلك الليلة كالحة نجومها كأنها تكلمهم كلاماً لاقترابها منهم فشعرت نفوسهم بالعذاب.

إلى أن قال: حتى إذا كان مع طلوع الشمس طلعت عليهم الطير معها الحجارة فجعلت ترميهم، وكل طائر في منقاره حجر وفي رجليه حجران وإذا رمت بذلك مضت وطلعت أخرى فلا يقع حجر من حجارتهم تلك على بطن إلا خرقه ولا عظم إلا أوهاه وثقبه، وثاب أبو يكسوم راجعاً قد أصابته بعض الحجارة فجعل كلما قدم أرضاً انقطع له فيها إرب حتى إذا انتهى إلى اليمن لم يبق شيء إلا باده فلما قدمها تصدع صدره وانشق بطنه فهلك ولم يصب من الأشعرين وخثعم أحد...[١]

قال المؤلّف ﷺ : وفي الروايات اختلاف شديد في خصوصيات القصة من أراد الوقوف عليها فعليه بمطولات السير والتواريخ.[٢]

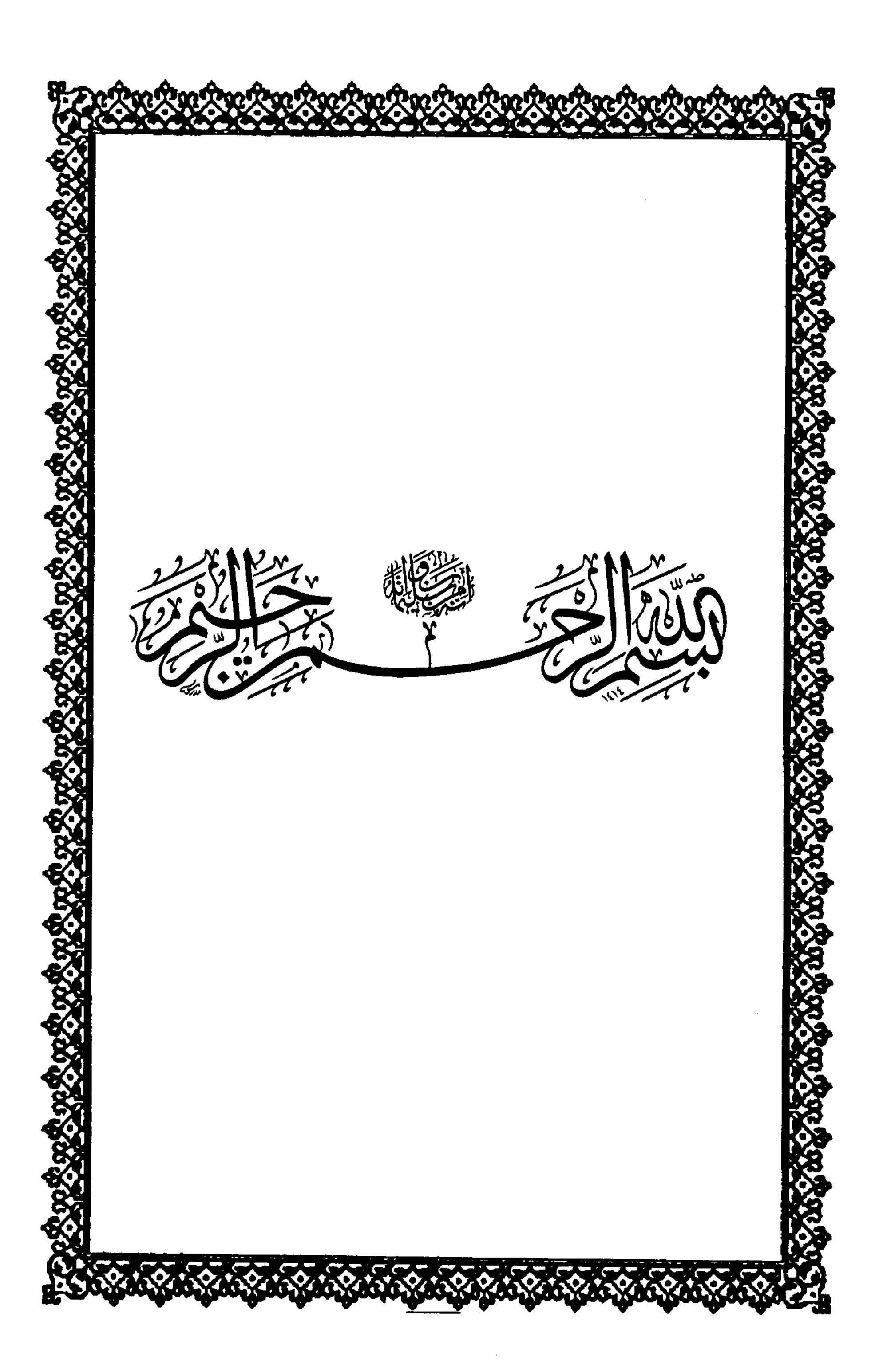
---

(١) مجمع البيان ١٠: ٥٤٠.

(٢) الميزان ٢٠: ٦٢٠ ـ ٦٢٤.



المحتويات


بسم الله الرحمن الرحيم